سلسلة الرسائل الجامعية
رقم (١)

رفــعُ الشبهـــةِ والغـــرر

عمَّن يحتجُّ على فعلِ المعاصي بالقدر

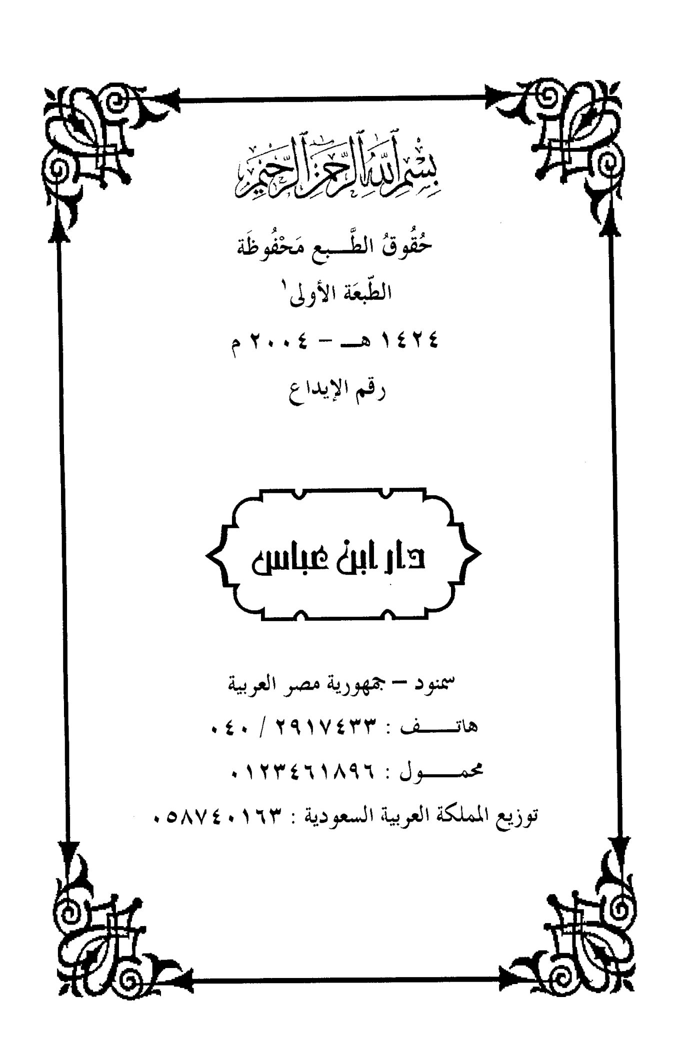
للشيخ
مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي

تحقيق ودراسة لنصوص الكرمي ومنهجه فى مسائل العقيدة

تحقيق ودراسة
الوليد بن مُسَلَّم

١٤٢٤ هـــ / ٢٠٠٤ م

الناشر
دار ابن عباس
هاتف : ٢٩١٧٤٣٣ / ٠٤٠



بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعَة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م
رقم الإيداع

دار ابن عباس

سمنود – جمهورية مصر العربية
هاتف : ٢٩١٧٤٣٣ / ٠٤٠
محمول : ٠١٢٣٤٦١٨٩٦
توزيع المملكة العربية السعودية : ٠٥٨٧٤٠١٦٣

إهـداء

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله .

أما بعد ..

فإلى من يعطيان من نفسيهما المجهود ولا ينتظران مقابلاً .

إلى والدي الكريمين العزيزين البارين بعض آمالهما باكورة جهد علمي لفلذة منهما راجياً من الله تعالى أن يكون في رؤيتهما لذلك العمل مطبوعاً روحاً وسروراً وتحقيقاً لبعض آمالهما في ولدهما .

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا .

ولدكما

الوليد بن مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمـة

إن الحمـــد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل لــه ، ومن يضلل فلا هــادى لــه ، وأشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك لــه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : آية : ١٠٢] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً . ﴾ [النساء : آية : ١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً . ﴾[الأحزاب : آية : ٧٠ ، ٧١]

أما بعــد :

فإنــه مـــن المقرر أن أصل أصول الأدلة الكتاب والسنة . ويتفرع عنهما الإجمـــاع والقياس والمصالح ... على خلاف متفاوت فى إثبات وحجية كل من هذه الفروع .

والذى يعنينا كون الاتفاق حاصلاً على أن الكتاب والسنة هما الأصلان فى معرفة الدين فضلاً عن أصوله . وإن شئتَ قلتَ : الأصـــل . فما السنـــة إلاّ

شــرحٌ تفســـيريٌ تطبيقيٌ لكتاب الله تعالى . قال تعالى : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...** ﴾ [الـنحل : آيـة : ٤٤] وقالت عائشــــة رضـــى الله عنها فى حق النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((كان خلقـــــه القـــــرآن)) [رواه مسلم : ٣ / ٦٤] وقال رسول الله صلى الله علـــيه وسلم : ((... **لا ألفين أحدكم شبعان متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول : ما لنا ولهذا فما وجدنا فى كتاب الله من حلال حللناه ، ومـــا وجدنـــا فـــيه من حـــرام حرمناه . ألا وإنى أوتيت القـــرآن ومثله معه ...**)) [رواه أبو داود : ٤٦٠٤ ، ٤٦٠٥]

فـــلا ريب – بعدُ – أن الأعلم بالسنة هو الأعلم بالقرآن وأصول الدين ، لأن الأعــلم بالســـنة أعلمُ بتفسير النبى صلى الله عليه وآله وسلم لكتاب الله تعالى والنبى صلى الله عليه وآله وسلم هو الأعلم بالله عز وجل وبمراده تعالى .

هذا وقد فُرِّق بين صفتين فى المشتغلين بالعلم هما : " **العقل** " و " **العلم** " ، فكثيراً ما تجد فى فى كلام أهل العلم : فلانٌ عقله أكبر من علمه . وفلانٌ علمه أكبر من عقله . وقد صـــرح النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فى قوله : ((... **وربّ مـــبلَّـــغ أوعى من سامـــع** .)) [رواه البخارى] ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم : ((**ورب حامل فقه ليس بفقيه** .)) [رواه أبو داود] .

فمـــن جمـــع الله تعالى له " كبر العقل " مع " كبر العلم " فهذا هو الفقيه المهـــتدي ومـــن رُزِق علماً يضعف عقله عن استنباط كثير من كنوزه ، فهذا واســـطة فى حفظ الدين وتبليغه إلى من وراءه ، فإذا تعرض بالشرح والتفسير لبعض مروياته فربما أوّلها على غير وجهها ، وهذا واقع كثير .



ومـــن أوتـــى عقلاً ولم يؤت علماً من ميراث النبـــوة ، فمن بيوت هؤلاء نبتت وتنبت المقالات المفارقة لما كان عليه الصدر الأول رضى الله عنهم .

وقـــد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه ((لا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرة على الحق إلى قيام الساعة .)) [رواه أبو داود]، وقد يفهم بعضهم مـــن كلمة " طائفة " ما يشعر بالقلة والندرة ، وليس الأمر كذلك ، فالطائفة تطلـــق عـــلى القليل والكثير . وعامة المسلمين الذين لا تُميزهم مقالةٌ تُفارق عقـــيدة أهل السنة هم من هذه الطائفة التى سماها النبى صلى الله عليه وسلم ؛ حـــتى أن أذكياء النظار بعدما خاضوا – مجتهدين – لُجَجَ الفكر كان أحدهم يتمنى أن يُختـــم له بمثـــل عقيدة هـــؤلاء كما هو محكـــي عن الفخر الرازى والشهرستانى ونحوهـــم .

بـــل الذيـــن يلفظون بما يخالف صحيح العقيدة – جهلاً منهم – ؛ لا عن استدلال ووعي لما يقولون – هم من عوام أهل السنة يعذرون بالجهل ويُعَلَّمون صحيح العقيدة ؛ ففى سير الصحابـــة رضى الله عنهـــم أن امرأة عبد الله بن رواحـــة – رضى الله عنهما – وهو من السابقين – أنها لم تكن تفرق بين شعره وبين القرآن الكريم ، ولا شك فى وجود مثلها فى ذلك الجيل الفاضـــل ، وفى الصـــحيح خبر الذى ظن أن يُضِلَّ ربَّه إذا حُرِّق وذُرِّى تُرابُ حريقه ، ثم غفر الله تعالىله وأدخله الجنة .

وعـــلى ذلـــك فليس مصطلح "" السلفيين أو " أهل السنة " قاصراً على العلماء فقط على النحو الذى أسلفت .

وهـــذه الطائفة ، وإن كانت واحدة فإنها تمثل عامة المسلمين ، والثنتـــان وسبعون فرقة الأخرى هم شذاذ قليلون منغمرون فى كثرة هذه الطائفة ، وهذه الكثرة فى العدد هى كثرةٌ فى المقالات لا كثرة فى أتباع هذه المقالات فكثير من هذه المقالات ربما لا يُعرف بها غير قائليها الأولين .

وهـــذه الطائفـــة المنصورة هى التى تكون على ما كان عليه صاحب السنة صـــلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الذين هم أهل السنة ، والذين هم سلف حملة هذا الدين ، ومن ثَمَّ سُمِّيَ السائرون على نهجهم سلفيين كما سُموا أهل السنة .

وثمـــة من يصف " السلفية " فى هذا العصر بأنها " ظاهرة وقتية " مقطوعة الجذور ، لا تنهض لأن تكون منهجاً فى الفهم ، أو مذهباً فى الاعتقاد ؛ فضلاً عن أن تكون المنهج الأقوم والمذهب الحق .

ثم يجـــتهد ملصـــقاً بهـــا وبدعاتها من الألقاب والتهم ما هم برآء منه حالاً ومقـــالاً . فمـــن ذلـــك : اتهام السلفيين بمحاربة المذاهب الفقهية المعروفة ، ولا شك أن تلك مغالطة لا تثبت لأدنى تأمل ، ولو وصفوها بأنها لا تمثل أكثر من المذهب الحنبلى لكان لهم مقالٌ ؛ الخلافُ حوله قريبٌ .

ذلـــك أن أحمـــد رحمـــه الله تعالى آخر الأربعة المتبوعين زمنياً ، وقد تتلمذ للشـــافعي رحمه الله واعتنى بكتبه كما هو مشهور معروف ، وشهد له الشافعي بالفضل ، والشافعي تتلمذ على مالك كما تتلمذ على محمد بن الحسن الشيبانى تلمـــيذ أبى حنيفة ، بل أحمد نفسه تتلمذ على تلاميذ أبى حنيفة وكتب كتبهم وأتقـــنها ، وبـــناء على ذلك فقد اجتمع لأحمد علم المدرستين ؛ أعنى مدرسة

الحديث والأثر متمثلة فى مالك ، ومدرسة الرأى متمثلة فى أبى حنيفة رحمهم الله جميعاً ، ؛ هذا بالإضافة إلى كون أحمد أوسع الأئمة الأربعة دائرة فى السنة كما يشهد لذلك مسنده الحافل .

ويشهد لهذا القول أنك إذا طالعت طبقات المالكية وجدتهم يعدون الشافعي منهم ، وإذا طالعت طبقات الشافعية وجدتهم يعدون أحمد منهم ، فالأمر كما قال ابن تيمية رحمه الله : المذهب للأئمة السابقين على أحمد والظهور لأحمد .

ومما يدفع فرية محاربة السلفـــيين للمذاهب قيام أحد رموزهـــا المعاصرين وهـــو الشيـــخ " محمد ناصر الدين الألبـــانى " رحمه الله بتأليف كتابه الفذ : " إرواء الغلـــيل " بتخريج أحاديث " منار السبيـــل " فى الفقه الحنبلى خدمة لهذا المذهب حيث رأى أن المذاهب الأخرى قد خُدمت بتخريج أدلة أحكامها الحديثـــية ، فالمذهـــب المـــالكى قد اعتنى ابن عبد البر رحمه الله بتخريج أدلته الحديثية فى كتابيه الحافلين " الاستذكار " و " التمهيد " ، والمذهب الشافعي قد اعـــتنى ابن حجر رحمه الله بأدلته فى " التلخيص الحبير " ، والمذهب الحنفى قد اعتنى الحافظ الزيلعى رحمه الله بأدلته فى كتابه " نصب الراية " .

ولقد كان من بركـــة كتاب " إرواء الغليـــل " عليّ أن كان أول التفاتى إلى الشـــيـــخ " مـــرعي بن يوسف الكرمى " رحمه الله من خلاله . ذلك أن الكرمى صاحب المتن المختصر " دليل الطالب لنيل المطالب " فى الفقه الحنبلى والـــذى شرحه الشيخ إبراهيم بن ضويان النجدى فى كتابه " منار السبيل " ثم قـــام الشـــيخ الألبانى رحمه الله بتخريج أحاديثه . وقد استفدتُ من ذلك أن الكـــرمى مـــن عـــلماء المذهـــب الحنبلى المعتبرين ، ثم أخذ مكانه من هامش الذاكـــرة حتى استثاره مطالعـــتى فى فهرس المؤلفـــين بدار الكتب المصريـــة

حـين وقعـت عـلى اسمه ، ولفت نظرى كثرة المؤلفـات المنسوبة إليه ، فنشطت لقراءة إحداهـا ؛ فوُفِّقت " لرفع الشبهة " ، ثم بدا لي – بَعْدُ – أن تكـون موضـوعاً لدراستى للماجستير ، فاستشرت أستاذى الدكتور حسن الشـافعي حفظه الله فأبدى موافقته جزاه الله خيراً ، ولَّما كان الكرميُّ لم يَسبق وأن دُرس مذهـبُه الكلامـى فقد تفضل أستاذنا الدكتور محمد السيد الجليند حفظـه الله باقـتراح ألاّ يقتصر الموضوع على دراسة الرسالة وتحقيقها ، وإنما يُضـم إلى ذلك دراسة مذهب الكرمى الكلاميّ أيضاً خاصة مع كثرة مؤلفاته ووجودها . فجزا الله أستاذنا خيراً .

ولقد كان من دواعى اختيارى لهذا الموضوع :

١– كون الكرمى حنبليـاً ، لما هو مشهور من أن الحنابلة سلفيو العقيدة وأنهـم أبعد المذاهب عن التأويل الصارف للنصوص عن ظواهرها كما فهمها السلف رحمهم الله .

٢– كثرة نقول الكرمى عن ابن تيمية فى الرسالة المحققة ؛ الأمر الذى ترك لديّ انطباعاً بتأثر الكرمى بابن تيمية ، فرجوت بتحقيق هذه الرسالة أن أخرج نصـاً تراثـياً جيداً يعالج مسألة لا تحتاج إلى التنبيه على أهميتها ، وهى مسألة القدر .

٣– ترجمـة بروكلمـان " للكـرمى " ضمـن قسـم الموسوعـيين من كـتابـه الحـافـل " تاريـخ الأدب العربى " لكثرة مؤلفات الكرمى وتعدد فـنونها ، وقد لفت نظرى مع ذلك أنى لم أجد للكرمى ولا لمؤلفاته من الذيوع ما يناسب وضعه فى قسم الموسوعيين ، خاصة وأن أصحاب التراجم كالحموى

والمحـــبي وابـــن ضويان وغيرهم قد بالغوا جدًّا فى الثناء عليه وعلى مؤلفاته . فرجوت بدراستى هذه جلاء أمره والتعريف به .

٤- وأخـــيراً ، فإن دراسة المذهب الكلامى لإحدى الشخصيات التراثية تتيح للدارس أن يطلع على كثير من المسائل الكلامية ، ومعرفة آراء الفرق فى هـــذه المسائل ، ودراستها دراسة مقارنه من خلال دراسة مذهب الشخصية ، وهو أمر لا تُغفَل أهميته .

كمـــا أنـــه فى تحقيـــق نص من نصوص التراث من الدربـــة والمران على الـــتعامـــل مـــع المخطوطات والتغلب على صعوباتها المعروفة ، والرجوع إلى مـــراجع متنوعة فى سبيل خدمة النص وتذليله للقارىء .. فيه من هذه الفوائد مـــا أرجو أن أكون قد وفقت إلى شيء منه فى أول طريق البحث إن شاء الله تعالى .

هذا ، وقد اعتمدتُ فى دراستى مذهبَ الكرميِّ الكلامى كتابين له كبيرين نســـبياً مقارنـــة بحجم رسائله الأخرى بالإضافة إلى جملة رسائل مخطوطة تتعلق بمســـائل كلامـــية مـــنفردة مثل رسالة " توضيـــح البرهـــان فى الفرق بين الإســـلام والإيمـــان " فإنها مختصة بمباحث مسألة الإيـــمان .

أمـــا هذان الكتابان فهما من حيث ترتيبُ الأهمية " بهجة الناظرين وآيات المســـتدلين " وهو مخطـــوط بدار الكتب ، يوجد منه نسخ كثيرة بالدار ، وقد استفدت منه كثيراً فى مبحث وجود الله ، ومبحث النبوات ، ومبحث الروح وغيرها .

أمـا الكـتاب الثانى : فهو " أقاويل الثقات فى الأسماء والصفات " وهو مطبوع بعناية الأستاذ / شعيب الأرناؤوط ، وقد اعتمدتُهُ كثيراً فى فصل منهج الكرمى ، وخاصة مبحثي موقف الكرمى من التأويل ، وموقفه من السلف .

كما جعلتُ مبحث القدر من فصل " النبوات والسمعيات " بمثابة الدراسة للمخطوط المحقق ، بحيث اعتمدت فى هذا المبحث كثيراً نصوص الكرمى فى " رفع الشبهة " .

كمـا اعتمدت رسائـل أخرى مخطوطة للكرمى بينتها بالحاشيـة وأثبتها بالمراجع مع التعريف بمكانها من دار الكتب .

ومن أهم هذه المخطوطـات : مجموع به أربع رسائل للمؤلف هى : " رفع الشبهة " و " مسْبوك الذهب " و " شفاء الصدور فى زيارة المشاهد والقبور " و " الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية " .

وقـد اسـتفدت من " شفاء الصدور " فى مبحثي " النبوات " و " موقف الكرمى من التصوف " .

ويجـدر أن أشير إلى الشبه الكبير بين " الكرمى " و " السيوطي " فى كثرة التأليف مع تنوع ميادينه ، وأن كثيراً من رسائل كلٍّ يشبه أن تكون تلخيصاً لمؤلفـات سابقين ، وكثير من هذه الرسائل يعالج مسائل مفردة يشبه أن تكون فصـولاً مفردة عن كتب . ولقد يبدو لي أن أجمع رسائـل الكرمى فى مجموع على غرار " الحاوى فى الفتاوى " للسيوطي ؛ والله المستعان .

هـذا ، وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة ، ثم التعريف بالمؤلف وعصره ، ثم النص المحقق ، ثم الدراسة ، ثم خاتمة البحث وأهم النتائج ثم الفهارس العلمية :

فهـارس الآيـات والأحاديـث والآثـار ، ومـراجع البحـث ، ثم فهرس الموضـوعات ، وذلـك على النحو التالى : المقدمة وعرفت فيها ظروف البحث ، ثم عرفت بالمؤلف وعصره ، وقد عالجت ذلك فى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عصر الكرمى ، وقد تناولته فى ثلاثة عناصر ؛

❀ العنصر الأول : الحالة السياسيـة ، وقد بينـت فيه أن الكرمـى عاش فى ظل دولة إسلاميـة قوية ، بسطت سلطانها على غالب الشعوب الإسلامية ؛ وكمدت الصليبيـين .

❀ العنصر الثانى : الحالة الاجتماعيـة ؛ وخاصة فى مصـر التى استقر بها الكرمى ، وتبين فيه انتشار الفقر ، وشيوع الأوبئة .

❀ العنصر الثالث : الحالة الثقافية والدينيـة ؛ وقد تبين فيه انتشار التصوف بمفهومه السلبى ، مع تمكن روح التقليد ، واجترار مؤلفات السابقين .

وقد بينت فى هذا المبحث تفاعل الكرمى مع أحداث عصره ومستجداته .

المبحـث الثانى : وقد عرفت فيه بالكرمى من حيثُ اسْمُه ونشأته وشيوخه وتلاميذه ، ومنـزلته العلمية .

المبحث الثالث : مؤلفاتــه ؛ وقد ذكرتُ منها ما ذكره مترجمو الكرمــي كالمحــبى فى " الخلاصــة " ، وابن ضويان فى " رفع النقاب " ، والزركلى فى " الأعــلام " وغيرهــم ، ثم بينت منها المطبوع وطبعته ما أمكننى ذلك ، كما بينــت الموجود منها مخطوطاً بدار الكتب المصريــة ، ومجموع تونــس الذى حصــلت علــيه ، وذكرتُ بيانات كل مخطوط بحسب الإمكان ، وقد قرأت أكثرها بحمد الله ، ثم النص المحقق ، ثم الدراسة على النحو التالي :

الفصــل الأول : وقد خصصته لدراسة منهج الكرمى الكلامى وذلك من خــلال استقراء موقفه من الفلاسفة والمتكلمين والصوفية والتأويل والسلف ، وقد تناولت هذا الفصل بالدراسة فى أربعة مباحث على النحو التالي :

❁ المبحث الأول : موقف الكرمى من الفلاسفة والمتكلمين .

❁ المبحث الثانى : موقف الكرمى من التصوف .

❁ المبحث الثالث : موقف الكرمى من التأويل .

❁ المبحث الرابع : موقف الكرمى من السلف .

أمــا الفصــل الثاني : فقد خصصته لدراسة مذهب الكرمى الكلامى فى الإلهيات . وقد تناولته فى ثلاثة مباحث :

❁ المبحث الأول : وجود الله تعالى .

❁ المبحث الثانى : الجهة والمكان .

❁ المبحث الثالث : الرؤيــــة .

أمـا الفصل الثالث والأخير : فقد جمعت فيه النبوات والسمعيات ، ولم أفـرد النبوات بفصل لقلة مادها ، ولأها أيضاً بمثابة المدخل للسمعيات ، وقد تناولت هذا الفصل فى خمسة مباحث على النحو التالى :

❁ المبحث الأول : النبوات ؛ وقد تعرضت فيه لخمسـة مسائـل ؛ هى على الترتيب : أهمية الإيمان بالرسل ، والحاجـة إلى بعثة الرسـل ، ودلائـل النبوة ، وعصمـة الأنبيـاء ، والمفاضلـة بين الأنبيـاء .

❁ المبحث الثانى : مسائل الإيمان ، وقد تناولت فيه عـدَّة مسائـل :

الأولى : تعريف الإيمان ؛ وقد تطرقت فيه لبحث مسألـة الترادف فى اللغـة .

الثانية : مسألة التلفظ بالشهادتين وعلاقته بالإيمان .

الثالثة : العلاقة بين الإسلام والإيمان .

الرابعة : زيادة الإيمان ونقصانه .

المبحث الثالث : القضاء والقدر ؛ وهو بمثابة دراسة للمسائل التى تناولها الكـرمى فى الـنص المحقق " رفع الشبهة " وقد بينت فيه مذهب الكرمى فى مسـائل القـدر كما عرضت لأقوال الفرق الأخرى فى كل مسألة ؛ لا سيما المعتزلة والأشاعرة والسلف ، وكنت فى ذلك ناسجاً على منوال ابن القيم فى

تقسيمه مراتب القدر إلى أربع مراتب ؛ هى : العلم ، ثم الكتابة ، ثم المشيئة ، ثم الخلـــق .

وقـــد تكلمـــت أثناء ذلك على صفات العلم والإرادة والخلـــق لصلتها بموضوع القدر واكتفيت بذلك عن إعادة الكلام فيها فى فصل الإلهيات .

ثم درســـت فى هذا الفصل أيضاً نظرية الكسب عند الأشاعرة وموقف كل من السلف والمعتزلة منها ، وما يتفرع عنها من الكلام فى القدرة والاستطاعة وتكلـــيف مالايطـــاق وكذا الجبر والاختيار ، ثم ختمت هذا المبحث بدراسة مسألة الحكمة والتعليل .

أما المبحث الرابع من هذا الفصل ؛ فقد جعلته فى المسائل المتعلقة بالنفس والـــروح ، وقد تناولت فيه : تعريف النفس والـــروح ، وهل هما شيء واحد أو شـــيئـــان ؟ وهل هى قديمة أو محدثة ، وهل تفنى أو لا ؟ وتعريف الموت ، والبرزخ وما فيه من نعيم وعذاب ، وهل يقع على الروح والجسد أو أحدهما ؟

أما المبحث الخامس وهو الأخير من هذا الفصل ؛ فقد خصصته لمسألة فناء الـــنار ، وأطلـــت الكلام فيه نسبياً على موقف ابن تيمية وابن القيم فى هذه المســـألة ، ورجحت أنهما لم يقولا بفناء النار بخلاف المشهور عنهما ، ودللت لقولى بنصوصهما ، وبينت أنه ليس لابن القيم نص واحد يصرح فيه بفناء النار وأن جُلّ المشكلة مع ابن القيم ، ثم وجهت المتشابه من كلام ابن القيم فى هذه المســـألة بإرجاعـــه إلى المحكم من كلامه ، ثم ذكرت مذهب الكرمى فى هذه المسألة وبينت أنه يوافق فيها عامة المسلمين .

وبالانـــتهاء من هذا المبحث أكون قد انتهيت من دراسة مذهب الكرمى الكلامى مقارنة بأقوال الفرق لا سيما المعتزلة والأشاعرة والسلف .

أمـــا الـــنص المحقق الملحق بالدراسة ؛ وهو تحقيق رسالة " رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصى بالقدر " ، فقـــد تيسر لى الحصول على نسختين منه فقمت بالمقابلة بين النسختين ، وأثبت الفروق بينهما ، وهى نادرة وعلقـــت على المواطن التى تستدعى ذلك ، وقد خرجت الآيات والأحاديث الواردة فى الرسالة جميعها دراسة وتحقيقاً على السواء مع الترجمة للأعلام ، كما عـــزوت النصـــوص الـــتى اعتمدها الكرمى فى " رفع الشبهة " إلى مظانها من الكتب بقدر الإمكان ، وقد ظهر لى من خلال دراسة المخطوط اعتماد الكرمى بصـــورة كـــبيرة جدًّا فى هذه الرسالة على " منهاج السنة النبوية " لابن تيمية رحمه الله وقد عزوت ما صرح الكرمى باقتباسه وما أغفله على السواء بحسب الطاقة ، ولم أر فى إغفاله نوع سرقة إذ إنه صرح بنسبة القول إلى ابن تيمية فى أكـــثر من عشرين موضعاً ، وإن لم يبين المكان الذى أخذ منه – إلاّ مرةً – من كتب ابن تيمية . وهذا هو الغالـــب على صنيـــع السابقـــين والله أعلـــم .

أما الخاتمـــة ؛ فقد بينت فيها أهم نتائج البحث التى ظهرت لي من خلال الدراســـة ، والفضل لله تعالى أولا وآخر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه ، والتابعـــين له إلى يوم الدين .

وكتبه

الوليد بن مُسَلَّم

فى شهر ذي القعدة ١٤٢٤ هـ

الفصـل الأول : حياة الكرمي وعصره

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عصر المؤلف .   وفيه ثلاثة عناصر :

أ- الحالـــــة السياسيـــة .

ب- الحالـــــة الاجتماعيـــة .

ج- الحالـــــة الثقافيـــــة .

المبحث الثاني : التعريف بالمؤلف .   وفيه ستة مسائل :

أ- اسمــه ونسبـــه .

ب- نشأته وطلبـــه .

ج- شيـــوخـــه .

د- تـــلاميـــذه .

هـ- منـــزلته العلميـــة .

و- حياتـــه الخاصـــة .

المبحث الثالث : مــؤلفــاتـــه .

المبحث الأول عصـــر المؤلـــف

عـــاش المؤلـــف رحمه الله بين عامى ٩٨٨ و ١٠٣٣ هـــ ، أى إنه عاصر القـــرن الأول مـــن الدولة العثمانية . وسوف ندرس هذه الفترة من النواحى الثلاثة السياسية والاجتماعية والعلمية الدينية .

أ- الحالـــة السياســـة :

فى عهـــد دولة السلاجقة الأتراك ، دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى فى الثلـــث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى السابع الهجرى كقبيلة من القبائل التركية على فترات [1].

وقد أقطع السلطان علاء الدين الأول سلطان السلاجقة هذه القبيلة ومنح رئيسها ((أرطغرل)) لقب أمير الحدود .

غـــير أن ((أرطغرل)) رئيس تلك القبيلة التركية كان ذا أطماع سياسية بعيدة ، فلم يقنع بهذه المنطقة التى أقطعها إياه السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقـــنع باللقب الذى ظفر به ، ولم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود ، بل شرع يهـــاجم باســـم الســـلطان عـــلاء الدين ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) فى الأناضول ، ونجح فى سياسة التوسع الإقليمى ... ثم مات عن ثلاثـــة وتســـعين عاماً فخلفه ابنه عثمان فى حكم المنطقة عام ١٢٩٩ م الذى

---

(١) انظر كتاب : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " .
د / عبد العزيز محمد الشناوى – مكتبة الأنجلو المصرية . سنة ١٩٨٤ م : (١ / ٣٣) .

سميـت باسمـه الأمة والدولة ، وسرعان ما نمت هذه الإمـارة حتى أصبحت إمبراطوريـة متراميـة الأطراف ، امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا وأوروبا وأفريقـيا ، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التى شهدها التاريخ ومن أشدها بأساً وأعزها جنداً . [1]

" وكـان مـن حظ عثمان أن أغار المغول سنة ١٣٠٠ م على دولة الروم السـلاجقة فى آسيا الصغرى ، وحدث ما كان متوقعاً إذْ دالت دولة الأتراك السلاجقة ، وتوفى السلطان علاء الدين كيقباذ الثالث سنة ١٣٠٧ م ، وأعلن عثمان استقلاله مقتدياً بغيره من الأمراء ...

وأبـدى عثمان اهتماماً عميقاً بدعم الجيش ، وتنظيم الحكومة ... واعتبر عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية " [2] .

ثم اتسـعت هـذه الدولة على حساب الدول المجاورة لها وكان بينها وبين المماليك فى مصر الذين كانوا أكبر دولة تحمى الإسلام فى ذلك الوقت – كان بيـنهما علاقـات جيدة إلى أن ساندت دولة المماليك بعض المغضوب عليهم داخـل الدولة العثمانية ، ففسدت العلاقة بين المماليك والعثمانيين حتى عزم السـلطان سـليم على محاربة المماليك وكان بينهما حروب انتهت باستيلاء العثمانيين على مصر .

" وبتـنازل الخلـيفة العباسى بمصر عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة [٩٢٣ هـ : ١٥١٧ م] صـار لـه ولسلاطين

(١) انظر : " الدولة العثمانية " : (١ / ٣٥) .

(٢) انظر : المرجع السابق : (١ / ٤٠) .

آل عثمان من بعده زعامة على العالم الإسلامى لم تكن لهم من قبل " [1] .

وبعـد أن تم للسلطان فتح مصر وضع لإدارتها نظاماً يكفل بقاء خضوعها وعدم استقلال أحد فيها بأمرها ، فأودع مقاليد حكمها ثلاث سلطات لها من تنافس رجالها أكبر كفيل ببغيته .

" السـلطة الأولى : الـوالى . وأهـم أعماله إبلاغ الأوامر التى ترد من السلطان إلى عمال الحكومة ومراقبة تنفيذها .

والسلطة الثانية : جيش الحامية . وقد كونه السلطان سليم من ست فرق ، ونصـب عليهم قائداً يقيم بالقلعة ، وجعل على كل فرقة ستة من الضباط ، وشـكل من هؤلاء الضباط مجلساً يساعد الوالي فى إدارة شئون البلاد وجعل لهذا الديوان الحق فى رفض مشروعات الوالي إذا لم ير فيها مصلحة .

والسلطة الثالثة : المماليك " [2] . وغنيٌّ عن القول أنهم كانوا حكام البلاد قـبل الفتح العثمانى لمصر ، وقد أبقى عليهم السلطان فى إدارة شئون البلاد لما لهم من خبرة فى هذا المجال وللغرض الذى نحن بصدده الآن .

وقد بقيت هذه السياسة ناجحة نحو قرنين من الزمان إلى أن أخذت الدولة فى أسباب التقهقر [3] .

---

(١) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثمانى " : تأليف عمر الإسكندرى وسليم حسن .
الناشر : مكتبة مدبولى بالقاهرة . سنة ١٤١٠ هـ : ١٩٩٠ م ، بدون بيانات : ص (٢٨)

(٢) انظر : المرجع السابق : ص (٦٠) .

(٣) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثمانى " : ص (٦١) .

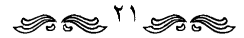
وقــد أجمع المؤرخون على أن عصر سليمان الأكبر (القانونى) (٩٢٦ - ٩٧٤ هـــ : ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) هــو العصـــر الذى بلغت فيه الدولة العثمانـــية أقصى مجدها وعظمتها ففى مدة ثلاثة قرون تسنى لقبيلة آل عثمان الصــغيرة أن تبســط ســلطالها ونفوذها على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر (١).

وقــد تميزت هذه الدولة بعدة خصائص كان لها دورها فى تلك الأحداث الحربـــية " فــإن التحركات الحربية التى قام بها العثمانيون فى هذه المرحلة من تــاريخهم كانــت نتاجاً لعدة عوامل هى : الروح الدينية الجياشة ، والطبيعة العســكرية الصــارمــة ، والموقع الجغــرافى لإمارهم ، والأوضاع السياسية للمــنطقة المحــيطة بهم ، وكانت هذه التحركات الحربية بداية لسياسة حربية نشــيطــة حرصوا على الالتزام بها وانفسحوا فى بقاع آسيا وأوروبا وأفريقيا غزاة فاتحين " (٢)

ولقــد " تجمعت فى الدولة العثمانية مجموعة فريدة من الخصائص العامة ... كانت دولة عسكرية ودينية وعالمية ، وذات حكم مطلق وطبقية وإقطاعية من نوع خاص " (٣).

وهــذه الصــفات التى تميزت بها قد جعلت الدولة العثمانية دولة الإسلام الكــبرى بعــد أن عُقِدت لها زعامة العالم الإسلامى منذ أن خاضت بنجاح فى

(١) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثمانى " : ص (٣٤) .
(٢) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ٤٣) .
(٣) انظر : المرجع السابق : (١ / ٤٩) .



أوائـــل القرن السادس عشر الميلادى الصراع الحربى ضد الدولة الصفوية فى فارس ، ثم نجاحها فى القضاء على دولة المماليك الشراكسة فى الشام أولاً وفى مصـــر ثانياً ، وبَسْطِ سيادتها على إقليم الحجاز ، فدخلت فى حوزتها الأماكن المقدســة الإســلامية عــلى الإطلاق . وهى الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة والمســجد النــبوى فى المديــنة المنورة والمسجد الأقصى فى بيت المقدس ... وتعددت صور هذا الطابع الدينى فى السياسة العليا للدولة من اتخاذ السلاطين لقــب حــامى الحــرمين الشــريفين تأكيداً للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامى ، ثم اتخاذهم لقب الخليفة لنفس الغرض .(١)

ولمــا كانت القاهرة هى عاصمة حكم دولة المماليك أكبر دولة إسلامية فى ذلك العصر التى استطاعت رد المغول التتار والتى استطاعت تحرير بيت المقدس مــن الصــليبيين – لمــا كانت القاهرة عاصمة هذه الدولة كانت أكبر مدينة إســلامية بهــا أوفــر حظ من النهضة العلمية والاجتماعية بين مدن الإسلام المعروفة فى ذلك العصر .

فــلما فتح العثمانيون مصر ؛ كانت القاهرة تعتبر المدينة الثانية فى السلطة العثمانــية بعد استانبول عاصمة السلطنة وذلك بما توفر لها من عدد كبير من السكان وصل إلى ما يقرب من ثلاثمائة ألف نسمة تقريباً .(٢)

" وكانت القلعة مقرّاً للباشا الحاكم فى العصر العثمانى ، وقد بدأ اتخاذهــا

---

(١)انظر : " الدولة العثمانية " : (١ / ١٨٤ ، ١٨٥) .

(٢)انظــر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : تأليف د / ليلى عبد اللطيف أحمد . الطبعة الأولى . دار الكتاب الجامعى بالقاهرة سنة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م : ص (٧٥) .

مقراً لحكام مصر العثمـانية منذ ولاية خـاير بك (٩٢٣ هـ : ١٥١٧ م) أول والٍ لمصـر من قبل العثمانيين " [١].

وقـد ولي مصـر سلسلة من الولاة منهم نفر قاموا بتشييد بعض المساجد والمدارس ومنهم من لم يشتغل بشيء سوى التزود من المال قبل أن تنقضى مدة ولايـتهم ، ومـع ذلك كان ولاة القرن الأول وأكثر الثانى فى العدل وضبط الأمور خيراً ممن أتى بعدهم [٢].

" ومن أفضل الولاة الذين ولوا مصر مسيح باشا سنة اثنتين وثمانين وتسع مائـة (٩٨٢هـ - ٩٨٨م هـ) (١٥٧٤ - ١٥٨٠ م) وكان من أكثر الحكـام عفة واستقامة وأشدهم حرصاً على نشر الأمن وإقامة العدل ، إلاّ أنه تشدّد فى معاقبة المفسدين فقتل منهم نحو عشرة آلاف . وشيد مدرسة ..." [٣]

ولما كانت الدولة فى نشأتها ذات طابع دينى إسلامى واضح فإن أهل الذمة مـن النصارى واليهود عاشوا فى ظل العدل الإسلامى ؛ فقد احتفظ النصارى بـنظمهم الخاصة فى الحياة ، كما احتفظوا بكنائسهم الكثيرة فى القاهرة وسائر الـبلاد المصـرية واهتموا بالمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم فى ظل التسامح الإسلامي . [٤]

(١) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (٨٠) .
(٢) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثمانى " : ص (٧٥) .
(٣) انظر : المرجع السابق : ص (٧٦) .
(٤) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (٥٦) .
لكن يجب التنبيه إلى أن التسامح لا يكون إلا من قوي قادر على الانتصار لنفسه ، فإذا كان من ضعيف فهو ذل . ولينظر كتاب " أيها المسلمون أفيقوا قبل أن تدفعوا الجزية " .



وقـد عاصـر الشـيخ مرعي رحمه الله أربعة أو خمسة من سلاطين الدولة العثمانية ، هم مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٣ هـ) (١٥٧٤ - ١٥٩٥ م) الـذي تـولى الملك بعد موت أبيه سليم الثاني ، ثم محمد الثالث (١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ) (١٥٩٥ - ١٦٠٣ م) وهـو أحـد أبناء مراد الثالث ، ثم السلطان أحمد الأول (١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ ٩ (١٦٠٣ - ١٦١٧ م) ثم تـناوب السـلطنة سلاطين صغار حتى آل الأمر إلى السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ هـ - ١٠٤٩ هـ) (١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) ، وكان شديد البأس ولوعاً بالجهاد [1] ، وكان هؤلاء السلاطين الذين حكموا العالم الإسلامى باسم الخلافة على درجة من التقوى والورع وخدمة الدين .

فـإن " السلطان سليم الأول قد اعتبر نفسه خليفة فى أول صلاة جمعة فى حلـب بعـد فتحها ، فعندما وصف الخطيب الذى تلا الخطبة باسم السلطان سـليم فى أول صـلاة جمعة (٩ / ٨ / ١٥١٦م) فى الجامع الكبير فى حلب بوصف حاكم الحرمين الشريفين تدخل (الباد شاه) (السلطان) وبدل كلمة حـاكم إلى خـادم - والمعلوم أن الخلفاء الذين انحدروا من بنى عثمان لقبوا بصـورة رسمـية حتى عام (١٩٢٤ م) بلقب خادم الحرمين الشريفين - خرّ السـلطان سـليم الذى لم يتمكن من السيطرة على دموع عينيه على الأرض سـاجداً سـجدة الشكر ، ووضع رأسه على أرض المسجد المرمرى بعد رفعه للسجادة من الموضع الذى يجلس فيه فرحاً بنيله خلافة الرسول صلى الله عليه

(١) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثماني " : ص (٣٨ ، ٣٩) . بمحل الاقتباس" الحرب " بدل من " الجهاد " وهو من مؤلفه تأثر غير إسلامي .

وسلـــم " [1] .

وكذلـــك السلطان محمد الثالث كان دائم اللجأ إلى الله تعالى ، ففى إحدى معاركـــه مع الجيش الألمانى حينما اشتد وطيس الحرب " ترجل عن حصانه ، ودخـــل خيمـــته على كتفيه بردة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الشريفة وممســـك بـــيده رمـــح الرســـول صـــلى الله عليه وآله وسلم وكان يصلى ويدعو الله " [2].

وكـــان مع ذلك شجاعاً صالحاً ، فقد حكى صاحب تاريخ الدولة العثمانية أنه فى هذه المعركة السابقة دخل عليه الوزير الأعظم إبراهيم باشا فوجده قائماً يدعـــو " مخبراً السلطان بأن انسحابه أصبح من الضرورات العسكرية ، ومن المؤكد أنه كان يخشى وقوع السلطان فى الأسر فيصيب الدولة مكروه لا يمكن إصلاحه ، لأنه كان طيباً وعسكرياً شجاعاً " [3].

ولم يكـــن محمـــد الثالث عسكرياً صالحاً فقط ، بل كان بالإضافة إلى ذلك أديـــباً شـــاعراً " مـــثقفاً ثقافـــة عالية ، وله ديوان شعر ، وكان أساتذته الرئيسيون شيخ الإسلام سعد الدين أفندى (ت ١٥٩٩ م) ... وكان كجده سليم الثانى وأبيه مراد الثالث اللذين كانا سلطانين بمعنى الكلمة لهما حظهما

---

(١) انظـــر : " تـــاريخ الدولـــة العثمانـــية " . تأليف يلماز أوزتونا منشورات مؤسسة فيصل للـــتمويل. تركـــيا . اســـتانبول . الطـــبعة الأولى عام ١٩٨٨ م . ترجمة عدنان محمود سلمان ومراجعة وتنقيح د / محمود الأنصارى : (١ / ٢٢٥) .

(٢) انظر : " تاريخ الدولة العثمانية " : (١ / ٤٣٩) .

(٣) انظر : المرجع السابق : (١ / ٤٣٩) .

من الدهاء لترعرعهما على عهد القانونى " [١].

وكذلــك السلطان أحمد الأول " أظهر فى سنّ طفولته قدرات حكام عظام ... وكــان لا يشــرب المسكرات متديناً جدّاً ، ملبسه بسيطاً ، وكان عدوّاً لســيطرة النســاء شاعراً مصارعاً بارعاً فارساً رامياً ويستعمل السلاح بمهارة عمــل مــا بوســعه لحمايــة مصالح الدولة العليا ... إلاّ أنه مات فى مقتبل عمـــره " [٢] .

ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد كان ولاة السلاطين العثمانيين على مثل هذه الصفات من التدين والشجاعة وخدمة الدين ، " فقد اهتم كثير من الباشاوات العثمانيين والأمراء الأتراك برصد الأوقاف للإنفاق منها على طلبة العلم ، وأيضاً اهتم الكثيرون منهم بإجراء الإصلاحات والإنشاءات الهامة" [٣]

وأخــيراً أخــتم هذا المبحث بوصف لمؤرخٍ معاصرٍ لهذه الدولة هو العلامة المــؤرخ عــبد الرحمن الجبرتى حيث يقول : " ... السلطــان سليمــان عليه الــرحمة والرضــوان فأســس القواعد ، وتمم المقاصد ، ونظم الممالك ، وأنار الحوالك ، ورفع منار الدين ، وأخمد نيران الكافرين ... ولم تزل البلاد منتظمة فى ســلكهم ومنقادة تحت حكمهم من ذلك الأوان الذى استولوا فيه إلى هذا الوقــت الذى نحن فيه ، وولاة مصر نوابهم ، وحكامها أمراؤهم ، وكانوا فى صــدر دولتهــم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين ، وأشد من

(١) انظر : " تاريخ الدولة العثمانية " : (١ / ٤٣٩) .
(٢) انظر : المرجع السابق : (١ / ٤٥٤ ، ٤٥٥) .
(٣) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (١٧٢) .

ذب عــن الديــن ، وأعظم من جاهد فى المشركين فلذلك اتسعت ممالكهم بما فــتحه الله على أيديهم وأيدى نوابهم ... هذا مع عدم إغفالهم الأمور وحفظ النواحى والثغور ، وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهــل الديــن ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ... " [1] .

* * *

(١)انظر : " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " . للعلامة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى .

تحقــيق : حسن محمد جوهر وزميليه . نشر لجنة البيان العربى عام ١٩٥٨ م : (١ / ٦٥ ، ٦٦) .

ب : الحالــة الاجتماعيــة

تمــيز المجتمع فى مصر على عهد العثمانيين بأنه مجتمع طبقى لكل طبقة فيه ملامحها المميزة لها من حيث المركز والنشاط الذى تمارسه فى ذلك المجتمع .

ومما ساعد على ذلك حياة العزلة والانفصال عن شعب مصر وسكانها والتى عــاش فيها العثمانيون ومعاونوهم من المماليك ، و " انقســم المجتمــع إلى طبقتــين :

١- طبقة الحكــام :

وتشمل : العثمانيين والمماليك .

٢- طبقة المحكومين :

وتشــمل : العلماء والتجار وأرباب الحرف والصناعات والفلاحين والعامــة والعربــان وأهل الذمة " [١] .

وقــد عــاش الأتــراك فى مصر على شكل طبقة منفصلة ممتازة تمثل هيئة عســكرية لهــا الســيادة والسيطرة فى البــلاد ، وعلى رأس تلك الطبقــة الباشــا العــثمــانى الذى ظل وحتى نهاية العصر العثمانى فى مصر شخصية عثمانــية يعيــنها السلطان لحكم مصر ، ويتبع الباشا حاشيةٌ عثمانية وموظفو دائرة كان عددهم أحياناً يصل إلى ألف ومائتى فرد . [٢]

---

(١)انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (١٥) .

(٢)انظر : المرجع السابق : ص (١٦) .

وقـد سكن معظم العثمانيين فى القلعة والأحياء المحيطة بها ، وتميزوا بملابس خاصة وبركوب الخيل فى جولاتهم ، وعاشوا فى سعة من العيش .[1]

ومع أن نسبتهم إلى السكان كانت ضئيلة ؛ فإنهم كانوا يتمتعون بالسيطرة ويقدمَ إليهم الشعب كل الطاعة .[2]

وقـد تمسـك العثمانيون فى مصر بلغتهم التركية فيما بينهم ، أما مع أهل الـبلاد فقـد تولى التراجمة الوساطـة بين الطرفين ، وتمسك العثمانيون أيضاً بسياسة عدم الاختـلاط بأهالى

البلاد ، وعاشوا فى عزلة فى طبقة ذات خصائص عزلتها عن باقى الطبقات فى المجتمع المصرى ، ولم يتزوج العثمانيون إلاّ من بنات جنسهم ، وقد أدى ذلك إلى قلـة عددهـم ، وانقراض ذريتهم ، خاصة وأن الهجرة العثمانية إلى مصر كانت فى تناقص مستمر .[3]

" وقد مارست الدولة سلطالها فى نطاق ضيق للغاية لم يتجاوز عدة قطاعات مـثل المحافظـة على الأمن الداخلي وجمع الضرائب بطريقة غير مباشرة ، مثل نظام الالتزام فى الريف ، ونظام الطوائف فى المدن ، ثم تنظيم القضاء " [4]

أما المماليـك ؛ فقد شكلوا فى مصر العثمانية أيضاً طبقة عسكرية ممتازة ، شاركت العثمانيـين فى السيطـرة على الشعب المصرى ، وكان ذلك منـذ

---

(١) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (١٧) .

(٢) انظر : المرجع السابق : ص (١٧) .

(٣) انظر : " المجتمع المصرى " : ص (١٦) .

(٤) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ١٨٧) .

بداية العصر العثمانى فى مصر ، وحسب أوامر السلاطين العثمانيين وقوانينهم .

وتميز المماليك بأصلهم الخاص ومنشآهم وطريقة تربيتهم الخاصة بهم ، وعدم الاختلاط بأهالى البلاد ، وقد جاء المماليك إلى مصر من مختلف البلاد ، وخاصة مع تجار الرقيق ، ولم يحاول المماليك الزواج من أهل البلاد من المصريين ، بل اختاروا زوجاهم وجواريهم من بنات جنسهم اللاتى جلبهن تجار الرقيق ، وعاش المماليك فى عزلة اجتماعية جعلتهم يَحتفظون بأخلاقهم وعاداهم على مرّ السنين (١).

" وقليل منهم من تزوج وكون له أسرة ، إذ كان ديدنهم الحروب والفروسية ، فلا يرضون بشيء كان يشغلهم عنها " (٢) .

أما طبقة المحكومين والتى تشمل العلماء والتجار والصناع والفلاحين وأهل الذمة والعامة فكانت تتفاوت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية .

فأفضل هذه الطوائف العلماء والتجار ، وأدناها الفلاحون أما العلماء فكانوا " يمثلون أهم وأغنى فئة فى طبقة المحكومين فى المجتمع المصرى . وتشمل طبقة العلماء علماء الأزهر ، والقضاة ، وأرباب الوظائف الديوانية ، والفقهاء والمفتين ، ومشايخ الصوفية الأشراف أرباب السجاجيد (٣) .

وقد تمتعت هذه الطبقة باحترام الحكام لها وإجلالهم لرجالها ، وعاش العلماء

---

(١) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (١٩ ، ٢٠) .

(٢) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثمانى " : ص (٦٥) .

(٣) لا يخفى ذيوع التصوف فى ذلك العصر وأن أغلب مشايخهم كان يدعي النسب الشريف ، ولا شك أن العامة كانوا يغالون فيهم .

فى العصـــر العثمانى فى سعة وبسطة من العيش نتيجة ما أغدقته عليهم الدولة من رواتب ورزق . " [1]

وقـــد شـــغلوا مناصب عديدة وهامة مثل مناصب القضاة الأربعة والحسبة والتدريس فى الأزهر وبعض الوظائف الإدارية الأخرى .[2]

وكـــان العلماء يلقون الاحترام اللائق من الدولة والرعية على حد سواء ، أما احترام الدولة لهم فلأنها " دولة دينية حريصة على التمسك بالدين واحترام رجاله ، مما جعل العلماء يعتدون بأنفسهم ومكانتهم " .[3]

وأما احترامهم من قبل الشعب فقد كرم الشعب العلماء ... وصار الناس يقصـــدونهم للتوســـل بهـــم عند الحكام ... لرفع المظالم عنهم أو الحدّ منها ، واستطاع العلماء فى حالات عديدة تقديم هذه المعونة إلى جموع الشعب .[4]

ولذلك فقد كانت بيوتهم قبلة لأصحاب الحاجات وطلاب العلم .

ويـــلى هـــذه الطـــبقة طبقة التجار الذين كانوا يتمتعون بشيء من الثراء والنفوذ لدى طبقة الحكام . وكان منهم من يقوم بإنشاء بعض المدارس ويقف عليها الأوقاف .

ثم يلى هذه الطبقة طبقة العامة ، وقد " شكلت طبقة العامة عدداً كبيراً من ســكان المدن المصرية فى العهد العثمانى ، وضمت هذه الطبقة الباعة والسوقة

(١) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (٢٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق : ص (٢٣) .

(٣) انظر : المرجع السابق :ص (٢٤) .

(٤) انظر : المرجع السابق : ص (٢٣) .

والســـقائين والمكارين والمعدمين ... وقد عاش العامة فى العاصمـــة والمدن فى ضـــيق شـــــديد ، وخيم البـــؤس على حياقم ، وقد كانوا أكثر الناس تأثراً بارتفاع الأسعار " .(١)

وأختم هذا المبحث بالحالة الصحية التى كان لها أثر على الحياة الاجتماعية بـــين الناس ، فالمصائب العامة والكوارث غالباً ما تجمع الناس وتزيل الفوارق الطبقـــية وتغلـــب على المشاحنات والتنافس بين الناس وتدفعهم إلى التعاون ، فغالباً ما كانت الكوارث الطبيعية التى تحل بالبلاد كالمجاعات والسيـــول سبباً فى وقوع وباء الطاعون وفتكه بالألوف من أبناء مصر .

ولا يمكـــن تتـــبع كل الكوارث الطبيعية التى حلت بالبلاد وأعقبها انتشار وباء الطاعون ، وإنما نكتفى بالإشارة إلى أهمها ...

" وذلـــــك كالـــوباء الـــذى حـــل بمـــصر فى عهـــد علـــى باشـــا الســـلحـــدار (١٠١٠ هـــ : ١٦٠١ م) ، ومن كثرة الموتى أمر الباشا ألاّ يكشـــف على أحد منهم ، ولا يُستأذن عليه ، وتكفل أيضاً بتكفين عدد كبير منهم على نفقته وقد بلغ من شدة فتك هذا الوباء بالناس أنه صُلّي فى الأزهر على ألف ميت يومياً على مدى خمسة وثلاثين يوماً " .(٢)

" وكذلك فى أعـــوام (١٠٥٢ هـــ : ١٦٤٢ م) ، و (١٠٨١ هـــ : ١٦٧٠ م) ، و (١١٠٧ هـــ) ... وغيرها " .(٣)

---

(١) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (٤٨) .
(٢) انظر : المرجع السابق : ص (٢٣٧ ، ٢٣٨) .
(٣) انظر : المرجع السابق : ص (٢٣٤ – ٢٣٨) .

ومـــن أجـــل كـــثرة الإصـــابة بمرض الطاعون السابقة على حياة المؤلف والمعاصرة لـــه فقد ألّف رسالة فى هذا الموضوع ، وسماها ((ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شرّ الطاعون)) (١)

* * *

(١) ذكره صاحب " إيضاح المكنون " : (٢ / ٤٢١) .

ج : الحالة الدينيـــة والثقافيـــة

تقـــدم فى الكلام عن الحالة السياسية للدولة إبان نشأتها بأن العثمانيين قبل دخولهم فى الإسلام كانوا قبيلة تركية ليس لدينا الآن معلومات عن عقائدهم ، واستمر الأمر على هذه الحالة حتى دخلوا فى نطاق دولة السلاجقة الأتراك ، وكانت دولة إسلامية لها دورها الذى لا ينكر فى حماية ثغور الإسلام فى نواحى الروم والتتار ، فدخلت هذه القبيلة فى الإسلام فى عهد رئيسها الأول أرطغرل " وعـــلى عهـــد الأمير عثمان وفى وقت مبكر تحدد الوضع الدينى والعسكرى والسياســـي للأتراك العثمانيين ، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامى وتبعه الأتـــراك العثمانـــيون وكانـــت عقيدتهـــم الدينيـــة قبل ذلك غير واضحة تماماً " (١)

ثم أخـــذ الأتـــراك يتوسعون شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى جعلت الدولة العثمانـــية مـــن نفســـها دولة الإسلام الكبرى بعد أن عقدت لها زعامة العالم الإســـلامى مـــنذ أن خاضـــت بنجاح فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى الصراع الحربى ضد الدولة الصفوية فى فارس ، ثم نجاحها فى القضاء على دولة المماليـــك الشراكسة فى الشام أولاً وفى مصر ثانياً ، وبسط سيادتها على إقليم الحجـــاز ، فدخلت فى حوزتها الأماكن المقدسة الإسلامية على الإطلاق ، وهى الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة ، والمسجد النبوى فى المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى فى بيت المقدس ... وتعددت صور هذا الطابع الدينى فى السياسة العليا للدولة مع اتخاذ السلاطين لقب حامى الحرمين الشريفين تأكيداً للزعامة الدينية

(١) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ٣٦) .

للدولة فى العالم الإسلامى ، ثم اتخاذهم لقب الخليفة لنفس الغرض .[1]

وَوَضــحَ الطــابع الدينى وعمقه فى الدولة من حرصها على تطبيق مبادىء الشــريعــة الإســلامية تطبــيقاً صارماً من ناحية وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية من ناحية أخرى .

فمن الناحية الأولى ... أنها حين أصدرت قانون نامة الذى وضعه السلطان سليمان المشرع توجت هذا القانون بجملة " القانون نامة السلطانى الذى يتفق مع الشريعة " [2] .

أما من الناحية الثانية وهى المحافظة على التقاليد الإسلامية فنذكر على سبيل المــثال أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان ولذلــك لم يكن يجرؤ أحد مهما كان مركزه وسواء كان مسلماً أو غير مسلم على أن يأكل أو يشرب فى مكان عام فى أثناء النهار طوال شهر الصيام .[3]

" وكانوا فى صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشــد من ذب عن الدين ، وأعظم من جاهد فى المشركين ، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدى نوابهم .

---

(١) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ١٨٤ ، ١٨٥) .

(٢) هــذا والصــواب عدم وضع قوانين ، بل ترك القضاه يحكمون بالشريعة من خلال القرآن والسنة والإجماع والقياس وفق ما هو معروف من أقوال الفقهاء لأن مجرد وضع القوانين سحب للبساط من تحت أقدام الشريعة .

(٣) انظر : المرجع السابق : (١ / ٥٦) .

هـذا مـع عدم إغفالهم الأمور ، وحفظ النواحى والثغور وإقامة الشعائر الإسـلامية والسـنة المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع " . (١)

وكـان مـن مظاهر الطابع الدينى الذى اتسمت به الدولة العثمانية العناية الفائقة التى أبداها السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى ... (٢)

بالإضـافة إلى العناية بما كان قائماً من مساجد ومدارس سابقة على العصر العـثمانى حيث " إن الآثار العربية لم تهمل أثناء العصر العثمانى فى مصر ، بل عنى بصيانتها ، وزيد عليها بقدر ما تسمح ثروة البلاد فى ذلك الحين " . (٣)

ولم يكـن اهـتمام السلاطين بإنشاء المساجـد مقصوراً على الأقاليم التى كانت مهاداً للعثمانيين عند نشأة دولتهم ، بل امتد هذا الاهتمام إلى الولايات الإسـلامية ، ففى مصر على سبيل المثال كان الباشوات العثمانيون يشيدون مسـاجد جديـدة لاتـزال إلى الـيوم تحمـل مظاهر العمران فى مصر إبان الحكـم العثمانى ، ونذكر من هذه المساجد مسجد سليمان باشا فى القلعة سنة ١٥٢٨ م ، والمحمودية سنة ١٥٦٧ م ، وسنان باشا سنة ١٥٧١ م ... وكان السـلاطين يعهدون إلى الولاة فى مصر بإصلاح وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الجامع الأزهر . (٤)

(١) انظر : " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " : (١ / ٦٦) .
(٢) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ٥٤) .
(٣) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثمانى " : ص (٦٤) .
(٤) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ٥٥) .



وكـــان أول جـــامع بـــنى فى مصـــر هو جامع سليمان باشا الشهير الآن بسارية الجبل الذى شيده داخل القلعة سنة ٩٣٥ هـ ، ويليه جامع سنان باشا بـــبولاق المشـــيد عام ٩٧٩ هـ ، ثم جامع الملكة صفية بالداودية المبنى سنة ١٠١٩ هـ .[١]

ولا شـــك أن بـــناء هذه المساجد وغيرها من المدارس والأسبلة تحتاج إلى أوقـــاف ينفق منها عليها ، وقد قام العثمانيون بهذا الأمر " فقد اهتم كثير من الباشاوات العثمانيين والأمراء الأتراك برصد الأوقاف للإنفاق منها على طلبة العـــلم بالأزهـــر ، وأيضـــاً اهـــتم الكـــثيرون منهم بإجراء الإصلاحـــات والإنشـــاءات الهامـــة ؛ مـــن ذلك ما قام به محمـــد باشـــا والي مصر (١٠٠٤ هـــ : ١٥٩٥ م) فقد عمر الجامع الأزهر ، وجدد ما هدم فيه ، وأصلح أروقته " .[٢]

ولم تكن الأوقاف من قبل الحكام العثمانيين فقط ، بل شارك فى ذلك كثير مـــن الأثرياء فقد أسس الأثرياء هذه المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف تقرباً إلى الله تعالى .[٣]

ولمـــا كانـــت هـــذه الأوقـــاف تحتاج إلى من يرعاها حتى لا يضيعهـــا الإهمـــال فقـــد " كـــان يشرف على معظم الأوقاف الخيرية مجموعة من الموظفـــين ينـــتمون إلى الهيئة الدينية الحاكمة ... ، وكان المشرفون على هذه

(١) انظر : " تاريخ مصر من الفتح العثمانى " : ص (٦٣) .

(٢) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (١٧٢) .

(٣) انظر : المرجع السابق : ص (١٥٤) .



الأوقـــاف يلـــتزمون إلتزاماً دقيقاً لتوجيه الإنفاق إلى المصـــارف التى يحددها الواقفـــون " . [1]

ولم يقتصـــر اهتمام الدولة على المساجد فقط ، بل نظروا إلى سائر الشعائر الإســـلامية فعظمـــوها . فنظروا إلى صيام شهر رمضان النظرة اللائقة بصفته ركناً من أركان الإسلام ، فلم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان ، ولذلـــك لم يكن يجرؤ أحد مهما كان مركزه وسواء كان مسلماً أو غير مسلم على أن يأكل أو يشرب فى مكان عام فى أثناء النهار طوال شهر الصيام . [2]

ولم يكن حظ الحج أقل من غيره من حيث الرعاية فقد " نظرت الدولة إلى الحـــج عـــلى أنه الركن الخامس من أركان الدين الإسلامى ، وأن واجب ولي الأمر تيسير الحج أمام الراغبين فى أداء هذه الفريضة ، فأنشأت الآبار فى طول الطرق المؤدية إلى الحجاز ، وأقامت فى البادية حصوناً لحراسة الآبار .. وكانت تتحرك كل سنة أربع قوافل رئيسية للحج ... فى رفقة قوة عسكرية " . [3]

وكذلـــك " كـــان مـــن مظاهـــر الاتجاه الدينى فى سياسة الدولة تشجيع التصـــوف بين العثمانيين ، وقد تركت الدولة مشايخ الطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والأتباع ... وقد مدت الدولة يد العون المالي إلى بعض الطرق الصوفية ... وقد نجم عن تعدد هذه الطرق الصوفية من ناحيـــة

---

(١) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤) .

(٢) انظر : " الدولة العثمانية " : (١ / ٥٦) .

أيـــن من يدعون إلى ترك الصيام جملة من أجل الإنتاج ، وإلى تضييع فريضة الصلاة بدعوى أن العمل عبادة ... ! ثم نبغي بعد ذلك نصرًا ؟!

(٣) انظر : المرجع السابق : (١ / ٥٨) .

وانتشارها من ناحية أخرى أن بدا الطابع الديني ملحوظاً بل قوياً " .[1]

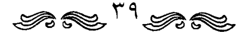
وكـان الصـوفية يعرفون بين الناس باسم الدراويش " ولكنهم لم يكونوا أعضاء في هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة ، وكان الدراويـش ينـتمون إلى طـرق كـثيرة ... وعن طريق الدراويش انتشرت الخزعـبلات بين الرعايا المسلمين في الدولة ، ودبرت الفتن ، وكانوا يشكلون بمجموعهـم وتأثيرهم في الجماهير الإسلامية خطورة على سلطة الحكومة ... وتقتضـي الدراسة الموضوعية أن نذكر أنه كان يوجد بين طوائف الدراويش عـدد من العناصر الصالحة ضربوا المثل الأعلى في الأمانة وخشية الله ، بينما كـان عدد منهم لصوصاً متجولين بارعين يتميزون بخفة الحركة والقدرة على اختيار الشخص المليء مع تظاهرهم بالتقوى والصلاح " .[2]

ولذلك نجد الشيخ مرعي رحمه الله ألّف هذه الرسالة ((رفع الشبهة ...)) يرد فيها على أمثال هؤلاء الدراويش الذين كثروا في عصره على هذا الوصف الآنـف مـن ذيـوع الخزعبلات بين الناس بفعلهم ، ولأن عدداً منهم كانوا لصوصاً كما أشار صاحب المرجع السابق .

أمـا النوع الفاضل من هؤلاء الصوفية الذين ضربوا المثل الأعلى في الأمانة وخشـية الله ، فقد ألّف الشيخ رحمه الله في موافقهم رسالتين : الأولى بعنوان ((تصـويب قول الفقهاء والصوفية)) والثانية بعنوان ((الجمع بين كلام أهل الشـريعة وأهل الحقيقة)) وهما في موضوع واحد ذكرهما منسوبتين للشيخ

(١) انظر : " الدولة العثمانية " : (١ / ٥٩) .

(٢) انظر : المرجع السابق : (١ / ٤٤٢ ، ٤٤٣) .



مـــرعيّ الشـــيخ إبراهيم بن ضويان فى ترجمة الشيخ مرعي من كتابه ((رفع النقاب عن تراجم الأصحاب)) .

ومـــن مظاهر اهتمام الدولة بالدين " تنظيم القضاء ، وقد جعلت إجراءاته وأحكامـــه متمشية مع مبادىء المذهب الحنفى الذى اتخذته الدولة مذهباً رسمياً لها ، وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنواع القضايا الجنائية والمدنية والأحوال الشخصـــية ، كما كانت ولاية القضاء الجنائى والمدنى تمتد إلى جميع المقيمين فى الدولة ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عثمانى وأجنبى ، واستمر هذا الـــنظام الشامل تغطى مظلته جميع المقيمين فى أنحاء الدولة حتى أخذت الدولة بنظام الامتيازات " .(١)

وقـــد اهتمـــت الدولة بإعداد القضاة اهتماماً كبيراً ، فقد " كانوا يمرون بطـــريق دراســـى طويل قبل أن يتبوأوا مناصب القضاء ، ونظرت الدولة إلى مـــرفق القضاة نظرة موضوعية ، ولم تسمح لغير المؤهلين علمياً بتقلد مناصبه ، ووضعت نظاماً دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقـــلاتهم ومتابعة أعمالـــهم ، وكانت ولاية القضـــاء تشمل جميع أنـــحاء الدولة فى القارات الثلاثة ..." (٢)

ومـــن نافلـــة القول أنه لا تستغنى دولة دينية عن هيئة علمية تهتم برعاية التعلـــيم والوعظ والإرشاد ، ولذلك فقد كان " للهيئة الإســـلامية فى الدولة وضع معترف به ، ومركز مرموق ، وكان يطلق على رئيســـه المفتى ، أو مفتى اســـتـــانبول ، ثم أطلـــق عليه بعد ذلك ((شيخ الإسلام)) وكانت الهيئات

---

(١) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ١٨٧ ، ١٨٨) .
(٢) انظر : المرجع السابق : (١ / ٤٢١) .

القضـــائية ، والهيـــئات ذات الطـــابع الدينى تخضع لنفوذه ، وكان السلاطين حريصـــين عـــلى تدعـــيم سلطتـــه ، ويعملون على استغـــلالها كلما حزبهم أمـــر " .[1]

وإذا كانت القاهرة تعد ثانى مدينة فى الخلافة بعد استانبول من حيث المكانة السياســـية لما لها من مؤهلات تاريخية وبشرية ، فقد كانت كذلك ذات مكانة علمـــية كـــبيرة لوجود الأزهر بها ، وقد كان الأزهر وعلماؤه يلقون الاحترام الكـــبير مـــن الدولة ، وقد " ساعد ذلك كله على بقاء الأزهر كقلعة شامخة للعلوم الثقافية والدينية ، وقد واصل الأزهر رسالته العظمى فى هذا العصر كما واصـــلها خـــلال عصور مختلفة ، وشاركته المراكز الثقافية الأخرى كالمدارس والمساجد والزوايا والمكاتب وبيوت العلماء والوجهاء " .[2]

فقـــد وجدت إلى جانب الأزهر مدارس ذات مستوى رفيع تؤهل خريجيها لإتمـــام دراســـتهم فى الأزهر ...وكانت هذه المدارس تقوم فى رحاب المساجد الكبرى أو تلحق بها ، وكانت الدراسة بها تسير على نمط الدراسة فى الأزهر ، وقـــد أسس الأثرياء هذه المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف تقرباً إلى الله ، وكان يجلس للتدريس فيها شيوخ ممن درسوا فى الأزهر .[3]

ومن المراكز الثقافية واسعة الانتشار فى مصر العثمانية عظيمة الفائدة بيوت العلماء والأثرياء .

---

(١) انظر : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " : (١ / ٥٤) .

(٢) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (١٤٧) .

(٣) انظر : المرجع السابق : ص (١٥٤) .

ولقـد اتصـف العلماء فى هذا العصر بحبهم للتعليم والمتعلمين ، فرحبوا بقـدوم هؤلاء إلى بيوهم ، كما قضت الظروف الصحية أو غيرها بمنع بعض العلماء من الانتقال إلى مراكز العلم فعقدوا مجالس العلم فى بيوهم .(١)

ولم يكـن العـلماء المعروفون فى مصر من أبناء مصر فقط فقد " استقبلت مصـر خـلال هذا العصـر كثيراً من الباحثـين الذين جاءوا يستزيدون من الدراسـات الدينـيـة والعربيـة ، ولا يكاد يوجد قطر من أقطار العالم الإسلامى لم يفد طلابه وعلماؤه إلى مصر " .(٢)

وعـلى سبيل المثال الشيخ مرعي الكرمى المقدسى الذى وفد إلى مصر من فلسطين ، والشيخ عبد الباقى البعلى تلميذ الشيخ مرعي الذى قدم من دمشق وابـن أخى الشيخ مرعي وغيرهم كثير لمن تتبع ذلك الموضوع ، ومن هؤلاء العلماء من استمرأ الإقامة فى مصر وتوطنها ، ومنهم من فضل العودة إلى بلده بعد أن قضى وطره من الأزهر ناشراً العلم بين أبناء بلده .

" ولم يكن باشاوات مصر العثمانية بعيدين عن ذلك النشاط العلمى الذى سـاد مصـر فى عهدهم ، وكثيراً ما ردَّدت المصادر المعاصرة أسمـاء بعض الباشاوات مثل جعفـر باشـا (١٠٢٨ هـ : ١٦١٨ م) والذى كانت له اليد الطـولى فى غالب العلـوم خصوصـاً علم التفسـير . وأيضـاً داود باشا الخادم والذى حكم مصر مدة أحد عشر عامـاً من ٩٤٥ هـ : ٩٥٦ هـ (١٥٣٨ – ١٥٤٩ م) ، وكان على درجة كبيرة من العلم وقد اهتم

---

(١) انظر : " المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " : ص (١٤٧) .
(٢) انظر : " المجتمع المصرى " : ص (١٦٠) .

بجمــع الكتب العربية ، ونسخ لــه النساخ كثيراً منها ، فتكونت لديه مكتبة كبيرة كان مواظباً على الاطلاع فيها " .[١]

وكــان العــلماء يناقشون ما يجد على المجتمع الإســلامى من أمور لم تكن معــروفة قبل ذلك ، وكان السلاطين يلتزمون وينفذون فى الرعيــة ما يفتى به العــلمــاء فمــن ذلك أن " السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) منع استعمال التبغ فى (١٦ أيلول سنة ١٦٣٣ م) ... والتبغ يدخن منذ سنة ١٦٠٥ م مدة ثمان وعشرين سنة ، ولم يكن التدخين متفشياً بكثرة فى حينه .

كــان العــلماء يناقشون شرعيته من عدمها ، وفى النهاية قرروا أنه مضر ولكــنه ليــس حراماً !! وسمح باستعماله ... ولكن التبغ كان ممنوعاً تدخينه حتى فى الدار " .[٢]

وكــان الشيخ مرعي رحمه الله متفاعلاً مع محدثات عصره فكما ألّف رسالة فى الطــاعون لما كثرت الإصابة بهذا المرض فى عصره ، كذلك ألّف رسالة فى حكــم شرب الدخان عندما استحدث شربه فى ذلك العصر فى بلاد الإسلام سماها ((تحقيق البرهان فى شأن الدخان الذى يشربه الناس الآن)) .[٣]

وجملــة القول فى هذا الفصل أن الشيخ مرعي رحمه الله عاش عمره كله فى القرن الأول من الخلافة العثمانية فى ظلال دولة امتدت من أعماق أوروبا شمالاً

(١) انظر : " المجتمع المصرى " : ص (١٤٨ ، ١٤٩) .

(٢) انظر : " تاريخ الدولة العثمانية " : يلماز (١ / ٤٧٢) .

(٣) وتوجد نسخة منه بدار الكتب المصرية كما أثبت ذلك فى مبحث مؤلفاته . وقد رجح فيها كونه مكروهاً فقط ، ولم يحرمه .

إلى أواســط أفريقيا جنوباً، ومن أطراف العالم الإسلامى شرقاً إلى بلاد المغرب العربى غرباً .

وكان القرن الأول من هذه الدولة يتمتع بوضوح اتجاهها الدينى على الوجه الذى فُصل آنفاً . وأقل ما يقال فى حق هذا العصر أنه كان غماً على الصليبيين الذيــن كــانوا قبله بقليل يعيثون فساداً فى المشرق الإسلامى مما حدا العلماء إلى الثناء على سلاطين هذه الدولة كما بدا من قول الجبرتى وغيره ممن أرخوا لهــا ، ومما يجدر التنبيه عليه هنا الحذر من تشويه صورة هذه الدولة العثمانية وهضــم حقهــا ، لأن فى ذلــك تضليلاً للناشئة ، وتزويراً للتاريخ ، وإخفاء لصــفحة مشــرقة من دول العالم الإسلامي ، وذلك غرض خبيث من أغراض أعداء الإسلام .

ولــذا نجــد الشــيخ مرعي رحمه الله – وهو المعاصر لهذه الدولة – يؤلف رســالة فى الثــناء عــلى هــذه الدولــة سماها : ((قلائد العقيان فى فضائل آل عثمان)) .[1]

هذا وإن عصر الشيخ مرعي رحمه الله من الناحية العلمية كان امتداداً لعصر عــلماء كبار كالسخــاوى (ت ٩٠٢ هــ) ، والسيــوطى (ت ٩١١ هــ) والقسطــلانى (ت ٩٢٣) هــ وابن حجــر الهيثمــى (ت ٩٧٣ هــ) ، ونــجم الــدين الغيــطى (ت ٩٨١ هــ) وغيرهــم .

ولا شــك أن هــؤلاء العلماء الكبار لهم تلاميذ كبار أثروا الحياة العلمية الثقافية فى القرنين العاشر والحادى عشر اللذين عاش فيهما الشيخ مرعــي

(١) توجد منه نسخة بمعهد المخطوطات كما أشرت إلى ذلك فى مبحث مؤلفاته .

متأثـــراً ومؤثـــراً .

" ولكن التصوف الذى كان رائجاً فى العالم الإســـلامى حينذاك سواء على مستوى الفكـــر أو على مستـــوى العمل لم يكن إلا عاملاً من عوامل الخمول والتقوقع للأسف الشديد " [1]

" فقـــد غلـــب علـــيها الفتور والتقليد والاكتفاء بإعادة العرض واجترار الماضـــى ، فكـــان جل إنتاجها شرحاً أو تلخيصاً أو نقداً لمؤلفات السابقين فى غالب الأمر ... وقد ران هذا الجمود والتقوقع على الفكر الإسلامى بوجه عام خلال القرنين العاشر و الحادى عشر وأكثر الثانى عشر " .[2]

* * *

(١) " المدخـــل إلى دراســـة علم الكـــلام " لأستاذنا د / حسن الشـــافعى : مكتبة وهبة سنة ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م ط الثانية : ص (١٢٣) .

(٢) انظر : المرجع السابق : ص (١٢٢) .

المبحث الثاني

التعريف بالمؤلف
وفيه عناصر خمسة

اسمه ونسبه :

اتفق كل من ترجم له على أنه : " مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد ابن أبي بكر بن يوسف بن أحمد الكرمي . نسبة إلى طوركرم قرية من قرى نابلس بفلسطين " [(١)]

المقدسي نسبة إلى بيت المقدس ثم الأزهري نسبة إلى الجامع الأزهر ، نزيل القاهرة .[(٢)]

(١)انظر : " فوائد الارتحال ومعرفة السفر فى أخبار القرن الحادى عشر " لمصطفى بن فتح الله الحموى الشافعي المكي (ت ١١٤٣) . مخطوط بدار الكتب المصرية : تاريخ تيمور ، فلم (١٠٤١٦) ، و " خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر " للأمين المحبيّ : (٤ / ٣٥٨) ، و " نفحة الريحانة " له : (٢ / ٢٤٤) ، و "السحب الوابلة على ضرائح السادة الحنابلة " لابن حميد : ترجمة رقم (٧٦١) ص (٤٦٣) ، و " عنوان المجد فى تاريخ نجد " : قسم السوابق التاريخية : (١٩٧) ، و" هدية العارفين " للبغدادى : (٢ / ٤٦٢) ، و" تاريخ الأدب العربى" لبروكلمان : (٢ / ٣٦٩) وفى الذيل عليه : (٢ / ٤٦٩) ، و" الأعلام " للزركلي : (٧ / ٣٠٧) ، و " معجم المؤلفين " لعمر رضا كحالة : (٢ / ٢١٨) ، و" إيضاح المكنون " : (٣ / ٤٧٤) ، و "رفع النقاب عن تراجم الأصحاب " للشيخ إبراهيم ابن ضويان : مخطوط بدار الكتب (ح ٧٣٦٩) فلم (١٦١٩) .

(٢)قال رحمه الله عن نفسه فى أول كتابه : ((قلائد العقيان فى فضائل آل عثمان)) : " قال العبد الفقير .... أحد الفقراء المجاورين بالجامع الأزهر ... " .

ولم أعثر فى المراجع القديمة له على لقب أو كنية ، إلاّ أن بروكلمان عندما ذكره فى الذيل على ((تاريخ الأدب العربى)) له لقَّبَهُ بزين الدين [1]

مولـــده : أهملـــت كتب التراجم والفهارس تاريخ ولادته ، وكذلك من تعرض لترجمته عند نشر بعض كتبه .

فمـــن الباحثـــين الذين حققوا كتباً للشيخ مرعـــي بغرض النشر الدكتور نجم خلف [2]

والشـــيخ شـــعيب الأرناؤوط [3] ، والأستاذ مشهور حسن [4] ، ولم يشر واحد من الثلاثة فى ترجمته للشيخ مرعي من قريب ولا من بعيد لتاريخ ولادة الشـــيخ ، ولا علـــق عـــلى إهمال المراجع له ، بل أهملوها أيضاً متابعة لكتب التراجم ، أو وضع بعضهم علامة استفهام مكانها مشيراً بذلك إلى عدم وصوله إلى معرفتها .

وقد استوقفنى إهمال كل من ترجم للكرمى تاريخ ولادته بالرغم من تبريزه فى علـــوم كثيرة كالفقه والنحو والتفسير وصناعة الشعر والكلام بالإضافة إلى سائر الأوصاف التى ذكرت فى ترجمته وتعبر عنها كتبه .

---

(١) وكذلـــك فى ((فهـــرس المخطوطات المصورة)) من منشورات معهد المخطوطات العربية المجلد الأول عند الكلام عن ((قلائد العقيان)) و ((مسبوك الذهب)) للمؤلف .

(٢) حقـــق للمؤلف ((الشهادة الزكية بثناء الأئمـــة على ابن تيمية)) و ((الكواكب الدرية فى مناقـــب المجتهـــد ابن تيمية)) ، و ((مسبوك الذهب وشرف العلم على شرف النسب)) . انظر : مؤلفات الكرمى .

(٣) حقق له ((أقاويل الثقات فى الأسماء والصفات)) . انظر : مؤلفات الكرمى .

(٤) حقق له ((إرشاد ذوى العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان)) . انظر: مؤلفات الكرمى.

فتأملت فى ذلك فإذا كل من ترجم له فى القديم والحديث اعتمد ((خلاصة الأثر)) مرجعاً له – وهو مطبوع – أو الكتب التى أخذت عن ((الخلاصة)) ولم أرَ واحـداً عانى البحث فى مخطوطات تراجم القرن الحادى عشر فى مظانها مـن دور الكتـب ، فتتبعـت ذلك فإذا من بين كتب التراجـم ((فوائـد الارتحـال ونتائج السفر فى أخبار القرن الحادى عشر))[1] مرتباً على الحروف الأبجدية ، وقد ذكر فى ترجمة الشيـخ مرعـي : " ... ولد بطور كرم فى ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ... "[2]

* * *

(١) سبقت الإشارة إليه ص (٤٩) .

(٢) المخطـوط السـابق ؛ حـرف المـيم ترجمة مرعي بن يوسف ، وقد قرأتها على آلة قراءة الميكروفلم فلم أتمكن من تحديد الصفحة من المخطوط .

نشأتـــه وطلبـــه للعلـــم

تؤثر البيئة غالبـــاً فى حياة الإنسان من حيث الشخصية والمستوى العلمى والمذهب الاعتقادى والفقهى ونوع التخصص ، وقل أن تجد عالماً مبرزاً إلاّ وقد اعـــتنى بـــه ذووه فى سنيه الأولى فبدؤوا به بحفظ القرآن الكريم ثم تجويده ثم يترقون به بعد ذلك فى سلم العلوم اللغوية والشرعية .

وهذا ما قرره صاحب ((فوائد الارتحال ...)) رحمه الله حيث قال :

((... ولـــد بطـــور كـــرم ... وحفـــظ القـــرآن الكريم وجوده ببيت المقدس ...)) (١)

وكما أهملت جُلُّ كتب التراجم سنة ولادته أهملت التعريف بنشأته وسنيه الأولى وأسرته إلاّ لماماً .

وباســـتقراء كتب التراجم نجد أن العظماء والعلماء يُختلف عادة فى تاريخ ولادتهم ، وتقل المعلومات عن سنيهم الأولى وشيوخهم الأوائل ما لم يكونوا من بيوت معروفة بالعلم أو مالم يقوموا هم بتأليف معاجم لشيوخهم .

وممـــا يلفت النظر ويثير التساؤل ألاّ يؤلف الشيخ مرعي معجماً لشيوخه ؛ وهـــو الـــذى كتـــب فى كثير من مجالات المعرفة ومنها فن التاريخ فقد وضع تاريخاً لمن حكم مصر ابتداءً من أول الخلافـــة الإسلاميـــة إلى عهـــده (٢) ،

---

(١) "فوائد الارتحال " ، و" خلاصة الأثر " : (٤ / ٣٦٩) ، و" السحب الوابلة " ترجمة رقم (٧٦١) ص (٤٦٣ – ٤٦٧) وغيرها .

(٢) وهـــو كـــتابه : ((نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين)) ، وهو تاريخ مختصر ابتدأ فيه بذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وثنى بذكر الخلفاء الراشدين =

وكذلك تاريخاً لخلفاء الدولة العثمانية وسلاطينها [١] ، وترجم للإمام ابن تيمية في مجلد [٢] .

وجمــع ثــناء الأئمة عليه في مجلد آخر [٣] ، " وكتب رسالة في الحط على عَصْرِيِّه العلامة الميموني " [٤] .

= فمــن بعدهم حتى الدولة العثمانية في عهد أحمد باشا . ويوجد منه نسختان في دار الكتب المصـرية ، الأولى تقـع في مائــة ورقــة ضمن مجموع رقم (١١٧٠٦ ح) ، والأخرى برقم (٢٠٧٦) .

(١) وهو كتابه : ((قلائد العقيان في فضائل آل عثمان)) وتوجد منه نسخة بمعهد المخطوطات العربيــة تحت رقم : ف ٤٨٧ .

(٢)وهو كتابه : ((الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيميــة)) وهو ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيميــة جمعها من ((مناقب ابن تيمية)) لابن عبد الهادي ، والبزار ، وأحمد بن فضل . فرغ منه سنة ١٠٢٧ هـ ، وتوجد منه نسختان بدار الكتب المصرية تاريخ تيمور : (١١٥٤) تقع في مائة وعشرين صفحة ، والثانية تاريخ تيمور : (٨٧٦) تقع في مائة وتسع وأربعين صفحة . وقد طبع بتحقيق د / نجم خلف في دار الغرب الإسلامي بيروت سنة ١٤٠٦ هـ .

(٣) وهــو كــتابه : ((الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية)) وتوجد منه نسخة بدار الكتــب المصرية ، وآخر بتونس وعندي مصورة منها ، وقد طبع بتحقيق د / نجم خلف في دار الفرقان ومؤسسة الرسالة .

(٤) إبراهــيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي برهان الدين الميموني علامة ، كان ضليعاً في العلــوم النقلــية والعقلية ، وخاصة في التفسير والعربية ، أخذ على والده وعلى أحمد الغنيمي وغيرهمــا ، وكــان رقــيق الطبع ، حسن الخلق ، مترفهاً في عيشه ، ولد سنة إحدى و تسعين وتســعمائة ٩٩١ مــن الهجرة ، وتوفي سنة تسع وسبعين وألف ١٠٧٩ هـ وله كتب كثيرة ، منها ((حاشية على البيضاوي)) ، و ((حاشية على المواهب اللدنية)) .

الخلاصــة : (١ / ٤٦) . والرســالة المشــار إلــيها للكرمي هي ((رواشق السهام)) . انظر مؤلفات الكرمي .



وبعــد أن تلقى الكرمى التعليـــم الأوّلى ؛ فى طــور كـــرم ، تـــدرج فى دراســة العلوم الإسلامية ، فانتقل إلى بيت المقدس ، فتتلمذ فيها على مشايخ قبل هجرته إلى مصر .

* * *

شيوخـــــه

ومن تتلمذ عليهم ببيت المقدس :

١- الشيخ محمد المرداوى : (١)

ذكره المحبى وغيره فى شيوخ الكرمى (٢)

وهـــو محمـــد بن أحمد المرداوى - نسبة إلى قرية قرب نابلس - الحنبلى ، شيخ الحنابلة ومرجعهم فى عصره .

أخذ عن التقى الفتوحي (٣) وعبد الله الشنشورى الفرضي (٤) وأخذ عنه

(١) انظـــر ترجمته فى : " خلاصة الأثر " : (٣ / ٣٥٦) ، و " النعت الاكمل " : (١٨٥) ، و " رفع النقاب " فى تراجم الأصحاب للشيخ إبراهيم بن ضويان . حرف الميم .

(٢) انظر : " الخلاصة " : (٤ / ٣٥٨) .

(٣) هـــو أبـــو البقاء محمد بن أحمد الفتوحي المصرى الحنبلي ، الشهير بابن النجار ، ولد بمصر ســـنة ثمـــان وتسعين وثمانمائة ٨٩٨ من الهجرة ، وأخذ العلم عن كبار علماء عصره ، وبرع فى الفقـــه والأصـــول حتى انتهت إليه رئاسة المذهب ، وكان مشهوراً بالورع والزهد وترك الدنيا والانصراف للعلم ، جلس فى إيوان الحنابلة للقضاء .

توفى سنة اثنتين وسبعين وتسع مائة للهجرة . انظر: " مختصر طبقات الحنابلة " : (٨٧) .

(٤) عـــبد الله بن محمد بن عبد الله العجمى الشنشورى - نسبة إلى شنشور - من قرى المنوفية بمصـــر ، الفرضـــي - نســـبة إلى علم الفرائض وهو المواريث - فقيه شافعي ، ولد سنة خمس وثلاثـــين وتســـع مائة ٩٣٥ من الهجرة ، وتوفى سنة تسع وتسعين وتسع مائة ٩٩٩ من الهجرة وعمل خطيباً للجامع الأزهر . من مؤلفاته : " فتح المجيب" و " بغية الراغب " .

انظر : " الأعلام " للزركلي : (٤ / ٢٧٣) .

بالإضـــافة إلى الشيخ مرعـــي – منصور البهـــوتي [1] ومحمـــد الشوبرى [2] وأخـــوه الشهـــاب أحمد الشوبرى [3] ، والشيخ سلطان المزاحي [4] وغيرهم كثير .

تـــوفى بمصر رحمه الله عام ستة وعشرين وألف ١٠٢٦ للهجرة ودفن بتربة المجاورين .

٢– القاضي يحيى الحجاوي [5] :

هو يحيى بن العلامة موسى بن أحمد الحجاوي الشيخ المسند المحدث الفرضي الفقيه ، أخذ الحديث وغيره بدمشق عن جماعة من العلماء ؛ منهم أبوه موسى

(١) منصور بن يونس بن صلاح الدين البهوتي الحنبلي ، شيخ الحنابلة فى عصره أخذ عن كثير مـــن المشايخ ، ومنهم عبد الرحمن البهوتي ، وانتفع به كثير من النجديين والمصريين وغيرهم ، لـــه مصنفات كثيرة منها : كشاف القناع والعمدة فى الفقه الحنبلي . توفى سنة ١٠٥٢ هـــ . " خلاصة الأثر " : (٤ / ٤٢٦) .

(٢) محمـــد بن أحمد الخطيب الشوبرى الشافعي المصرى شمس الدين ، شيخ الشافعية فى وقته . ولد سنة ٩٧٧ هـــ ، وتوفى فى سنة ١٠٦٩ هـــ . " الخلاصة " : (٣ / ٣٨٥) .

(٣) أحمـــد بن أحمد الخطيب الشوبرى المصرى . فقيه حنفى كان عارفاً بالفقه والحديث والنحو والتصـــوف ، جـــاور بالأزهر كثيراً ، وأخذ عن كثير من علماء عصره . ت سنة ١٠٦٦ هـــ " الخلاصة " : (١ / ١٧٤) .

(٤) ســـلطان المزاحي – ٦ – المصرى الأزهرى ، فقيه شافعي درّس بالأزهر . ولد سنة ٩٨٥ هـــ ، وت سنة ١٠٧٥ هــ " الخلاصة " : (٢ / ٢١٠) .

(٥) انظر : " النعت الأكمل " : (١٨٢) .

الحجاوي [1]، وأجازه العلامة البدر الغزيّ [2] بمنظومة .

رحل إلى القاهرة ، ودرس بالجامع الأزهر وانتفعت به الطلبة وتخرجوا على يديه ومنهم الشيخ مرعي ، ومنصور البهوتي .

٣- ومن شيوخه بالقاهرة : أحمـد الغنيمـي :

هـو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن نور الدين المعروف بالغنيمى الأنصارى الخزرجي الحنفى المصري ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل سعد ابن عبادة * رضى الله عنه .[3]

---

(١) من أهل دمشق ، مفتى الحنابلة فيها ، كان بيده تدريس الحنابلة بالمسجد الأموي . (ت : ٩٦٨ هـ) ، وله ((الإقناع)) ، و ((زاد المستقنع)) . انظر: ترجمته فى" الكواكب السائرة " للغـزيّ : (٣ / ٢١٤) ، و " عنوان المجد " : قسم السوابـق : (١٩٤) ، و " الشذرات " وفيه أن وفاته : ٩٦٠ - : (٨ / ٣٢٧) .

(٢) محمـد بن رضى الدين محمد بن محمد بن بدر الدمشقى ، أبو البركات بدر الدين العامرى الغـزيّ الشـافعي (٩٠٤ - ٩٨٤ هـ) له من التصانيف : " آداب النكاح " ، و " ابتهاج المحتاج فى شرح المنهاج " للنووى .

انظـر : " هديـة العـرفين " : (٦ / ٢٥٤) ، و "شذرات الذهب " : (٨ / ٤٠٣) ، و " الأعلام " : (٤ / ٥٩) .

*سـعد بن عبادة هو الصحابي الجليل الأنصاري الخزرجي سيد الخزرج ، أحد النقباء ، وأحد مشـاهير العـرب فى الكـرم والجود ، وابنه قيس بن سعد أحد دهاة العرب وأذكيائهم ، وهو صحابي جليل أيضاً ، كادت الأنصار أن تجمع على سعد خليفة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، ثم جمع الله الأمة على أبي بكر ﷺ . انظر " السير " : (١/ ٢٧٠) .

(٣) " خلاصة الأثر " : (١ / ٣١٢) .

قـال عـنه المحبي في الخلاصة : " خاتمة المحققين ... وهو من أجل الشيوخ الذين انفردوا في عصرهم في علم المعقول والمنقول ، وتبحروا في العلوم الدقيقة والفنون العويصة التي استخرجوها بالنظر الدقيق ... " (١)

وقد كان شـافعي المذهب ؛ أخذه عن جلة من مشايخ الشافعيـة ، منهم الشيـخ محمد الرملي (٢) ، ونجم الدين الغيطي (٣) حتى أتقنه ودرَّس فيه ، ثم لما أخذ بعض وظائف التدريس الحنفية بالمدرسة الأشرفية صار حنفياً .

وكـان يلقـي دروسـاً بجـامع ابن طولون في التفسير وله مؤلفات منها ((أم البراهين في أصول الدين)) .

وقد ذكر صاحب ((الأعـلام)) أنه ولد في سنة أربع وستين وتسعمـائة ٩٦٤ من الهجرة (٤) .

وممـن انـتفع بـه مـن الطـلاب بالإضافة إلى الشيخ مرعي العـلامة الشبراملسي(٥) الذي قال عند وفاة صاحب الترجمة فيما حكاه عنه صاحـب

---

(١) " الخلاصة " : (١ / ٣١٢) .

(٢) شمـس الديـن محمد الرملي كبير الفقهاء الشافعية في عصره مولده ووفاته بالقاهرة (ت ١٠٠٤ هـ) له " نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج " .

انظر : " المنجد في الأعلام " : (٣١٠) .

(٣)محمد بن أحمد بن علي الكندري المصري الفقيه الشـافعي . له من التصانيف " الابتهـاج في الكلام على الإسراء والمعراج " . (ت : ٩٨١ هـ) .

انظر : " شذرات الذهب " : (٨ / ٤٠٦) ، و " هدية العارفين " : (٦ / ٢٥٢) .

(٤) " الأعلام " للزركلي : (١ / ٢٢٦) .

(٥) الشبراملسي : هو أبو الضياء علي بن علي الشبراملسي نور الدين فقيه مصري شافعي=

الخلاصـــة : " مات المعقول والمنقـــول بعـــده " [١] .

ولـــه مؤلفـــات كثـــيرة ، توفى رحمـــه الله سنـــة أربع وأربعـــين وألـــف من الهجـــرة (١٠٤٤ هـــ) .

٤- ومنهم الشيخ : محمد حجازى الواعظ :

هـــو محمد بن محمد بن عبد الله الأكراوى مولداً – نسبة إلى أكرا – وهى مـــن مـــنازل الحاج المصرى إلى الحجاز ، القلقشندى بلداً ، الشافعي مذهباً ، الخلوتـــى طريقة ، الشهـــير بالواعـــظ ، الإمام المحدث المقرىء ، نشأ بمصر وحفـــظ القـــرآن الكريم ومتوناً فى النحو والقرآات والفقه ، وأخذ عن كثير من مشايخ عصره حتى أن مشايخه يبلغون الثلاثمائة ومن أشهرهم ابن أركماس اليشـــبكى التركي [٢] قال صاحب الترجمة عنه : " وهو أعلى من لقيناه لسبقه بالسن " [٣]

وقـــال صاحب الترجمة أيضاً فى إجازته أحد تلاميذه – وهو شيخ الحنابلة بالشام : عبد الباقى البعلي [٤] – :

المذهـــب من أهل شبراملس بمحافظة الغربية . كفّ بصره فى طفولته وتعلم وعلم بالأزهر . توفى سنة ١٠٨٧ هـــ . " الخلاصة " : (٣ / ١٧٤) ، و " هدية العارفين " : (٦ / ٢٦٩) .

(١) " خلاصة الأثر " : (١ / ٣١٤) .

(٢) ابـــن أركماس : محمد بن أركماس اليشبكي النظامى الحنفى عضد الدين ، مفسر من آثاره تفســـير ســـورة ياســـين . انظـــر : " الضوء اللامع " للسخاوى : (٧ / ١٣١ ، ١٣٢) ، و " الخلاصة " : (٤ / ١٧٥) .

(٣) " خلاصة الأثر " : (٤ / ١٧٥) .

(٤) ستأتى ترجمته ضمن تلاميذ الشيخ مرعي .

" أروى بحـق الإجازة عن الشيخ محمد بن أركماس الحنفى المعمَّر الساكن بغيط العدّة بمصر إلى موته بحق إجازته عن شيخ الإسلام حافظ العصر أحمد ابن حجر العسقلانى ، وبحق اجتماعه مع الحافظ الجلال السيوطى ... إلى أن قال : فبفضل الله أنا منفرد بهذا الإسناد مشرقاً ومغرباً " (١)

أخذ عليه كثير من مشايخ عصره بالإضافة إلى الشيـخ مرعـي رحمه الله والشيخ عبد الباقى البعلي .

وُلد رحمه الله سنة سبع وخمسين وتسع مائة من الهجرة (٩٥٧ هـ) وتوفى سنة خمس وثلاثين وألف (١٠٣٥ هـ) أي بعد تلميذه الشيخ مرعي بسنتين ودفن فى بلده رحمه الله تعالى .

ولـه مصـنفات كـثيرة منها : ((فتح المولى النصـير بشرح الجامع الصـغير)) للسـيوطى ، و ((شـرح ألفـية الحديث)) للسيوطى أيضاً . وغيرهما كثير . (٢)

(١) " خلاصة الأثر " : (٤ / ١٧٥) .

(٢) الواعظ : انظر : " خلاصة الأثر " : (٤ / ١٧٥) ، و " هدية العارفين " : (٦ / ٢٧٦) و " الأعلام " : (٧ / ٦٢) .

تـــلامـــيذه

قـــال الأستاذ شعيب الأرناؤوط فى تحقيقه لكتاب : ((أقاويل الثقات)) : " ولم نقـــف فيما بين أيدينا من مصادر ترجمته على ذكر لتلاميذه مع أنه كان متصدراً للتدريس ... " [1]

وكذلك لم يتعرض الدكتور نجم خلف لذكر أحد من تلاميذ الشيخ مرعي رحمه الله [2]

وكذلك فعل الأستاذ مشهور حسن .[3]

وواضـــح أنهـــم اقتصـــــروا على قراءة ترجمة الشيخ مرعي فى الخلاصة والكتـــب الـــتى نقلت عنها ، ولم يبحثوا فى فى تراجم معاصريه ؛ الأمر الذى أداهم إلى هذه النتيجة .

هذا وقد تيسر لي معرفة عدد من تلامذته من خلال البحـــث فى تراجـــم القرن الحادى عشر ، وهذا بيانهـــم :

---

(١) " أقاويل الثقات " : شعيب ص (٣١) .

وهـــذا تقصـــير مـــنه وهـــو الذى أخرج مثل " السير " للذهبي ، و " الزاد " لابن القيم ، و " شـــرح الطحاويـــة " ، وقد زعم فى تحقيق الكتاب الأخير مقابلة مجموعة من المخطوطات ثم ظهـــر عدم عنايته بهذه المسألة حيث لم يشر إلى خلاف النسخ فى بعض مواطن الخلاف ، كما أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على جهد الشيخ الألبانى – رحمه الله تعالى – فى تخريجه لأحاديث الكتاب ، ولم يشر إلى ذلك وهذه مسألة تحتاج إلى تتبع وتحقيق نلفت النظر إليها .

(٢) انظـــر :مقدمـــة تحقـــيقه " للكواكب الدرية فى مناقب المجتهد " ابن تيمية ، وكذا كتاب " مسبوك الذهب فى فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب " .

(٣) انظر تقديمه لكتاب : " تحقيق الخلاف فى أصحاب الأعراف " .

١– أحمد بن يحيى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف ابن أحمد الكرمي . نسبة إلى طوركرم ، الحنبلي ، ابن أخي الشيخ مرعي ، كان من العلماء العاملين ، والأولياء الزاهدين ، ولد ببيت المقدس سنة (١٠٠٠) ألــف مــن الهجــرة وقرأ القرآن الكريم ببلدة طوركرم ، وأخذ الطريق عن العــارف بــالله تعالى محمد العلمي [١] ، ورحل إلى القاهرة سنة ست وعشرين وألف سنة ١٠٢٦ من الهجرة ، فأخذ بها الفقه وغيره من عمه العلامة الشيخ مرعي بن يوسف وعن محرر المذهب الشيخ منصور البهوتي وغيرهما ... وكان ملازمــاً للعبادة بمكانه المعروف بالجامع الأزهر ، مشتغلاً بالعلوم الدينية ، لا يــتردد عــلى أحد من أرباب الدنيا ، قانعاً باليسير من الرزق ، متقيداً بصلاة الجماعة فى الصف الأول بالأزهر الأوقات الخمسة .

وكانــت وفاته ليلة الجمعة رابع عشر صفر سنة إحدى وتسعين وألف من الهجرة ودفن بتربة الطويل بالمجاورين بقرب عمه الشيخ مرعي [٢].

٢– محمد الجمــازي : [٣] **هو محمد بن موسى بن محمد الجمازي نسبة إلى**

---

(١) هــو : محمد بن عمر بن محمد العلمي القدسي ، كان يسكن دمشق ثم حج وجاور ثم رجع إلى القــدس ، وكان معروفاً بالصلاح والتصوف . توفى سنة ١٠٣٨ هــ . " الخلاصة " : (٤ / ٧٨) ، و " هدية العارفين " : (٦ / ٢٧٦) .

(٢) انظر " الخلاصة " : (١ / ٣٦٧) ، والسحب الوابلة : ص (١١٧ ، ١١٨) ترجمة رقم (١٦٢) ، و " النعــت الأكمل " : (٢٤٩) ، وقد جزم صاحبا " السحب الوابلة "و" النعت الأكمل " بأن وفاته كانت فى سنة إحدى وتسعين .

(٣) أورد المحبيّ نسبه كاملاً إلى على بن أبي طالب رضى الله عنه ، " الخلاصة " : (٤ / ٢٣٤ ، ٢٣٥) .

عـــز الدين جماز بن شيحة بن هشام بن قاسم الحسيني ينتهي نسبهُ إلى علي ابن أبي طالـــب رضي الله عنه . المالكي المذهب ، كان أحد أهل زمانه في الأدب والفضل ، وكان صاحب مكانة في مصر تولى القضاء بمحكمة ابن طولون .

أخذ عن الشيخ مرعي ومحمد بن محمد الغزي [1] ، والنور الأجهوري [2].

ألـــف كتـــباً مـــنها : نظـــم عـــلى ((أم البراهين)) للسنوسي ، وشرح ((الأندلســـية)) في العــروض [3] ، وتوفي بمصر سنة خمس وستين وألف من الهجرة ، رحمه الله .

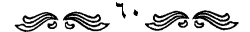
٣- عـــبد الباقي البعلي المواهبي : هو عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن إبراهيم بن عمر البعلي الدمشقي الحنبلي الأزهري الشهير بابن البدر ثم بـــابن فقيه فُصَّة – وبذلك ترجـــم له – ، محدث مقرىء فقيه مفسر . ولد بدمشق سنة خمس وألف من الهجرة (١٠٠٥ هـــ) ورحل إلى مصر سنة تسع وعشـــرين وألـــف (١٠٢٩ هــــ) ؛ حيـــث تعلم في الأزهر وأخذ الفقه عن الشيخـــين :

---

(١) هو : أبو المكارم محمد بن محمد الغزي العامري الدمشقي الحنفي ، نجم الدين مؤرخ باحث أديب . مولده ووفاته بدمشق . توفي سنة ١٠٦١ هـــ وله مؤلفات منها : ((الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة)) . " الخلاصة " : (٤ / ١٨٩ – ٢٠٠) .

(٢) هـــو : أبو الإرشاد علي بن محمد بن عبد الرحمن الأجهوري المالكي نور الدين ، ولد بمصر سنة ٩٦٧ هـــ وكان عارفاً بالفقه والحديث . توفي سنة ١٠٦٦ هـــ .

(٣) العروض : بفتح العين وضم الراء : علم أوزان الشعر .



مرعي الكرمي ؛ ومنصور البهوتي ، ثم عاد إلى دمشق ، ودرس على النجم الغزيّ ، وعبد الرحمن العمادي [1] .

وأفتى بعد ذلك فى دمشق ، وكان خطيباً بجامع منجك خارج دمشق .

لـــه مؤلفـــات منها : شرح الجامع الصحيح للبخارى ، واقتطاف الثمر فى موافقات عمر ، وعقد الفرائد فيما نظم أبو الفوائد ، ورياض الجنة فى آثار أهل السنة [2] ... وغيرها .

توفي فى دمشق سنة إحدى وسبعين وألف من الهجرة (١٠٧١ هـــ) .[3]

٤- أحمد بن مرعي بن يوسف : هو ابن الشيخ مرعي ، كان من العلماء الذيـــن تصدروا للتدريس ولهم تلاميذ معروفون ؛ فقد ذكره صاحب السحب الوابلة فى ترجمة الشيخ يوسف بن يحيى بن مرعي فقال :

" رحـــل إلى مصر لطلب العلم - الكلام عن يوسف بن يحيى - سنة أربع وأربعين وألف من الهجـــرة ، فأخذ بها عن الشيخ منصور البهوتى ، وعن عمه الشيخ أحمد بن الشيخ مرعي ... " [4] .

---

(١)عـــبد الـــرحمن العمادي : عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عماد الدين ، مفتى دمشق ومن أجـــلاء شيوخها . مولده ووفاته فيها . له ((الروضة الريا فيمن دفن بداريا)) . " الأعلام " : (٣ / ٣٣٢) .

(٢)وهو ثبت بأسماء شيوخه ذكر فيهم الشيخ مرعي وأنه أجازه بكل مؤلفاته .

(٣)انظر : " خلاصة الأثر " : (٢ / ٢٨٣ - ٢٨٥) ، و "النعـــت الأكمل " : ص (٢٢٣ - ٢٢٧) ، و " الأعـــلام " : (٣ / ٢٧٢) ، و " معجم المؤلفين " : (٥ / ٧٢) .

(٤)انظر : " السحب الوابلة " : ص (٤٩٩) ترجمة رقم : (٨٠٥) .

فيستفاد من هذا أن الشيخ أحمد بن مرعي كان يدرس بجوار هؤلاء المشايخ الكـبار أمثال البهوتي ومعاصريه . وأنه كان أهلاً لمزاحمة هؤلاء الكبار في مجال الـتدريس . لكننا نجد أن ابن حميد صاحب ((السحب الوابلة)) يذكر أنه لم يـبلغه معلومات عن الشيخ أحمد بن مرعي ؛ حيث يذكره في جملة من لم يبلغه عنهم شيء فيقول :

" ... وهـا أنا أذكر غالب أسمائهم ؛ لعل من يطلع على شيء من ذلك أن يطرز هذا الكتاب بأنبائهم لتتم الفائدة للطالبين ... ومنهم : ... والشيخ أحمد ابن العلامة الشيخ مرعي صاحب الغاية [1] وغيرها ... " [2]

فالعـادة تقضي بأن يكون قد لقي عناية من والده الشيخ مرعي حتى وإن كـان الشيخ مرعي قد خلف ولده صغيراً ؛ إذ لم تُشِر المراجع إلى سنة ولادة الشيخ أحمد ومدى تمتعه بصحبة والده .

٥- يحـيى بـن مـرعي بن يوسف : الابن الثاني للشيخ مرعي . ذكره - أيضاً - صاحب السحب والوابلة ضمن من لم يبلغه معلومات عنهم فقال :

" ... ومنهم : .. الشيخ يحيى بن المحقق الشيخ مرعي صاحب الغاية .." [3]

فشأنه شأن أخيه أحمد في رجحان تتلمذه على والده .

(١) انظر : " السحب الوابلة " : ص (٤٩٩ - ٥٠١) .

(٢) وهـو كـتاب " غايـة المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى " في الفقه الحنبلي . انظر : مؤلفات الشيخ مرعي .

(٣) انظر : " السحب الوابلة " : ص (٤٩٩ - ٥٠١) .

٦- الشـــيخ عيسى بن محمود بن محمد بن كنانة الدمشقى الصالحي الخلوتـــى .

ذكره ابن حميد فى السحب الوابلة وقال :

" ... وطلب العلم على مشايخ أجلاء منهم : الشيخ مرعي ... " (١)

ومن المؤكد أن يكون للشيخ مرعي تلاميذ كثيرون غير من ذكرنا . كيف لا وقد تصدر للتدريس بالجامع الأزهر ، وتولى مشيخة جامع السلطان حسن مدة من الزمن ، وكذلك درس بجامع ابن طولون ، وانقطع للإفتاء والتدريس والتألـــيف ، فلا شك أن يكون له تلاميذ كثر غير أن الذين ترجموا للمصنف جرت عادهم أن يذكروا عدداً قليلاً من شيوخ وتلاميذ المترجم له على سبيل المثال لا الحصر .

ولعل فيما جمعت الكفايـــة .

* * *

(١) " السحب الوابلة " : ص (٣٢٧) ، ترجمة رقم : (٥٠٦) .

منـــزلته العلميـــة

وأراء العلمـــاء فيـــه

مـــن ثمارهم تعرفونهم ... خلف الشيخ مرعي رحمه الله تعالى مؤلفات تنبيء عن مدى علمه وتنوع معارفه .

ولقـــد أفردتُ لمؤلفاته – حصراً وتعريفاً – فصلاً خاصاً ، وإنما غرضى هنا الإشارة إلى أن الشيخ مرعي كان من العلماء الموسوعيين الذين صنفوا فى كثير من ميادين المعارف الإسلامية ؛ الأمر الذى دفع ((بروكلمان)) إلى أن يترجم لـــه فى قســـم الموسوعيين من كتابه تاريخ الأدب العربى ؛ ولم يجعله بين الذين تميزوا فى فن واحد كالفقهاء أو المفسرين أو النحاة ... أو غيرهم . [١]

وتدلـــيـــلاً على موسوعية الشيخ مرعـــي أقدّمُ خلاصةً ؛ مَحَلُّ تفصيلها الفصل الخاص بمؤلفاتـــه .

ففى علوم القرآن الكريم من تفسير وتجويد وناسخ ومنسوخ ... نجده رحمه الله قد برّز فى هذه العلوم كما قال صاحب ((فوائد الارتحال)) :

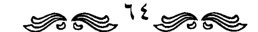
" ... ولد بطوركرم .. وحفظ القرآن الكريم وجوده ببيت المقدس .. " [٢]

ثم إنـــه ثابر فى دراسة هذا الجانب حتى صار من العلماء المصنفين فيه ؛ ففى عـــلم الـــتجويد صنف : ((تحفة المريد لمعرفة التجـــويد)) ، وفى التفســـير

---

(١) بروكلمان : " تاريخ الأدب العربى " : قسم الموسوعيين : (٢ / ٣٦٩) ، والذيل عليه : (٢ / ٤٩٦) .

(٢) " فوائد الارتحال " مخطوط بدار الكتب : تاريخ تيمور : فلم : (١٠٤١٦) .



صنف : ((البرهان فى تفسير القـــرآن)) . ورسائـــل أخرى تُذكر فى بابها إن شاء الله ، وفى الناسخ والمنسوخ صنف : ((قلائد المرجان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن)) .

وفى باب الفقه درس المذهب الحنبلى وتخصص فيه إلاّ أنه لم يقتصر عليه بل تنوعـــت مذاهب شيوخه ما بين الحنابلة والشافعية والأحناف ، يتبين هذا من خـــلال الـــنظر فيمن تحققنا من تلمذته عليهم ، فشيخه : أحمد الغنيمى كان حنفـــيـــاً ، وشيخه محمد حجـــازى كان شافعياً ، والشيخان محمد المرداوي ويحيى الحجاوىّ كانا من علماء الحنابلة .

وفى هذا المعنى يقول صاحب ((فوائد الارتحال)) وغيره :

" أخـــذ ... عن ... كثير من مشايخ المصـــريين ، وأجازه شيوخه وتصدر للإقــــراء والـــتدريس بالجـــامع الأزهـــر ، ثم تولى المشيخة بجامع السلطان حسن .. " (١)

فـــلا ريـــب أن هذا التنوع فى المشرب يعطى قوة فى العلم وسعة فى الأفق وإلمامـــاً باخـــتلاف المذاهـــب ، ودراية بأصول كل مذهب الأمر الذى جعل أقـــرانه ؛ بل وشيوخه يمدحون مصنفـــاته ويثنون عليها ؛ بالرغم مما يكون بين الأقران عادة من التنافس الذى قد يورث الحسد .

وقـــد اعـــتنى المؤرخون بذكر ثناء العلماء عليه وعلى مصنفاته فهذا المحبى صاحب الخلاصة يقول :

---

(١) " فوائد الارتحال " .

" قــرَّض [1] لــه على ((الغاية)) و ((الدليل)) [2] نظمــاً ونثراً علماءُ عصــره مـــن جمــيع المذاهب منهم الشيخ : يحيى الحجاويّ ، وشيخ الإسلام أبـــو المواهب البكري ، والشيخ أحمد عبد الوارث الصديقي والشيخ عبد الله الدوشـــري ، والعلامــــة الفرضـــى الشـــيـــخ عـــبد الله الشنشوري ... وغيرهم " [3]

فـــلا يخفى ما فى ذلك من دلالة كافية على مكانة الشيخ مرعي بين أقرانه وشيوخه حتى أن شيوخه مدحوا مصنفاته وأثنوا عليها .

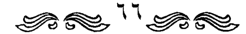
وفـــيما يـــتعلق بعلـــوم اللغة من نحو وبلاغة وشعر وغيره نجده على هذا المســـتوى مـــن التمـــيز فقـــد صنف فى علم النحو : ((دليل الطالبين لكلام النحويين)) ، وفى فن البلاغة والبيـــان صنف : ((بديع الإنشاء والصفات فى المكاتـــبات والمراسلات)) وفى جانب قرض الشعر أجمع كل من ترجم له على أن له ديوانـــاً وإن لم نـــتمكن – بعد – من الحصول عليه أو معرفة مكانه من مكتـــبات العـــالم فإنـــنا من خلال الاطلاع على الأبيات التى ذكرها صاحب الخلاصـــة و ((نفحـــة الريحانة)) نستطيع الحكم بأنه كان على دراية بالبديع والصنعة اللغوية ، وعلى تأثر بالفقه فى صوغه الشعر .

---

(١) الأشـــهر أن تكون (بالظاء) قرّظ . وهذا الإبدال بين حرفى الضاد والظاء معروف كثير ، لكن كلاهما – ١٧ – صواب كما فى " اللسان " مادة ((قرظ)) ص (٣٥٩٤) .

(٢) " الغايـــة " و " الدلـــيل " كتابان فى الفقه الحنبلى ، يذكر مزيد من التعريف بها فى الفصل الخاص بذلك

(٣) " خلاصة الأثر " : (٤ / ٣٥٨) وما بعدها .



وسوف أعرض لشيء من شعره والتعليق عليه إن شاء الله عند الحديث عن ديوانـــه فى الفصل الخاص بآثاره العلمية ومصنفاته ولا يفوتنى الإشارة إلى أن أســـلوبه الذى صاغ به مؤلفاته يشهد لتمكنه اللغوى ، وسوف يبدو ذلك من خلال النص المحقق وغيره من المخطوطات التى اطلعت عليها .

وفى جانب علم الحديث نجد أنه قد تلقى العلم على الشيخ حجازى الواعظ الـــذى يروى عن ابن أركماس (١) الذى يروى بدوره عن الإمام ابن حجر (٢) والحـــافظ الجلال السيوطى(٣) وهذا له أهمية كبرى عند المحدثين الذين يهتمون اهتماماً كبيراً بعلو الإسناد واتصاله .

وقد صنف رحمه الله مؤلفات فى الحديث منها :

((تحســـين الطـــرق والوجوه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : ((اطلبوا الخـــير عند حسان الوجوه)) ، و ((الأربعون فى الأمر بالمعروف)) وغيرهما ويأتى التعريف بهذين المصنفين وغيرهما فى فصل مصنفاته إن شاء الله .

ويـــبدو واضـــحاً اعـــتماده الحديـــث فى الترجيح عند الخلافات الفقهية أو العقدية الأمر الذى يعبر عن تأثره بمنهج المحدثين والحنابلة .

* * *

---

(١) " الخلاصة " : (٤ / ١٧٥) ، وقد سبقت ترجمته .

(٢) هـــو الإمـــام أبو الفضل أحمد بن على بن حجر صاحب " فتح البارى " ، أشـــهر من أن يترجـــم له ، ولد سنة ٧٧٣هـــ وتوفى سنة ٨٥٢ هـــ بمصر .

(٣) أبـــو الفضل محمد بن الكمال أبى بكر السيوطى ، ولد سنة ٨٤٩ هـــ ، وتوفى سنة ٩١١ هـــــ ، له مؤلفـــات كـــثيرة فى كثير من مجالات المعارف العربية والإسلامية . ترجم له الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ترجمة وافية فى مقدمة كتاب " تدريب الراوى " .

حيـــاتـــه الخـــاصـــــة

لا ترتـــبط شـــهرة العالم فى أغلب الأحيان بمعرفة المؤرخين لتفاصيل حياته ومراحـــلها لأن شهرته ومكانته إنما تعرف فى الغالب فى فترة التألق والنضج العلميّ ، وربما لسبب أو لآخر لم نعرف مكانته إلاّ من خلال ما ترك من آثار ، وهنا يكون جمع المعلومات عن حياته خاضعاً للواقع أكثر منه للمراد .

والشيخ مرعـــي رحمه الله لم يذكر أحد ممن ترجـــموا له شيئاً عن حياتـــه الخاصـــة إلاّ إشارة سريعة عن منازعة كانت بينه وبين الشيخ إبراهيم الميمونى رحمه الله على مشيخة مدرسة السلطان حسن ، وقد انتهت هذه المنازعة بانتقال المشيخة من الشيخ مرعي إلى الشيخ إبراهيم الميمونى .(١)

وإذا كانـــت المراجع لم تشر إلى شيء من حياة الشيخ فإنه من خلال هذا الكـــم الكـــبير من المؤلفات التى خلفها الشيخ مرعي والتى تربو على السبعين كـــتاباً ، بل بلغ بها الدكتور بكر أبو زيد المائة . أستطيع القول أن الشيخ كان منقطعاً للعلم تعلماً وتعليماً وتأليفاً مجتنباً لأصحاب السلطان عفيفاً عما بأيديهم مـــن الدنيا ، فلو كان متردداً على أصحاب السلطان لاحتفظ بمشيخة مدرسة السلطان حسن ، وكذلك تبدو عفته عما بأيديهم من الدنيا من خلال تصديره لكـــتابه رفـــع الشـــبهة بهذين البيتين اللذين نسبهما إلى الأمير يحيى بن خالد البرمكى – من أمراء الدولة العباسية – ذكرهما متمثلاً بهما كأنهما شعار له فى حياته :

---

(١) انظر : " الخلاصة " : (١ / ٤٦) . وقد ألّف الكرميّ فى ذلك رسالته ((رواشق السهام)) انظر : مؤلفاته .

ما اعتاض باذل وجهه بسؤالـه   عوضـاً ولو نال الغـنى بسـؤال

وإذا السؤال مع النوال قرنتـه   رجـح السؤال وخـفّ كل نوال[1]

وكـأني به يتمثل موقف إمامه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مع ابنه صالح وقـد أرسـل بعضُ الميسورين إلى الإمام بمال جزيل فردّه . وأسف ابنُه صالح لذلـك . ثم بعد عام من هذه الحادثة ذكّر الإمامُ ابنَه صالحاً بذلك المال قائلاً : يـابني لو كنتُ قبلت المال لم يأت عليه هذا الوقت وهو عندنا ، إنما هو طعام دون طعـام وملـبس دون ملبس . فقد مرّ الوقت بسعته أو بشدّته ولم يبذل وجْهَهُ المتعففُ .

ولا شك أن الشيخ مرعي متأثر فى شعاره هذا بإمامه الإمام أحمد ، ولم يكن تأثره هذا مجرد تقليد بل بلغ مبلغ العشق حيث أنشأ يقول :

لئن قلد الناس الأئمـة إننى   لفى مذهب الحبر ابن حنبل راغب

أقلد فتـواه وأعشـق قولـه   وللناس فيما يعشقـون مذاهـب

وإن العالم إذا خالـط العلـم بشاشة قلبه كان حريصاً على أن يذيق أبناءه لذة ذلك الكأس . فقد ترك الشيخ مرعي رحمه الله خلفاً من أهل العلم منهم ولـداه وابـن أخيه وحفيده وابن حفيده . هذا فى حدود ما ذكره أصحاب التراجم .

أما ولداه فأحمد ويحيى ذكرهما صاحب السحب الوابلة وقد ذكرتهما ضمن تلاميذه وترجمت لهما هناك .

(١) انظر تقديم النص المحقق : ص (٩١) .

وأما ابن أخيه فأحمد بن يحيى بن يوسف ، وقد ترجمت له أيضاً ضمن تلاميذ الشيخ .

وأمـــا حفيده فهو الشيخ يوسف بن يحيى بن مرعي تتلمذ على عمه الشيخ أحمد بن الشيخ مرعي قال عنه صاحب الخلاصة : " يوسف بن يحيى بن مرعي الطوركرمى النابلسى مفتى الحنابلة بنابلس ، الشيخ الفاضل الفقيه ... كانت وفاته سنة ثمان وسبعين بعد الألف " .

وأما ابن حفيده هذا فإنه الشيـــخ مصطـــفى بن الشيخ يوسف فكان أيضاً من علماء الحنابلة ، من تلاميذه العلامة الشيخ محمد السفاريني صاحب لوامع الأنـــوار .

وجملة القول :

كان الشيخ مرعي رحمه الله من أسرة تقدر العلم وتُعرف به .

* * *

المبحــث الثــالــث

مــؤلفــاتــه

اهتم كل من ترجم للشيخ مرعي بالإشارة إلى كثرة مؤلفاته . فهذا المحبى يشــير إلى أن للشيخ أكثر من سبعين كتاباً وقال بهذا الرقم أيضاً من المؤرخين الغزىّ صاحب : ((النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل)) والشيخ محمد بن عبد الله بن حميد صاحب : ((السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة)) والشيخ إبراهيم بن ضويان صاحب : ((رفع النقاب عن تراجم الأصحاب)).

وبهذا أيضاً قال كل من حاجى خليفة والزركلي فى كتابيهما كشف الظنون والأعلام فى ترجمة الشيخ مرعي رحمهم الله .(١)

بل زاد الدكتور : بكر أبو زيد على هذا الرقم حيث قال فى تحقيقه لكتاب ((السحب الوابلة)) .

" مــرعي بن يوســف : ... وأغلب مؤلفاته سالم من الضياع وهو موجود بنســخ مــتعددة ، اطلعت ولله الحمد على أغلبها وذكرت فى مذكراتى أشياء لم يذكــرها بروكــلمان فى مكتــبات خاصة أو عامة لم تفهرس فشارفت مائة كتاب ... " .(٢)

---

(١)أرقــام صفحات المراجع هى المثبتة فى أول ترجمة الشيخ مرعي فى مبحث التعريف بالمؤلف ص (٤٦) .

(٢)انظر : " السحب الوابلة " : (٣ / ١١١٨) ترجمة رقم (٧٦٠) .

مؤسسة الرسالة . تحقيق الدكتور بكر أبو زيد وزميله

هــذا فيما يتعلق بعدد مصنفاته ، أما فيما يتعلق بنوعيتها وكيفيتها : فهذا صاحب النعت الأكمل يقول عنها :

" ... صاحب التآليف العديدة والفوائد الفريدة والتحريرات المفيدة ..."(١)

بــل إن عــلماء عصره وشيوخه مدحوا مؤلفاته كما حكى ذلك صاحب السحب الوابلة حيث قال :

" قــرض (٢) له عــلى الغاية والدليل نظمــاً ونثراً علماءُ عصره من جميع المذاهــب مــنهم شيخه الشيخ يحيى الحجاوى ، وشيخ الإسلام أبو المواهب الــبكرى ، والشــيخ أحمــد بن عبد الوارث الصديقــى ، والشيخ عبد الله الدوشــرى ، والعــلامة الفرضى الشيخ عبد الله الشنشورى وغيرهم .. " (٣)

وقــد تتبعت كتبه من خلال فهارس دور الكتب وما أمكننى العثور عليه ، وهــذا ثبت بها مرتبة على حروف المعجم مع ذكر مكانها والتعريف الموجز بها حسب الإمكان :

(١) – إحكام الأساس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ .

توجــد مــنه نســخة بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة فقه شافعي رقم (٢٨٦) . الكتبخانة : (٣ / ٢٧٠) .

---

(١) انظر : " النعت الأكمل " : ص (١٨٩) .

(٢) قال فى " اللسان " : " قولهم : فلان يقرّظ صاحبه تقريظاً بالظاء والضاد جميعاً . إذا مدحه بباطل أو حق " . انظر : " لسان العرب " : مادة قرظ ص (٣٥٩٤) .

وإنما ذهبت إلى هذا لقوله : ((نظماً ونثراً)) فخرج قرض الشعر .

(٣) انظر : " السحب الوابلة " : ترجمة رقم (٧٦١) ، ص (٤٦٣ – ٤٦٧) .

(٢) إرشاد ذوى العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان .

وقـد حققـه الأسـتاذ / مشهور حسن . ط ١ دار عمار . بالأردن سنة ١٤٠٨ هـ .

(٣) أقاويل الثقات فى الأسماء والصفات .

وقـد حققـه الأستاذ / شعيب الأرناؤوط سنة ١٤٠٦ هـ . وصدر عن مؤسسة الرسالة . بيروت .

(٤) بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات .

ويعـرف بإنشـاء مرعي : منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٣ أدب تقع فى ٤٧ ق ، وأخرى فى أدب طلعت رقم ٤٥٥٩ تقع ٤٠ ق .

(٥) بهجة الناظرين وآيات المستدلين .

يوجد منه نسخة بدار الكتب المصريـة علم كلام رقم (١٧٠١) تقع فى ٢٣٤ ق ، ولـه نسخ أخرى كثيرة بالدار أرقامها فى فهرس المؤلفين بالدار ، واكتفيت بذكر رقم منها .

(٦) تاريـخ مرعـي .

يوجد منه نسخة بدار الكتب بالخزانة التيمورية رقم (٣٠٣) تاريخ .

(٧) تحقيق البرهان فى إثبات حقيقة الميزان .

منه نسخة بدار الكتب . المكتبة الزكية . رقم (٢٩٢) تقع فى ٢٠ ق .

(٨) تحقيق الخلاف فى أصحاب الأعراف .

وقــد حققه الأستاذ / مشهور حسن ، ونشرته دار الصحابة بيروت سنة ١٤٠٨ هـــ .

(٩) تحفة المريد بمعرفة التجويد .

وتوجــد مــنه نســخة بدار الكتب . قرآآت خليل أغا رقم ٤ . وتقع فى ٥٨ ق .

(١٠) تحقيق البرهان فى شأن الدخان الذى يشربه الناس الآن .

ومــنه نســخة بــدار الكتـــب فقــه تيمور رقم (٤٦٢) ، وتقع فى ١٦ ص .

(١١) تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك من رمضان .

منه نسخة بدار الكتب فقه حنبلى رقم (١٥٣) تقع فى ١٠ ق ، وأخرى بالمكتبة التيمورية تقع فى ٢٨ ق ضمن مجموع رقم (٣٩٥) .

(١٢) ترجمة الإمام أحمد بن تيمية .

مــنه نسخة بدار الكتب . تاريخ تيمور رقم (١١٥٤) ، وتقع فى ١٢٠ صفحة وأخرى رقم (٨٧٦) ، تقع فى ١٤٩ ص .

(١٣) تشويق الآنام إلى حج بيت الله الحرام .

منه نسخة بدار الكتب . فقه حنبلى رقم (١٥٤) وتقع فى ٣٠ ق .

(١٤) التفصيل بين التفسير والتأويل .

مخطوط بدار الكتب رقم (٣٤٤٤) .

(١٥) تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين .

مـــنه نســـخة بدار الكتب رقم (٢١٢٠) تاريخ ، وتقع فى ١٤٤ ق ، وأخرى تاريخ طلعت رقم (١٩٣١) ف تقع فى ١٤٠ ق . ونسخ أخرى .

(١٦) تهذيب الكلام فى أرض مصر والشام وما يترتب عليها من الأحكام .

مـــنه نســـخة بـــدار الكتب فقه حنبلى رقم (١٢٩) ، تقع فى ١٦ ق ، وأخرى فقه تيمور رقم (٤٣٠) ، تقع فى ٣٥ ص .

(١٧) توضيح البرهان فى الفرق بين الإسلام والإيمان .

مـــنه نسخة بدار الكتب : المكتبة التيمـــورية ضمن مجموع رقم (٣٩٧) عقائـــد ، تقع فى ١٣ ق .

(١٨) توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين .

ذكره الشيخ مرعي ص (٩٠) من الرسالة المحققة ، والشيخ محمد بن أحمد الســـفاريني فى كتابه : ((لوامع الأنوار البهية .. شرح الدرة المضية فى عقائد الفرقة المرضية)) ٢ / ٢٣٥ ، والشيخ الألباني حفظه الله فى تقديمه لكتاب ((رفـــع الأستار عن أدلة القائلين بفناء النار)) ص ٣٤ ، غير أني لم أعثر له على مخطوط بفهارس دار الكتب .

(١٩) جامع الدعاء وورد الأولياء ومناجاة الأصفياء .

مخطـــوط بـــدار الكتـــب المصرية . تصوف : رقم (١٥٤٢) ، يقع فى ٢٤ ق .

(٢٠) دليل الطالبين لكلام النحويين .

ذكره الزركلي ثم قال : ((... له نسخة فى الفاتيكان رقم (٨٣٢) ..))

(٢١) دليل الطالب لنيل المطالب فى الفقه الحنبلى .

اختصره من كتاب غاية المنتهى له أيضاً . منه نسخة بدار الكتب رقم ١٢ فقـه حنبلى طلعت . وقد طبع وشرح ، شرحه الشيخ إبراهيم بن ضويان فى كتابه المسمى ((منار السبيل شرح الدليل)) فى الفقه الحنبلى ، وخرج أحاديثه الشيخ الألباني حفظه الله فى كتابه العظيم ((إرواء الغليل بتخريج أحاديث منار السبيل)) كلاهما طبع فى المكتب الإسلامى .

(٢٢) رفع التلبيس عمن توقف فيما كفر به إبليس .

منه نسخة بدار الكتب المصرية . بخط تلميذ المؤلف (محمد الجمازى) رقم (٢١٦) مجاميع .

(٢٣) رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصى بالقدر .

منه نسخة بدار الكتب المصرية : توحيد رقم (٦٢) نقلت عن نسخة بخط المؤلف ، تقع فى ٢٢ ق .

وأخـرى فى التيمـورية مجاميع رقم (٣٩٥) ، وتقع فى ٤٨ ص ، وثالثة فى تونـس ضمن مجموع رقم (٧٨٦٥) كله للمؤلف ، وقد حصلت عليه . وهو المخطوط الذى قمت بتحقيقه ودراسته .

(٢٤) رواشـق السهـام .

مـنه نسـخة بـدار الكتب : المكتبـة الزكيـة رقم (٢٧٣) ، تقع فى ٢١ ص ، ومضـمونه الشـكوى من عَصْرِيِّه إبراهيم الميمونى ، وقد نوّه فيه الكرمى بمؤلفاته ومنـزلته .

(٢٥) سلوان المصاب بفرقة الأحباب .

ذكــره بروكلمان فى الذيل : (٢ / ٤٩٧) ، وذكر أن له نسخة فى بيت ليدن رقم (٥٢٨) .

(٢٦) شفاء الصدور فى زيارة المشاهد والقبور .

منه نسخة بدار الكتب : أخلاق تيمور رقم (١٢٢) ، تقع فى ٢٤٧ ص وثانية فى دار الكتب التونسية ضمن مجموع رقم (٧٨٦٥) قد حصلت على مصورة له .

(٢٧) الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية .

منه نسخة فى دار الكتب التونسية ضمن المجموع سابق الذكر وقد حصلت عــلى مصورة له . وقد طبع بتحقيق د / نجم خلف . فى دار الفرقان ومؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٣ م سنة ١٤٠٤ هـ . ط ١ .

(٢٨) غاية المنتهى فى الجمع بين الإقناع والمنتهى . فى الفقه الحنبلى .

مــنه نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٢٩٦٥٨) ، تقع فى ٣٩٥ ق . وهــو مطــبوع فى ثــلاث مجلــدات فى دمشق . منشورات دار السلام سنة ١٩٥٩ م .

(٢٩) غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح .

منه نسخة بدار الكتب : أدب تيمور رقم (٦٦٦) ، تقع فى ٣٠ ص .

(٣٠) فرائد فوائد الفكر فى الإمام المهدى المنتظر .

مــنه نســخة بــدار الكتب المصرية : تصوف رقم (٢٢١٣) ، تقع فى ١٩ ق .

(٣١) الفوائد الموضوعة فى الأحاديث الموضوعة .

وقـد نشـره الأستاذ محمد الصباغ فى مجلة أضواء الشريعة عدد ٦ لسنة ١٣٩٠ هـ .

(٣٢) قلائد العقيان فى فضائل آل عثمان .

منه نسخة فى معهد المخطوطات العربية . ف ٤٨٧ .

(٣٣) قلائد المرجان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن .

منه نسخة بدار الكتب رقم (٦٦٨) ، تقع فى ١٥٤ ق ، ونسختان فى التيمورية ضمن مجموع رقم (١٠٦) تفسير ، ومجموع (٥٨٦) تقع فى ٦٤ ص .

(٣٤) القول المعروف فى فضائل المعروف .

جمع فيه أربعين حديثاً فى هذا الموضوع . توجد منه نسخة بدار الكتب : المكتبة التيمورية : مجموع رقم (٢٧٢) .

(٣٥) الكلمات السنيات . تفسير .

منه نسخة بدار الكتب : مجاميع رقم (٢٤٣ / ٢) من ص (٩ – ١٤)

(٣٦) الكواكب الدرية فى مناقب المجتهد ابن تيمية .

وهو ترجمة لمناقب شيخ الإسلام جمعها من مناقب ابن تيمية لابن عبد الهادى والبزار وأحمد بن فضل .

فرغ منه سنة ١٠٢٧ هـ . وهو " ترجمة ابن تيمية " السابق رقم (١٢) من هذا المسلسل ، وقد حققه د / نجم خلف فى دار الغرب الإسلامي بيروت

سنة ١٤٠٦ هـ .

(٣٧) اللفظ الموطا فى بيان الصلاة الوسطى .

توجد منه نسخة بالتيمورية ضمن مجموع رقم (٣٩٥) .

(٣٨) مسبوك الذهب فى فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب .

منه نسخة بدار الكتب التيمورية ضمن مجموع رقم (٣٩٥) ، وأخرى فى تونس ضمن المجموع السابق الذكر . وقد حصلت على مصورة عنه .

(٣٩) نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

وهو تاريخ مختصر ، ابتدأ فيد بذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وثنى بذكـــر الخلفاء الراشدين فمن بعدهم حتى وصل إلى خلفاء الدولة العثمانية فى عهد أحمد باشا والى مصر .

وتوجد منه نسختان بدارالكتب المصرية ضمن مجموع رقم (١١٧٠٦ ح) تقـــع فى ١٠٠ ق ، وأخـــرى بـــرقم (٢٠٧٦) ، ونسخ أخرى بالتيمورية والزكية .

(٤٠) نزهة نفوس الأخيار ، ومطلع مشارق الأنوار .

منه نسخة بالمكتبة الأزهرية رقم (٢٤١٩) تقع فى ٢٦ ق .

(٤١) النور الزهر فى الكلام على الخضر .

وهـــو يـــتحدث فـــيه عن الخضر واسمه واسم أبيه وحياته ، وهل هو نبى أو ولىّ .

منه نسخة فى التيمورية رقم (٢١٦) مجاميع .

(٤٢) القول البديع فى علم البديع .

ذكـــره الشـــيخ مرعي فى كتابه أقاويل الثقات ص (١٥٧) حيث قال : " ... أحسن من هذا ما أوردته فى كتابى القول البديع فى علم البديع ... "

هذا ما تيسر لى حصره من مؤلفات الشيخ مرعي رحمه الله .

وقد ذكرت أماكن وجودها إن كانت مخطوطة وطبعتها إن كانت طبعت ، ومن خلال استعراض عناوينها يظهر جلياً تنوع فنونها ما بين كتب فى العقيدة وأخـــرى فى الفقـــه أو التصوف أو التاريخ أو النحو أو البلاغة أو التفسير أو التجويد ، والله المستعان على أن تخرج هذه المخطوطات إلى النور محققة ينتفع بها طلاب العلم .

هـــذا ولـــلمؤلـــف رحمه الله كتب أخرى ذكرها أصحاب التراجم لكن لم يتيسر لي معرفة أماكن وجودها بعد الجهد ، فمن ذلك :

(١) ((ديـــوان شـــعر)) وذكر أصحاب التراجم بعض النتف الشعرية فى ترجمته . ذكره صاحب إيضاح المكنون ص (٥٢٦) يعرف بديوان الكرمى .

(٢) إعراب : ((لا إله إلا الله وحده)) .

(٣) مقدمة الخائض فى الفرائض .

(٤) معرفة المقصور والممدود .

(٥) تفســير القــرآن – لم يتم – هذه الكتب ذكرها الشيخ إبراهيم ابن ضويان فى كتابه رفع النقاب عن تراجم الأصحاب فى حرف الميم فى ترجـــمة الشيخ مرعي نقلتها عن جهاز الميكروفلم بدار الكتب المصرية .

والشـيـخ مـرعي نفسه ذكر هذا التفسـير لـه حيث قال فى (رفع الشـبهـة) صفحـة (٥٣ ، ٧٥) : " ... ومن هنا يُعلم جواب ما كنت أوردته فى كتابى : البرهان فى تفسير القرآن ... " .

ثم رأيـت أسـتاذنا الدكتور الجليند حفظه الله قد ذكر هذا التفسـير فى مقدمـة كتـاب : ((دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية)) حيث قـال : " إن ابن عروة الحنبلى صاحب مجموعة الكواكب الدرارى قد وضع تفسيراً للقرآن ضمن هذه المجموعة ، وجاء تسجيله لتفسير ابن تيمية متداخلاً مـع تفسـير ابن مرعي الحنبلى من هذه المجموعة ، والذى درس ابن تيمية وعـرف روحـه فى الكـتابة والحـوار والجدل وطريقته فى إيراد النصوص للاسـتدلال بهـا لا يجد صعوبة فى تلمس منهج ابن تيمية وروحه فى كثير من تفسـير ابـن مـرعي ((المبْثوث فى مجموعة الكواكب الدرارى مما يدعو إلى التساؤل !! هل كتب ابن مرعي هذا التفسير المنسوب إليه كله ؟ أم أنه كتب الـبعض وأضـاف إلى نفسه بعض ما كتبه ابن تيمية فى كثير من ذلك ؟ أم أن صـاحب مجموعة الكواكب الدرارى قد اختلط عليه الأمر ؟ هذه قصة تحتاج إلى دراسـة مستقلة ألفت النظر إليها ، غير أنى أشك الشك كله فى نسبة كثير مـن هـذا التفسير إلى ابن مرعي . وخاصة تفسير سورة الأحزاب وسبأ فإن روح ابـن تيمية تكاد تسرى بين سطور هذا الجزء من التفسير ولا يتسع المقام هنا لعرض النصوص ومقارنتهـا ليتبين لنا ما نريد . لكن ذلك لا يعفينـا من لفت نظر الدارسـين إلى هذه المشكلة .)) [1] .

---

(١) انظر : دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية : (١ / ١٧) .

وقد استفدت من كلام أستاذنا الدكتور عدة ملاحظات :

الأولى :

ذكـرتْ كتبُ التراجم ضمن أسماء كتب الشيخ مرعي كما ذكر هو نفسه ضمن الرسالة المحققة أن له تفسـيراً كما أوضحت سابقاً وأنه سماه ((البرهان فى تفسـير القـرآن)) وأشـار أصـحاب التراجم إلى أنه لم يتمه ، ولم يشر بروكـلمان ولا الزركلي ولا أصحاب فهارس المخطوطات إلى مكانه من دور الكتب .

ومـن خـلال وصـف أسـتاذنا الدكـتور محمد السيد الجليند لمجموعة ((الكواكب الدرارى لابن عروة الحنبلى)) [1] استفدت معرفة وجود تفسير الشيخ مرعي بدار الكتب ضمن هذا المجموع .

الثانية :

أشـار أستاذنا الدكتور إلى الشبه الكبير بين أسلوب هذا التفسير وأسلوب شـيخ الإسلام حتى إنه يشك أن يكون هذا الكلام لابن تيمية نفسه وقد نسبه الشيخ مرعي إلى نفسه .

وقـد رأيت من خلال دراستى للمخطوط الذى بين يدىّ أن الشيخ مرعي مـتأثرٌ فـيه تأثراً كبيراً بشيخ الإسلام حتى إنه ينقل عنه نقلاً كثيراً ويشير إلى ذلـك بقوـله قال ابن تيمية أو قال شيخ الإسلام وإن كان لا يسمى الكتاب الذى نقل عنه .

---

(١) مخطوط بدار الكتب تحت رقم (٦٤٥) تفسير .

وبــناءً على هذا فإن التفسير لا شك أن الشيخ مرعي نقل فيه الكثير من كلام شيخ الإسلام رحمه الله وضمنه كتابه .

الثالثة :

أرى أن هــذا العمـــل لا يعد من قبيل السرقات إذ إن كثيراً من المصنفين القدامى كان هذا أسلوبهم ؛ أن يأخذوا نصاً كبيراً من مصنف سابق عليهم ولا يعــزون إليه أو يعزونه إلى صاحبه دون الإشارة إلى اسم الكتاب الذى اخذوا مــنه كمــا وجدنا ذلك الصنيع من الشيخ مرعي فى هذه الرسالة ، حيث إنه كثيراً ما يقول قال ابن تيمية ولم يذكر إلاّ كتاباً واحداً له أخذ عنه .

الرابعة :

يلاحــظ أن ابــن عروة الحنبلى المتوفى سنة ٨٣٧ هــ متقدم الوفاة على الشيخ مرعي الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ هــ بأربع سنين ومائتى سنة .

وبناءً على ذلك فإن تضمين تفسير الشيخ مرعي ضمن مجموعة الكواكب الــدرارى لــيس من عمل ((ابن عروة الحنبلى)) ، وإنما هو من عملٍ متأخرٍ عــنهما ، مما يدل على خطأ نسبة هذا المجموع لابن عروة من حيث الفهرسة بــدار الكتــب ، أو يكــون أضافه إلى ذلك المجموع بعض المتملكين له ، أو القائمين على فهرسة المخطوطات بالدار .

الخامسة :

إن نسبة هذا التفســير إلى ((ابن مرعــي)) خطأ من الناسخ ، إذ إن اسمه ((مرعي الكرمي)) وليس ابن مرعي .

وكذلك من الكتب الذى نسبها إليه الشيخ ابن ضويان :

(٦) الجمع بين كلام أهل الشريعة وأهل الحقيقة .

(٧) حكم أوقاف السلاطين .

(٨) محرك الغرام إلى حج بيت الله الحرام .

(٩) نزول عيسى عليه السلام .

(١٠) الكـــلام على الأرواح . وقد ذكره الشيـــخ مرعـــي ضمن كتابه أقـــاويـــل الثقـــات ص (١٩٢) ، وسماه : أرواح الأشباح فى الكلام على الأرواح .

(١١) القـــول البديع فى علم البديع . ذكره الشيـــخ مرعـــي فى كتابه : أقـــاويـــل الـــثقـــات ص (١٥٧) ، وذكـــره العلامة السفارينى فى لوامع الأنوار : (١ / ٢٣٤) .

هـــذا وقـــد تأثـــر بمؤلفات الشيخ مرعي من جاء بعده من العلماء خاصة الحـــنابلة . أذكـــر مـــنهم على سبيل المثال الشيخ ابن قائد النجدى صاحب كـــتاب : ((نجـــاة الخلف فى اعتقاد السلف)) [1] وهو مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٤٣) مجاميع . وقد حققه أستاذى الدكتور أبو اليزيد العجمى حفظه الله . وقد ورد على صفحة غلاف المخطوط ما نصه :

(١)انظـــر : " نجاة الخلف فى اعتقاد السلف " . لابن قائد النجدى (ت ١٠٩٧ هـــ) ، تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمى . دار الصحوة للنشر . القاهرة ١٤٠٥ هـــ - ١٩٨٥ م .

" ... اخـتلف العلماء فى هذا الذنب فى قوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (١) ... فأنزل الله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٢) فكـان هذا هو الذنب المتأخر . نقله الشيخ مرعي فى كتابه الناسخ والمنسوخ ." (٣) .

ومـنهم العـلامـة محمد السفاريني الحنبلي (ت ١١٨٨ هـ) صاحب كـتاب ((لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية فى عقائد الفرقة المرضية)) .

حيـث إنه استشهد بنقول من مؤلفات الشيخ مرعي فى حوالي أربعة عشر موضعاً من كتابه المذكور . وكان عظيم التوقـير له فلم يذكره فى موضع إلاّ بلفـظ " العـلامة الشيخ مرعي " . وكثيراً ما يرجح قوله إذا كان المقام مقام إيراد آراء للعلماء فى موضوع ما . (٤)

ومـنهم العلامة الفقيه المؤرخ إبراهيم بن ضويان ، صاحب كتاب ((رفع النقاب عن تراجم الأصحاب)) يعنى تراجم فقهاء الحنابلة ، فقد شرح كتاب ((دلـيل الطالب لنيل المطالب)) فى الفقه على مذهب الإمام أحمد . للشيخ مرعي ، وقد سمى هذا الشرح ((منار السبيل شرح الدليل)) ، وقد طبع هذا

---

(١) سورة الفتـح : آية رقم (٢) .

(٢) سورة الأنفال : آية رقم (١٧) .

(٣) انظر : " نجاة الخلف فى اعتقاد السلف " : ص (٨) صورة لوحة غلاف المخطوط .

(٤) انظر : " لوامع الأنوار البهية شرح الدرة المضية " . للعلامة محمد السفاريني . نشر المكتب الإسلامى ببروت ودار الخانى بالرياض ط ٣ ؛ ١٤١٣ هـ – ١٩٩١ م فى مواضع كثيرة منها على سبيل المثال : (٢ / ٩٢ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٠ ، ...)



الكـــتاب عدة طبعات منها طبعة للمكتب الإسلامى ، وقد قام العلامة الشيخ الألـــباني حفظـــه الله تعالى بتخريج أحاديث هذا الكتاب – منار السبيل – فى كـــتابه القيم ((إرواء الغليل بتخريج أحاديث منار السبيل)) وهو مطبوع بالمكتب الإسلامى أيضاً .

ومـــنهم العلامة ((نعمـــان الألوسى)) [(١)] صاحب كتاب ((جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين)) ابن تيمية وابن حجر الهيثمى ، فقد اعتمد قول الشيخ مرعي رحمه الله فى مسألة ((فناء النار)) حيث قال :

" ... وقـــد صـــنف فى ذلك علماءُ الإسلام مصنفات من آخرهم العلامة الشـــيخ مـــرعي الحنبـــلى جـــزءاً سمـــاه ((توقـــيف الفـــريقين على خلود أهل الداريـــن)) " [(٢)] .

* * *

(١) نعمان الألوسى : نعمان بن محمود بن عبد الله أبو البركات خير الدين الألوسى . ولد سنة ١٢٥٢ هـــ ، من أعلام الأسرة الألوسية فى العراق ولد ونشأ ببغداد ، وولى القضاء فى بلاد مـــتعددة وتـــرك المناصب ... فعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفى ببغداد سنة ١٣١٧ هـــ . رحمه الله .

(٢) انظر : " جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين " .

مطبعة المدنى سنة ١٤٠١ هـــ – ١٩٨١ م : ص (٤٨٥) .

بين يدي النص المحقق

(أ) توثيق نسبة المخطوط لمؤلفه رحمه الله :

لا أجـد لدىّ أدنى ريب فى نسبة المخطوط للشيخ مرعي رحمه الله ، وذلك للقرائن الآتية:

١- قـد نسـبه إسماعـيل باشا البغدادي فى كتابيه : " إيضاح المكنون " و " وهديـة العـارفين " للشـيخ مـرعي رحمه الله ، إلاّ أنه سمى الكتاب فى الموضعين : ((دفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصى بالقدر)) .

فقال : " دفع " بالدال لا الراء . [١]

وسوف يأتى مزيد تفصيل لذلك فى مبحث ((تحقيق اسم الرسالة)) .

٢- قد نسبه أيضاً العلامة محمد بن أحمد السفاريني إلى الشيخ مرعي فقال :

" قـال العلامـة الشيخ مرعي روّح الله روحه فى كتابه : ((رفع الشبهة والغرر ممن يحتج على فعل المعاصى بالقدر)) : ... " [٢]

٣- وجـود نسـختين من المخطوط فى مكانين متباعدين : الأولى : بدار الكتب المصرية . والثانية : بدار الكتب التونسية . كلٌّ منهما عليه اسم المؤلف الشيخ مرعي بن يوسف ...

---

(١) انظر : " إيضاح المكنون " : (٣/٤٧٤) ، و" هدية العارفين " : (٦/٤٢٦ ، ٤٢٧) .

(٢) " لوامع الأنوار " : [١/١٥٤]

٤- أحـــال المؤلـــف فى كتابه الذى معنا على عدد من المؤلفات التى ثبتت نسبتها إليه وذكرها أصحاب التراجم ضمن مصنفاته .

فقد أحال على كتابه ((البرهان فى تفسير القرآن)) مرتين .[١]

وعـــلى كـــتابه ((توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين)) [٢] ، وعلى كـــتابه ((إتحـــاف ذوى الألباب فى قوله تعالى ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾)) [٣] ، وكذلك أحال على كتابه ((شفاء الصدور فى زيارة المشاهد والقبور)) [٤] ، وانظر هذه الكتب فى فصل مؤلفاته .

٥- اقتـــباس بعـــض العلماء ونقلهم عن هذا الكتاب مع التصريح باسم الكتاب واسم مؤلفه الشيخ مرعي كما فعل العلامة السفاريني فى كتابه الكبير (لوامع الأنوار) فى الموضع المشار إليه سابقاً .

٦- تطـــابق أسلوب هذا الكتاب مع أسلوب غيره من كتب الشيخ مرعي مثل ((شفاء الصدور)) و (مسبوك الذهب)) وغيرها .

ولعل فيما قدمت الكفاية ، والله الموفق للصواب .

* * *

(١) انظر : " النص المحقق " : ص : (١٨٠ ، ٢١٤) .
(٢) السابق : ص : (٢٣٥) .
(٣) السابق : ص : (١٣٥) .
(٤) السابق : ص : (١٥١) .

ب- وصف النسختين الخطيتين .

يسَّرَ الله لي الحصول على نسختين من هذا المخطوط :

الأولى : بدار الكتب المصرية تحت هذا الرقم (٦٢) علم كلام .

رقـــم الفلم [٥٢١١٢] تقع فى اثنتين وعشرين لوحة ؛ كل لوحة مكونة من صفحتين : أ ، ب . وقد نسخت عن نسخة المؤلف . كما أشير إلى ذلك فى أول ورقة وفى آخر ورقة ، وعبارة الناسخ فى أول ورقة : " .. هكذا هو بخط مصنفه رحمه الله تعالى ... " .

وعبارة الناسخ فى آخر ورقة : " قال مؤلفه رحمه الله تعالى ونفعنا به – آمين – : تم بخط مؤلفه بعد العشاء الآخرة فى ... " .

وهذه النسخة خالية تماماً من التعليقات والهوامش والحواشى .

ومســـطرها خمســـة وعشرون سطراً . فى كل سطر من ١٢ – ١٦ اثنتى عشرة كلمة إلى ست عشرة كلمة تقريباً .

وقـــد كُتـــب على الصفحة الأولى منها : " هذا كتاب رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر . تصنيف العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي الحنبلي المقدسي ، كذا هو بخط مصنفه رحمه الله تعالى " . ثم قدر نصف صفحة فى فضـــل الكـــتابة مـــن إنشاء الشيخ مرعي رحمه الله هذا نصه : " قال أهل التفســـير فى قوله : ﴿ **الذى علم بالقلم** ﴾ : بين الخط والكتابة التى بها تُعرف الأمـــور الغائـــبة . وفى الآيـــة دليل على أنه سبحانه علّم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، وتنبيه على فضل علم الكتابة لما فيه من

المـــنافع العظـــيمة التى لا يحيط بها إلاّ الله تعالى ، لأن الكتابة ضبطت العلوم ، ودونت الحكم ، وبها عُرفت أخبار الماضين وأحوالهم وسيرهم ومقالاتهم .

ولولا الكتابة ما استقام أمر الدين والدنيا . قال قتادة (١): " القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا القلم لم يقم دين ، ولم يصلح عيش " (٢) .

وسُـــئل بعضــــهم عـــن الكلام فقال : ريح لا يبقى . قيل له : فما قيده ؟ قال : الكتابة (٣).

لأن القـــلم يـــنوب عن اللسان ، ولا ينوب اللسان عنه ، وبالقلم تعرف حكايات السابقين وأخبار الماضين ، وتضبط الأموال ، وتظهر الأحوال ، ولولا القلم ما ضبطت الأنساب ولا عُرف الشعـــر الذى هو ديوان العرب وفن أهل البلاغـــة . وبالقلم تخلد أفكار الناس فى الكتب .

قال أرسطاطاليس : تخليد الذكر فى الكتب عمر لا يبيد ، وهو فى كل يوم جديد .

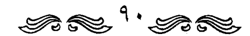
وكان بعض الملوك يقول فى من له إليه حاجة : ليرفعها فى رقعة ولا يواجهنى بها ، فإنى أكره أن أرى فى وجه أحدكم ذُلّ المسألة .

---

(١) هـــو قتادة بن دعامة السدوسى أبو الخطاب البصرى ، حافظ عصره ، روى عن أنس بن مـــالك وكبار التابعين وروى عنه أئمة الإسلام كالأوزاعي وشعبة ، يؤثر عنه أقوال طيبة ، توفي ســـنة ثمان عشرة ومائة وقيل : سبع عشرة ، وله ست أو سبع وخمسون سنة . انظر : " البداية والنهاية " : (٣٥٢/٩) ، و " السير " : (٢٦٩/٥) .

(٢)انظر : " تفسير القرطبى " : (١٢٠/٢٠)

(٣)انظـــر : " تفسير الرازى " : (١٦/٣٢) . وفى صاحب هذا الكلام قال الرازى : " يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً من الجن ... " .



وكذا رُوى عن خالد بن يحيى البرمكي [1] أنشد لنفسه :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله　　　عوضاً ولو نال الغنى بســؤال

وإذا السؤال مع النوال قرنتــه　　　رجح السؤال وخف كل نوال

كذا ذكره المصنف رحمه الله . "

وفى أعلى الصفحة تمليك نصه : " ملك حاج إبراهيم عسكري " .

وقد رمزتُ لهذه النسخة – نسخة دار الكتب المصرية – بالحرف [م] .

أما النسخة الثانية : فهى ضمن مجموع كله للشيخ مرعي رحمه الله ، وهذا المجموع موجود بالمكتبة الوطنية بتونس ، وقد حصلت على نسخة منه ؛ وهو يضـــم أربــع مخطوطات للمؤلف هى : الرسالة التى أقوم بتحقيقها ، ثم كتاب ((شفاء الصدور فى زيارة المشاهد والقبور)) ، ثم كتاب ((الشهادة الزكيــة فى ثــناء الأئمــة على ابن تيميــة)) ، ثم كتاب ((مسبوك الذهب فى فضل العــرب وشــرف العلم على النسب)) . وقد كتب المجموع كله بخط واحد نسخ جميل واضح .

وتقع رسالتنا فى إحدى وثلاثين لوحة هى الأولى ضمن هذا المجموع .

(1) هــو أبــو عــلى الفارسى . من رجال الدهر حزماً ورأياً وسياسة ، كان فى خلافة المهدى والرشيد . مات سنة تسعين ومائة وله سبعون سنة .
انظر : " السير " : (٨٩/٩) ، و" البداية والنهاية " : (٤٠٢/١٠) .

وقـــد كتـــب على اللوحة الأولى : " كتاب رفع الشبهة والغرر عمن يحتج عـــلى فعـــل المعاصى بالقدر . تصنيف العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي الحنبلي المقدسي " .

ثم كتـــب بجوار العنوان إلى جهة الشمال (بخط مغربى) : " أيضاً مسبوك الذهـــب فى فضـــايل العـــرب ، أيضاً كتاب شفاء الصدور فى زيارة المشاهد والقبور " .

ثم أســـفل مـــن ذلك : " ذكر وفاة مؤلف هذه الكتب الشيخ الإمام العالم العلامة الشيخ مرعي فى يوم (الأربع) [هكذا] رابع عربى القعدة الحرام سنة ١٠٣٢ هـــ بمصر القاهرة ودفن بالطويلية علو تربة المجاورين . "

وأســـفل من ذلك تملك نصّه : " اشتراه محمد برم الرابع من تركة الجلوى جمادى الثانية عام ستة وخمسين " .

هذا ؛ ويوجد على هذه الصفحة أيضاً بعض أبيات شعرية وحكم مثل :

ومَنْ يصنعْ المعروفَ يجنى ثمارَه فأوَّله شكـــرٌ وآخرُهُ أجـــرُ

و : لعلَّ عتبَك محمـــودٌ عـــواقـــبُه فربما صحتْ الأجسادُ بالعللِ

وهـــذه النســـخة واضحة جداً ، كتبت بخط نسخ جميل ، وعليها تعليقات وهوامـــش كـــثيرة تتمـــثل فى عنونة لفقرات المخطوط ، أو تعليقات قد تبلغ الصـــفحة . وهـــذه التعليقات ليست لمعلق واحد ، بل كتبت بثلاث خطوط مخـــتلفة بعضـــها مشرقي وبعضها مغربي ، بعضها يؤيد الاعتزال وبعضها يؤيد الأشعرية .

وفـيما يـتعلق بهذه الهوامش قد أغفلت ذكر أكثرها أما ما كان ذا أهمية بالموضوع فقد أثبته وعلقت عليه بهامش التحقيق .

وقـد كتـب فى آخـر صفحة من هذه النسخة : " مر عليه مؤلفه مرور تصحيح بالجامع الأزهر أخر شعبان سنة ١٠٣٢ هـ " .

وقد رمزت إلى هذه النسخة – نسخة تونس – بالحرف (ت) .

وبـناءً على ما قدمت فالنسختان من حيث الأهمية ممتازتان فنسخة تونس مر عليها المؤلف مرور تصحيح . ونسخة مصر منقولة عن نسخة كتبها المؤلف بخطـه . ولم أجـد بيـنهما اخـتلافاً مؤثراً عند المقابلة اللهم إلاّ سقط كلمة أو اخـتلاف صـيغة تمجـيد لله كقوله عز وجل أو سبحانه أو تعالى أو صيغة الصـلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الترضى على الصحابة رضى الله عنهم . وقد أثبت كل ذلك في الحواشي .

ج – تحقيق اسم المخطوط .

قـد ذكر العلامة إسماعيل باشا البغدادى أن اسم الرسالة : ((دفع الشبهة ...)) بالدال كما قدمت قريباً ذكر ذلك فى " إيضاح المكنون " : (٤٧٤/٣) و" هديـة العارفين " : (٦ / ٤٢٦ ، ٤٢٧) . ولم أره لغيره ، فى حين سماها العلامة السفارينى في " لوامع الأنوار " : (١ / ١٥٤) ((رفع ...)) بالراء . وهو المثبت على غلاف النسختين المخطوطتين . بل هو ما ذكره المؤلف نفسه داخل الرسالة في المخطوطتين حيث قال : " ... وسميتها رفع الشبهة ... " .

فلعل هذا الصنيع عند البغدادي رحمه الله خطأ مطبعي ممن قام بطبع الكتاب أو هو وهم من البغدادي نفسه في قراءة العنوان فالله أعلم .

وخلاصة القول أن العنوان الصحيح : ((رفع الشبهة)) بالراء .

د – وصـــف الـــرســـالـــة .

١– سبب تأليف الرسالة :

ذكـــر الشيخ مرعي رحمه الله سبب تأليف هذه الرسالة فى أولها ، وهو أنّه كـــان فى مجلس مذاكرة – ومجالس المذاكرة تضم عادة المتقدمـــين فى الطلب والـــنابهـــين دون المبتدئـــين والغافلين – فتذاكروا فيما تذاكروا بعض مسائل القـــدر . ثم تطرقوا إلى احتجاج بعض الإباحية بالقدر على معائبهم ، وأنه رُفع اســـتفتاء إلى العلامـــة أبي الســـعود صاحب التفسير المسمى ((بإرشاد العقل الســـليم إلى مـــزايا الكتاب الكريم)) فأجاب رحمه الله إجابة تناسب السؤال وتوافق العامة دون تطويل وتشقيق للمسائل ، بصورة لا تفيد طالب العلم وإنما على وجه يعطى المعنى المراد للعامي السائل .

فاستحسن الشيخ مرعي رحمه الله أن يكتب جواباً يناسب هذا المجلس الذي يضم هذه النخبة ومن فى مستواهم ؛ لا أن يكون الجواب سدًّا لخلل فى فتوى العلامة أبي السعود ؛ إذ إن العلامة أبا السعود قد توفى قبل ميلاد الشيخ مرعي بست سنوات .

فقـــد كان هذا المجلس – فقط – مثيراً للشيخ أن يكتب في هذا الموضوع الـــذي رأى أهـــلَ ذلـــك المجلس محتاجين إلى مصنف يجمع مسائله ، ويعالجها بالدليل والبرهـــان على طريقة المصنفـــين من أهل العلم .

٢- بناء الرسالة :

رأى الشيخ مرعي رحمه الله أن فى الاحتجاج بالقدر خمسة إشكالات ولذلك فقــد بــنى رســالته على مقدمة وخمسة فصول يجيب فى كل فصل على أحد الإشــكالات مــن غير أن يسميه فصلاً ؛ وإنما يقول : الجواب عن الإشكال الأول كذا ... والجواب عن الثاني كذا ..

وهكذا .

ثم خاتمــة الرسالــة .

أمـــا المقدمـــة : فقد ذكر فيها شناعات كثير من الصوفية في عصره وقبل عصـــره من القول بالحلول والاتحاد ، وعشق المردان ، وادعاء رؤية الله تعالى ومخاطبته ، والإباحة وإسقاط الشرائع ، والقول بالجبر وشهود القضاء الكوني ، وصلة ذلك بالباطنية والقرامطة والفلاسفة.

ثم أخـــذ يناقش كل إشكال من الإشكالات الخمسة التي أجملها قبلَ المقدمةِ في تمهيده للرسالـــة .

وقـــد تعرض فى خلال ذلك لغالب المسائل المتصلة بالقدر من القول بالجبر ونفى القدر ، والتحسين والتقبيح العقلى والشرعى ، وإثبات القوى والطبائع للأشياء ونفيها ، والقدرة والاستطاعة بنوعيها وتكليف ما لا يطاق ، والتعديل والـــتجوير ، وأثـــر الدعاء فى دفع القدر ، ومسألة الحكمة والتعليل ومذاهب الـــناس فـــيها ، ومسألة فناء النار ، والثواب والعقاب وغير ذلك من مسائل الكلام .

وفى هـــذه الأثناء تعرض لذكر كثير من الفرق الكلامية كالسلف والشيعة والباطنية والمعتزلة والجهمية والأشاعرة ثم الفلاسفة والصوفية .

ثم خـــتم الرســـالة بتفسير آية : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ، وذكـــر الأقـــوال فيها ، وعلاقة هذه الآية بخلق أفعال العباد وبنفى الفعل عن العبد ، ثم ذكر أنواع التوحيد الثلاثة : الألوهية والربوبية والأسماء والصفات .

هـــ- أهميـــة الرسالـــة المحققـــة :

قد أسلفت عند الكلام على عصر المؤلف أن التصوف كان منتشراً بصورة واســـعة ، وهذا " التصوف الذى كان رائجاً فى العالم الإسلامى حينذاك سواء عـــلى مســـتوى الفكر أو مستوى العمل لم يكن إلاّ عاملاً من عوامل الخمول والتقوقع للأسف الشديد " [1] .

وقـــد أدى التصـــــوف – بالإضـــافة إلى ذلك – إلى نشر بعض الأفكار الفلسفية كوحدة الوجود والحلول والإباحية ، إلى غير ذلك من البدع التى لا تتفق والإســـلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

" ولعـــل أجل مهمة قام بها الحنابلة هى مقاومة النزعات الباطنية الغالية – شـــيعية وصوفية – التى كادت تؤثر على العقيدة الناصعة البسيطة التى جاء بها القـــرآن ، مما ساعد على دعم أصالة هذا الفكر وارتباطه بمنابعه الأولى ، ولا يملك المؤرخ العقلى أن يهمل إشارة هنا أيضاً إلى أن كثيراً من محاولات الإحياء والتجديد قد نبعت من قلب هذا المذهب المحافظ العتيد " [2]

(١) " المدخل إلى دراسة علم الكلام " : لأستاذنا الدكتور / حسن الشافعى : (ص: ١٢٣) .
(٢) " المدخل إلى دراسة علم الكلام " : (ص : ٨١) .

وتـأتي هذه الرسالة معبرة أحسن تعبير عن جهود الحنابلة في مقاومة هذه النزعـات الباطنية الصوفية في ذلك العصر ، عائدةً بمسألة القضاء والقدر إلى مـنابعها الأولى الصافية الكتاب والسنة بفهم علماء الأمة كالأوزاعي والثوري وعبد الرحمن بن مهدى والإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله .

وهـذه الرسـالة وإن كانت في مبدئها رداً على الإباحية المتحللين من قيد الشـرع إلاّ أنها لم تقتصر على هذه الغاية بل توسع الشيخ مرعي رحمه الله في تـناول كثير من مسائل الكلام . وعرض لكثير من آراء الفرق الكلامية فيما يتعلق بمسألة القدر وما يتفرع منها .

وكثيراً ما كان يفصل في محالّ النزاع بذكر قول ابن تيمية رحمه الله تعالى في المسألة .

وبعـدُ : فهذه الرسالة في مسألة القدر وما يتفرع عنها من مسائل تقف في مصاف كتب علم الكلام معبرة عن حرص الشيخ مرعي رحمه الله – معبراً عن نفسه بالأصالة وممثلاً للحنابلة عموماً – على نشر عقيدة السلف وتبسيطها . وقد اعتمد الشيخ في ذلك نصوصاً كثيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مما أعطاهـا قوة ورصانة ، وأعطانا أيضاً عن الشيخ مرعي رحمه الله صورة العالم الصـادق غـير المتكلف ؛ إذ بعد الاهتمام الذى حظيت به عقيدة السلف في القرون القريبة السابقة على عصر الشيخ مرعي – أعني عصر ابن تيمية – بعد هـذا الاهـتمام يصبح مجرد الإجادة في عرض هذه العقيدة وتبسيطها وجمعها وترتيـبها وتعليمها للناس – وإن أدى ذلك إلى اعتماد كثير من نصوص أئمة سابقين – أقول : يصبح هذا الأمر عملاً طيباً يستحق التقدير والإشادة .

إذ الغـــرض من كل تأليف فى مجال العقيدة هو جمع الناس حول الصحيح ، وفضـــهم عـــن الـــزائف . وقد أجاد الشيخ مرعـــي رحمه الله فى تناوله هذا الموضـــوع كما تشهـــد له هذه الرسالـــة .

وأخـــيراً ؛ أقـــول : إن هذا العصر الذى نعيش فيه أيضاً لم يخل من ذيول لأصـــحاب هـــذه الأفكـــار . فقد جلست مع بعض الصوفية بقرية بالغربية وأخرى بالدقهلية وصرح بعضهم بالقول بالاتحاد العام ووحدة الوجود .

فتحقيق مثل هذه الرسائل ومحاولة بعثها ونشرها والاعتناء بها ليس صرخة فى واد ؛ ولا نفخـــة فى رمـــاد ، ولا ترفاً فكرياً بعيداً عن الواقع إنما هو بعث لجهود علماء الأمة ، واعتناء بتراثنا الأصيل وربط بمستقبل هذه الأمة المحفوظة بماضـــيها لنســـتمد مـــنه البصيرة والصواب فى طريق مليء بالأفكار والعقائد الكثيرة الموافقة والمخالفة لصحيح العقيدة الإسلامية .

فكـــل فكـــرة نشـــأت فى الإنسانيـــة لن يزال لها من يحملها ؛ قلّ هؤلاء الحـــاملـــون أو كـــثروا ، ظهـــــروا أو تواروا بحكم الأوضاع السياسيـــة أو الضـــغوط الاجتماعـــيـــة فلم يزل بين المجتمعات أقـــوام وثنيون ودهريون ومشـــركـــون ولم تزل الملل والأديـــان الأخرى كثيراً أتباعُها ، بل فى داخل الـــبلاد الإســـلامية للفرق الإســـلامية أتباع بل وأحياناً دولٌ تحمى أفكـــار هذه الفـــرق .

* * *

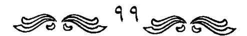
و- منهجي فى التحقيق :

يتلخص عملي فى تحقيق المخطوط فى الخطوات التالية :

١- ضبط النص . وذلك بالمقارنة بين النسختين الخطيتين ، ولما كانت النسختان منقولتين عن نسخة المؤلف مباشرة فهما متقاربتان من حيث الأهمية ، وإن كانت النفس تميل إلى جعل النسخة (ت) هى الأصل نظراً لمرور المؤلف عليها مرور تصحيح ؛ لكنى لم أجد كبير فرق بينهما ، فما كان من اختلاف بينهما أثبت الأوفق – فى رأيي – فى النص ونبهت على المرجوح فى الهامش .

٢- تخريج الآيات القرآنية ، وذلك بوضع الآيات بين قوسين مع الإشارة فى الحاشية إلى اسم السورة ورقم الآية ، وإذا كان الاستشهاد ببعض آية اكتفيت بذكر رقم الآية ؛ إذ الغرض العزو .

٣- تخريج الأحاديث الواردة فى الرسالة وتحقيقها ، وذلك بجعل الحديث بين قوسين ، ثم خرجت الأحاديث من الكتب الستة ومسند أحمد ، فإن كان الحديث فيها جميعاً أو فى بعضها خرجته منها وعزوته إليها ، واكتفيت بذلك ولم أزد عليها إلاّ إذا ذكر المؤلف الحديث فى كتاب غير ما ذكرت من كتب الحديث فأقوم بتخريجه من الكتاب الذى سماه المؤلف ، كحديث أبى حنيفة فى مسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه ، وإذا كان الحديث فى الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بإجماع الأمة على صحة ما فيهما ، فإن لم يكن فيهما استعملت الصناعة الحديثية كحديث أبى خزامة رضى الله عنه فى الرقى ، وحديث سعد ابن أبي وقاص رضى الله عنه عند أبى حنيفة فى مسنده ، وحديث القدرية مجوس



هـــذه الأمة عند أحمد وأبي داود وابن ماجة عن ابن عمر وحذيفة وجابر رضى الله عنهم .

٤- الـــترجمة للأعـــلام الوارد ذكرهم فى الرسالة ، وذلك بذكر ترجمة مختصـــرة من كتب الرجال والسير والأعلام وقد ذكرت فى ذلك كنية المترجم واسمه ولقبه فى الغالب ، وأبرز آثاره وتاريخ ولادته ووفاته إن تيسر ذلك .

٥- التعريف بالفـــرق والمصطلحـــات الكلامية والفلسفية الواردة فى الرســـالة وذلـــك بالـــرجوع إلى كتب التعريفات مثل العريفات للجرجانى ، والمفـــردات للراغب ، ودستور العلماء للأحمد نكرى ، وكشاف اصطلاحات الفـــنون للتهانوى ، ومعجم اصطـــلاحات الصوفية لابن عربى ، وكتب الملل والـــنحل كمقـــالات الأشعرى وكتاب الشهرستانى وكتاب ابن حزم وكتاب البغدادي .

٦- تخريج النصوص التى نقلها الشيخ مرعي عن كتب العلماء السابقين عليه ما أمكننى ذلك ، فقد نقل عن الأشعري والباقلانى والجوينى والشهرستانى وابن حزم والغزالي والرازى وابن الجوزى وابن تيمية وابن القيم ، فرجعت إلى مظنة هذه النقول من الكتب المطبوعة ، وقد تيسر لي تخريج وعزو جملة صالحة من هذه النقول .

٧- التعليق على المواضع التى رأيت فى التعليق عليها تتمة لمقصد المؤلف أو تعضيداً لرأيه أو وجدتنى مخالفاً لما ذهب إليه المؤلف فأبين رأيي ، وقد نقلت من أقوال العلماء ما دعت إليه الضرورة .

٨- لم أتدخل فى النص بإضافة أو حذف أو عمل عناوين جانبية .

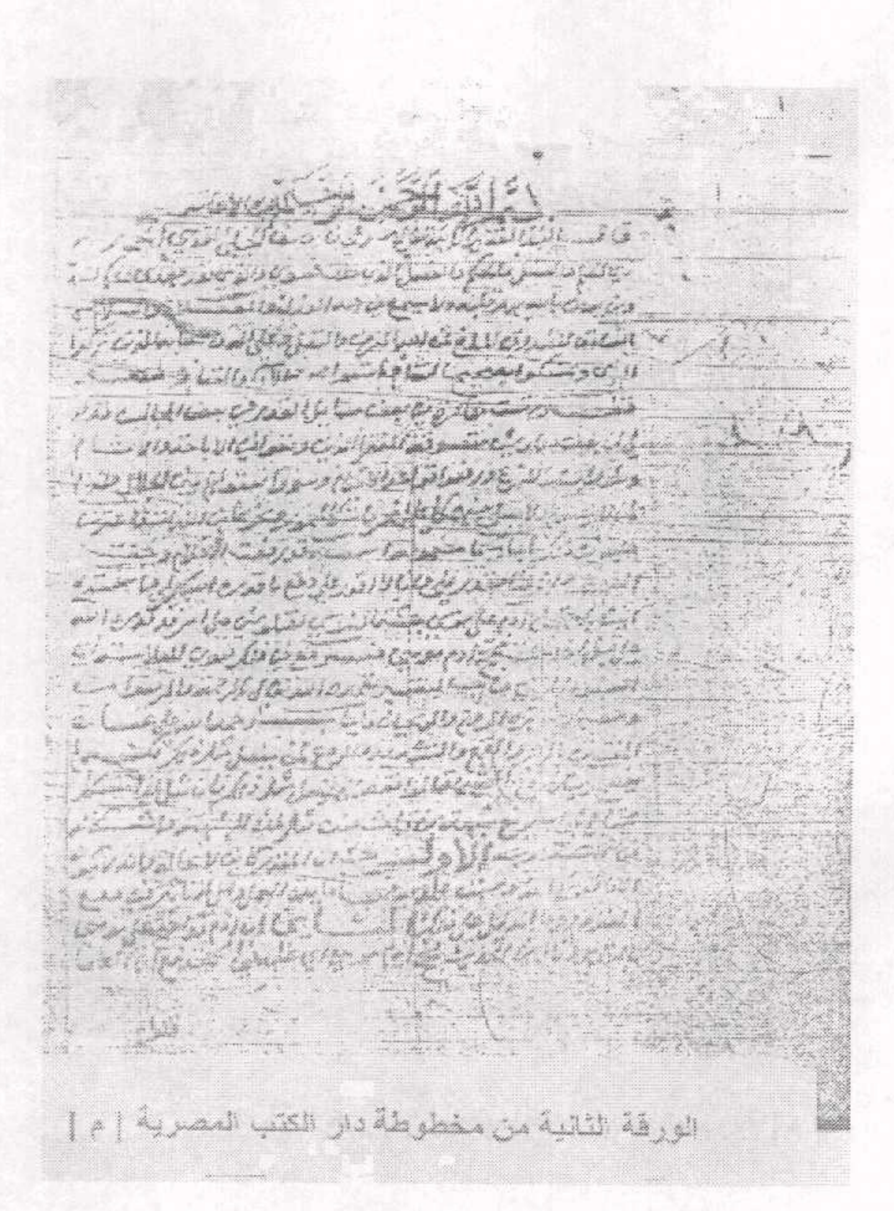
٩- قمـت بتقسـيم الرسالة إلى فقرات ، واسـتعملت أدوات الترقيم لتسـهيل فهـم النص . ولما كانت الرسالة قد كتبت بالتسهيل بغير همز فقد استعملت القواعد الإملائية الحديثة تسهيلاً لقراءتها وإخراجها فى لغة معاصرة .

١٠- قمت بتذييل الرسالة بأهم نتائج التحقيق .

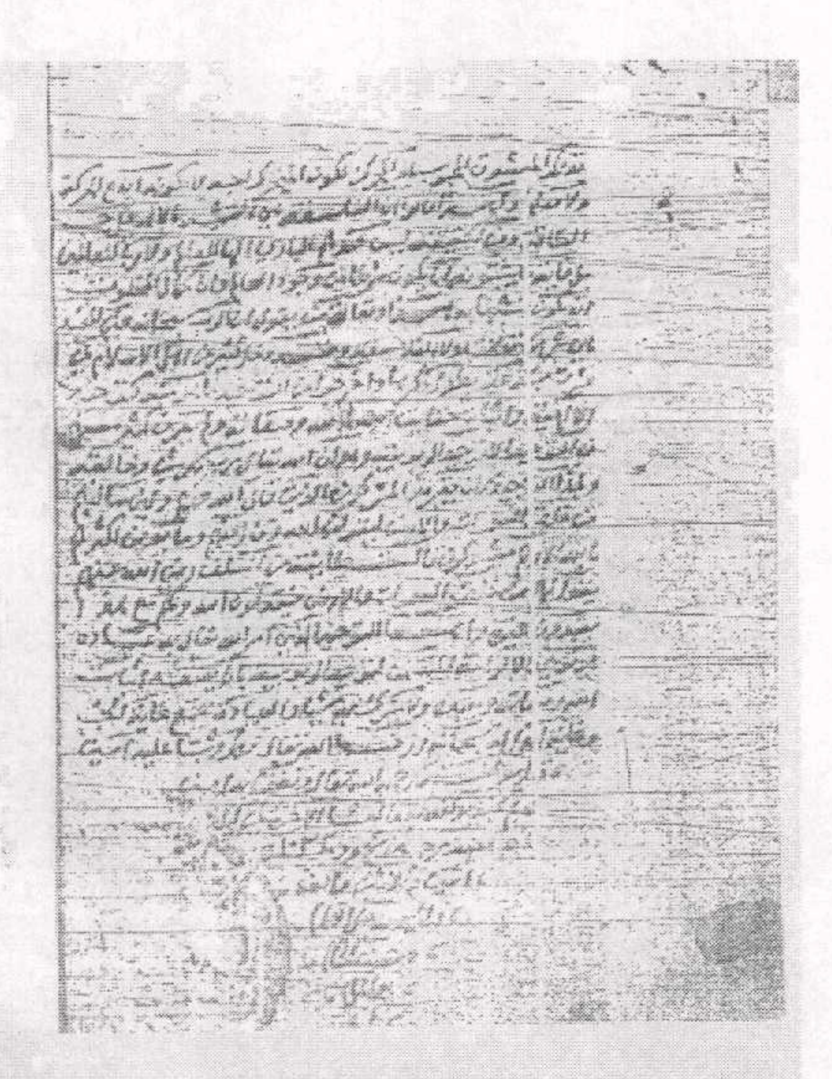
١١- قمت بعمل فهارس تفصيلية للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والموضوعات .

والحمد لله أولاً وآخراً .

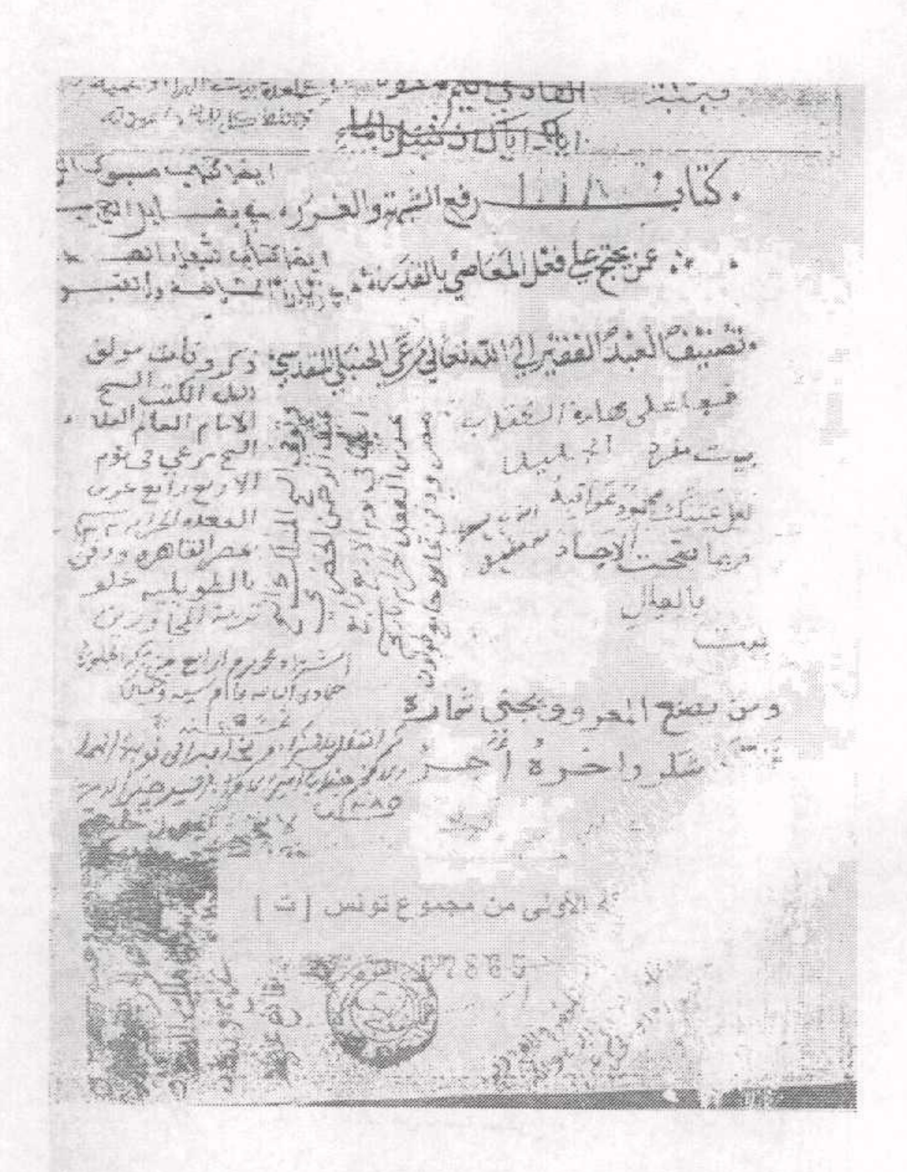
صفحة العنوان من مخطوطة دار الكتب المصرية [م]



الورقة الثانية من مخطوطة دار الكتب المصرية [م]



الورقة الأخيرة من مخطوطة دار الكتب المصرية [م]



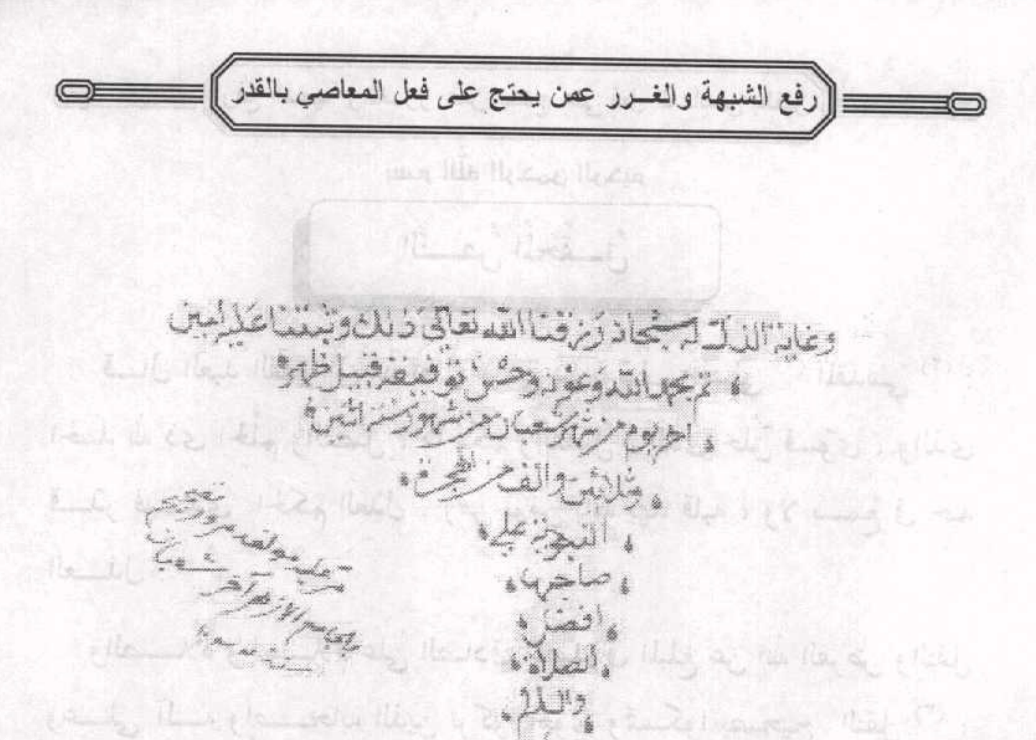
كتاب رفع الشبهة والغرر

عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر

تصنيف العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي الحنبلي المقدسي

ـة الأولى من مجموع تونس [ت]

الورقة الثانية من نسخة مجموع تونس [ت]


وغاية الذل له سبحانه رزقنا الله تعالى ذلك وثبتنا عليه آمين
تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه قبيل ظهر
آخر يوم من شهر شعبان من شهور سنة اثنين
وثلاثين وألف من الهجرة
النبوية على
صاحبها
أفضل
الصلاة
والسلام

الورقة الأخيرة من نسخة مجموع تونس [ت]

بسم الله الرحمن الرحيم

النَّـــصُّ المُحَقَّـــقُ

قـــال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي (١) المقدسيّ (٢) : الحمد لله ذى الحِلْم والفَضْل ، والحُكْمِ والفَصْل ، الذى خلق فسوّى ، والذى قـــدّر فهـــدى الحَكَمِ العَدْلِ ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ولا يسمعْ فى حبه العـــذل .

والصـــلاة والســـلام على الصادق المصدوق المبلغ عن الله الفرض والنفل وعـــلى آلــه وأصـــحابه الذين تركوا الهوى وتمسكوا بصحيح النقل (٣) ، ولم يتبعوا مجرد الآراء والعقل (٤) .

---

(١) نســـبة إلى الإمـــام أحمـــد بن حنبل رحمه الله ، والمذهب الحنبلى أحد المذاهب الأربع التى اشـــتهرت بـــين أهل السنة ، وهو وإن كان مذهباً فقهياً فإن الانتساب إليه يعنى تميزاً منهجياً فى الدراسات الكلامية .

(٢) نسبة إلى بيت المقدس ؛ أولى القبلتين وثالث المساجد المنصوص على فضيلتها . يسّـــر الله له صلاحاً .

(٣) الـــنقل لغة : تحويل الشيء من موضع إلى موضع .[لسان العرب : ص ٤٥٢٩] . وهو مصـــدر بمعنى اسم مفعول ، أى : المنقول . وإذا أُطلق فى مقابل العقل فالمراد به النص الشرعي من القرآن والسنة ، والمراد هنا ما نقل إلينا من سنة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولما كان فـــيما نقل إلينا من سنته صلى الله عليه وآله وسلم الصحيح والضعيف والموضوع على التفصيل المعروف فى مصطلح الحديث – احترز الشيخ بقوله : (صحيح النقل) .

(٤) العقل : (ما يعقل به حقائق الأشياء . قيل محله الرأس ، وقيل : محله القلب) [التعريفات ص ١٣٢] .

وقال الراغب : (العقل : يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم) [المفردات : ص ٣٤١]

وبعد : فقد وقعت مذاكرة فى بعض مسائل القدر فى بعض المجالس ، فذُكر لي أن بعض دراويش متصوفة الفقراء الذين وقعوا فى الإباحة والآثام ، وطووا بســاط الشرع ورفعوا قواعد الأحكام ، وسووا بعقولهم بين الحلال والحرام ؛ كان لا يصوم ولا يصلي منهمكاً على المحرمات كالخمور ونحوها من اللذات ، فاعـتُرض علــيه فى ذلك ، فأجاب بما مضمونه أنه قد رفعت الأقلام وجفت الصحف ، وأن هذا مقدر عليّ ، وأنا لا أقدر على دفع ما قدره الله عليّ .

واخــتُلف فى حقيقــته ، فذهــب الفلاســفة إلى أنــه (جوهر مجرد عن المادة فى ذاته) [الــتعريفات : ص ١٣٢] ، وقــيل : " هــو صفة ، وهو الذى يسمى عرضاً قائماً بالعاقل . وعــلى هذا دلّ القرآن فى قولــه تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . فالعقل نفس الغريزة التى فى الإنســان الــتى بهــا يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار . كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى : إن العقل غريزة " [مجموع الفتاوى : ٢٨٦/٩ ، ٢٨٧] .

أما محل العقل فقد ذكر صاحب التعريفات الاختلاف فى ذلك بين الرأس والقلب .

قــال ابن تيمية رحمه الله : " العقل قائم بنفس الإنسان التى تعقل ، وأما من البدن فهو متعلق بقلــبه كمــا قــال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحــج : الآيــة رقم ٤٦] . لكن لفظ ((القلب)) قد يراد به المضغة الصنبورية الشكل ... وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً ، فإن قلب الشيء باطنه ... وعلى هذا فإذا أريد بالقلب هــذا فــالعقل متعلق بدماغه أيضاً ، ولهذا قيل : العقل فى الدماغ كما يقوله كثير من الأطباء ، ونقــل ذلك عن الإمام أحمد ، ويقول طائفة من أصحابه : العقل فى القلب فإذا كمل انتهى إلى الدمــاغ والتحقــيق ... ما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا ، لكن مبدأ الفكر والنظر فى الدماغ ، ومبدأ الإرادة فى القلب .)) [مجموع الفتاوى : ٣٠٣/٩ ، ٣٠٤] .

وانظر: "نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان " لأستاذنا الدكتور : محمد السيد الجليند مكتــبة الزهراء سنة ١٤٠٧هــ - ١٩٨٦ م : ص (٢٧٥) وما بعدها . وكتابه : " تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين " : ص (٩٤) مكتبة الزهراء : ١٤١٠ هــ ١٩٩٠ م .

واستدل أيضاً باحتجاج آدم على موسى ، حيث قال لموسى : ((أفتلومني على أمر قد قدره الله عليّ قبل أن أُخلق ؟ فحج آدم موسى)) (١)

فـرُفـع بذلك فتـوى للعـلامة أبي السعود المفـتي صاحب التفسير (٢) تغمـده الله تعـالى بالرحـمة والرضـوان ، وحـفّ بأرجـاء قـبره الـروح والـريـحان ، فأجاب رحمه الله تعالى على – عادة المفتين (٣) –

---

(١) سيأتي تخريج الحديث بعد إن شاء الله تعالى ص ١٦١ .

(٢) هـو : أبو السعود محمد بن مصطفى العمادى ، الحنفي (٨٩٦ – ٩٨٢ هـ) ولى القضاء فى أمـاكن مخـتلفة ، مكث يفتى نحواً من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة العلمية التامة . له التفسير المشهور المعروف بـ ((إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)) .

انظـر : [شـذرات الذهـب فى أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلى دار الفكر ط١ ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م : ٨ / ٣٩٨ .] و [البدر الطالع للشوكانى : (٢٦١/١) . دار المعـرفة – بيروت – بدون تاريخ .] و [الأعلام لخير الدين الزركلى : (٥٩/٧) – دار العلم لـلملايين – بـيروت – ط١٢ ، ١٩٩٧ م] و [هدية العارفين : لإسماعيل باشا البغـدادى المطـبوع مـع إيضـاح المكنـون لحاجى خليفة :(٢٥٣/٦)– ط دار الفكر – بيروت – ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م] وقد خالف البغدادى فى اسم أبى السعـود فقال : " ... ثم تبين أن اسمـه أحمـد . " و [التفسير والمفسرون : للدكتور / محمد حسين الذهبى رحمه الله : (١/ ٣٢٦) مكتبة وهبة – ط٤ : ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م] .

(٣) فى النسـختين : ((المفتـيين)) بياءين ، والصواب ما أثبته ، قال ابن هشام فى ((أوضح المسـالك)) فى باب كيفية جمع الاسـم جمع مذكر سالماً : " ... اعلم أنه يحذف لهذا الجمع ياء المنقـوص وكسـرها فتقـول : القاضـون والداعون ... " [أوضح المسالك إلى ألفية ابن مـالك . لابن هشام الأنصارى طبعة الحلبى ط ٣ ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م : ص ١٨٣] وانظـر : [شـرح ابـن عقيل على الألفية : ص ٣١٥ ط المعاهد الأزهرية : ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .]

بالزجـــر والقمع والتشديد والردْع لمن يفعل مثل ذلك ، لكنه لم يفصح ببيان دفـــع الشـــبهة (١) الواقعة لمن يفعل مثل ذلك (٢) ، فإن مثل هذا مشكل (٣) يحتاج لجواب يدفع شبهة من قامت عنده مثل هذه الشبهة .

وإشكاله من خمسة أوجه :

الأول : حيـــث إن المقـــدَّر كـــائن لا محالة ، وإنه لا يكون إلاّ ما قدره الله وســـبق عـــلمه بـــه ، فمـــا فائدة العمل ؟ وهل له تأثير فى دفع المقدور ؟ وما الدليل (٤) على ذلك ؟

الـــثانى : أن آدم قد احتج على موسى بالقـــدر ، وقال فى الحـــديث : ((فحـــج آدمُ موسى)) أى : غلبـــه فى الحجة (٥) مع أن العلماء[م/٢أ]

---

(١) الشـــبهة : التـــباس الأمر . [كشاف اصطلاحات الفنون : للتهانوى . تحقيق د / لطفى عبد البديع . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م : ٤ / ١٧٤ .] .

(٢) يعنى : الإباحية .

(٣) المشـــكل : " ما لا يتيسر الوصول إليه . والحق المشابه بالباطل ، وعند الأصوليين : ما لا يعـــلم المـــراد مـــنه إلاّ بالتأمل بعد الطلب ، لدخوله فى أشكاله وأمثاله ، مأخوذ من أشكل . " [دســـتور العـــلماء أو جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون. للقاضى عبد النبى بن عبد الرسول الأحمـــد نكرى . ط مؤسسة الأعلمى للمطبوعات – بيروت – ط٢ : ١٩٧٥ م ١٣٩٥ هـــ : ٢٦٦/٣]

(٤) الدلـــيل : " هـــو الـــذى يلـــزم من العلم به العلم بالشيء " [التعريفات : ٩٣] وعند الأصـــوليين : " مـــا يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبرى " [الوجيز فى أصول الفقه . د / عبد الكريم زيـــدان – دار التوزيع والنشر الإسلامية – ط أولى – ١٤١٤ هـــ – ١٩٩٣ م : ص ١٤٩]

(٥) الحجة : " ما دُلّ به على صحة الدعوى . وقيل الحجة والدليل واحد " =

قاطبـــة يقولون : نؤمن بالقدر ولا نحتج به ، وإلاّ فلو ساغ الاحتجاج بالقدر لكـــان إبلـــيس أيضاً يحتج به ، وفرعون أيضاً يحتج به (على موسى) [1]. ، وكذلك سائر العصاة وذلك باطل .

وحيـــث كـــان كذلك فكيف آدم احتج به وسلم له احتجاجه ؟ وما وجه ذلك ؟

الثالـــث : مـــا الدليل على إبطال [2] الاحتجاج بالقدر وذمه مع أن آدم احتج به ؟

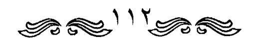
الرابع : أنـــه حيث لا يقبل الاحتجاج بالقدر ، وأنه لا يكون إلاّ ما يريده الله وقدره وسبق علمه به ؛ فيلزم أن الله تعالى يكلف [3] العـــبد ما لا يطيق ثم يعاقـــبـــه على ما لا طاقـــة له بفعلـــه ، وهو ظلم ، مع أن الله تعالى أيضاً هو الخالـــق لذلك وما الحكمـــة فى تكليف المكلفين وعقاب العاصين ؟

- [الـــتعريفات : ٧٢] ، " والمحاجـــة : أن يطلـــب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته " [المفـــردات فى غريب القرآن – للراغب الأصفهاني – تحقيق : محمد سيد كيلاني – ط الحلبي الأخيرة – ١٣٨١ هـــ – ١٩٦١ م . ص ١٠٨] .

(١) ليست فى [م] ، والمثبت من [ت]

(٢) الإبطـــال : " يقـــال فى إفســـاد الشـــيء وإزالـــته ؛ حقاً كان ذلك الشيء أو باطلاً . " [المفردات : ص ٥١]

(٣) التكلـــيف : ((إلـــزام مـــا فـــيه مشقة .)) [مذكرة أصول الفقه – الشيخ محمد الأمين الشنقيطى على روضة الناظر لابن قدامة .المكتبة السلفية بالمدينة المنورة . بدون تاريخ : ص ٩] وعـــرفه ابن النجار بأنه : " لغة : إلزام ما فيه مشقة . وشرعاً : إلزام مقتضى خطاب الشرع " [مختصـــر الـــتحرير فى أصول فقه السادة الحنابلة . لابن النجار : محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي (ت ٩٧٢هـــ) . مكتبة ابن تيمية ط١ ، ١٤١٣هـــ – ١٩٩٣ م : ص ٣٩] .



الخامس : حيث إن القدر سابق ، وأن الله هو الخالق لكل شيء ، ربما لزم علـيه إفحـام [1] الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام وانقطاع حجتهم ، لأن النـبى إذا قال للكافر : آمِنْ بي وصدِّقْنِى .

يقول لـه : قل للذى بعثك يخلق فىّ الإيمان والقـدرة عليه فأومن ، وإلاّ فكيف أومن ولا قدرة لي عليه ؟ لأنه خلـق [ت/٢ب] فيّ الكفر ، وأنا لا أقـدر عـلى دفع ما خلقـه (فيّ)[2] هذا ؛ وفى الحقيقة إن مثل هذا بحسَب الظاهر مُشْكِل ،يحتاج لأجوبة قاطعة تدفع شبهات من قامت عنده ، وإلاّ فأى غرض فى الرمى إلى غير غرض [3] ؟ وهل المراد فى مقام النزاع والاستدلال إلاّ إيـراد ما يقطع النـزاع والجدال من الآيات البينات والدلائل الواضحات ؟ فإنها إذا أقيمت انقطـع النـزاع ؛ وقرىء : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقّ ﴾ [4] ولا دفاع ، وإلاّ فللخصم أن يقول :

هـذه دعـوى [5] مجردة عن الدليل ، فلا أرجع إليها ، ولا أعتمد عليها ، لأن هـذه أمـور اعـتقادية ؛ فـلا أرجـع فـيها إلاّ (إلى الأدلـة) [6]

---

(١) قـال فى ((اللسـان)) : " كلمته حتى أفحمته إذا أسكته فى خصومة أو غيرها " انظر : [لسـان العـرب لابـن مـنظور ط دار المعـارف . تحقيق / عبد الله على الكبير وزميليه – ص ٣٣٥٩] والمراد هنا : الانقطاع فى المناظرة .

(٢) ليست فى [م] ، والمثبت من [ت]

(٣) غرض الأولى بمعنى حاجة أو بغية أو قصد ، والثانية : هو الهدف الذي ينصب فيرمى فيه . انظر : " اللسان " : ص : (٣٢٤٢) .

(٤) سورة يوسف : الآية رقم ٥١ .

(٥) الدعوى : " قول يطلب به الإنسان إثبات حق على الغير " [التعريفات : ص ٩٣].

(٦) فى [ت] : للأدلة .

اليقينـــية [(١)] من (العقلية [(٢)] والنقلية [(٣)]) [(٤)] ، وإلاّ فهى دعوى مجردة مقابلة بالمنع والرد وعدم القبول .

وقـــد أحببـــت أن أذكر من الجواب ما يفتح به الفتاح الوهاب ، وسميته : [رفع الشبهة والغرر عَمَّن يحتج على فعل المعاصى بالقدر .]

* * *

---

(١) اليقينـــية : من اليقين ؛ " وهو العلم الذى لا شك فيه " . التعريفات : ص ٢٣١ . وقال صاحب المفردات : " اليقين من صفة العلم ، فوق المعرفة والدراية وأخواتها . يقال : علم يقين . ولا يقال : معرفة يقين . وهو : سكون الفهم مع إثبات الحكم . " . المفردات : ص : ٥٥٢ .

(٢) العقلـــية : مـــا كـــان طريقها العقل . كالعلم بأن الكل أكبر من الجزء وأن الواحد نصف الاثنين وأن العالم حادث .

(٣) الأدلـــة النقلية : ما كان طريقها النقل . وهو الخبر . وهى : القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع .

(٤) فى [ت] : ((النقلية والعقلية)) بتقديم الآخرة على الأولى .

مقــــدمـــة

اعلــــم – أيـــدك الله تعـــالى – أن كـــثـــيراً ممن ينتســـب إلى التصـــوف [1]

(١) قال أستاذنا الدكتور / محمد السيد الجليند حفظه الله :

" لم نجــد تعريفاً متفقاً عليه للتصوف ... ذلك لأن بعضهم نظر فى تعريفه للتصوف إلى حال الصــوفى وســلوكه ، وبعضهم نظر إلى الأصل اللغــوى للكلمة ومصدرها الاشتقاقى ، ونظر بعضـــهم إلى لـــباس الصـــوفى وزيّه فنسب اللفظ إليه . " انظر: [من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة : ص ٣٨ . مكتبة الشباب – القاهرة سنة ١٩٨٩ م .]

فمـــن نظر فى تعريفه إلى حال الصوفى وسلوكه لا يكادون يتفقون أيضاً على تعريف ، وقد حكى عنهم صاحب التعريفات حوالى تسعة أقوال . راجعها فى التعريفات ص ٥٢ .

ومـــن لاحظ الاشتقاق نسبهم إلى الصُّفَّة ، أو الصفـــاء ، أو الصف الأول . أو رجل يسمى ((صـــوفَة بن أدّ بن طابخة)) كان فى الجاهلية أو إلى كلمة ((سوفيا)) اليونانية بمعنى الحكمة ، أو إلى الصوف المعروف .

وكل هذه النسب لا تستقيم لمدّعيها إلاّ النسبة الأخيرة ، وإلى هذا ذهب محققان كبيران هما : ابن خلدون فى مقدمته ، وابن تيمية فى مجموع الفتاوى .

قـــال ابـــن خلـــدون : " قال القشيرى رحمه الله : " ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس . والظاهر أنه لقب . " .

.... قلـــت – الكـــلام لابن خلدون – : والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف ، وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس مفاخر الثياب إلى لبس الصوف))

[انظر : مقدمة ابن خلدون : ص ٤٣٩ . ط دار الشعب بدون تاريخ .]

وقـــال ابـــن تيمـــية : ((وقيل – وهو المعروف – إنه نسبة إلى لبس الصوف . " [مجموع الفتاوى : (١١ / ٦) . ط الرياض جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه] =

قـد صـدرت مـنهم [م/٢ب] مقالات شنيعة ، واعتقادات فظيعة فى هذا الزمان [(١)] وقبل هذا الزمان .

= وخلاصة القول فى التصوف ما قاله ابن تيمية رحمه الله : " تنازع الناس فى طريقهم ، فطائفة ذمـت الصـوفية والتصـوف وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنـة ، ونُقل عن طائفة مـن الأئمـة فى ذلـك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكـلام . وطائفـة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبيـاء . وكلا طرفى قصد الأمور ذميم .

والصـواب أنهـم مجـتهدون فى طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصـد الـذى هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من يذنـب فيتوب أو لا يتوب . ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه ، وقد انتسب إلـيهم طوائـف مـن أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً ، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية .

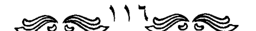
وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق– وصوفية الأرزاق– وصوفية الرسم .

أما صوفية الحقائق : فهم الذين وصفناهم . وأما صوفية الأرزاق : فهم الذين وُقفت عليهم الوقوف كالخوانك . فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق ، فإن هذا عزيز . وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ...

وأمـا صوفية الرسم : فهم المقتصرون على النسبة ، فهمُّهم فى اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء فى الصوفية بمنـزلة الذى يقتصر على زىّ أهل العلم وأهل الجهاد ونوعٍ ما مـن أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمرِه أنه منهم وليس منهم . " [مجموع الفتاوى : ١١ / ١٧ – ٢٠] .

وعذرى فى طول الاقتباس من ابن تيمية إحاطةُ وصفه لهم بما يغنى عن غيره .

(١)كان المؤلف رحمه الله تعالى موجوداً فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، وقد بينت فى مبحث عصر الشيخ مرعي شيئاً من ذلك .



فمنهم من يقول : إن الله تعالى يحل فى قلب العارف [1] ويتكلم بلسانه كما يتكلم الجنى على لسان المصروع [2] .

ومنهم من يقول : هذا السرّ الذى باح به الحلاج [3] وغيره .

وهذا عندهم من الأسرار التى يكتمها العارفون ولا يبوحون بهاإلاّ لخواصهم.

---

(١) العـــارف عند أصحاب هذا الاتجاه : هو من أشهده الله نفسه فظهرت الأحوال على نفسه انظر : [معجم اصطلاحات الصوفية : ص ٧٢ . لابن عربى – تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى – دار الإمام مسلم – بيروت ط أولى ١٤١١ هـــ – ١٩٩٠ م . وص ٢٤٣ من النص الملحق بتعريفات الجرجانى طبعة الحلبى .] .

(٢) نســـب هـــذا القول إلى الحلاج وغيره ممن يقول بالحلول ، ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . وقال : ((فهذا كفر صريح)) .

انظر : " مجموع الفتاوى " : (٤٨١/٢ ، ٤٨٢) .

(٣) هـــو : الحســـين بن منصور بن محميّ الفارسى الصوفى ، كان جدّه محميّ مجوسياً . صحب ســـهل بـــن عبد الله التسترى والجنيد ، ، وأكثر الترحال . اختلف فيه الناس ؛ والجمهور على التبرؤ منه ؛ منهم من نسبه إلى القول بالحلول ، ومنهم من نسبه إلى الزندقة والشعبذة .ترجم له الذهبى رحمه الله فى أربعين صفحة ، انظر ترجمته فى : [سير أعلام النبلاء للذهبى : محمد بن أحمد ابـــن عـــثمان . ط التاسعة مؤسسة الرسالـــة – بيروت ١٤١٣ هـــ – ١٩٩٣ م . تحقيـــق شـــعيب الأرنـــــاؤوط : ٣١٣/١٤ .] و [البداية لابن كثير : إسماعيل بن عمر . دار الفكر العـــربى ط ١ ؛ ١٣٥١ هـــ – ١٩٣٣ م ١٣٢/١١ .] و [مجموع فتاوى ابن تيمية : ٢/ ٤٨٠ .] و [مـــن قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة . لأستاذنا الدكتور / محمد السيد الجليـــند : ص ٩٩ ومـــا بعدهـــا .] و [الفلسفة الصوفية فى الإسلام : مصادرها ونظرياتها ومكانهـــا مـــن الديـــن والحياة . د / عبد القـــادر محمود – دار الفكر العربى – بدون تاريخ : ص ٣٢٦ ومـــا بعدهـــا] و [قواعد المنهج السلفى فى الفكر الإسلامى . لأستاذنا الدكتور / مصطفى حلمى : ص ١٤٢ – دار الدعوة ط٣ ، ١٤٠٥ هـــ ١٩٨٥ م] .

ومنهم من يقول : إن الحلاج إنما قتل لأنه باح بالسرّ ، وينشد :

من باح بالسرّ كان القتل شيمته ۰۰ بين الرجال ولا يؤخذ له ثار [1]

ومـــنهم من يجعل الصور [ت/٣أ] الجميلة مظاهر الجمال الإلهى ، ومنهم من يقول بحلوله تعالى فى الصور الجميلة[2] ، ويقول : إنه يشاهد فى الأمرد [3] معبوده أو صفات معبوده ، أو مظاهر جماله ، ومنهم من يسجد للأمرد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [4] :

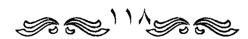
(١) انظر رسالة الاحتجاج بالقدر لابن تيمية . ضمن [مجموعة الرسائل الكبرى : ٢ / ١٠٩ ، ١١٠ . ط دار إحيـــاء التراث العربى – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م]

قـــال أســـتاذنا الدكتور / محمد السيد الجليند . " ولا يغيب عنا أن فى هذا الاعتذار رائحة الفكـــر الإسماعيـــلى الباطنى للذين يقولون بالعلم الباطن ، وأنه ليس كل سرّ يُفشى ، ولا كل حقـــيقة تقـــال وتجـــلى ، ويجعلـــون صدور الأحرار قبور الأسرار . " [من قضايا التصوف : ص ١١٥] .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : (٣٧٨/٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٤/٣) .

(٣) الأمرد : هو الشاب طرَّ شاربه ولم تنبت لحيته . قال ابن تيمية رحمه الله : ((صحبة المردان عـــلى وجـــه الاختصـــاص بأحدهم – كما يفعلونه – مع ما ينضم إلى ذلك من الخلوة بالأمرد الحســـن ومبيـــته مع الرجل ونحو ذلك . فهذا من أفحش المنكرات عند المسلمين ." [مجموع الفتاوى : ٥٤٢/١١] ، ص ١٣ من هذا النص .

(٤) هـــو : أبـــو العـــباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، الإمام المجتهد المجدد ، شهد له كل مؤرخـــي عصره بالفضل . قال فيه الإمام الذهبى – وهو تلميذه وقرينه – : لولا حدة فيه لكان كـــلمة إجماع (ت ٧٢٨هـ) . انظر ترجمته مفصلة فى : [البداية والنهاية للحافظ ابن كثير : ٧/ج١٣٥/١٤] وغيرها .



" ثم من هؤلاء من يقول بالحلول (١) أو الاتحاد العام (٢)، لكنه يتعبد بمظاهر الجمال (لما) (٣) فى ذلك من اللذة له فيتخذ إلهه هواه . " (٤)

قال : " وهذا موجود فى كثير من المنتسبين إلى الفقه والتصوف . ومنهم من يقول : إنه يرى الله مطلقاً ، ولا يُعيّن (الصـــور) (٥) الجميلة ، بل يقولون : إنهم يرونه فى صـــور مختلفـــة .

---

(١) الحلول نوعان :

الأول : الحلـــول السَّرَيَانىّ . وهو عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر ، كحلول ماء الورد فى الورد . فيسمى السَّارى حالاً ، والمسرىُّ فيه محلاً .

والـــنوع الـــثانى : الحلـــول الجوارىّ : وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر ، كحلول الماء فى الكوز . انظر " التعريفات " للجرجانى : (ص ٨٢ ، ٨٣) .

(٢) الاتحـــاد : تصـــيير الذاتـــين واحـــدة ، ولا يكون إلاّ فى العدد من الاثنين فصاعداً . انظر التعريفات : ص٣ .

زاد ابن عربى : " هو محال " . انظر : " اصطلاحات الصوفية " – طبعة دار الإمام مسلم : ص ٧٠ .

وقوله هنا : " الاتحاد العام " يعنى : اتحاد الخالق تعالى وتقدس بالمخلوقات جميعها .

قلـــت : وقول ابن عربى باستحالة الاتحاد العام بناء على نظريته فى وحدة الوجود . فالوجود عنده واحد ، ولفظ الاتحاد يعنى التغاير .

انظـــر : " مـــن قضـــايا التصوف " : لأستاذنا الدكتور الجليند : ص ٢٤٠ ، و" الفلسفة الصوفية فى الإسلام " : د / عبد القادر محمود : ص ٤٩٤ وما بعدها .

(٣) ليست فى [م]

(٤) انظر ابن تيمية : " مجموع الفتاوى " : (٢ / ٣٧٨) .

(٥) فى [ت] : الصورة .

وكـثير مـن جهال أهل الحال [1] يقولون : إنهم يرون الله عياناً فى الدنيا ، وإنهم عُرج بهم إلى السماء ، ونحو ذلك من المقالات الشنيعة .

وأهـل السنـة متفقـون على أن الله تعالى لا يراه أحد بعينه فى الدنيـا ، لا نـبيّ ولا غير نـبيّ ، ولم يتنـازع الناس فى ذلك إلا فى نبينـا (صلى الله عليه وسلـم) [2] " [3] (خاصة) [4] .

وأما القول بالإباحة [5] وحل المحرمات فهذا واقع من كثير منهم ، بل ومن غيرهم . وهذا فى الأصل إنما هو قول أئمة [6] الباطنية القرامطة [7] وكثير من

---

(١) قـال الشـريف الجرجانى : " الحال عند أهل الحق – يقصد الصوفية – : معنى يرد على القلـب من غير تصنع ولا اجتـلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة ويـزول بظهور صفات النفس ؛ سواء يعقبه الميل أولا . فإذا دام وصار ملكـاً يسمى مقامـاً ، فالأحوال مواهب ، والمقامـات مكاسـب ، والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود ." التعريفات " : ص (٧٢) . وانظر : اصطـلاحات الصوفيـة لابن عـربى : ص (٥٥) .

(٢) ليست فى [ت] .

(٣) انظـر : " منهاج السنة النبوية " : (٢ / ٧٧) ، وشرح العقيدة الطحاوية : لابن أبى العز الحنفي ، طبعة المكتب الإسلامى – بيروت – ط الثامنة ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م : ص (١٩٦)

(٤) ليست فى [م] .

(٥) الإباحة : شِبْهُ النُّهْبَى . وقد استباحه أى : انتهبه .

[لسـان العـرب : ص ٣٨٤] . والإباحـة : الإذن بإتـيان الفعل كيف شاء الفاعل . [التعريفات : ص (٣)] . والمراد هنا : إسقاط التكاليف .

(٦) ليست فى [م]

(٧) هـم الشـيعة الإسماعيلية . قال الشهرستانى : " وأشهر ألقابهم الباطنية ، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً . ولهم ألقاب كثيرة سوى هذه =

الفلاســـفة [1] الذين يضرب بهم المثل فيقال : فلان يستحل دمي كاستحلال الفلاسفــــة محظورات الشرائـــع ، ثم تبعهم فى ذلك من ينتسب للتصوف من متصوفة الملاحــــدة [2] .

= على لسان قوم قوم ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ..." [الملل والنحل : للشهرستاني : محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨) تحقيق محمد سيد كيلاني ط الحلبي ١٣٩٦هـــ – ١٩٧٦ م : ١٩٢/١ .] .

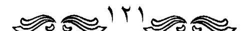
وقال ابن حزم : " الإسماعيلية والقرامطة : هما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوســـية المحضـــة ..." [الفصــــل فى الملل والنحل : لابن حزم على بن أحمد (ت ٤٥٦) ط مكتبة الســـلام العالمية بالقاهـــرة ١٣٤٨ هــ . ٩١/٢] .

" ويــــرجع إلى مـــيمون القداح دور تنظيم هذه الفرقة وتكوين وتعليم دعاتها وإرسالهم إلى الأقطار المختلفة ... وكانت هذه الطائفة تلقب بألقاب مختلفة حسب اختلاف البلاد التى ينتشر فـــيها دعـــاتهم . فكـــانوا يعـــرفون فى العـــراق باسم القرامطة نسبة إلى حمدان القرمطى ... وعــــرفوا فى مصـــر باسم العبيديين ..." . انظر : [تحقيق وتقديم أستاذنا الدكتور محمد السيد الجليـــند لكتاب مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ليحيى بن حمزة العلوى : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ط٣ : ص (٣٥)]

(١) الفلســـفة فى اللغة اليونانية : التشبه بحضرة واجب الوجود بقدر الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية . والفيلسوف من يحاول ذلك .

انظـــر : [جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون : للأحمد نكرى :٤٤/٣.] و [التعريفات : ١٤٧] و [أضـــواء على الفلسفة العامة : للأستاذ الدكتور / عبد اللطيف محمد العبد – دار الثقافة العربية ط أولى ١٤٠٦هـــ – : ص (١١)] .

(٢) الملاحــــدة : جمع ملحد . يقال : " ألحد فلان : مال عن الحق ، والإلحاد ضربان : إلحاد إلى الشـــرك بـــالله ، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب ، فالأول ينافى الإيمان ويبطله ، والثانى يوهن عراه ولا يبطله ...



قال الإمام ابن النقاش [(١)] فى تفسيره :

" وأنقص المراتب عند هـؤلاء [(٢)] مرتبة أهل الشريعـة ، وهم الفقهـاء الواقفون مع الحلال والحرام .

وأعلـى منهـم مرتبـة المتكلـم [(٣)] علـى طريقـة الجهميـة [(٤)]

= والإلحـاد فى أسمائه على وجهين : أحدهما : أن يوصف بما لا يصح وصفه به . والثانى : أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به . " [المفردات : للراغب : ص (٤٨٨) .]

(١) ابن النقاش : محمد بن على بن عبد الواحد الدكالي المغربى الأصل ، اختلف فى سنة مولده وتتلمذ على تقى الدين السبكى ، وحصل له بمصر رئاسة عظيمة ، (ت ٧٦٣ هـ) .

انظر ترجمته فى [البداية والنهاية : ١٤ / ٢٩٢ .] و [البدر الطالع : ٢ /٢١١] .

(٢) يعنى الباطنية القرامطة والحلولية والاتحادية وكثيراً من الفلاسفة .

(٣) الكـلام : علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته ، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام ، والقيد الأخير لإخراج العلم الإلهى للفلاسفة .

انظر : [التعريفات : ١٦٢] و [جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون : ١٣١/٣] .

والمتكلم من يفعل ذلك ؛ أى : ينصر العقائد الثابتة بالنقل باستخدام الأدلة العقلية .

لكـن المذكور هنا " المتكلم على طريقة الجهمية والمعتزلة ، وهو الذى يثبت العقائد بطريق العقـل فيقـبل من النقل ما لا يرفضه عقله ، ويرد أو يؤول منه ما لا يسيغه عقله . وهذا الذى ذمـه السلف رحمهم الله ونهوا عنه ، ومن نماذج المتكلمين بهذه الطريقة الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وبشر المريسي ، وحفص الفرد ، وأحمد بن أبي دؤاد ، ومن لفّ لفهم .

(٤) الجهمية : أصحاب جهم بن صفوان . قالوا : لا قدرة للعبد أصلاً لا مؤثرة ولا كاسبة ؛ بل هـو بمنزلـة الجمادات . والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعـالى . كما أنهم أصل المعطلة ، الذين ينفون صفات الله عز وجل حتى قال زعيمهم الجهم ابن صـفوان : وددت لـو أحذف هذه الآية من كتاب الله ﴿ **كلم الله موسى تكليما** ﴾ لإنكاره صفة الكلام . وقد يطلق هذا الوصف " الجهمية " على المعتزلة أيضاً لأنهم ينفون الصفات .=

والمعتزلـــة [1] .

ثم مرتبة الفيلسوف . ثم مرتبة المحقق . والمحقق فى عرفهم هو القائل بوحدة الوجود [2]

= [الـتعريفات : ٧١] ، و[الملل والنحل : ٨٦/١] و [مقالات الإسلاميــين واختلاف المصلين . لأبى الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعرى (ت٣٣٠) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت ١٤١١هـ – ١٩٩٠م : ٢١٤/١] .

(١) المعـتزلة : أصحاب واصل بن عطاء لما اعتزل مجلس الحسن البصـــرى . يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمـــن ولا كافر ، ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية . ولهم أصول خمسة تجمعهم ثم يفترقون بعد ذلك على مقالات .

انظـــر : [الملـــل والنحل : ٤٣/١] ، و[التعريفات : ١٩٨] ، و [دستور العلماء : ٣/ ٢٩٥] .

(٢) " وحـــدة الوجود ... يعنى : أن الوجود الموجود فى الخارج واحد بالشخص ، قائم بذاته ، غـــير عارض لشئ من الممكنات ولا حالاً فيه ولا محـــلاً له " [دستور العلماء : ٤٤٧/٣] ، وأصـــولها شرقية قديمة ثم تطـــورت على أيدى فلاسفة الصوفية حتى اكتملت عند ابن عربى – كما يقول الدكتور / عبد القادر محمود – :

وحدة شاملة ؛ بمعنى الواحد فى الكثرة ، وجمعت بين المعنيين :

معـــنى الكـــثرة فى الواحـــد ، ومعنى الواحد فى الكثرة)) [الفلسفة الصوفية فى الإسلام : ص ٥٠١] .

" وابـــن عربى قد بنى مذهبه فى وحدة الوجود على أصلين : الأول : قوله : إن المعدوم شيء ثابت فى العدم . الثانى : إن وجود الأعيان هو نفس وجود الرب وعينه . "

[من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة : لأستاذنا الدكتور / الجليند : ص ٢٤٠]

و" نظـــرية وحدة الوجود تؤدى إلى الإلحاد على أساس توكيدها لوحدة الإله مع أجزاء الطبيعة إلى حدّ يجعل القيام بالذات أو الاستقلال عن هذه الأجزاء أمراً مستحيلاً فى نظر أتباع مدرسة وحدة الوجود . " . [الفلسفة الصوفية فى الإسلام : ص ٥١٥] .

ويسمون العقل القلم [(١)] ، ويسمون النفس الفلكية [(٢)] اللوح .

---

(١) في [ت] : العلم . و القلم : قال في التعريفات :

" القلم وهو العقل الأول ، وجد أولاً لا عن سبب ؛ إذ لا موجب للفيض الذاتي الذى ظهر أولاً بهـذا الموجـود الأول غـير العـناية فلا يقابله طلب استعداد قابل قطعاً فإنه أول مخلوق إبداعي ." ص ١٣٣ . وانظر : [مجموع الفتاوى : ١١/ ٢٣٠]

وهذا التعريف بناء على نظريتين فاسدتين :

الأولى : أن الله تعـالى ليس مختاراً ؛ إذْ الخلق صادر عنه ضرورة ، وهى نظرية الفيض عند الفلاسفة .

والثانية : أن العقل جوهر قائم بنفسه فى الخارج ، والعقل الأول عندهم أحد عقول عشرة وقد تقدم تعريف العقل عند السلف ص ١٠٨ هامش رقم ٤ .

(٢) " الـنفس الفلكية . ويسميها من أراد الجمع بين الفلسفة والشريعة باللوح المحفوظ ، كما يوجـد فى كـلام أبي حـامد الغزالي ونحوه ، وهذا فاسد ؛ فإن اللوح المحفوظ الذى وردت به الشـريعة كتب الله فيه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبي ﷺ ، واللوح المحفوظ لا يطلع عليه غير الله عز وجل ، والنفس الفلكـية تحت العقول ، ونفوس البشر عندهم تتصل بها وتنقش فى نفوس البشر ما فيها ، ولهذا يقـول بعض الشيوخ الذين يتكلمون باللوح المحفوظ على طريقة هؤلاء إما عن معرفة بأن هذا قولهـم ، وإما عن متابعة منهم لمن قال ذلك عن الفلاسفة ، كما يوجد فى كلام ابن عربي وابن سـبعين والشاذلي وغيرهم . يقولون إن العارف قد يطلع على اللوح المحفوظ ، وأنه يعلم أسماء مـريديه من اللوح المحفوظ ونحو هذه الدعاوي التى مضمونها أنهم يعلمون ما فى اللوح المحفوظ. وهذا باطل مخالف لدين المسلمين وغيرهم من أتباع الرسل .

انظر : " الرد على المنطقيين" للإمام ابن تيمية : دار المعرفة – بيروت – بدون تاريخ : ص : (٤٧٤ ، ٤٧٥) .

ويدعــون أن ذلــك هو اللوح المحفوظ فى كلام الله ورسوله ؛ ولهذا يدعى أحدهم أنه يطلع على اللوح المحفوظ .)) . (١)

قال ابن تيمية :

وقــد يقولــون الوجــود واحد ، ثم يجعلون الــمُرْدَان مظاهرَ الجمال ؛ فيجعلون هذا الشِّرْك الأعظم طريقاً إلى الوصول إلى استحلال الفواحش (٢) ، بل إلى استحلال كل محرم ، كما قيل لبعض مشايخهم :

إذا كــان قولكم بأن الوجود واحد هو الحق فما الفرق بين الأجنبية وبين أمي وأختي وبنتي حتى يكون : هذا حلالٌ وهذا حرامٌ ؟

فقــال : الجميع عندنا ســواء ، ولكن هؤلاء المحجوبــون قالوا : حرام . فقلنا : حرام عليكم . (٣)

قال (٤) : " ولهذا تجد الواحد من هؤلاء ينكر على من ينكر المنكر ويقول : هــذا مقدر عليهم . ويقول بعض مشايخهم : أنا كافر برب يُعصى . ويقول : لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئاً .

ويقول شاعرهم :

---

(١) انظر :" الرد على المنطقيين" : ص : ٤٧٥ ، ولم أجد تفسير ابن النقاش فأحقق النص منه .

(٢) انظر : " مجموع الفتاوى " : (٢ / ٣٧٨) .

(٣) انظــر : [مجموع الفتاوى : ٣٦٥/٢] .وابن تيميــة ينسب هذا القول إلى : العفيــف التلمسانى وابن عربى وابن سبعــين .

(٤) القائل هو ابن تيمية رحمه الله . انظر : " منهاج السنة النبوية " : (٢٦٨/١) .

أصبحت منفعـلاً لما تختـاره منى ففعلـى كلـه طاعـات " (١)

ومـنهم من يقول : إن العبد إذا بلغ غاية المحبة ، وَصَفَا قلبه واختار الإيمان على الكفر ، سقط عنه الأمر والنهى (٢) .

ومـنهم مـن يقـول : إنه تسقط عنه العبادات الظاهرة وتكون عباداته التفكـر .

وكل هؤلاء بمعزل عن الإسلام ، وهم كما قيل [ت/٤أ] :

وما انتسبـوا إلى الإسـلام إلاّ لصـون دمائهـم ألاّ تُسـالا

فيأتـون المعاصـى فى نشـاط ويأتون الصـلاة وهـم كُسـالىٰ

قال ابن تيمية : " (ومنهم) (٣) طائفة ظنت أن كل ما خلقه الله فقد أحبه وهـؤلاء قـد يخرجون إلى مذاهب الإباحـة أيضاً ؛ فيقولون : (إن الله) (٤)

---

(١) أى : إنهم لا يفرقون بين الإرادة الشرعية و الإرادة الكونية ، بل – عندهم – أن كل فعل فعلـه العـبد فإنمـا أراده الله وأمر به ، فجميع الأفعال – عندهم – من جميع الخلق إنما هى فى حقيقتها طاعات لله . ويزيفون باطلهم هذا بقولهم :

إذا كـان العبد قادراً على فعل ما لا يريده الله كان ذلك تعجيزاً لله . تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً . وبذلك يسقطون جميع الشرائع ؛ فليس ثم أمر ولا نهى .

(٢) انظر : [مقالات الإسلاميين : ١/٨٢] ، [الملل والنحل : ١/١٥٢] .

قال ابن تيمية رحمه الله : " وكثير ممن يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته ... حتى قد يظن أحدهـم سـقوط الأمـر وتحلـيل الحرام له ، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته . " [مجموع الفتاوى : ١٠/٢٠٩ ، ٢١٠]

(٣) ليست فى [م] .

(٤) فى [ت] : إنه .

تعـــالى يحـب الكـفر والفسـوق والعصيـان ويرضـى ذلـك ، وأن العـارف (١) إذا شـهد هذا الحكم لم يستقبح سيئة (٢) لشهوده القيومية (٣) العامة ؛ وخلق الرب لكل شيء . ويقول شاعرهم :

ما الأمر إلا نسـق واحـد ... ما فيـه من حـمد ولا ذمّ (٤)

---

(١) " كلام الصوفية عن العارف يختلف فيما بينهم إلى درجة التناقض أحياناً ، وهذا أمر طبيعى إذا أخذنا فى اعتبارنا أن كل صوفى يتكلم عن العارف من واقع حاله هو . " والمراد هنا المتحلل من الشرائع .

[من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة : ص ١٥٦] .

(٢) فى [م] : سيئته ، وما أثبته من [ت] وهو الموافق لنص ابن تيمية فى " منهاج السنة " .

(٣) القـيّوم : القائم الحافظ لكل شيء ، والقيومية هى قيام الله – تعالى – على خلقه بالتدبير والحفـظ والعناية . وذلك هو المعنى المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ [طه : ٥٠] .

[المفردات فى غريب القرآن : ص ٤١٧] .

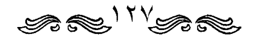
(٤)ذكر ابن تيمية هذا البيت ونسبه ((للبلياني)) . انظر : [مجموع الفتاوى : ٤٧٣/٢ .] .

((والبلياني)) هكذا بالباء ، ولم أجد أحداً بهذا الاسم ، وإنما وجدت ((الجلياني)) بالجيم .

وأظـن أنه الذى عناه ابن تيمية وأن الذى بالمجموع خطأ مطبعى أو من ناسخ المخطوط ، لا سيما إذا أخذنا فى الاعتبار ما هو معروف عن رداءة خط ابن تيمية رحمه الله .

أمـا ((الجلـياني)) : فهو الطبيب الزاهد المتصوف أبو الفضل عبد المنعم بن عمر المغربى ، سـكن دمشق ... ودخل فى علوم الباطن ، قال الذهبى : " له شعر رائق ، ونَفَسُه فى نظمه نفسٌ اتحادى والله أعلم بسرّه " . توفى سنة اثنتين وستمائة وقد نيف على السبعين .

انظر : سير أعـلام النبـلاء : (٢١/ ٤٧٦) ، و [فوات الوفيات : (٤٠٧/٢) – لمحمد ابن شاكر الكتـبى (ت٧٦٤) تحقيـق د / إحسان عباس – دار الثقافة بيروت ١٩٧٣] .



قـــال : وهذا غلط عظيم ، فإن الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة صريح بـــأن الله يحب أنبياءه وأولياءه وما أمر به ، ولا يحب الشياطين والكافرين ولا ما نهى عنه " [1]

قال : ومـــن المدَّعين للمعرفـــة [2] والحقيقـــة [3] والفنـــاء [4][م/٣ب] الذيـــن يطلبـــون أن لا يكـــون لهـــم مراد مـــع الحـــق ؛ بـــل يـــريدون مـــا يـــريد الحق ، من يقول :

---

(١) " منهاج السنة " : (٢ / ٣١) .

(٢) المعـــرفة : هي إدراك الشيء على ما هو عليه ، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم ، ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف . [التعريفات : ص (١٩٧)] .

(٣) الحقيقة : سلب أوصافك عنك بأوصافه .

[معجم اصطلاحات الصوفية : ص (٦٠)] .

وقال صاحب التعريفات : حقيقة الحقائق هي المرتبة الأحدية الجامعة لجميع الحقائق ، وتسمى حضرة الجمع وحضرة الوجود . [التعريفات : (٨٠)] .

و " فكـــرة التفرقة بين العامة والخاصة والشريعة والحقيقة جزء أساسي في المنهج الصوفي في المعـــرفة ... ومع تأكيد كثير من الصوفية المعتدلين على ضرورة التلازم بين الحقيقة والشريعة إلاّ أن واقع بعض الصوفية – وهم كثيرون – لم يلتزموا بذلك ، وكثير منهم قد صرح بأن الشريعة للعوام والمحجوبين ، وقال بإسقاط التكاليف الشرعية ... "

[من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة : ص ١٣٧ – ١٤١]

(٤) عند ابن عربي : الفناء عدم رؤية العبد لفعله لقيام الله على ذلك .

وعند صاحب التعريفات : الفناء فناءان :

أحدهما : سقوط الأوصاف المذمومة ، وهو بكثرة الرياضة .

والثاني : عدم الاحساس بعالم الملك والملكوت ، وهو الاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق .

إن الكمال أن تفنى عن إرادتـك [1] وتبقى مع إرادة ربك [2] ، وليست الطاعــات عندهم سبباً للثواب ، ولا المعاصى سبباً [3] للعقاب [4] .

= وزاد الأحمد نكرى : الفناء فى الله وهو تبدل الصفات البشرية للسالك بالصفات الإلهية . !!

" ولم يعرف هذا المصطلح الصوفى قبل القرن الثالث الهجرى ...

وأصحاب الفناء من الصوفية ينقسمون إلى اتجاهين :

فهناك من يقول بالفناء ولكنه لا يصل به فناؤه إلى درجة الحلول والاتحاد ...

أمـــا الفـــريق الثانى من القائلين بالفناء فذهبوا فى فنائهم إلى القول بالحلول والاتحاد ، وقالوا بإسقاط التكاليف الشرعية ، وبالغ بعضهم فى ذلك فادعى أنه الحق ... وكلا الموقفين على خطر عظيم من ناحية الشرع ومن ناحية العقل . "

انظر : " معجم اصطلاحات الصوفية " : (٥٩) ، و " التعريفات " : (١٤٨) ، و" دستور العلماء " :(٣/٤٥) . و " من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة " : (٨٠ – ٨٥) .

(١)الإرادة فى الأصـــل قـــوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل ، وجعل اسماً لنـــزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغى أن يُفعل أو لا يفعل .

وقيل : الإرادة : ميل يعقب اعتقاد النفع . وقيل : هى المشيئة .

والإرادة تكون محبة وغير محبة . ومن معانيها أيضاً القصد والأمر .

انظر : " المفردات" : (٢٠٦) ، و "كشاف اصطلاحات الفنون " للتهانوى : (٣/٣٢) و " التعريفات " : (١١) ، و " لسان العرب " : (١٧٧٢) .

(٢)قد عرفنا معنى الإرادة فى حق المخلوق . فنحن نثبت الصفة له تعالى مع تنزيهه عن المماثلة .

وقوله : ((أن تفنى عن إرادتك وتبقى مع إرادة ربك)) له معنيان : حسن وقبيح .

أما الأول : فهو مخالفة الهوى وموافقة الشرع .

والثانى : اتباع الهوى مع الاحتجاج بالقدر . والشيخ رحمه الله ينسبهم إلى المعنى الثانى .

(٣) السبب : اسم لما يتوصل به إلى المقصود . انظر : " التعريفات " : (١٠٣) ، و " كشاف اصطلاحات الفنون " : (٣ / ١٢٧) ، و " المفردات " : (٢٢٠) .

(٤) انظر : " مجموع الفتاوى " : (٨ / ٢٣٠) ، (١٠ / ٤٩٦) .

والعارف عندهم من يكون مشاهداً سبق الحقِّ بحكمه وعلمه ؛ أى : يشهد أنه علم ما سيكون وحكم به ؛ أى : أراده وقضاه وكتبه .

وكثيرٌ من أهل هذا المذهب يتركون الأسباب الدنيوية ، ويجعلون وجود السبب كعدمه .

وقد قال الإمام أحمد (١) فى قوم لا يعملون بالتكسب ، ويقولون : نحن متوكلون : هؤلاء (٢) مبتدعة [ت/٤ب] .

ومنهم قوم زنادقة (٣) يتركون الأسباب الأخروية ، ويقولون : إن سبق العلم والحكم أننا سعداء ؛ فنحن سعداء ، وإن سبق أنَّا (٤) أشقياء ؛ فنحن أشقياء ، فلا فائدة فى العمل . فيتركون العمل بناءً على هذا الأصل الفاسد .

(و) (٥) إذا تقرر هذا ، فالجواب عن الأول

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى . إليه ينسب المذهب الحنبلى ، ولد سنة ١٦٤ ، وتوفى سنة ٢٤١ .

قال فيه الذهبى : " هو الإمام حقاً ، وشيخ الإسلام صدقاً ... " ثم أورد له ترجمة فى ٢٨١ صفحة . انظر : " السير " : (١١ / ١٧٤) ، وما بعدها .

(٢) فى [ت] : وهؤلاء .

(٣) الزنادقة : جمع زنديق ؛ وهو القائل ببقاء الدهر . فارسى معرّب ...

وزندقته : أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق .

انظر : " لسان العرب " : (١٨٧١) ، و " كشاف اصطلاحات الفنون " للتهانوى : (١١٧/٣) ثم صار استعمالها فيمن يعيش بين المسلمين ؛ إلاَّ أنه يظهر الاستهتار بالشرع .

(٤) فى [ت] : أننا .

(٥) ليست فى [ت] .

وهو (أنه) (1) حيث المقدَّر كائن لامحالة ؛ فما فائدة العمل ؟

وهل له تأثير فى دفع (2) المقدور ؟ إلى آخره (3) .

فـنقول : لا ريب أن المقادير سابقة ، وقد جرى القلم (4) بما هو كائن إلى الأبد (5) .

---

(1) ليست فى [م] .

(2) فى [ت] : رفع .

(3) الإشكال الأول كما ذكره المؤلف فى صدر الكتاب هكذا :

" حيـث إن المقدر كائن لا محالة ، وأنه لا يكون إلاّ ما قدره الله وسبق علمه به ؛ فما فائدة العمل ؟ وهل له تأثير فى دفع المقدور ؟ وما الدليل على ذلك ؟ " .

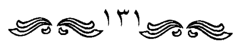
(4) القـلم المذكور هو الذى خلقه الله وكتب به فى اللوح المقادير ، كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إن أول ما خلق الله القـلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة .)) انظر : " شرح العقيدة الطحاوية " : (٢٦٤) .

والحديـث صـحيح . صححه الشيخ الألباني حفظه الله .انظر : تعليق رقم : (٢٧١) من تخـريج أحاديـث شـرح الطحاوية ، والحديث رقم ١٣٣ من [سلسلة الأحاديث الصحيحة وشـيء مـن فقهها وفوائدها . للشيخ محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامى ط الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م : ١/ ٢٠٧]

فالقـلم المذكـور هنا ليس العقل الفعال أو العقل الأول كما هو موجود فى كلام الفلاسفة أو فلاسفة الصوفية .

(5) الأبد : هو استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب المستقبل .

وقـيل : الأبد عبارة عن مدة من الزمان الممتد الذى لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان . وذلك أنه يقال زمان كذا ، ولا يقال أبد كذا ، وكان حقه ألاّ يثنى ولا يجمع إذ لا يتصور حصول =



قـال الإمام النووى [1] فى شرح مسلم : " إن الله تعالى قدر مقادير الخلق ومـايكون من الأشياء قبل أن يكون فى الأزل [2]، وعلم سبحانه أنها ستقع فى أوقـات معلومـة عنده ، وعلى صفات [3] مخصوصة ، فهى تقع على حسب ما قدرها . " [4]

أبـد آخـر يُضم إليه فيثنى به ؛ لكن قيل : آباد ، على حسب تخصيصه فى بعض ما يتناوله كتخصيص اسم الجنس فى بعضه ثم يُثنى ويُجمع .

انظر : " التعريفات " : (٢) ، و " المفردات " : (٨) .

(١) النووى : هو يحيى بن شرف بن حسن الحازمى ، محيى الدين أبو زكريا النووى ثم الدمشقى الشافعى ؛ شيخ المذهب وكبير الفقهاء فى زمانه شرح صحيح مسلم ، وله مؤلفات كثيرة منها : ريـاض الصالحين والأذكار والتبيان فى آداب حملة القرآن وتهذيب الأسماء واللغات ، والمجموع شرح المهذب ولم يكمله .

قال ابن كثير رحمه الله :

لا أعـرف فى كتب الفقه أحسن منه . – يعنى : المجموع – ، وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحرى والانجماح عن الناس على جانب كبير . (ت ٦٧٦ هـ) .

انظر : " البداية والنهاية " : (١٣ / ٢٧٨) حوادث سنة ٦٧٦ هـ .

(٢) الأزل :

استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب الماضى . التعريفات : (١١) .

(٣) الصفات :

مفردها صفة ، وهى الأمارة اللازمة بذات الموصوف الذى يُعرف بها .

والصفة : الحالة التى عليها الشيء من حليته ونعته .

انظر : " التعريفات " : (١١٧) ، و " المفردات " : (٥٢٥) .

(٤) انظـر : (المـنهاج) شـرح صـحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى ، ط دار الفتح الإسلامى – الإسكندرية : (١ / ١٣٠) . =

وقال الشيخ تقى الدين بن تيمية :

" إن عـــلم الله تعالى السابق محيط بالأشياء على ما هى عليه ، ولا مَحْوَ فيه ولا تغيير ، ولا زيادة ولا نقص ؛ فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ، ومالا يكون لو كان كيف كان يكون . وأما ما جرى به القلم فى اللوح المحفوظ [1] ؛ فهل يكون فيه محو وإثبات . على قولين للعلماء .

فى شـــرح الحديث الأول من كتاب الإيمان الذى رواه عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عـــنهما قال : ((بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ....)) .

وقـــد ذكـــر الإمام النووى فى شرحه فوائد طيبة عن أول من قال بنفى القدر ، ومعنى هذا المذهب ، ومكانة هذه الفرقة من الإسلام ، ومناقشة أفكارهم .

وتعرض لهذه المسائل أيضاً فى شرحه لباب القدر أول المجلد الثامن من الطبعة المشار إليها .

(١) قال الإمام الطحاوى : " ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رقم " .

قـــال شـــارح الطحاويـــة ابن أبي العز الحنفي : " اللوح المذكور هو الذى كتب الله مقادير الخلائق فيه ، والقلم المذكور هو الذى خلقه الله وكتب به فى اللوح المذكور المقادير " .

والقرآن نزل بلسان عربى مبين يخاطب العرب بلغة يعرفونها ، وليس فى لغة العرب أن القلم هو العقل ، وأن اللوح هو النفس .

فالقلم قلم حقيقى يكتب به ، واللوح لوح حقيقى يكتب فيه .

قـــال القـــرطبى : ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ : أى مكتوب فى لوح وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه .

وقال ابن كثير : ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ : أى : هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

ولم يخالف الرازى هذا التفسير كثيراً ؛ إلاّ أنه حكى قول المتكلمين وسكت عليه .

قـال : وأمـا الصحف التى بيد الملائكة [1] فيحصل فيها المحو والإثبات " انتهى .

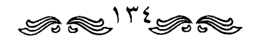
= وقـال الراغـب الأصفهاني : اللوح ما يكتب فيه ؛ الخشبُ وغيُره ... وقوله : ﴿ **فى لوح محفوظ** ﴾ فكيفيـته تخفى علينا إلاّ بقدر ما رُوى لنا فى الأخبار ، وهو المعبر عنه (بالكتاب) فى قوله : ﴿ **إن ذلك فى كتاب . إن ذلك على الله يسير** ﴾ [الحج : ٧٠] .

أمـا مادة اللوح والقلم ، فقد ورد فى ذلك أثر يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما موقوفاً ومرفوعاً : ((أن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء ، صفحاها ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكـتابه نور . لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، وعرضه ما بين السماء والأرض ، يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء)) .

الحديث قال فيه الشيخ الألباني حفظه الله : ضعيف . رواه الطبراني فى المعجم الكبير ... وقد رواه من طريق أخرى نحوه عن ابن عباس موقوفاً عليه . وإسناده يحتمل التحسين .

انظـر : "شـرح الطحاويـة " : (٢٦٣ و ٢٦٤) ، و " الجامع لأحكام القرآن " للإمام القرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري – دار الشام للتراث – بيروت ط الثانية (١٩ / ٢٩٨) ، و " تفسـير ابـن كثير " : (٤/ ٤٩٦) ، و "التفسير الكبير " (مفاتيح الغيـب) للرازى فخر الدين محمد ابن عمر – دار الفكر – بـيروت ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م : (٣١ / ١٢٦) ، و "المفردات " : (٤٥٦) ، وتخريج الشيخ الألباني لأحاديث شرح الطحاوية تعليق رقم (٢٧٠) .

(١) الملائكة عليهم السلام ذوات قائمة بأنفسها قادرة على التشكل بالقدرة الإلهية كما ثبت فى الأحاديـث الصحيحة . خلقهم الله تعالى من النور لعبادته ، ليسوا بنات لله عز وجل ولا أولاداً كمـا زعـم بعض المشركين ، ولكل منهم عمل موكل به ، فجبريل عليه السلام ملك الوحي ، وميكائـيل علـيه السلام ملك القطر ، ومنهم الموكل بالصور ، ومنهم الكتبة ومنهم الحافظون وخـزنة الجـنة وخـزنة الـنار ، وفتانو القبر ، والموكلون بالأرحام ، والمصطفـُون للعبادة ، والسياحـون وحملة العـرش وغير ذلك . =



وقد بسطت (١) الكلام على هذا فى كتابى [إتحاف ذوى الألباب فى قولـه تعـالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٢)] (٣)

وفى صحيح مسلم (٤) عن عبد الله (٥) بن عمـرو بن العـاص رضى الله

= انظـر : [لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية فى عقيدة الفرقة المرضية . للشيخ / محمد ابن أحمد السفارينى : المكتب الإسلامى – بيروت . ط الثالثة ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م : (١/ ٤٤٦) .] و [معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد – للشيخ / حافظ بن أحمد حكمى – دار حميدو – الإسكندرية – ١٩٨٩ : (٢ / ٥٢ – ٦٢) .] والتعريفات : (٢٠٥) .

(١) فى [م] : بسطنا .

(٢) سورة الرعد : آية رقم : (٣٩) .

(٣) راجع مؤلفات الكرمى فيما سبق .

(٤) هـو : مسـلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ، ثقة حافظ إمام مصنف ، عالم الفقه ، صاحب الصحيح الذى يتلو صحيح البخارى من حيث الصحة . قيل : ولد سنة ٢٠٤ وتوفى سنة ٢٦١ هـ .

انظـر : " تقريـب التهذيب " لابن حجر : أحمد بن على (ت ٨٥٢) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف – دار المعرفة – بيروت : (٢٤٥/٢) ، و " الكاشـف فى معرفة من له رواية فى الكتـب السـتة " للذهـبى : محمد بن أحمد – تحقيق وتعليق : عزت على عيد ، وموسى محمد على – دار الكتب الحديثة – ط أولى ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م : (١٤٠/٣) .

(٥) عـبد الله بـن عمرو بن العاص بن وائل السهمىّ ؛ أبو محمد ، أحد السابقين المكثرين من الصـحابة ، وأحد العبادلة الفقهاء وهم : ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عمرو ، وابن عباس . مـات فى ذى الحجـة ، ليالىَ الحرة على الأصح ، بالطائف على الراجح سنة ٦٨ . روى لـه الجماعـة . أسلم قبيل أبيه ، وكان من العلماء العباد . انظر : " الكاشف " : ١١٣/٢ ، و " التقريـب " : (٤٣٦/١) . وانظـر : ترجمته مفصلة فى " سير أعلام النبلاء " : (٨٠/٣) ، و " الإصابة فى تمييز الصحابة " لابن حجر – دار الكتب العلمية – بيروت : (١١١/٤) .

عـــنهما [1] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((كتب الله مقاديـــر الخلائق قبل أن يخلق السموات [ت/٥أ] والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء)) [2]

وفي حديـــث الإمـــام أحمـــد والترمذي [3]: ((قدر المقادير قبل أن يخلق [م / ٤ أ] السمـــوات والأرض بخمسين ألف سنة)) [4]

وحديث أحمد ومسلم عن ابن عمر [5] ...

---

(١) في [ت] : عنه .

(٢) حديث رقم : (٢٦٥٣) عند مسلم .

(٣) هو محمد بن عيسى بن سورة السُّلمي الترمذي : أبو عيسى صاحب الجامع المعروف بسنن الـــترمذي ، و" العلـــل " ، و " الشمائل المحمدية " . ثقة حافظ . مات سنة ٢٧٩ ، تتلمذ على الإمـــام الـــبخاري . انظر : "الكاشف " : (٨٦/٣) ، و " التقريب " : (١٩٨/٢) . وانظر ترجمته مفصلة في " سير أعلام النبلاء " : (١٣ / ٢٧٠) ، وما بعدها .

(٤) رواه أحمد في مسنده : (١٦٩/٢)حديث رقم (٦٥٧٩) ، ومسلم في صحيحه : كتاب القـــدر : (٨ / ١٤) ، والترمذي في سننه كتاب القدر – باب ١٨ حديث رقم (٢١٦٣) . وقال : حسن صحيح غريب ، وابن حبان في صحيحه : حديث رقم (٦١٣٨) .

والبـــيهقي في " الأسماء والصفات " : باب بدء الخلق ص ٤٧٧ ، وعبد بن حميد في مسنده : حديث رقم (٣٤٣) . كلهم عن عبد الله بن عمرو .

(٥) عـــبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي ، أبو عبد الرحمن ، ولد بعد المبعث بيسير ، وأسلم قـــبل البلوغ ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة ، واستصغر يوم أُحد ، وأول مشاهده الخندق ، وكان لـــه حينئذ خمسة عشر عاماً ، وهو أحد المكثرين من الصحابة والعبادلة وكان من أشد الناس اتباعاً للأثرروى له الجماعة . مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو أول التي تليها . انظر: " التقريب " (٤٣٥/١) ، و" الكاشف " : (٢/ ١١٢) . وانظر ترجمته مفصلة في" سير أعلام النبلاء " : (٣ /٢٠٣) ، و " الإصابة في تمييز الصحابة " : (١٠٧/٤) .

(رضى الله عنهما) [1] :

((كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس [2])) [3]

وفى القـــــرآن العـــزيـــــر : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا** ﴾ [4] .

وفيه أيضـــاً : ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ [5]

والآيات والأحاديث فى مثل هذا كثيرة .

والمقصـــود هنا أن من شهد هذا المشهد فشهـــوده حق ، لكن وراء هذا

---

(١) ليست فى [ت] .

(٢) العجــز : الضـــعف ، والعجز : نقيض الحزم ، والكيـــس : ضد الحمق . انظر : " لسان العـــرب " : (٢٨١٦) ، و" مختـــار الصـــحاح " : (٤١٣) ، (٥٨٥) لمحمد بن أبى بكر الرازى – ترتيب محمود خاطر – دار الحديث – القاهرة .

" ويحـــتمل أن العجــز هـــنا على ظاهره وهو عدم القدرة ، وقيل : هو ترك ما يجب فعله ، والتســـويف بـــه ، وتأخيره عن وقته ، ويحتمل العجز عن الطاعات ... والكيس ضد العجز ، وهو النشاط والحذق بالأمور " .

ومعـــناه : " أن العاجز قد قُدِّر عجزه ، والكيس قد قدر كيسه " . انظر : " شرح صحيح مسلم " : (١٥/٨) .

(٣) رواه أحمد فى" مسنده " : (١١٠/٢) رقم (٥٨٩٣) ، ومسلم فى" صحيحه " : فى كتاب القـــدر : باب كل شيء بقدر رقم (١٩) – المجلد الثامن ص ١٥ ، ومالك فى "الموطأ " : باب القـــدر : الحديث الرابع ، وابن حبان فى" صحيحه " : حديث رقم (٦١٤٩) ، والبخارى فى " خلق أفعال العباد "حديث رقم (٩٥) ، والبغوى فى " شرح السنة " : حديث رقم (٧٢) .

(٤) سورة الحديد : آية رقم (٢٢) .

(٥) سورة التوبة : آية رقم (٥١) .

المشـــهد مشهد آخر ، وهو أن يشهد المقادير مقدرةً بأسبابها ؛ لا أنه يشهدها مجردة عن الأسباب ؛ فإنه إن شهد ذلك كان شهوده ناقصاً أعمى ، وينشأ له الغلـــط مـــن أن الأعمال لا تنفع وأن الأسباب لا تفيد ؛ وهو قول مبنى على أصـــل فاسد ، ولا ريب أن هذا الأصل الفاسد الذى وقع فيه بعض المتصوفة ومـــن الـــتحق بهم هو مخالف للكتاب والسنة وأئمة الدين ، ومخالف لصريح المعقـــول ، ومخـــالف للحس والمشاهـــدة [١] ، فإن الله تعالى أجرى عادته [٢] الإلهـــية فى هـــذا العـــالم[٣] على أسباب ومسبَّبات تناط [٤]بتلك الأسباب ، ويُنسب أيضاً وقوعها إليها نظراً للصورة الوجودية ، وإن كان الكل فى الحقيقة بقضائه وقدره باعتبار الحقيقة الإيجادية [٥] .

---

(١) يلاحـــظ أن الشـــيخ مـــرعي رحمه الله تعالى ذكر مصادر المعرفة التى يعتد بها ، وهى النقل والعقل والحس .

(٢) عادته – تعالى – الإلهية : هى السنن الكونية المستمرة فى هذا الكون ؛ كترتب الشبع على الأكـــل ، والري على الشرب ، والولد على الوطء ، فمن طلب الشبع ولم يأكل ، أو الري ولم يشرب ، أو الولد ولم يتزوج أو يتسرى فقد طلب محالاً .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

(٣) العـــالم : عـــبارة عـــن كل ما سوى الله من الموجودات لأنه يُعلم به الله من حيث أسماؤه وصفاته . انظر : " المفردات " : (٣٤٤) ، و " التعريفات " : (١٢٦) .

(٤) تُناط : تُعلق . قال فى " اللسان " : " ناط الشيء ينوطه نوطاً : علقه ... وانتاط به تعلق" . " اللسان " : (٤٥٧٧) .

(٥) يعـــنى أن المســـبَّبات تنسب فى وجودها إلى أسبابها مع الإيمان بأن الله تعالى خالق السبب والمســـبَّب ؛ فنقول : ((أمطر السحاب)) .فننسب وجود المطر إلى السحاب ؛ مع الإيمان بأن الله تعالى خالق السحاب ومنزل المطر .

قال تعالى : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ [الصافات : آية ٩٦] .

وقـد سُـئل الـنـبى صلى الله عليه وسلم عن إسقاط الأسباب نظراً إلى القضـاء والقدر السابق ؛ فرد عليه السلام ذلك كما فى الصحيحين عنه صلى الله علـيه وسـلم [ت/٥ب] أنه قال : ((ما منكم من أحد إلاّ وقد عُلم مقعده من الجنـة ومقعده من النار)) .

قالوا : يا رسول الله – أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟

فقال : ((لا . اعملوا ؛ فكل ميسر لما خلـق له .)) [١]

وفى صحيح مسلم من حديث على بن أبى طالب [٢] (رضى الله عنه) [٣]

عن النبى صلى الله عليه وسلم – وفيه قال : – ((ما من نفس منفوسة [٤]

---

(١) صحيح متفق عليه . رواه البخارى فى " صحيحه " حديث رقم (٤٩٤٥) ، وفى مواضع أخـرى مـن الصـحيح . ومسلم فى كتاب القدر من صحيحه حديث رقم (٧) . وأخرجه كذلك أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد فى " مسنده " .

(٢) ابـن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته ، من السابقين الأولين . المرجح أنه أول مـن أسلم كذا قال ابن حجر فى " التقريب " ، وهذا يشكل فى حق خديجة رضى الله عنها فـلا شك أنها أول من آمن على الإطلاق ، وحديث بدء الوحي فى غار حراء مشهور معروف ، ولـو قال من الذكور أو الصبيان لكان أوفق ، وهو أحد العشرة . مات فى رمضان سنة أربعين وهـو يومئذ أفضل الأحياء من بنى آدم فى الأرض بإجماع أهل السنة وله ثلاث وستون سنة على الأرجح ، وروى له الجماعة .

انظر : " الكاشف " : (٢٨٧/٢) ، و "التقريب " : (٣٩/٢) . وانظر ترجمته مفصلة فى " الإصابة فى تمييز الصحابة " : (٢٦٩/٤) .

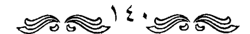
(٣) ليست فى [ت] .

(٤) منفوسة : أى مولودة . " اللسان " : (٤٥٠٣) ، و " مختار الصحاح " : (٦٧٣) .

إلاّ وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار (و) [1] إلاّ وقد (كتبت) [2] شقية أو سعيدة)) . قال : فقال رجل : يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمـــل ؟ فقال : (([من كان] [3] من أهل السعادة فسيصـــير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة))

(فقال [4]) : ((اعملوا ؛ فكل ميسر (لما خلق له) [5])) [6]

وروى الإمـــام أبـــو حنـــيفـــة [7] (رضـــى الله عـــنـــه) [8] عـــن عبـــد العزيـــز [م/٤ب] بن رُفَيـــع [9] عن مصعـــب بن سعـــد ابـــن



(١) ليست فى النسختين ، وأثبتها من صحيح مسلم لأن المؤلف عزا إليه .

(٢) فى [ت] كتب ، والذى أثبته من [م] وهو الموافق لما فى الصحيح .

(٣) تكررت فى [م] هكذا (من كان من كان) وهو سهو من الناسخ .

(٤) ليست فى النسختين ، وأثبتها من صحيح مسلم لأن المؤلف عزا إليه .

(٥) هكـــذا فى النسختين وعبارة (لما خلق له) ليست فى هذه الرواية عند مسلم ؛ إلاّ أنها فى الرواية التى تليها .

(٦) رواه مسلم فى " صحيحه " : فى كتاب القدر حديث رقم (٦) .

(٧) الـــنعمان بن ثابت بن زوطا ، فقيه العراق ، مولى بنى تيم ، رأى أنساً وسمع عطاءً ونافعاً ، روى له الترمذى والنسائى ومات سنة ١٥٠ هـــ وله سبعون سنة ." الكاشف " : (٣/٢٠٥) و " التقريـــب " : (٢/٣٠٣) ، وأخـــبار أبى حنـــيفة وأصحابه : لأبى عبد الله حسين بن على الصيمرى (ت ٤٣٦ هـــ) – دار الكتاب العربى – بيروت ط ٢ ، ١٩٧٦ م .

(٨) ليست فى [ت] .

(٩) عـــبد العزيز بن رُفَيع – مصغراً – الأسدى أبو عبد الملك المكىّ روى عن ابن عباس وابن عمـــر رضـــى الله عـــنهم ، ثقة معمّر من الرابعة ، روى له الجماعة ، مات سنة ١٠٣ هـــ . انظر : " الكاشف " : (٢/١٩٨) ، و " التقريب " : (١/ ٥٠٩) .

أبي وقـــاص [1] (عــن أبيه) [2]- رضى الله عنه [3]- قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما من نفـــس إلاّ وقد كتب الله مخرجها ومدخلها ومـــا هـــى لاقـــية)) فقال رجل من الأنصار : ففيم العمل يا رسول الله ؟ فقـــال : ((اعملـــوا ، كل [4] ميـــسر لما خلـــق له ، أما أهل الشقاء فييســـرون [5] لعمل أهل الشقاء ، وأما أهل السعادة فييسرون [6] لعمل أهل السعادة .)) فقال الأنصارى : الآن حق العمل .[7]

---

(١) مصـــعب بـــن سعد بن أبي وقاص ، أبو زرارة المدنى ، ثقة ، من الثالثة روى عن أبيه وعلي وطـــلحة مـــات ســـنة ١٠٣ هــــ ، روى له الجماعـــة . انظر : " الكاشف" : ١٤٧/٣ ، و " التقريب " : (٢٥١/٢) .

(٢) ليست فى النسختين . والتصويب من مسند أبى حنيفة .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) هكذا فى النسختين ، وفى مسند أبى حنيفة : (وكلٌ) .

(٥) هكذا فى النسختين ، وفى مسند أبى حنيفة : (فَيُسَرُّوا) .

(٧) الحديث فى [جامع المسانيد : مجموعة الأحاديث والآثار تضم [الـ ((١٥)) مسانيد] [كــذا] الإمام الأفخم أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى (٨٠ – ١٥٠ هــ) تأليف الإمام أبى المؤيـــد محمـــد بن محمود الخوارزمى (٥٩٣ هــ – ٦٦٥ هــ) – دار الكتب العلمية – بيروت بدون تاريخ طبع : ١٨٣/١] .

والحديث بهذا الإسناد الذى ساقه المؤلف مرسل فمصعب بن سعد لم يلق النبى صلى الله عليه وآلـــه وسلم ؛ لكن الحديث فى مسند أبى حنيفة يرويه مصعب عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كما ذكرت فيكون قد سلم من علة الإرسال .

ورجال الإسناد رجال الصحيح غير أبى حنيفة فلم يخرج له من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذى والنسائى . وأبو حنيفة رحمه الله مع إمامته فى الفقه مضعف فى الحديث .

قال البخارى : كان مرجئاً ، سكتوا عنه وعن رأيه وعن حديثه . =

....

= وقال النسائى : ليس بالقوى فى الحديث .

وقال مرة : ليس بالقوى فى الحديث ، وهو كثير الغلط والخطأ مع قلة روايته .

وقـال ابـن حـبان :كان رجلاً جدلاً ظاهر الورع ، لم يكن الحديث صناعته ،حدث بمائة وثلاثين حديثاً مسانيد ؛ ما له حديث فى الدنيا غيرها ، أخطأ منها فى مائة وعشرين حديثاً ؛ إما أن يكـون أقلـب * أو غير متنه من حيث لا يعلم ، فلما غلب خطؤه على صوابه استحق ترك الاحتجاج به فى الأخبار .

ومن جهة أخرى لا يجوز الاحتجاج به لأنه كان داعياً إلى الإرجاء .... وقد أطال ترجمته فى اثنى عشرة صفحة .

وقـد ذكـر الإمـام أحمد رحمه الله حوالى تسعة وعشرين قولاً لأئمة الحديث فى أبى حنيفة يتكـلمون فـيه . مـنهم مـالك والثورى وابن عيينة والأوزاعى وابن المبارك وحماد بن زيد وعبد الرحمن بن مهدى .

أما الذهبى وابن حجر فقد حادا عن الحكم عليه بلفظ من ألفاظ الجرح كما لم يوثقاه . ولعل هـذا الصنيع منهما من باب المداراة لاشتهار مذهبه وكثرة أتباعه ، مع شيوع روح التعصب فى زمنهما . والله أعلم . وجملة القول أن الإسناد ضعيف لما تقدم .

انظـر : " الضـعفاء والمتروكين " للنسائى تحقيق محمود إبراهيم زايد . مطبوع مع الضعفاء الصـغير للـبخارى – دار الوعـى بحلـب ط١ ، ١٣٩٦ هـ ص : (١٠٠ ، ١٢٤) ، و " المجـروحين " لابن حبان تحقيق محمود إبراهيم زايد ، دار المعرفة بيروت بدون تاريخ : (٣/ ٦٣ ، ٦٤) ، و " العلـل ومعـرفة الرجـال " للإمام أحمد بن حنبل تحقيق د / وصى الله ابن محمـد عباس – المكتـب الإسلامى بيروت . ط أولى ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م : فى مواضع كثيرة ، و " الكاشف " و " التقريب " فى المواضع المشار إليها آنفاً .

* القلب : تحويل الشيء عن وجهه .

يقال : قلبه وأقلبه ؛ وهى لغة ضعيفة . انظر : " اللسان " : (٣٧١٣) .

وفى السنن (١) أنه صلى الله عليه وسلم قيل له :

أرأيـــت أدوية نتداوى بها ، ورُقى نسترقى بها ، وتقاة نتقيها ؛ هل ترد من قـــدر الله شـــيئاً ؟ فقـــال عليه (الصلاة و) (٢) السلام : ((هى من قدر الله تعالى)) (٣)

---

(١) الســـنن فى اصـــطلاح المحدثين : الكتب المرتبة على الأبواب الفقهية من الإيمان والطهارة والصـــلاة والزكاة والكتب التى صنفت على نظام السنن كثيرة ؛ ومن أشهرها سنن أبى داود ، وســـنن النسائى ، وسنن ابن ماجة وسنن الدارمى ، وسنن سعيد بن منصور ، وسنن البيهقى . وبهذا تتميز السنن عن باقى أنواع المصنفات فى الحديث كالجوامع والمسانيد والمصنفات والمعاجم والمستخرجات والمستدركات والأجزاء الحديثية وغيرها .

انظـــر : " الصناعة الحديثية فى السنن الكبرى " للإمام البيهقى . للدكتور / نجم عبد الرحمن خلـــف – دار الوفـــاء – ط أولى ١٤١٢ هــــ – ١٩٩٢ م : ص (٩٨) . وإذا ذكـــرت " السنن " بإطلاق فالمراد بها : السنن الأربعة .

والمـــراد هنا : سنن ابن ماجة ، وتجوزاً جامع الترمذى . لأنّ الحديث لم يخرجه أبو داود ولا النسائى ، وما ذكره المؤلف لفظ موهم لأن يكون الحديث فى السنن الأربعة .

(٢) ليست فى [ت] .

(٣) الحديـــث رواه الترمذى فى سننه : كتاب الطب : باب ما جاء فى الرقى والأدوية (حديث رقم ٢٠٧٢) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابـــن ماجـــة فى كـــتاب الطـــب من سننه : باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً . حديث رقم (٣٤٣٧) .

وأخـــرجه أحمـــد فى مسنده : (٣ / ٤٢١) حديث رقم (١٥٥١٠) ، والبيهقى فى كتاب الاعـــتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ص ٧١ وصححه . كلهم عن أبى خزامة عن النبى صلى الله علـــيه وآله وسلم ؛ أو عن أبى خزامة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أو عن ابن أبى خزامة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم . =

ولمـا رجع عمر بن الخطاب [(١)] رضى الله عنه عن دخول دمشق من أجل الطاعون [(٢)] ، قال له أبو عبيدة [(٣)] ..

وأبـو خزامة مختلف فى صحبته . جزم الذهبى فى " الكاشف " (٣٣١/٣) وابن حجر فى "التقريب " (٤١٧/٢) بصحبته ؛ إلاّ أن ابن حجر تردد فى الإصابة بين كونه تابعياً أم صحابياً .

قال : " واسم أبى خزامة يعمر ، سماه مسلم وغيره .

قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت رقى ... " (٥١/٧)

فتراه هنا رجح كونه صحابياً ، إلاّ أنه رجح فى موضع آخر كونه تابعياً فقال : " وأبو خزامة المذكـور شيخ الزهرى فيه – يعنى فى هذا الحديث – لا نعرف اسمه ، واسمُ أبيه يعمر بتحتانية أولـه . وهو الصحابى كما سيأتى فى موضعه على الصواب (١٧٩/٣) ، والموضع الذى أشار إليه المجلد السادس من الإصابة (ص ٣٥٤) ، ترجمة رقم (٩٣٦٥) .

وقـد ذهب الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى جامعه إلى ترجيح كونه تابعياً ، قال أحمد : " الزهرى عن أبى خزامة عن أبيه هو الصواب . " المسند : (٤٢١/٣) .

وقال الترمذى : " قال بعضهم عن أبى خزامة عن أبيه .

وقال بعضهم عن ابن أبى خزامة عن أبيه . وقال بعضهم : عن أبى خزامة .

وقـد روى غـير ابن عيينة هذا الحديث عن الزهرى عن أبى خزامة عن أبيه . وهذا أصح " (١٧/٤) .

(١)الفـاروق ، أمير المؤمنين الذى أعز الله به الإسلام ، جم المناقب استشهد فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ولي الخلافة عشر سنين ونصف السنة . عاش ثلاثاً وستين سنة . أخرج حديثه الجماعـة . وانظـر : " الكاشـف " : (٣٠٩/٢) ، والتقريب : (٥٤/٢) . وانظر ترجمته مفصلة فى " الإصابة " : (٢٧٩/٤) .

(٢)الطاعون : المرض العام والوباء الذى يفسد له الهواء ؛ فتفسد به الأمزجة والأبدان . انظر : " اللسان " (ص ٢٦٧٧) .

(٣) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، أسلم قديماً وشهد بدراً ، مات شهيداً بطاعون عَمَواس سنة ثمانى عشرة وله ثمان وخمسون سنة . =

(رضى الله عنه) [1] كما فى الصحيحين ، وهو إذ ذاك أمير الشام - :

أفراراً من قدر الله ؟!

فقـــال عمر (رضى الله عنه) [1] : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! [ت/٦٦أ] نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله [2] .

فهـــذا كـــلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام صاحبه (رضى الله عنه) [3] صريح (فى) [4] أن السبب والمسبَّب بقدر الله تعالى .

وقـــال الله تعـــالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [5] (الآية) [6]

وقـــال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً... ﴾ [7] (الآية) [6] ...

أخـــرج حديثه الجماعة . انظر : " الكاشف " : (٥٦/٢) ، و "التقريب" : (٣٨٨/١) وانظر ترجمته مفصلة فى " الإصابة " : (١١/٤) .

(١) ليست فى [ت] .

(٢) الحديـــث أخرجه البخارى فى " صحيحه " : كتاب الطب - باب (ما يذكر فى الطاعون) حديـــث رقـــم (٥٧٢٩) ومسلم فى " صحيحه " فى كتاب الطب - باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها . المجلد السابع : ص ٦٧ مع شرح النووى

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) ليست فى [ت] .

(٥) سورة التوبة : آية رقم (٥)

(٦) ليست فى [ت] .

(٧) سورة المؤمنون : آية رقم (٥١)

والآيات (والأحاديث) (١) فى هذا كثيرة .

وقال الإمام ابن حزم (٢) (رحمه الله) (٣) فى (الملل و النحل) (٤) : " صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصحيح الطب والأمر بالعلاج ، وأنه عليه (الصلاة و)(٥) السلام قال : ((تـداوَوْا ؛ فـإن الله لـم يخلـق داءً إلاّ خلـق لـه دواءً ؛ إلاّ السـام)) . والسام : الموت (٦)

---

(١) ليست فى [ت] .

(٢) أبـو محمـد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، فقيه حافظ متكلم أديب ، لـه تصـانيف كثيرة ، وهو الذى نصر المذهب الظاهرى ودون مسائله . أورد له الذهبى ترجمة وافية فى ثمان وعشرين صفحة . انظر : " سير أعلام النبلاء " : (١٨٤/١٨) . وما بعدها .

(٣) ليست فى [م] .

(٤) عـنوان الكتاب : ((الفصل فى الملل والأهواء والنحل)) ، والمؤلف رحمه الله ذكره على سبيل الاختصار .

(٥) ليست فى [ت] .

(٦) والحديث رواه البخارى فى" كتاب الطب"رقم (٥٦٧٨) عن أبى هريرة بلفظ ((ما أنزل الله داء إلا أنـزل لـه شفاء)) ورواه مسلم عن جابر بلفظ ((لكل داء دواء ...)) فى كـتاب الطـب : حديـث رقم ٦٧ منه ، وأبو داود فى" كتاب الطب " رقم : (٣٨٥٥) ، والترمذى فى" كتاب الطب" : باب ما جاء فى الدواء والحث عليه رقم (٢٠٤٥) ، وابن ماجة فى " الطب " باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفـاء . رقم (٣٤٣٦) عن أسامة بن شَرِيك بلفظ : ((تداووا فإن الله لم يضع داء إلاّ وضع له دواءً غير داء واحد ؛ الهرم .)) .

ورواه أحمد فى "مسنده " : (٢٧٨/٤) رقم (١٨٤٧٦) ومواضع أخرى .

وقال الترمذى : وفى الباب عن ابن مسعود وأبى هريرة وأبى خزامة عن أبيه وابن عباس .

وهذا حديث حسن صحيح .

قلت : وفى الباب أيضاً عن جابر عند مسلم كما أسلفت .

قال [1]: فاعترض قوم فقالوا : قد سبق علم الله عز وجل بنهاية أجل المرء ومدة صحته ، ومدة سقمه . فأى معنى للعلاج ؟

قـال : فقلـنا لهـم : نسألكم هذا السؤال نفسه فى جميع ما يتصرف فيه النـاس مـن الأكـل والشـرب واللـباس لطرد البرد والحر ، والسعي فى المعـاش بالحـرث والغـرس ، والقـيام عـلى الماشية ، والتَحرُّف بالتجارة والصناعـة .

ونقول لهم : قد سبق علم الله تعالى بنهاية أجل المرء ، ومدة صحته ، ومدة سقمه . فأى معنى لكل ما ذكرنا ؟

فلا جواب لهم إلاّ أن يقولوا :

إن علم الله تعالى قد سبق أيضاً بما يكون من كل ذلك ؛ وبأنها أسباب إلى بلوغ نهاية العمر المقدرة .

فـنقول لهـم : وهكذا الطب ، قد سبق فى علم الله تعالى أن هذا العليل يتداوى ، وأن تداويَه سببٌ إلى بلوغ نهاية أجله .

فـالعلل مقـدرة والـزَّمانة [2] مقدرة ، والموت مقدر ، والعلاج مقدر ، ولا مـرد لحكـم الله (عـزّ وجـلّ)[3] ونـافذ علمه فى كل شيء من ذلـك " .[4]

---

(١) القائل هو : ابن حزم .

(٢) الزمانة : العاهة . انظر : اللسان : مادة زمن ص (١٨٦٧) .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) لم أجد هذا النص بعد البحث فى الفصل .

وقـــال العلامـــة ابـــن القيم [1] بعد تقريره نفع الدعاء والأمر به ودفعه للبـــلاء [ت/٦ب] :

" وقـــد اعترض قوم بأن المدعوَّ به إن كان قد قُدر لم يكن بُدٌّ من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع ؛ لأن كل مقـــدر كائن (لا محالة) [2] كما دلت عليه الآيـــات الصريحـــة [3] والأحاديث الصحيحة ، وإن لم يكن قُدّر لم يقع ، سأله العبد أو لم يسأله ، فظنت طائفة صحة هذا الكلام وتركت الدعاء ، وقالوا لا فـــائدة فيه . قال : وهؤلاء مع فرط جهلهـــم وضلالتهم متناقضـــون ؛ فإن مذهبهـــم يوجب تعطيل (جميع الأسباب) [4] .

فيقال لأحدهم :

إن كـــان الشبع والرِّيّ قد قدرا لك فلابد من قوعهما أكلت أو لم تأكل ، شربت أو لم تشرب . فلا حاجة للأكل والشرب . وإن كان الولد قد قُدّر لك

---

(١) ابـــن القـــيم هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية ، وابن قيمها ، الحنبلي تلمـــيذ شـــيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله ، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة . برع في علوم متعددة لا سيما التفسير والحديث والفقه والأصلين .

قال ابن كثير : لا أعرف في زماننا أكثر عبادة منه .

توفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .

انظر : " البداية والنهاية " : (١٤ / ٢٣٣) .

(٢) ليست في [ت] .

(٣) يعني قطعية الدلالة كقوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ .

(٤) في [م] : (الأســـباب جمـــيعها) ، والمثبـــت مـــن [ت] ، وهو الموافق لما في " الداء والدواء " لابن القيم .

فلابــد مــنه وطئت الزوجة والأمة أو لم تطأ ، وإن لم يُقدر لم يكن . فلا حاجة للتزويج والتسرى [1] .

فهل يقول هذا عاقل أو آدمى ؟ بل الحيوان البهيم مفطور [2] على مباشرة الأســباب التى بها قوامه ونفعه ، واجتناب التى بها ضرره ، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل أضل سبيلا .

قال : وعلى هذا فالدعــاء من أقــوى الأسبــاب ؛ فإذا قــدر وقــوعُ المدعــــوِّ به بالدعــاء لم يصــح أن يقــال : لا فائــدة فى الدعــاء كما لا يقــال : لا فائــدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال " [3] .

وقال ابن تيمية :

والــناس قد اختلفوا فى الدعاء المستعقَب بقضاء الحاجات ؛ فزعم قوم من المــبطلين متفلســفة ومتصــوفة ، أنه لا فائدة فيه أصلاً ، فإن المشيئة الإلهية والأســباب العلوية إما أن تكون قد اقتضت وجود المطلوب وحينئذٍ فلا حاجة إلى الدعاء ؛ أو لا [ت/٧أ] تكون اقتضته وحينئذٍ فلا ينفع الدعاء .

---

(١) التسرى : اتخاذ السُّرِّية . وهى الجارية المتخذة للاستمتاع .

انظر : " اللسان " : مادة سرر . ص (١٩٨٩) .

(٢) قــال صاحب المفردات : فطر الله الخلق ، وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال . وقال صاحب " التعريفات " : الفطرة : الجِبِلَّة المتهيئة لقبول الدين .

انظر : المفردات ص (٣٨٢) ، والتعريفات : ص (١٤٧) .

فمفطور يعنى : مجبول ومهيأ ومطبوع .

(٣) انظــر : " الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى " لابن القيم . مكتبة المتنبى ، بدون تاريخ : ص (١١، ١٢) .

وقال قوم ممن يتكلم فى العلم :

بل الدعاء علامة ودلالة على حصول المطلوب ، وجعلوا ارتباطه بالمطلوب ارتباط الدليل بالمدلول (١) ، لا ارتباط السبب بالمسبب (٢) .

قال :

والصواب ما عليه الجمهور من أن الدعاء سبب لحصول [م/٥ب] الخير المطلـــوب (أو غيره) (٣) كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة ، وإذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه(٤) دعاءه والاستعانة به وجعل استعانته ودعاءه سبباً للخير الذى قضـــاه لـــه ؛ كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُشبع عبداً أو يُرويه ألهمه أن يأكل ويشـــرب ، وإذا أراد أن يتوب على عبد ألهمه أن يتوب فيتوب عليه ، وإذا أراد أن يرحمه أو يدخله الجنة يسَّره لعمل أهل الجنة (٥) .

والمشـــيئة الإلهـــية اقتضت وجود هذه الخيرات بأسبابها المقدرة لها ؛ كما اقتضت دخول الجنة بالإيمان ، ودخول النار بالكفر ، وحصول الولد بالوطء ، والعـــلم بالتعـــلم ؛ لكن ليـــس كل ما يظنه الإنســـان سبباً يكون سببـــاً ،

---

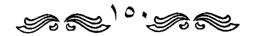
(١) المدلول : هو الذى يلزم من العلم بشيء أخر العلم به . " التعريفات " : (١٨٣) .

(٢) وهـــذا هـــو الكسب عند الأشاعرة ، حيث يجعلون ارتباط القدرة الحادثة بالمقدور ارتباطاً عاديًا ، فإنهم ينفون التأثير جملة ، وانظر مبحث القدر من فصْل السمعيات .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) الإلهـــام : ما وقع فى القلب من علم ، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر فى حجة . " التعريفات " : ص (٢٨) .

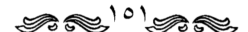
(٥) انظر: " رسالة مراتب الإرادة " ، ضمن مجموعة " الرسائل الكبرى " : (٢ / ٨٠ – ٨٣) و " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٣٨) وما بعدها .



كمـــا قد بسطت الكــــلام على هـــذا في كتــــابي ((شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور)) [1] .

والمقصـــود هـــنا إنما هو بيان أن الطاعات سببٌ للثواب ، والمعاصي سبب للعقاب خلافاً للمتصوفة [2] والإباحية .

كمـــا أنه سبحانه (وتعالى) [3] جعل إرسال الرسل سبباً لهداية [4] المؤمنين وإقامة حجة الله على الكافرين ، ولولا إرسال الرسل ما حصلت هداية لمؤمن ، ولا قامت حجة على كافر .



(١) انظر : مؤلفات الكرمي ، فيما سبق ص (٧٧) ، وأيضاً مقدمة التحقيق ص (٨٨) .

(٢) انظر موقفه من المتصوفة وأصنافهم ؛ في الدراسة : ص (٢٨٣) .

(٣) ليست في [ت] .

(٤) تدور مادة الهدى في اللغة حول هذه المعاني : التبيين والدلالة والتعريف والإرشاد والطاعة ولها في الشرع معنيان :

الأول : إراءة الطـــريق الموصـــلة في نفس الأمر إلى المطلوب ، وذلك بإرسال الأنبياء لتدل الخلق وترشدهم إلى طاعة الله وعبادته .

والـــثاني : التوفـــيق الذي يختص الله تعالى به من اهتدى . كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المدثر : ٣١] .

والمعنى المراد هنا : التوفيق .

إذ الناس قبل مجيء الرسل سواء ، وبعد إرسال الرسل إليهم صنفان : مستجيب لهم مهتدى موفق ، ومعرض عنهم ضال مخذول محجوج عند الله تعالى .

انظـــر : " لسان العرب " : مادة هدى ص (٤٦٣٨ – ٤٦٤٠) ، و " دستور العلماء " : (٤٧٤/٣) ، و " المفردات " : (٥٣٨) .

والحاصـــل :

أن الأســـباب وتأثيرهـــا بمشيئة الله مما لا يُنكر ، – وإن كان الله تعالى هو خالقَ السبب والمسبب – لاسيما وقد [ت/٧ب] دل العقل والنقل والفطر وتجارب الأمم ، على اختلاف أجناسها ومللها [١] ونحلها [٢] ، على أن التقرب إلى رب الأربـــاب وطلب مرضاته والإحســـان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شرّ .

فمـــا اسُـــتجلبت نعَـــمُ الله ، واستُدفعت نقمُه بمثل طاعته والتقرب إليه والإحســـان إلى خلقـــه ، وقد رتب الله سبحانه حصول الخير والشرّ فى الدنيا والآخـــرة ، فى كـــتابه العزيـــز ، عـــلى الأعمـــال ترتـــب الجزاء [٣] على

(١) الملل : جمع الملة وهى الدين والشريعة . انظر :" مختار الصحاح" مادة : ملل ص (٦٣٤) و " مفاتيح الغيب " : (٣٤/٤) ، و " دستور العلماء " : (٣٢٩/٣) .

وقد فصل القرطبى الأمر فقال :

" الملـــة اســـم لما شرعه الله لعباده فى كتبه على ألسنة رسله ، فكانت الملة والشريعة سواء ، فأما الدين فقد فُرّق بينه وبين الملة والشريعة ؛ فإن الملة والشريعة : ما دعا الله عباده إلى فعله ، والدين : ما فعله العباد عن أمره . "

انظر : " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبى : (٨٤/٢) .

(٢)النحل : جمع النحلة : وهى ما اخترعه قوم واتفقوا عليها من غير أن يكون عليها دليل نقلي وسماع من النبى عليه السلام .فالملة ما كان أصلها الوحى ، والنِّحلة ما كان أصلها الوضع .

انظر : " دستور العلماء " : (٣٩٧/٣) .

(٣) الجزاء : المقابلة على الشيء . انظر : " اللسان " : مادة جزى ص (٦١٩) .

وقـــال الراغب : ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ . " المفردات " : ص (٩٣) .

الشرط [1] والعلـة [2] علـى المعلـول [3] والمسبَّـب علـى السبـب ، فقـال تعـالى : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [4] ، وقال (تعالى)[5]: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ... ﴾ [6] .

وقـال (تعـالى) [7]: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [8] الآيـة [9] ، وقال (تعالى) [7]: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [10] ، وقال تعـالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ [م/٦١أ] لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [11] .

---

(١) الشـرط : مـا يـتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً عن ماهيته ولا يكون مؤثراً فى وجوده ، كمالوضوء مع الصلاة ، والشاهدين فى عقد النكاح . " التعريفات " : (١١١) .

(٢) العلـة : هـى مـا يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه . " التعريفات " : ص (١٣٤) .

(٣) العلة على المعلول : كذا فى النسختين .

والصواب – فيما أُرى – ((المعلول على العلة)) إذ المعلول مترتب على علته ، لا العكس كقوله بعدها مباشرة : والمسبَّب على السبب .

(٤) سورة الأنفال : آية ٢٩ .

(٥) ليست فى [ت] .

(٦) سورة النساء : آية ٣١ .

(٧) ليست فى [ت] .

(٨) سورة إبراهيم : آية (٧) .

(٩) ليست فى [م] .

(١٠) سورة النساء : آية (١٢٣) .

(١١) سورة الصافات : آية (١٤٣) .

وبالجملة ، فالقرآن من أوله إلى آخره صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكـام الشـرعية [1] مترتـبة على الأسباب ، بل أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

(١) اختلفـت عـبارات الأصوليين فى تعريف الحكم الشرعي . والمعنى قريب ، والمأخذ على بعضها كونها جامعة مانعة أم لا .

قال الآمدى : حد الحكم الشرعى أنه خطاب الشارع المفيد فائدة شرعية .

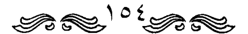
وعرفه البيضاوى بقوله : خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير . زاد ابن الحاجب : أو الوضع .

وهو ما ارتضاه الشيخ أبو زهرة والدكتور عبد الكريم زيدان ومن قبلهما الإمام الشوكانى . وعـرفه الشـيخ الشنقيطى بقوله : خطاب الله المتعلق بفعل المكلف من حيث إنه مكلف به . وعرفه ابن النجار بأنه : مدلول خطاب الشرع .

فيرد على تعريف البيضاوى إغفاله الحكم الوضعى ، وعلى الآمدى وابن النجار عدم اشتراط تعلق الفعل ، فلم يمنعا دخول علم الكلام .

أمـا اشتراط سائر الأصوليين تعلق الخطاب ((بفعل)) المكلفين ففيه إخراج للخطاب المتعلق بالاعـتقاد ، فبرغم الاتفاق على كون الاعتقاد فعل القلب إلاّ أنه يختص بدراسته علم آخر هو علم الكلام أو أصول الدين .

انظـر : " الإحكـام فى أصـول الأحكـام " للآمدى : (١/١٣٦) ، و " أصول الفقه " لأبى الـنور زهير : (١/٣٦) ، و" أصول الفقه " للشيخ أبى زهرة : ص (٢٣) ، و " الوجيز فى أصـول الفقه " للدكتور عبد الكـريم زيدان : ص (٢٣) ، وإرشاد الفحول للشوكانى ص (٦) ط الحلـبى الأولى سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م ، و "مذكرة أصول الفقه على روضة الـناظر " للشـيخ الشـنقيطى : ص (٨) ، ومختصـر التحرير فى أصول فقه السادة الحنابلة لابن النجار : ص (٣٠) .



ومن فقه فى هذه المسألة وتأملها حق التأمل (انتفع) [1] بها غاية النفع ولم (يـستكل)[2] على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة ، فيكون توكله عجـزاً ، وعجـزه توكلاً ، بل الفقيه (كل الفقيـه) [3] العارف (هو)[4] الـذى يـرد القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر ، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلاّ بذلك ؛ فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هى من القـدر .

والخلق [ت/٨أ] كلهم ساعون فى دفع هذا القدر بالقدر .

وهكـذا مـن وفقه الله تعالى وألهمه رشده فإنه يدفع قدر العقوبة الأخروية بقـدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ؛ فإن وِزَانَ القدر المخوف فى الآخرة وِزَانُ القـدر المخوف فى الدنيا ، فربّ الدارين واحد . وحكمته [5] واحدة ؛ لا يناقض بعضها بعضاً .

---

(١) فى [م] : ينتفع . والمثبت من [ت] .

(٢) فى [م] يتكلم . والمثبت من [ت] .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) ليست فى [م] ، والمثبت من [ت] .

(٥) تدور مادة الحكمة على العلم والضبط والإتقان .

قـال الراغـب : حَكَمَ : أصله منع منعاً لإصلاح ... والحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإتقان .

وقـال ابن القيم : الحكمة هى العلم النافع والعمل الصالح ، وسمى حكمة لأن العلم والعمل قد تعلقا بمتعلقهما وأوصلا إلى غايتهما .

والحكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هى الغاية المقصودة بالفعل .=

وهذه المسألة [1] من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها .

فثبت بما تقرر [2] أن الله تعالى جعل للسعادة والشقاوة أسباباً ، وأنه سبحانه هــو مسـبب الأسـباب وخالق كل شيء بسبب كما اقتضت ذلك حكمته ومشيئته[3] وأن الأسباب لابد منها فى وجود المسبَّبات ؛ بمعنى أن الله تعالى لا يـحدث المسبَّبـات ويشـاؤها إلاّ بوجـود الأسبـاب ؛ لكن الأسبـاب كما قال فيها الإمام الغـزالى [4] والحافظ ابن الجوزى [5] وغيرهما :

انظــر : " المفــردات " : ص (١٢٦ ، ١٢٧) . و "شــفاء العلــيل " : ص (٣١٩) ، و " إيثار الحق " (١٩٣) .

و " قضــية الخير والشر فى الفكر الإسلامى " : أصولها النظرية – جوانبها التطبيقية لأستاذنا الدكــتور محمــد الســيد الجليــند – الطبعة الثانية ١٩٨١ م مطبعة الحلبى ص (٢٠١) .

وسلسلة التراث السلفى : " من قضايا علم الكلام فى ضوء الكتاب والسنة " للدكتور الجليند : ص (١٤٨) . مكتبة الزهراء – ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م .

(١) المســألة : جمعها : المسائل : وهى المطالب التى يبرهن عليها فى العلم ، ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها . " التعريفات " : (١٨٧) .

(٢) التقرير : بيان المعنى بالعبارة . " التعريفات " : (٥٧) .

(٣) مشيئته تعالى : عبارة عن تجلى الذات والعناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود . " التعريفات " : (١٩٢) . وانظر : " المفردات " : (٢٧١) .

(٤) هــو أبــو حــامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، كان من أذكياء العالم ، تفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، كان فقيهاً شافعياً أصولياً متكلماً أشعرياً فيلسوفاً صوفياً .

ولــد سنة خمسين وأربعمائة . وتوفى سنة خمس وخمسمائة . انظر : " البداية والنهاية " : (١٢ / ١٧٣) .

(٥) هــو عــبد الرحمن بن على بن محمد ... بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أبو الفرج المعروف بابن الجوزى مفسر فقيه حنبلى مؤرخ واعظ أحد أفراد العالم =

الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، والتوكل معنى يلتئم به معنى التوحيد والعقل والشرع . (١)

فـالمؤمن المتوكـل يباشـر الأسبـاب كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (٢)

وقـال (تعالى)(٣) : ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (٤) ، ولا يلتفت إليها (٥) بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يثق بها ، ولا يرجوها ولا يخافها ؛ فإنه ليـس فى الوجـود سبب يستقـل بحكـم ؛ بل كل سبب فهو مفتقر [م/٦ب] إلى أمـور أخـر تُضـم إليه ؛ كالإخلاص والقبول مثلاً ، ولـه (موانـع) (٦) وعوائق تمنع موجَبَه ، وما ثم سبب مستقل بنفسه [ت/٨ب] إلاّ مشـيئة الله وحـده ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما سبق به علمه وحكمـه فهـو حق واقع . وقد علم وحكم أن الشيء الفلانى يقع بالسبب الفـلانى .

= برز فى علوم كثيرة . ولد سنة عشر وخمسمائة ، وتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة . انظر : " البداية والنهاية " : (١٣ / ٢٨) ، و " سير أعلام النبلاء " : (٣٦٥/٢١) .

(١) انظـر : " إحياء علوم الدين " : كتاب التوحيد والتوكل . وهو الكتاب الخامس من ربع المنْجيـات : (٤ / ٢٤٣) – المكتبة التجارية الكبرى بمصر بدون تاريخ . و " صيد الخاطر " لابن الجوزى : ص (٨٦ ، ٨٧) – مكتبة ابن تيمية بالقاهرة بدون تاريخ .

(٢) سورة النساء : آية رقم (١٧) .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) سورة البقرة : آية رقم (١٩٥) .

(٥) الضمير فى (إليها) عائد على الأسباب .

(٦) فى [ت] : مواضع . ولم أر لها وجهاً ، فلعلها سبق قلم من الناسخ .

فمـــن شـــهد وقوع الولد وحصوله المقدر بسببه الذى هو الوطء فشهوده كامل ، ومن شهد حصول ولد له بلا وطء فشهوده ناقص أعمى .

نوّر الله تعالى بصيرتنا [1] ورزقنا الإيمان بما قاله هو (سبحانه) [2]، ورسوله (صلى الله عليه وسلم) [3] (آمين) [4] .

* * *

---

(١) البصـــيرة : الفطـــنة . ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة ... ومنه ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

أى : على معرفة وتحقق .

وفى " التعريفات " : البصيرة قوة للقلب المنور بنور القدس ترى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمـــثابة البصر (للعين) * يرى به صور الأشياء وظواهرها . وهى التى يسميها الحكماء العاقلة النظرية والقوة القدسية .

انظـــر : " اللســـان " : مـــادة (بصـــر) ص (٢٩١) ، و " المفردات " : ص (٤٩) ، و " التعريفات " : ص (٣٩) .

* فى " التعريفات " : (للنفس) والمناسب للسياق (للعين) .

(٢) ليست فى [ت] .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) ليست فى [م] .

وأما الـجواب عن الثـاني

وهو أن آدم قد احتج على موسى بالقدر إلى آخره [١]...

فنقول : نعم . قد ورد ذلك فى الحديث الصحيح [٢] . لكن ليس هو على معنى ما يتوهمه [٣] الإباحية المحتجون على فعل المعاصى بالقدر كما سيأتى .

---

(١) الإشـكال كمـا أورده المؤلف : أن آدم قد احتج على موسى بالقدر وقال فى الحديث : ((فحـج آدم موسى)) أى غلبه فى الحجة . مع أن العلماء قاطبة يقولون : نؤمن بالقدر ولا نحتج به . وإلاّ فلو ساغ الاحتجاج بالقدر ؛ لكان إبليس أيضاً يحتج به ، وفرعون أيضاً يحتج به على موسى ، وكذلك سائر العصاة . وما وجه ذلك ؟

(٢) الحديث الصحيح : هو الحديث المسند الذى يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضـابط إلى منتهاه ، ولا يكون شاذاً ولا معللاً ... ودرجات الصحيح تتفاوت فى القوة بحسب تمكن الحديث من الصفات المذكورة التى تبتنى الصحة عليها . انظر : "مقدمة ابن الصلاح " فى علـوم الحديـث للحافظ أبى عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى(ت : ٦٤٢) – مكتبة المتنبى ص (٧ ، ٨) ، و" ألفية السيوطى " فى علم الحديث تصحيح وشرح الشيخ أحمد شاكر . مكتبـة ابـن تيمـية ط ثانية ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م – ص ٤ ، وهو نوعان : صحيح لذاته وصحيح لغيره .

قال الإمام الصنعانى فى منظومته :

.... وإن مـن .٠. يخف ضبطاً فالذى يروى الحسـن

لذاتـه ، وقد يصح إن أتـت .٠. طـرق لـه بكـثرة تعـددت

انظـر : " منظومة نخبة الفكر " المسماه بقصب السكر للإمام الصنعانى ، مكتبة ابن تيمية – ط أولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م ص (٤٥ ، ٤٦) .

(٣) التوهم : الوهميات قضايا كاذبة يحكم بها الوهم فى أمور غير محسوسة .

" التعريفات " : (٢٢٨) . والمراد هنا : ظن الشيء على غير ما هو عليه فى الواقع .

واحـــتجاج آدم وموســـى علـــيهما السلام قد رواه البخارى [1] ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة [2](رضى الله عنه)[3] .

وروى أيضاً بإسناد جيد عن ابن عمر (رضى الله عنهما)[4] :

عـــن الـــنبى صلـــى الله عليـــه وسلـــم قـــال : ((احتـــج [5] آدم ومـــــوسى)) ، وفى لفظ : أن موسى قـــال : ((يارب . أرنا آدم الذى أخرجـــنا من الجنـــة بخطيئتـــه ، فقال موسى : يا آدم . أنت أبو البشر ، خلقـــك الله بـــيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته . لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟

---

(١) هـــو محمـــد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفى أبو عبد الله البخارى . جبل الحفظ وإمـــام الدنيا ، ثقة الحديث ، صاحب " الصحيح " . ولد سنة أربع وتسعين ومائة . كان إماماً حجة رأساً فى الفقه والحديث مجتهداً ، من أفراد العالم مع الورع والدين والتأله .

انظر : " الكاشف " : (٣ / ١٩- ٢٠) ، و "التقريب" : (٢ / ١٤٤) ، و " السير " : (١٢ / ٣٩١) ، ومقدمة " فتح البارى " لابن حجر .

(٢) أبو هريرة الدوسى الصحابى الجليل ، حافظ الصحابة اختلف فى اسمه واسم أبيه ، على نحو مـــن ثلاثـــين قـــولاً كمـــا قال ابن عبد البر فى " لاستيعاب فى معرفة الأصحاب " والأرجح عبد الرحمن بن صخر ، كان متثبتاً ذكياً مفتياً ، ولِىَ إمرة المدينة مرات . توفى سنة سبع وخمسين على الأرجح . انظر: " الإصابة فى حياة الصحابة " (٧ / ١٩٩)، و" السير " : (٢ / ٥٧٨)

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) ليست فى [ت] .

(٥) الحجـــة : الدلالـــة المبيـــنة للمحجّة ؛ أى : المقصد المستقيم ، والذى يقتضى صحة أحد النقيضين . والمحاجة أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته ومحجته . انظر : " المفردات " (١٠٧ ، ١٠٨) .

فقــال لــه آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه ، وكتب لك التوراة بيده ، فبكم تجد فيها مكتوباً ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [1] قبل أن أخلق ؟ قال : بأربعين سنة .))

وفى لفــظ : ((قال : أفتلومنى على أمر قد (قــدره الله)[2] علىّ قبل أن أخلــق بأربعين سنة) ؟! قال : فحج آدم موسى .)) [3]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

فهــذا الحديــث ظن فيه طوائف [ت/٩أ] أن آدم احتــج بالقدر على الذنب وأنه حج موسى بذلك .

فطائفة من هؤلاء يدعون التحقيق [4] والعرفان يحتجون بالقدر على الذنوب مستدلين بهذا الحديث .

وطائفة يقولون : الاحتجاج به سائغ فى الآخرة لا فى الدنيا .

وطائفة يقولون : هو حجة للخاصة المشاهدين للقدر دون العامة .

---

(١) سورة طه : آية رقم (١٢١) .

(٢) فى [م] : قُدّر .

(٣) الحديــث أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب أحاديث الأنبياء : باب وفاة موسى برقم (٣٤٠٩) وفى مواضــع أخــرى من الصحيح ، ومسلم فى كتاب القدر : باب حجــاج آدم وموســى صـــلى الله عليهما وسلم . المجلــد الثامن ص (١١) ، وأبو داود فى كتاب السنة : بــاب القــدر برقم : (٤٧٠١) و (٤٧٠٢) ، والترمذى فى كتاب القدر : باب ما جاء فى حجاج آدم وموسى برقم : (٢١٤١) ، وابن ماجة فى المقدمة : باب فى القدر برقم : (٨٠) .

(٤) أى : هــؤلاء الذيــن يفــرقون بين الشريعة والحقيقة ، والظاهر والباطن ، ويجعلون أهل الشريعة محجوبين عن إدراك الحقيقة . وأصحاب هذا الاتجاه هم المتحللون من الشرائع .

وطائفة كذبت به [1] [م/٧أ] كالجبائي [2] وغيره .

وطائفة تأولته تأويلات فاسدة مثل قول بعضهم : إنما حجَّهُ لأنه كان تاب .

وقول الآخر : كان أباه ، والابن لا يلوم أباه .

وقول الآخر : كان الذنب في شريعة واللوم في أخرى .

قال[3] : وهذا كله تعريج عن مقصود الحديث [4] .

وحاصل ما يؤخذ من كلام ابن تيمية ومن ظاهر الحديث أن آدم إنما حجّ

---

(١) لا شـــك أن لكـــل فـــن أصوله وأهله الذين يميزون غثه من سمينه ويرجع إليهم فى معرفة مسائله ، وقد خالف قوم هذه المبادىء والأصول فعمدوا إلى رد الأحاديث التى تخالف ما أصلوه ابتداء لأنفسهم من مذاهب غير مبالين بقواعد علم مصطلح الحديث .

ففـــرقوا بين أحاديث العقيدة وبين أحاديث الفقه ، فربما يكون السند الذى قبلوه فى مسألة فقهية هو هو السند الذى ردوه فى مسألة عقدية ، بل قد يكون أنزل منه رتبة من حيث الصحة والضـــبط . فـــلم يسيروا على منهج واحد يسلم لهم . وتفصيل هذه المسألة فى مبحث حجية الحديـــث فى مسائل العقيدة . وليس رَدُّ هذا الحديث وغيره قاصراً على الجبائى ، بل هو مذهب للمعتزلة ومن تأثر بهم .

(٢) أبـــو عـــلى محمـــد بن عبد الوهاب الجبائى البصرى شيخ المعتزلة فى زمانه ، وعليه اشتغل أبو الحسن الأشعرى ثم رجع إلى مذهب السلف .

ولد سنة خمس وثلاثين ومائتين ، ومات بالبصرة سنة ثلاث وثلاثمائة .

انظر : " البداية والنهاية " : (١١ / ١٢٥) ، و " السير " : (١٤ / ١٨٣) .

(٣) القائل هو ابن تيمية رحمه الله .

(٤) انظـــر : " منهاج السنة النبوية " : (١/٢٦٩) ، ورسالة الاحتجاج بالقدر ضمن مجموعة " الرسائل الكبرى " : (٢/١٠٠) وما بعدها . و" مجموع الفتاوى " : (٢/٣٢٥ ، ٣/١٢٢ ، ٨/١٠٨ ، ١٠/ ١٥٩ ، ١١/٢٥٨) .

موســـى لكونه كان قد تاب من الذنب الصورى [١] واستسلم للمصيبة التى لحقت الذرية بسبب أكله المقدر عليه .

فالحديـــث تضمن التسليم للقدر عند وقوع المصائب ، وعدم لوم المذنب التائـــب ، وأن المؤمن مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب لا عند الذنوب و (المعاصى)[٢] فيصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب كما قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [٣] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [٤] .

قالـــت طائفـــة مـــن السلـــف [٥] (رضـــى اللـــه عنهـــــم) [٦]

---

(١) قوله " الصورى " يشعر أن الكرمي لا يرى أكل آدم من الشجرة ذنباً حقيقياً ، بل صورة ذنب . وهذا خلاف قوله تعالى ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ .

(٢) فى [ت] : المعائب .

(٣) سورة غافر : آية رقم (٧٧) .

(٤) سورة التغابن : آية رقم (١١) .

(٥) فصّـــل ابن تيمية القول فى مفهوم السلف بما يفيد أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وســـلم والـــتابعون وتابعوهم المعنيون فى الحديث الصحيح المتفق عليه ((خير الناس قرنى ثم الذيـــن يلونهـــم ثم الذين يلونهم)) وليس مجرد السبق الزمنى كافياً فى ذلك ، بل لا بد أن يضاف إلى السبق الزمنى الموافقة للكتاب والسنة نصاً وروحاً ، فمن خالف رأيه الكتاب والسنة فلـــيس بسلفى وإن عاش بين أظهر الصحابة والتابعين . انظر : " فقه العقيـــدة " عند الشافعى وأحمد لأستاذنا الدكتور : أبى اليزيد العجمى – دار الهداية – ط أولى ١٩٨٧ م ص (٥٨) ، و " الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل " لأستاذنا الدكتور : محمد السيد الجليند ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م : ص (٥٢) .

(٦) ليست فى [ت] .

كـــابن مسعود[1](رضى الله عنه) [2]: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وقال غير واحد من السلف [3] (أيضاً رضى الله عنهم)[2] : لا يبلغ العبد حقـــيقة الإيمان [4] حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن [ت/٩ب] ليصيبه [5] .

---

(١) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلى ، من السابقين الأولين ، ومن كبار العلماء من الصحابة ، مناقبه جمة ، أمره عمر على الكوفة . مات سنة اثنتين وثلاثين بالمدينة وروى حديـــثه الجماعة . انظر : " الكاشف " : (٢/١٣٠) ، و "التقريب " : (١/٤٥٠) ، و " السير " : (١/٤٦١) .

(٢) ليست فى [ت] .

(٣) مـــنهم : أبي بـــن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبادة بن الصامت . انظر : " سنن أبي داود " : (٤ / ٢٢٤ ، ٢٢٥) .

(٤) الإيمان لغة : قيل هو التصديق . وقيل : شيء زائد عليه .

قال فى " اللسان " : " اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق " . لكن يرد على حكاية ابن منظور هذا الاتفاق – قول الراغب : " الإيمان : التصديق الذى معه أمن " .

وإلى الـــتعريف الأخير ذهب ابن تيمية رحمه الله ؛ قال : " الإيمان : قيل : أصله التصديق . وليس مطابقاً له ... لأنه من الأمن الذى هو الطمأنينة ." ووافقه – بلا شك – ابن القيم فقال :

الإيمان : ليس مجرد التصديق ، ... وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد . "

أمـــا مـــن حيـــث الاصـــطـــلاح الكـــلامى فتحريـــره يحتاج إلى بحث كبير يضم مسائله وأحكامـــه . انظره فى فصل السمعيـــات .

انظـــر : " اللســـان " : مـــادة أمن ص ١٤١ ، و " المفردات " : ص (٢٩) ، و " كتاب الإيمان " لابن تيمية وهو المجلد السابع من " مجموع الفتاوى " : ص ٦٣٦ ، و " كتاب الصلاة وحكم تاركها " لابن القيم– المكتبة القيمة بالقاهرة – سنة ١٤٠٧ هـــ ط الرابعة : ص (٣٠)

(٥) أبو داود (٤٦٩٩ ، ٤٧٠٠) .

فالإيمـان بالقدر ، والرضا بما قدره الله من المصائب والتسليـم لذلك هو من حقيقة الإيمـان .

وأمـا الذنـوب فليس لأحد أن يحتج على فعلها بقدر الله ؛ بل عليه أن لا يفعلها ، وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها كما فعل آدم (عليه السلام) (١).

قـال بعـض السلف (رضى الله عنهم) (٢) : اثنان أذنبا : آدم وإبليس ، فآدم تاب فتاب الله عليه واجتباه ، وإبليس أصر على معصيته واحتج بالقدر ؛ فلُعن وطُرد .

فمن تاب من ذنبه أشبه آدم . ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس .

ومن تاب لا يحسن لومه على ذنبه الذى صدر منه .

وكيف يلام على سيئات كلها حسنات ؟! لقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (٣) ، ومـن لم يتب يُلامُ (٤) ولا يحسن منه أن يحتج

---

(١) ليست فى [م] .

(٢) ليست فى [ت] .

(٣) سـورة الفـرقان : آيـة ٧٠ ، والآيـة كتبت فى النسخة [م] " أولئك " بدون حرف [الفاء] قبلها .

(٤) قـال ابـن هشام رحمه الله : " ورفع المسبوق [يعنى المضارع المسبوق] بماض أو بمضارع منفى بلم قوى ، كقوله : ... ونحو : إن لم تقم أقوم " .

انظـر : " أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك " . لابن هشام (ت ٧٦١ هـ) ط الثالثة – سـنة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م – مطبعة الحلبى : ص (١٦٣ ، ١٦٤) . فالعبارة صحيحة بـرفع يُـلامُ ، ولـيس كما يتبادر إلى المتسرع من أن (يلامُ) مضارع وقع فى جواب الشرط فيجب جزمه .

عـــلى إصراره بالقدر ؛ لأنه لو كان القدر حجةً لكان حجةً لإبليس [م/٧أ] وفرعون وسائر الكفار .

وأيضاً فآدم وموسى أعلم بالله من (أن)[١] يحتج أحدهما على فعل المعصية بالقدر ويقبله الآخر ؛ إذ لا تلبُّس لآدم بمعصية حال الاحتجاج .

وأيضـــاً فلـــو كان ذلك مقبولاً لكان لإبليس الحجة بذلك أيضاً ، وكان لفرعون الحجة على موسى بذلك أيضاً ، وكذلك سائر الكفار .

واعلم أن موسى (عليه السلام) [٢] لم يلم آدم على ذنبه الذى تاب منه . فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وموسى أعلم بالله من أن يلوم تائباً ؛ فكيف بأبيه آدم الذى تاب الله عليه واجتباه ؟!

وإنمـــا لامه لأجل ما لحق الذرية من المصيبة المستمـــرة ، والمصيبة تقتضى [ت/١٠أ] نوعاً من الجزع ، (وهو) [٣] يقتضى لوم من كان سببها ؛ كما يلام من أوقع أصحابه فى مشقة [٤] .

---

(١) ليست فى [م] .

(٢) ليست فى [م] .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) كـــالذى حدث للنبي ﷺ وأصحابه فى عودتهم من غزوة خيبر حين ناموا عن صلاة الصبح وكـــان النبي ﷺ أمر بلالاً بحراسة الليل فنام بلال ، فلما عاتب النبي ﷺ بلالاً قال : أخذ بنفسي الذي أخذ (بأبي أنت وأمي يا رسول الله) بنفسك .

انظر : " صحيح مسلم " كتاب " المساجد ومواضع الصلاة " باب / قضاء الصلاة الفائتة . حديث رقم (٣٠٩) .

ولهذا لم يقل له موسى لماذا أكلت من الشجرة ؟ وإنما قال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟

وهـــذا اللفظ قد رُوى فى بعض طرق الحديث وإن لم يكن فى جميعها ، فهو مبين لما وقعت عليه الملامة [1]. فتأمل

فظهـــر بما تقرر أن احتجاج آدم على موسى بالقدر ، وأنه حج موسى به ليس هو على معنى ما يتوهمه الإباحية والزنادقة ، بل على المعنى المتقدم الظاهر لكل مُسْلمٍ مُسَلّمٍ . (والله سبحانه وتعالى أعلم) [2] .

* * *

(١) هـــذا الحديـــث قـــد سبق تخريجه ، وأضيف هنا أن له طرقاً كثيرة فقد رواه عن أبى هريرة عشـــرة من التابعين ذكرهم ابن حجر فى " الفتح " : (١١ / ٥١٦) ، ورواه عن النبى صلى الله علـــيه وســـلم غـــير أبى هريرة عمر بن الخطاب وجندب بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى ، واللفـــظ الـــذى أشار إليه المؤلف لفظ عمر عند أبى داود فى " السنن " باب / فى القـــدر : حديث رقم : (٤٧٠٢) ، وانظر : " فتح البارى " : (١١ / ٥١٦) .

(٢) ليست فى [ت] .

وأما الـــجواب على الثالـــث

وهو : ما الدليل على إبطال الاحتجاج بالقدر وذمه مع أنَّ آدم احتج به ؟

فـــنقول : أما دعوى أن آدم (عليه السلام) [1] احتج على فعل المعاصى بالقدر فهو قول باطل وافتراء لما تقدم .

والاحـــتجاج بـــالقدر على فعل الذنوب والمعاصى باطل باتفاق أهل الملل وذوى العقول ؛ فإن الظالم لغيره لو احتج بالقدر ؛ لاحتج ظالمه أيضاً بالقدر . فإن كان القدر حجة لهذا فهو حجة لهذا .

قال ابن تيمية فى ((رده على الرافضة [2] والإباحية)) [3] :

---

(١) ليست فى [م] .

(٢) الرافضـــة : فرقة من كبار الفرق الإسلامية وتسمى بالشيعة أيضاً ، وهم الذين شايعوا علياً رضى الله عنه ، وقالوا : إنه الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن ولده .

وسبب تسميتهم بالروافض أنه لما سمعت شيعة الكوفة صحة خلافة أبى بكر من زيد بن على ابـــن الحسين بن على رضى الله عنه – لما سمعوا ذلك وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رضى الله عنهما رفضوه فسمُّوا رافضة لذلك وليس لرفضهم هم خلافة الشيخين وعثمان رضى الله عنهم كما حكاه الأشعرى فى المقالات . والله أعلم .

انظـــر : " الملل والنحل " للشهرستانى : (١ / ١٥٥) ، و " منهاج السنة " : (١ / ٨) ، و " كشاف اصطلاحات الفنون " : (٣/ ٤٦) ، و " مقالات الإسلاميين " : (١ / ٨٩) .

(٣) وهو كتابه المعروف بمنهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية .

" إن الاحتجاج بالقـدر حجة باطلة داحضـة باتفاق كل ذى عقل ودين من جميـع العالمين . والمحتج به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة إذا احتج بها فى ظـلم ظلمه إياه ، أو ترك [م/٨أ] ما يجب عليه من حقوقـه ، بل يطلب مـنه ما لـه عليه ، ويعاقبه على ذلك ؛ لأن القلـوب تعلم بالضرورة [ت/ ١٠ب] أن هـذه شـبهة باطلـة ، ولهـذا لا يقبلها أحد من أحـد عند التحقيـق . " (١)

" وإنما يحتج بالقدر على القبائح والمظالم من هو متناقض فى قوله متبع لهواه ؛ كمـا قـال بعض العلماء : أنت عند الطـاعة قـدرى (٢) وعند المعصيـة جـبري (٣) ، أي مذهب وافق هواك تمذهبـت به ؟ !!

---

(١) انظر : " منهاج السنة " : (٢ / ٢) .

(٢) القدريـة : هم المعتزلة ويلقبون بالقدرية والعدلية ، وهم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصى بتقدير الله تعالى .

وقـد حدثوا فى آخر عصر الصحابة فى وجود أمثال ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم ، ويقـال : إن أول مـن ابتدع هذه البدعة بالعراق رجل من أهل البصرة من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد .

انظـر : " الملل والنحل " : (١ / ٤٣) ، و " التعريفات " : (١٥٢) ، و " شرح صحيح مسـلم " للـنووى : (١ / ١٣٠) ، و " قواعد المنهج السلفى " لأستاذنا الدكتور مصطفى حلمى : ص : (١٠٦) .

(٣) الجـبرية : الجـبر هـو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ، وقد جعلها الشهرستانى ثلاثة أصناف :

خالصة : وهم الجهمية وهى التى لا تثبت فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً .

متوسطة : وهى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً .

ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش والمظالم لم يحسن أن يلوم أحدٌ أحداً ، ولا يعاقـب أحـدٌ أحـداً ، وكان للإنسان أن يفعل فى دم غيره وماله وأهله ما يشتهيه من المظالم والقبائح ويحتج بأن ذلك مقدر عليَّ " (١) .

ثم أصل الاحتجاج بالقدر إنما هو قول المشركين الذين اتبعوا أهواءهم بغير علـم .

ولهـذا لما قال المشركون كما حكى الله عنهم : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ** ﴾ (٢) .

وقـال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** ﴾ (٣) فـإن هـؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهـم أن هذه الحجة داحضة باطلة ، (فإن) (٤) أحدهم لو ظلم الآخر فى

= فأمـا من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما فى الفعل وسمى ذلك كسباً فليس بجبريّ محض وهؤلاء هم الأشاعرة .

انظـر : " الملل والنحل " : (١ / ٨٥) ، و " التعريفات " : (٦٥) ، و " قواعد المنهج السلفى " لأستـاذنا الدكتور / مصطفى حلمى : ص (١٠٩) .

وانظر : مسألة القدرة والاستطاعة من مبحث القدر من هذه الرسالة .

(١) انظر : " المنهاج " (١ / ٢٦٨) .

(٢) سـورة الأنعـام : آيـة رقـم ١٤٨ . وقـد اشتبهت هذه الآية على المصنف رحمه الله أو الناسـخ ؛ ففـى النسخة [م] : ﴿ **ما أشركنا نحن ولا آباؤنا** ﴾ وهو خلط بين آيتى الأنعـام والـنحل . وكذلـك جاء فى النسخة [ت] كلمة " نحن " ثم ضرب عليها الناسخ . والآية على الصواب فى كلام ابن تيمية (٢ / ٢) .

(٣) تتمة الآية السابقة .

(٤) فى [م] : وإن . والمثبت من [ت] ، و " منهاج السنة " (٢ / ٣) .

مالـــه ، أو فجر بامرأته ، أو قتل ولده ، أو كان مصرّاً على الظلم ، فنهوه عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا . لم يقبلوا منه هذه الحجة ، ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج به المحتج رفعاً [1] للوم بلا وجه .

ولهذا قال الله (لهم) [2] : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ (فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) [3] ﴾ [4] بـأن هـذا الشرك والتحريم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغي فعله ، ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [5] فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنـون ذلك إلاّ ظنّاً ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [6]: تحزرون وتفترون [ت/١١أ] فعمدتكم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم واتباع أهوائكم ؛ لا كون الله شاء ذلك وقدره ، فإنـه أمر غائب عنا ، ولأن مجرد المشيئـة والقـدر لا يكون عمدة لأحد في الفعل ، ولا حجة به لأحد على أحد ؛ إذ الناس كلهم مشتركون في القدر .

فلو كان هذا حجة لم يحصل فرق بين العادل والظالم ، والصادق والكاذب والعـالم والجـاهل ، والـبرّ والفاجر ، ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال وما يفسدهم وما ينفعهم ويضرهم .

وهؤلاء المشركون [م/٨ب] إنما يحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسـله مـن توحيده والإيمان به ، ولو احتج به بعضهم على بعض في إسقاط حقوقـه ومخالفة أمره لم (يقبله) [7] منه ، بل كان هؤلاء المشركون المحتجون

---

(١) كذا في النسختين ، وفي المنهاج : دفعاً .
(٢) ليست في [م] . والمثبت من [ت] ، و " منهاج السنة " (٢ / ٣) .
(٣) ليست في [ت] . والمثبت من [م] ، و " منهاج السنة " (٢ / ٣) .
(٤) ، (٥) ، (٦) سورة الأنعام : آية (١٤٨) .
(٧) في [م] : يقبل . والمثبت من [ت] و" المنهاج " : (٢ / ٣) .

بالقدر يذم بعضهم بعضاً ويعادى (بعضهم)[1] بعضاً ، ويقاتل بعضهم بعضاً على فعل ما يرونه تركاً لحقهم أو ظلماً لهم .

فـلما جـاءهم الرسول يدعوهم إلى حق الله على عباده ، وطاعة أمره ، ومخالفـة أهوائهـم . احـتجوا بـالقدر على ذلك اتباعاً للظن [2]وما تهوى الأنفس " [3] .

فتـبين أن أصل مقالة الاحتجاج بالقدر إنما هو قول أهل الجاهلية المشركين الذيـن لا علم عندهم إلاّ اتباع الظن وما تهوى الأنفـس ، فمن احتج به فقد التحـق بهم فى الجهل والضلال واتباع الهوى .

ولهذا تجد المحتجين به والمستندين إليه من المتصوفة والفقراء ومن التحق بهم مـن العامة والجند والفقهاء وغيرهم إنما يحتجون به عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس .

فـإذا أُمر أحدهم بما يجب عليه [ت/١١ب] أو نُهى عمَّا حرمه الله تعالى تعلـل بـالقدر وقـال : حتى يقدّر الله لى ذلك ، أو يقدرنى الله على ذلك ، أو قضى الله علىّ بذلك . فأىّ حيلة فى (دفعه) [4] وهو متلبس به .

---

(١) ليست فى [ت] . والمثبت من [م] و " المنهاج " : (٢ / ٣) .

(٢) الظن : أحد طرفى الشك بصفة الرجحان . " التعريفات " : (ص ١٢٥) .

وقال الراغب :

الظـن اسم لما يحصل عن أمارة . ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جدًا لم يتجاوز حدّ التوهم . " المفردات " : (ص ٣١٧) .

(٣) إلى هنا انتهى نقله السابق من " منهاج السنة " : (٢ / ٢ ، ٣) .

(٤) فى [م] : رفعه .

ولـو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً ، وهذا أصل شريف . فمن اعتنى به عرف منشأ الضلال والغيّ لكثير من الناس .

ولهذا تجد المشايـخ الصالـحين من الصوفيـة المتبعـين للعلم والهـدى كثـيراً ما يوصون أتباعهـم بالعلـم والشـرع ، لأنه كثـيراً ما تعـرض لهـم إرادات فى أشيـاء ومحبة لها ؛ فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله ، وليس معهم إلاّ الظـن والـذوق (1) والوجد (2) الذى يرجع إلى محبة النفس و (إرادتها) (3) .

---

(1) الذوق لغة : وجود الطعم بالفم . وقد يكون بالفم وغيره .

فـإذا كان بغير الفم تقول ذقتُ فلاناً وذقتُ ما عنده . أى : خبرتُهُ . ومنه قوله ﷺ " حتى يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته " . وكذلك ما نزل بالإنسان من مكروه فقد ذاقه .

والـذوق – عندهم – عبارة عن نور عرفانى يقذفه الحق بتجليه فى قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره .

وقال ابن عربى : الذوق أول التجليات الإلهية .

انظر : " المفردات " : (١٨٢) ، و " التعريفات " : (٩٥) ، و" اللسان " : (١٥٢٦ ، ١٥٢٧) ، و " معجم اصطلاحات الصوفية " : (٦٠) .

(2) الوجد : ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع .

وقيل : هو بروق تلمع ثم تخمد سريعاً . وقيل : ما يصادفه القلب من الأحوال المفنية له عن شهوده .

انظـر : " الـتعريفات " : (٢٢٣) ، و " دستور العلماء " : (٣ / ٤٥٠) ، و " معجم اصطلاحات الصوفية " : (٥٩) .

(3) فى [ت] : إراداتها ؛ بصيغة الجمع .

فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والخرص [1] ، وهم فى الحقيقـة إنما هم متبعـون أهواءهم بغير هدىً من الله .

ولهذا كان المحتجون بالقدر على فعل المعاصى أعظم بدعة ، وأشنع قولاً ، وأقبح طريقة من المكذبين بالقدر من المعتزلة والشيعة والرافضة .

فـإن هـؤلاء بتعظيمهم الأمر [2] والنهى [3] والوعد والوعيد [4] خير من الذين يرون [م/٩أ] القدر حجة لمن ترك المأمور وفعل المحظور .

---

(١) أصل الخَرْصِ : التَّظنِّى فيما لا تستيقنه .

ومنه خرص النخل والكرم إذا حزرته ؛ لأن الحزر إنما هو تقدير بظن لا إحاطة .

انظر : " المفردات " : (١٤٦) ، و " اللسان " : (١١٣٣) .

(٢) الأمر : هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء . أى : أن الآمر يكون أعلى من المأمور .

واختلفوا فى الأمر هل يفيد الوجوب فقط ؛ أم يدور بين الوجوب والندب والإباحة .

والحق أنه يفيد الوجوب إلاّ بدليل صارف عنه ، وهو رأى الجمهور .

وللأمـر صـيغ متعددة منها : فعل الأمر ، والمضارع المقترن بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والمصـدر العـامل عمـل فعلـه . انظر : " مذكرة أصول الفقه " : (ص ١٨٧ – ١٩١) ، و" أصـول الفقه " للشيخ أبى زهرة : (ص ١٦٣ –١٦٧) ، و " الوجيز فى أصول الفقه " : (ص ٢٨٦ – ٢٩٥) . و " مختصر التحرير " (ص ٥٤ – ٥٦) .

(٣) النهى : طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء .

وصـيغته : لا تفعـل أو ما فى معناه ، وتتضح أحكام النهى بفهم أحكام الأمر فهو ضده ، وبضدها تتميز الأشياء . انظر : " مذكرة أصول الفقه " : (ص ٢٠١) ، و " أصول الفقه " : (ص ١٦٨) ، و " الوجيز " : (٢٩٦) ، و" مختصر التحرير " : (ص ٥٦) .

(٤) الوعد يكون فى الخير والشرّ . يقال : وعدته بنفع وضرّ ، وعداً وموعداً وميعاداً .والوعيد فى الشـرّ خاصـة . يقـال : مـنه : أوعدتـه وتوعدتـه . والمصدر منه : الإيعاد والوعيد . انظر : " المفردات" : (٥٢٦) ، و" اللسان " : (٤٨٧٢) ، و" مختار الصحاح " : (٧٢٨) .

فـــلا ريب أن هؤلاء شرٌ من المعتزلة والشيعة الذين يقرون بالأمر والنهى ، والوعـــد والوعيد ، وفعل الواجبات [1] وترك المحرمات [2] . وإن لم يقولوا إن الله خلـــق أفعـــال العباد ، ولا يقدر على ذلك ،ولا شاء المعاصى ، فإنهم قد

---

(١) الواجبات جمع واجب .

والواجـــب والفرض عند غير الحنفية لفظان مترادفان معناهما واحد ، وهو الفعل الذى يذم شرعاً تاركه قصداً مطلقاً .ولا فرق فى طريق الثبوت بين أن يكون قطعياً أو ظنياً .

وقالـــت الحنفـــية : إن الفرض غير الواجب . الفرض هو ما ثبت بدليل قطعى كوجـــوب الصــــلاة والـــزكـــاة والحـــج ومطلق قراءة قـــرآن فى الصـــلاة . والواجب ما ثبت بدليل ظنى مثل وجوب الوتر .

ويـــرى الدكـــتور عـــبد الكريم زيدان أن الخلاف بين الجمهور والحنفية لفظى لا حقيقى ، فالحنفـــية يـــتفقون مـــع الجمهور بأن الفرض كالواجب ؛ كلاهما مطلوب فعله على وجه الحتم والإلزام ، وأن تاركه يستحق الذم والعقاب ... فالخلاف إذن لفظى يرجع إلى الدليل التفصيلى فهو اعتبار فقهى ، وليس خلافاً بين الأصوليين ، ولا خلافاً حقيقياً بين الفقهاء .

انظـــر : " مذكـــرة أصـــول الفقـــه " : (ص ٩ ، ١٠) ، و " أصول الفقه " لأبى زهرة : (ص٢٦) ، و " أصول الفقه " لأبى النور زهير : (١ / ٥٥) ، و " الوجيز" فى أصول الفقه : (ص ٣١) . و " الإحكام فى أصول الأحكام " للآمدى : (١ / ١٨) ، و " دستور العلماء " : (٣ / ٤٣١) ، و " التعريفات " : (٢٢٢) .

(٢) المحرمات : جمع محرم ، وهو ضد الواجب .

واصطلاحاً : ما فى تركه الثواب وفى فعله العقاب . وإن شئت قلت : ما نهى عنه نهياً جازماً .

وعـــرفه بعضهم بقوله : هو ما طلب الشارع الكف عنه على وجه الحتم والإلزام ، فيكون تاركه مأجوراً مطيعاً ، وفاعله آثماً عاصياً .

ويسمى : محظوراً وممنوعاً ومعصية وذنباً وقبيحاً وسيئة وفاحشة وإثماً وحرجاً .

انظـــر : " مذكـــرة الشنقيطى " : (ص ٢٢) ، و " الوجيز " : (ص ٤٠) ، و " مختصر التحرير " : (ص ٣٣) .

قصدوا تعظيم الأمر ، وتنـــزيه الله عن الظلم ، وإقامة [ت/١٢أ] حجة الله عـــلى خلقه ؛ بخلاف هؤلاء المحتجين على (فعل) [١] المعاصى بالقدر ، فإنهم وإن أثبـــتوا قدرته[٢] تعالى ومشيئته وخلقه ، لكنهم عارضوا بذلك أمره ونهيه ووعده ووعيده .

وقولهـــم يقتضـــى إفحـــام الرسل وأنْ لا حجة لله على خلقه ، وقد قال سبحانه : ﴿ **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ** ﴾ [٣] بإرسال الرسل وإنزال الكتب . فلا حجة عليه لأحد بعد ذلك .

ثم أثبت تعالى القدر بقوله بعد ذلك : ﴿ **فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [٤] فأثبت سبحانه الحجة الشرعية ، وبين المشيئة القدرية ، وكلاهما حق .

وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [٥]

---

(١) ليست فى [ت] .

(٢) القدرة : هى الصفة التى يتمكن الحى معها من الفعل وتركه بالإرادة .

ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنىً ؛ وإن أطلق عليه لفظاً .

بـــل حقه أن يقال : قادر على كذا ... ولا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلاّ ويصح أن يوصف بالعجز من وجه ، والله تعالى هو الذى ينتفى عنه العجز من كل وجه .

انظـــر :" المفـــردات " : (٣٩٤) ، و " التعريفات " : (١٥١) ، و " دستور العلماء " : (٣ / ٥٦) .

(٣) ، (٢) سورة الأنعام : آية رقم (١٤٩) .

(٥) سورة النحل : آية رقم (٣٥) .

فـبين سـبحانه أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءوا به ، وليس هو بحجة ؛ بل معاندة ومكابرة وتعريج عن الحق .

فالقدريـة ونحوهم ممن لم يقل إن الله تعالى خالق لأفعال العباد ؛ وإن أشبهوا المجـوس[1] ، و((أنهم مجوس هذه الأمة .)) [2] ؛ لكن المحتجون بالقدر أنجس مـنهم ، لأنهـم أشـبهوا المشركين المكذبين للرسل الذين قالوا : لو شاء الله ما أشركنا .

---

(١) المجوس : هم عبدة النيران القائلون إن للعالم أصلين :

نـور وظـلمة يقتسـمان الخير والشرّ ، والنفع والضر والصلاح والفساد ، إلاّ أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين ؛ بل النور أزلي والظلمة محدثة .

والمجوس إنما يعظمون النار لمعان يرونها فيها . وبالجملة هي قبلة لهم ووسيلة وإشارة .

وشَبَهُ القدرية بالمجوس إثباتُ كل منهما فاعلين .

انظر : " الملل والنحل " : (١ / ٢٣٢ – ٢٥٥) ، و " الفصل " : (١ / ٣٥) .

(٢) الحديـث يُـروى عن جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم حذيفة بن اليمان وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم . أخرجه أحمد من طريقين عـن ابن عمر (٢ / ٨٦) حديث رقم (٥٥٨٤) ، (٢ / ١٢٥) حديث رقم (٦٠٧٧) ، ورواه عـن حذيفـة : (٥ / ٤٠٦) حديـث رقم : (٢٣٥٠٣) ، وأبو داود حديث رقم (٤٦٩٢) . ومـدار هـذه الطرق على عمر بن عبد الله مولى غُفْرَةَ ؛ قال مرة عن ابن عمر ، ومـرة عـن نافع عن ابن عمر ، ومرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة . ومولى غفرة ضعيف كـثير الإرسـال . لكن رواه أبو داود عن ابن عمر من غير طريق مولى غفرة . حديث رقم (٤٦٩١) . ورواه ابن ماجة عن جابر بن عبد الله رقم : (٩٢) في المقدمة أيضاً .

فالحديث كما قال الشيخ الألباني حفظه الله تعالى : ضعيف لكن له طرق يتقوى بها .

انظـر : تخريج " شرح الطحاوية " هامش رقم (٢٨٤) . ويلاحظ أن الشيخ مرعي رحمه الله لم يذكره على أنه حديث ؛ فلعله لم يصح عنده . والله أعلم .

وأيضـــاً فقد قال ابن تيميـــة : " إنه كان فى أواخر عصر الصحابـــة جماعة من هؤلاء القدرية (١) . وأما المحتجون بالقدر فلا يعرف لهم طائفة من طوائف المســـلمين معـــروفة ، و إنمـــا كثروا فى المتأخرين ، وسموا هذا حقيقة وجعلوا الحقـــيقة تعارض الشريعة ، ولم يميزوا [ت/١٢ب] بين الحقيقة الشرعية التى تتضمن تحقيق أحوال القلوب كالإخلاص والصبر وبين الحقيقة الكونية القدرية التى نؤمن [م/٩ب] بها ، ولا نحتج بها على المعاصى .

وفيهم من يقول : إن العارف إذا فنى فى شهود توحيد الربوبية لم يستحسن حسنة (٢) ، ولم يستقبح سيئة .

ويقول بعضهم : من شهد الإرادة سقط عنه الأمر والنهى .

---

(١) يشهد لهذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن يحيى بن يعمر قال :

كـــان أول مـــن قـــال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحمـــيرى حـــاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر .

فوُفـــق لـــنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد ؛ فاكتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىّ .

فقلـــت : أبا عبد الرحمن . إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم ، وإنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف .

قـــال :((فـــإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم ، وأنهم برآء منى . والذى يحلف به عـــبد الله بن عمر ؛ لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .)) ، ثم ذكر حديث جبريل . انظر : " صحيح مسلم " بشرح النووى : (١ / ١٢٨) .

(٢) الاستحسان فى اللغة : عدّ الشيء واعتباره حسناً . والاستقباح ضده .

انظر : " التعريفات " : (١٣) .

ويقـــول بعضهم : إن الخضر [1](عليه السلام) [2] إنما سقط عنه التكليف [3] لأنه شهد الإرادة " [4] إلى غير ذلك من الكلام القبيح . (قبحهم الله) [5]

وبالجملـــــة : فالبـاري سبحانه قد أرسل الرسل قاطبة بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها [6] .

---

(١) الخضـــر علـــيه السلام : صاحب موسى عليه السلام ، ذكر ابن كثير وابن حجر فى اسمه ونســـبه وشـــأنه اختلاف العلماء على أقول كثيرة ؛ هل كان رسولاً أو نبياً أو ولياً ؟ وكم كان عمره وبقاؤه ؟

تـــرجـــم له ابن حجر ترجمـــة وافية جدًّا فى" الإصابـــة" (٢ / ١١٤ – ١٣٧) ، ومن قبله ابن كثـــير فى " البدايـــة والنهاية " (١ / ٢٩٥ ، ٣٢٥) .

وللمصنف رسالة فى الخضر ؛ انظر : مبحث مؤلفاته . ويزعم غالب الصوفية بقاء الخضر إلى الآن ، ويدعـــي بعضهم لقاءه ومحادثته . ويرد هذا الزعم قوله ﷺ " أرأيت هذه الليلة فإنه لا يبقى أحد حيٍّ اليوم على الأرض على رأس مائة سنة من هذه الليلة " .

(٢) ليست فى [م] .

(٣) سبق تعريف التكليف ص (٤) هامش ٣ بأنه إلزام ما فيه مشقة .

والمراد هنا : إسقاط أوامر الشريعة ونواهيها فلا يكون مخاطباً بها على زعمهم .

(٤)انظر : منهاج السنة النبوية : (٢ / ٨) .

(٥) ليست فى [ت] .

(٦) المصالح : ضد المفاسد ... واحدها مصلحة .

قال الشيخ الشنقيطى رحمه الله : المصالح من حيث هى ثلاثة أقسام :

الأول : مصـــلحة درء المفاسد ، وهى المعروفة بالضروريات ، وهى ستة ؛ لأن درء المفسدة إما عن الدين أو النفس أو العقل أو النسب أو المال أو العرض .

الثانى : مصلحة جلب المصالح ، وتسمى الحاجيات .

الثالث : التحسينات ، وهى الجرى على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات . =

والمحتجون بالقدر على فعل المعاصى انعكس الأمر فى حقهم فصاروا يتبعون المفاســد ويعطلــون المصالح ، فهم شرّ الناس ، ولابد لهم مع ذلك من أمور يجتلبونها ، وأمور يجتنبونها ، وأن يتدافعوا جميعاً ما يضرهم من الظلم ، فلو ظلم بعضهم بعضاً فى دمه وماله وعرضه ، وطلب المظلوم عقوبة الظالم ؛لم يقبل أحد من ذوى العقول احتجاجه بالقدر .

ولو قال : اعذرونى ؛ فإن هذا مقدر علىّ . لقالوا له : أنت لو فُعل بك هذا فاحــتج علــيك ظالمك بالقدر ، لم تقبل منه ؛ لأنه لا يمكن صلاح الخلق ولا بقــاؤهم فى الدنــيا إذا مكنوا كل أحدٍ أن يفعل ما يشاء من مفاسدهم ويحتج بالقدر . لأن قبول هذه الحجة من المفسد يوجب الفساد الذى لا صلاح معه .

وإذا كان الاحتجاج بالقدر مردوداً فى فطر جميع الناس وعقولهم ؛ فلا يحتج به إلاّ متبع لهواه فاسق ، وإن استحل ذلك فهو زنديق ملحد مارق . نسأل الله [ت/١٣أ] تعالى العافية والسلامة فى الدين . آمين .

قلــت : ومــن هــنا يُعلم جواب ما كنت أوردته فى كتابى [البرهان فى تفســير القــرآن .] (١) مــن أنه مشكــل علينا الجواب لإبليس لو قال إن خــالــق الأشياء خلقنى كما شاء ، و أوجــدنى لما شــاء ، و استعملــنى

واعــلم أن الضــرورى له مكمل ، والحاجى له مكمل ، فمكمل الضرورى كتحريم القليل جدًا من المسكر . ومكمل الحاجى كالخيار فى البيع بناء على أن البيع من الحاجيات .

والحــق أن أهــل المذاهب كلهم يعملون بالمصلحة المرسلة ، وإن قرروا فى أصولهم أنها غير حجة . انظر : " السان " : (٢٤٧٩) ، و" المذكرة " : (١٦٩ ، ١٧٠) ، و" أصول الفقه " : (٣٤٤) ، و " الوجيز " : (٣٧٥) .

(١) راجع مصنفات المؤلف ص (٨٠ ، ٨١) ومقدمة التحقيق (٨٨) .

فـيمـا شـــاء ، وقـــدّر عليّ ما شاء ، فلم أطق أن أشاء إلاّ ما شاء ، فما تجاوزت ما شاء ، ولا فعلت غير ما شاء ، ولو شاء لردني إلى ما شاء ، وهداني لما شاء ، ولكنه شاء أن أكون كما شاء ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً** ﴾ (١) .

يا هذا سبق لي قبل كون الأكوان ﴿ **وكان من الكافرين** ﴾ (٢) فما برحت في الأزل كافراً ، ولم أزل . فإذا كانت كاف كفري سبقت كوني فمن يكون على القضاء عوني ؟

ومن يطيق من القدر [م/١٠أ] صوني ؟

وما حيلة من ناصيته في قبضة من قهر ، وقلبه بيد القدر ، وأمره راجع إلى القدَم وقد قضى الأمر وجفّ القلم ؟ (٣)

ويعـــلم أيضاً الجواب لكافر قال : يارب إنك علمت مني الكفر ، وأنا لا أقـــدر على أن أقلب علمك جهلاً . وأنك أخبرت عن وجود هذا الكفر فيّ ، وأنا لا أقدر على أن أجعل خبرك الصدق كذباً . وإنك خلقت فيّ الكفر ، وأنا لا أقدر على إزالة فعلك .

---

(١) سورة يونس : آية (٩٩) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٤) .

(٣) يلاحـــظ على هذه الفقرة غلبة الصنعة الأدبية من جناس وسجع يشبه أسلوب المقامات ، وهـــو نـــص نقله المؤلف من كتاب سابـــق له ، في حين نجده في صياغة هذا الكتـــاب – وهو متأخر – قد تخلـــص من هذه الصنعة ، وعمد إلى الأسلوب العلمي المرسل مما يدل على انتقال المؤلف من الاهتمام بالشكل إلى الاهتمام بالمضمون .

فهــذه كلها احتجاجات واهية باطلة ، وإن كانت بحسب الظاهر هائلة لما تقدم تقريره .

فمــن المســتقر فى فطر الناس وعقولهم أنه من طُلب منه فعل من الأفعال الاختيارية لم يكن له أن يحتج بمثل هذا . ومن طَلب ديناً له على آخر لم يكن له أن يقول : لا أعطيك حتى يخلق الله فىّ الإعطاء ، أو يقدره لى .

ومــن أمر عبده بأمر لم يكن لــه أن يقول : لا أفعله حتى [ت/١٣ب] يخلق الله فىّ فعله أو القدرة على ذلك .

وهذا أمر جبل عليه الناس مسلمهم وكافرهم ، مقرهم بالقدر ومنكرهم ، ولا يخطر ببال أحد منهم الاعتراض بمثل هذا ، ولا الاحتجاج به .

وكذلك المحتاج للطعام والشراب واللباس . فإنه لا يقول :

لا آكل ولا أشرب ولا ألبس حتى يخلق الله فىّ ذلك أو يقدره لى . بل يجتهد فى مباشرة ذلك ، والله تعالى هو الذى يعينه عليه . فتأمل ، ولا تغتر بزخارف الكــلام ، وإلاّ لارتفــع الاختــيار ، وثبت القول بالجبر المنابذ لما جاءت به الشرائع .

وما أحد من الخلق يعدو علم الله السابق فيه ، وليس فى علم الله الأمورُ قبل وقوعها إجبارٌ ، كما توهمه كثير من الناس . والله تعالى أعلم .

* * *

وأما الـجواب عن الرابـع

وهـو أنه حيثُ لا يُقبل الاحتجاج بالقدر وأنه لا يكون إلاّ ما يريده الله ، (فإنـه) [1] يلـزم أن الله تعـالى يكلـف العبد ما لا يطيق ثم يعاقبه عليه . وهو ظلم .

مع أن الله تعالى هو الخالق لذلك ... إلى آخره [2] .

فـنقول : هـذه مسألة يكثر فيها الخوض ، ويتحير فيها العقل ، ويتخبط فيها الفهم [3] ، وتحتاج إلى كلام كثير . وقد اختلفت أقوال الطوائف ف ى مثل هذا .

فمذهـب أهل الحق : أن الرب سبحانه منفرد بخلق المخلوقات ولا خالق سواه ، ولا مبدع غيره [م/١٠ب] وكل حادث محدثه .

وقالـت المعتزلة : إن جميع أفعال العبـاد من حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأعمالهم لم يخلقها الله .

---

(١) فى [م] : وأنه .

(٢) تمام السؤال الرابع : وما الحكمة فى تكليف المكلفين وعقاب العاصين .

(٣) إنمـا يـتحير ويتخبط من يسير على غير هدى ، أما أهل السنة فيسيرون على هدى ، قال تعالى : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : ((تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك)) والنصوص قاطعة فى هذه المسألة ، قال تعـالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . ﴾ فالمتحير المتخبط من يظن بالله غير الحق .

ثم اختلفوا فقالت طائفة : خلقها الذين فعلوها دون الله [(١)] .

وقال آخرون : ليست مخلوقه . ولكنها أفعال موجودة ، لا خالق لها [(٢)] .

وقال [ت/١٤أ] آخرون : هى فعل الطبيعة [(٣)] .

وقال الذين زعموا أن العباد خلقوها [(٤)] : إن وقوع الأفعال من العبد على وفق قصده وداعيته إقداماً وإحجاماً دليل على أنه موجدها ومخترعها .

---

(١) انظر : " شرح الأصول الخمسة " للقاضى عبد الجبار : (ص ٧٧٨) ، و " الملل والنحل" للشهرستانى : (١ / ٤٥) ، و " الفصل لابن حزم " : (٣ / ٣٢) ، و" مقالات الإسلاميين " : (١ / ٢٩٨) .

(٢) حكى الشهرستانى هذا القول فى الملل والنحل عن ثمامة بن أشرس من المعتزلة – قال :
" وانفـرد عن أصحابه بمسائـل ؛ منها : أنَّ الأفعـال المتولدة لا فاعل لها ... ومنها قوله : إن المعرفـة متولدة من النظر ، وهو فعل لا فاعل له كسائر المتولدات ... ومنها قوله : لا فعل للإنسان إلا الإرادة ، وما عداها فهو حدث لا محدث له . " "الملل والنحل" : (١ / ٧١) .

(٣) نسـب ابـن حزم فى الفصل هذا القول إلى معمَّر بن عباد والجاحظ . قال : " وقال معمَر والجاحظ : إن أفعال العباد كلها لا فعل لهم فيها ، وإنما نُسب إليهم مجازاً لظهورها منهم . وإنها فعل الطبيعة . حاشا الإرادة فقط ؛ فإنه لا فعل للإنسان غيرها البتة ." " الفصل " : (٣ / ٣٢)
وانظـر : " الملـل والنحل " فى الكلام على الجاحظية ، ونسب القول بذلك أيضاً إلى ثمامة ابن أشرس . (١ / ٧٥) .

(٤) وهم جمهور المعتزلة . قال القاضى عبد الجبار : إن أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنها من الله تعـالى ومـن عنده ومن قبله ، وذلك واضح . فإن أفعالهم حدثت من جهتهم ، وحصلت بدواعـيهم وقصـودهم واستحقوا عليها المدح والذم والثواب والعقاب . فلو كانت من جهته تعالى أو من عنده ، أو من قبله لما جاز ذلك .
انظر : " شرح الأصول الخمسة " : (ص ٧٧٨) .

قالـــوا :

ولـــولا ذلـــك لكانـــت التكاليف كلها واقعة على خلاف الاستطاعة (١)، وتكلـــيفاً بالمحال ، وكان لا يحســـن مدح ولا ذمّ ، ولا ثواب ولا عقـــاب ، وهو خلاف مقتضى العقل والشرع (٢)والعرف (٣) .

ونُقـــل عـــن الإمامـــية (٤) : هل أفعال العباد خَلْقٌ لهم أو خلق لله ؛ على قولين (٥) ..

---

(١) الاســـتطاعة : هـــي عـــرض يخلقه الله فى الحيوان يفعل به الأفعال الاختيارية .والاستطاعة والقـــدرة والقوة والوسع والطاقة متقاربة المعنى فى اللغة . وأما فى عرف المتكلمين : فهى عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك . انظر : " التعريفات " : (١٣) .

(٢) الشرعـة : نهج الطريق الواضح . واستعير ذلك للطريقة الإلهية . وهو ما قيضه الله من الدين وأمر به عباده ليتحروه اختياراً . انظر : " المفردات " : (٢٥٨) .

(٣) العـــرف : المعـــروف من الإحسان . وهو اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنُه . ومنه قولهم : المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً . راجع " التعريفات " : (١٣٠) .

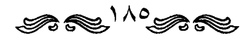
(٤) الإمامية : هم القائلون بإمامة عليّ رضى الله عنه بعد النبى صلى الله عليه وسلم نصاً ظاهراً

ثم إن الإمامية تخطت هذه الدرجة إلى الوقيعة فى كبار الصحابة طعناً وتكفيراً . وهم لم يثبتوا فى تعـــيين الأئمـــة بعد الحسن والحسين وعليّ بن الحسين رضى الله عنهم على رأى واحد ، بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها .

انظر : " مقالات الإسلاميين " : (١ / ٨٨) ، و " الملل والنحل " : (١ / ١٦٢) .

(٥) أشار الشهرستانى إلى انقسام الإمامية فى الأصول إلى فرقتين :

فصـــارت بعضها معتزلة ... وبعضها أخبارية . فمن ذهب منهم مذهب المعتزلة فيرى أن أفعال العباد خلق لهم . ومن يعتمد الأخبار منهم يرى أن أفعال العباد خلقها الله تعالى . انظر : " الملل والنحل " : (١ / ١٦٥) .



ونقل الأشعرى [1] عن الزيدية [2] أنهم فرقتان : فرقة تزعم أن أفعال العباد مخلوقة لله خلقها وأبدعها .

وفــرقة تزعم أنها (غير) [3]مخلوقة لله ، وأنها كسب للعبــاد ، أحدثوها واخترعوها وفعلوها [4] .

ومذهب الجمهــور : أن جميع أنواع الطاعات والمعاصى والكفر والفسوق واقعة بقضاء الله وقدره .

ثم اختلفوا ، فقالت طائفة : إن العبد لا قدرة له ألبتة ، وهم الجبرية [5] .

---

(١) هو العلامة المتكلم الكبير أبو الحسن عليّ بن إسماعيل ، ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه . ولد سنة ٦٠ ومائتين ، وقيل : سبعين .

برع فى مذهب الاعتزال ثم تبرأ منه ورجع إلى مذهب السلف .

قــال الذهــبى : رأيــت لأبى الحســن أربعة تواليف فى الأصول يذكر فيها قواعد مذهب الســلف فى الصفات . وقال فيها : " تُمر كما جاءت " ثم قال : " وبذلك أقول ، وبه أدين ، ولا تــؤوّل " . يقــال : بقــى إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة . انظر : " السير " : (١٥ / ٨٥) ، و " البداية والنهاية " : (١١ / ١٨٧) ، و " الملل والنحل " : (١ / ٩٤) .

(٢) الــزيدية : أتباع زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ رضى الله عنهما . ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمــة رضــى الله عنها ، ولم يجوزا ثبوت الإمامة فى غيرهم ... ومالت أكثر الزيدية عن القول بجــواز إمامــة المفضول وطعنت فى الصحابة رضى الله عنهم طعن الإمامية . انظر : " مقالات الإسلاميين " : (١ / ١٣٦) ، و" الملل والنحل " : (١ / ١٥٤) .

(٣) ليســت فى النسختين [م] و [ت] ، واستدركتها من نص الأشعرى فى المقالات . وهو ما يقتضيه السياق .

(٤) انظر : نص الأشعرى فى " مقالات الإسلاميين " : (١ / ١٤٨) .

(٥) انظر : " الملل والنحل " : (١ /٨٥) ، و " الفصل " : (٣ / ١٤) .

ومنهم من بالغ فزعم أن حركة العبد بمنزلة حركة الأشجار مع الرياح .

وقالــت طائفــة : العـــبد غير مجبور(١)على أفعاله ؛ بل هو قادر عليها ، مكتسب لها ، ومعنى كونه مكتسباً (لها) (٢) أنه قادر على فعله ، وإن كانت قدرته لا تأثير لها فى ذلك (٣) .

قال ابن تيمية : " وهــذا قول بعض المثبتة للقــدر كالأشعرى ومن وافقه مــن الفقهــاء من أصحــاب مالك (٤)والشافعــى (٥) وأحمد (٦) ، حيث لا

---

(١) مجبور على وزن مفعول من الثلاثى جَبَرَ بمعنى أصلح و وفق وليس هذا المراد . وتستعملها تمــيم بمعــنى : أكره . وهو المعنى المراد هنا . فهو فصيح إلاّ أنه قليل الاستعمال ، والأكثر أن يقول : مُجْبَر ، من الرباعى أجبر بمعنى ألزم وقهر .انظر: " اللسان " : مادة (جبر) : (٥٣٤)

(٢) ليست فى [ت] .

(٣) وهــذا مذهب الأشاعرة . انظر : " الملل والنحل " : (١ / ٩٧) . وانظر : الكلام على الكسب فى مبحث القدر من هذه الرسالة .

(٤)من أصحاب مالك الذين وافقوا الأشعرى فى الأصول : ابن الباقلانى ، وأبو الوليد الباجى ، وأبو بكر بن العربى .

(٥) ومن أصحاب الشافعى الذين وافقوا الأشعرى فى الأصول : أبو حامد الإسفراييني ، وابن فورك ، والجوينى ، والغزالى ، والرازى ، والآمدى .

وقــد شـــاع أن فقهاء الشافعية أشاعرة فى الأصول ؛ لكن المتثبت فى الأمر يجد كثيراً منهم سلفيين على مذهب أهل الحديث .

منهم علم الدين البرزالى ، وأبو الحجاج المزّى ، وشمس الدين الذهبى ، وأبو الفداء ابن كثير وغيرهم كثير .

(٦) ومن أصحاب أحمد الذين وافقوا الأشعرى فى الأصول :

التميمـــيون ؛ أبو الحسن التميمى ، وابنه أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز ، وابن أخيه رزق الله بن عبد الوهاب ابن عبد العزيز حفيد الأول . وكان بين أبى الحسن التميمى =

يثبـــتون فى المخلوقـــات قوًى ولا طبائع [1] ، ويقولون : إن الله فعل عندها لا بها [2] . ويقولون : إن قدرة العبد لا تأثير لها فى الفعل [3] .

وبين القاضى أبى بكر الباقلانى المالكى الأشعرى من المودة والصحبة ما هو معروف مشهور انظــر : " مجموع الفتاوى " لابن تيمية : (٤ / ١٦٧) ، و " سير أعلام النبلاء " : (١٧ / ٢٢٣) .

(١) هـــذا قول الأشاعرة ، كما أشار ابن تيميـــة ، ومنهم الشهرستانى ؛ قال فى الملل والنحل : " القـــول بالطبع وتأثير الأجسام فى الأجسام إيجاداً ، وتأثير الطبائع فى الطبائع إحداثاً ليس ذلك مذهب الإسلاميين . "

ومن قبله قال الأشعرى : " إن الأجسام لا يجوز أن تفعل فى غيرها شيئاً . "

انظـــر : " الـــلمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع " : (ص ٧٢) ، و " الملل والنحل " : (١ / ٩٩) . وانظر : " تحفة المريد على جوهرة التوحيد " : (ص ١١٦) .

(٢) قال الهدهدى فى شرحه على أم البراهين : إن المؤثر هو الله وحده ، والقدرةُ تُوجَدُ الأفعالُ الاختياريةُ عندها لا بها ، كالنار بالنسبة للإحراق .

وقـــال البيجورى فى شرحه على جوهرة التوحيد : ومن اعتقد أن المؤثر هو الله ؛ وجعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً بحيث يصح تخلفها فهو المؤمن الناجي إن شاء الله تعالى .

انظـــر : " شرح الهدهدى " المطبوع مع " حاشية الشرقاوى " : (ص ١١٠) ، و " تحفة المريد على جوهرة التوحيد " : (ص ١١٧) .

(٣) قـــال الشهرســـتانى : ثم عـــلى أصل أبى الحسن لا تأثير للقدرة الحادثة فى الإحداث ... والقاضى أبو بكر الباقلانى قال :الدليل قد قام على أن القدرة الحادثة لا تصلح للإيجاد .

وقـــال الهدهـــدى : لا تأثير لقدرتنا فى شيء من أفعالنا ... والاعتقاد الصحيح أن الله خلق للعباد قدرة على أفعالهم الاختيارية تقارنها ولا تؤثر فيها .

انظـــر : " الملل والنحل " : (١ / ٩٧) ، و "شرح الهدهدى " : (ص ١١٠) ، و " تحفة المـــريد " :(ص ١١٧) . وانظـــر : مســـألة الاســـتطاعة والقدرة من مبحث القدر من هذه الرسالـــة .

ويقول الأشعرى : إن الله فاعلٌ فعل العبد ، وإن عمل العبد [ت/١٤ب] ليس فعلاً للعبد بل كسباً له (١) " .

قال (٢) : " وهذا قول من ينكر الأسباب والقوى التى فى الأجسام ، وينكر تـأثير القـدرة التى للعبد التى يكون بها الفعل ، ويقول (٣) : إنه لا أثر لقدرة [م/١١أ] العبد أصلاً فى فعله " (٤) .

إلا أن الأشعرى يثبت للعبد قـدرة محدثـة واختياراً ، ويقول : إن (الفعْل) (٥)كسب (٦) للعبد ، لكنه يقول: لا تأثير لقدرة العبد فى إيجاد المقدور.

وهـو مقـام دقـيق ؛ حتى قال بعضهم (٧) : إن هذا الكسب الذى أثبته الأشعرى غير معقول ؛ ويلزم أن لا يكون فرق بين القادر والعاجز .

---

(١) انظر : " اللمع " : (ص ٧٢) . و " منهاج السنة " : (١ / ٢٦٦) .

(٢) القائل : هو ابن تيمية رحمه الله .

(٣) القائل : هو منكر الأسباب ، ((ويقول)) معطوف على المضارع ((ينكر)) .

(٤) " منهاج السنة " : (١ / ٢٧٠) .

(٥) فى [م] : ((القَدَر)) .

(٦) الكسب : لغة : هو الفعل المفضى إلى اجتلاب نفع أو دفع ضر .

واصـطلاحاً : أى عند الأشاعرة : ما وقع من الفاعل مقارنا لقدرة محدثة واختيار . وقيل : هـو مـا وجد بقدرة محدثة فى المكتسب . وقيل : هو اقتران المقدور بالقدرة الحادثة . انظر : " الملـل والنحل " : (١ / ٩٧) ، و " التعريفات " : (١٦١) ، و " شرح الأصول الخمسة " : (٣٦٤) ، و " مجمـوع الفـتاوى " : (٨ / ١١٩ ، ٣٨٧) ، و " شـرح الطحاويـة " : (٤٤٤) ، و " لوامـع الأنـوار البهـية " للسفارينى : (١ / ٢٩١ ، ٢٩٢) ، و " حاشية الشرقاوى على شرح الهدهدى " : (١١٠) و " تحفة المريد " : (١٢٤) .

(٧) كجمهور المعتزلة ومتكلمى السلف مثل ابن تيمية وابن القيم .

وإن أثبت قدرة وقال : إنها مقترنة بالكسب . قيل له : لم تثبت فرقاً معقولاً بين ما أثبته من الكسب ونفيته من الفعل ، ولا بين القادر والعاجز .

إذ مجـــرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة ؛ فإن (فعل) [1] العبد يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته . فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلاّ مجرد الاقتران ؛ فلا فرق بين القدرة وغيرها [2] .

ومـــن هذه الطائفة [3]من يقول : إن قدرة العبد مؤثرة فى صفة الفعل لا فى أصله – كما يقول القاضى أبو بكر [4] ومن وافقه – فإنه إن أثبت تأثيراً بدون خلق الرب لزم أن يكون بعض الحـــوادث لم يخلقه الله ، وإن جعل ذلك معلقاً بخلق الـــرب ؛ فلا فرق بين الأصل والصفة [5] .

= انظـــر : " شـــرح الأصول الخمسة " : (٣٦٤ – ٣٧٩) ، و " منهاج السنة " : (١ / ١٢٧ ، ٢ / ١٧) ، و " شفاء العليل " : (٩٢) .

(١)المثبـــت من [م] . والكلمة فى [ت] مطموسة ، وقد تصرف بعض المتملكين للمخطوط وجعـــلها : [قُدْرَةَ] ، إلاّ أنه تردد لما رأى الفعل بَعْدُ بصيغة المذكر (يُقارن) فكتب أمامها فى الهامش : (لعله : فعْلَ) . وقد وفق .

(٢) انظر : " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٢٨) .

(٣) يعنى الأشاعرة .

(٤) هـــو : محمد بن الطيب بن محمد ، ابن الباقلانى البغدادى ، المتكلم الأصولى ، كان يضرب المـــثل بفهمـــه وذكائـــه ، انتصر لطريقة أبى الحسن الأشعرى ، وقد يخالفه فى مضائق ، فإنه من نظرائه . انتهت إليه رئاسة المذهب المالكى فى وقته – توفى سنة ٤٠٣ هـــ .

انظر : " سير أعلام النبلاء " : (١٧/ ١٩٠) .

(٥) انظر : " الملل والنحل " : (١ / ٩٧) .

قـيل : ومذهب الأشـعـرى يقرب فى هذه المسألة من مذهب الجبرية الجهمـية (١) ؛ فإنـه يُحكى عن الجهم بن صفوان (٢) وغلاة أتباعه أنهم سلبوا العـبد قدرتـه واختياره حتى قال بعضهم : إن حركته [ت/١٥أ] كحركة الأشجار بالرياح (٣).

قال ابن تيمية :

" إن الجهـم كـان يقول : لا أثر لقدرة العبد أصلاً فى فعله . وكان يثبت مشـيئة الله ، ويـنكر أن يكون له حكمة ورحمة ، وينكر أن يكون للعبد فعل أو قدرة مؤثرة .

قـال : وحُكـى عـنه أنه كان يخرج إلى الجذْمـى (٤) ويقول : أرحم الراحمين يفعل هذا ؟! إنكاراً لأن يكون له رحمة يتصف بها سبحانه ، زعماً منه أنه ليس إلاّ مشيئة محضة لا اختصاص لها بحكمة ؛ بل يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح . " (٤)

---

(١) راجع مسألة القدرة والاستطاعة من مبحث القدر من هذه الرسالة .

(٢) الجهـم بن صفوان ، مولى بنى راسب ، ويكنى بأبى محرز ، المتكلم ، وهو الذى نسبت إليه الفـرقة الجهمية . قيل : قتله سلم بن أحوز لإنكاره أن الله تعالى كلم موسى ، وكان له دور فى السياسـة والخـروج على بنى أمية . انظر : " السير " : (٦ / ٢٦) ، و " البداية والنهاية " : (١٠/ ٢٦) حوادث سنة : ١٢٨ هـ .

(٣)انظر : " مقالات الإسلاميين " : (١ / ٣٣٨) ، و " الملل والنحل " : (١ / ٨٧) .

(٤) هم المصابون بمرض الجذام ، وهو داء يسبب تساقط اللحم والأعضاء ، سُمي بذلك لتقطع الأصابع والأطراف ، وفيه قوله ﷺ : " فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد " .

(٤) انظر : " منهاج السنة النبوية " : (١ / ٢٧٠) .

قال ابن تيمية :

" وجمهـــور أهل السنة المثبتة للقـــدر من جميع الطوائف يقولون : إن العبد فـــاعل لفعله حقيقـــة ، وإن له قدرة (حقيقية)[1] واستطاعة (حقيقية)[1] ، ولا يـــنكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله يخلـــق الســـحاب بالرياح ، وينـــزل الماء بالسحاب ، [م/١١ب] وينبت النبات بالمـــاء .

ولا يقولـــون : إن القوى والطبائع الموجودة فى المخلوقات لا تأثير لها ؛ بل يقرون بأن لها أثراً لفظاً ومعنى ، لكن يقولون : هذا التأثير هو تأثير الأسباب فى مســـبّباتها ، والله تعـــالى خالق السبـــب والمسبَّـــب . ومع أنه خالق السبب فلابـــد للســـبب من سبب آخر يشاركـــه ، ولابـــد (له)[2] من معارض يمانعـــــه . فلا يتم أثره إلاّ مع خلـــق الله له ؛ بأن يخلـــق الله السبب الآخر ويزيل الموانع . "[3]

(فإن المسبَّبات)[4] حينئذٍ يجب وجودها عند وجود أسبابها . بمعنى : أن الله (تعالى)[5] يحدثها حينئذٍ ويشاء وجودها .

---

(١) فى [ت] : حقيقة ، وما أثبته من [م] هو المطابق لما فى المنهاج .
(٢) ليست فى [ت] ، وما أثبته من [م] هو المطابق لما فى المنهاج .
(٣) انظر : " منهاج السنة النبوية " : (١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦) .
(٤) فى [ت] : " فالمسبَّبات " .
(٥) ليست فى [م] .

وقال فى موضع آخر : " الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصى (هى) (1) مـــن العبد ؛ بمعنى : أنها قائمة به ، وحاصلة بمشيئته [ت/15ب] وقدرته . وهو المتصف بها ، والمتحرك بها الذى يعود حكمها عليه .

وهى من الله (تعالى) (2) بمعنى : أنه خلقها قائمة بالعبد ، وجعلها عمـــلاً له وكسباً ، كما يخلق المسبَّبات بأسبابها ، فهى من الله مخلوقـــة له ، ومن العبد صـــفة قائمـــــة بـــه ، واقعة بقدرته وكسبه ، كما إذا قلنا : هذه الثمرة من الشجرة ، وهذا الزرع من الأرض ، بمعنى : أنه حدث منها ، ومن الله بمعنى : أنه خلقه منها . ولم يكن بينهما تناقض .

قال : فالحوادث تضاف إلى خالقهـــا باعتبار ، وإلى أسبابها باعتبار " (3) ،كما قـــال تعـــالى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (4)، وقال : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ (5) ، مع قولـــه : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ (6) .

وأخـــبر تعـــالى أن العـــباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويتقون ويصدقون ويكذبون .

---

(1) ليست فى [م] ، ولا فى منهاج السنة ، وما أثبته من [ت] .
(2) ليست فى [م] . ولا فى منهاج السنة ، وما أثبته من [ت] .
(3) انظر : " منهاج السنة النبوية " : (2 / 26) بتصرف يسير لا يخل بالمعنى .
(4) سورة القصص : آية رقم (15) .
(5) سورة الكهف : آية رقم (63) .
(6) سورة النساء : آية رقم (78) .

وقـال فى موضـع آخر : " إن أئمة أهل السنة [1] يقولون : إن الله خالق أفعال العباد كما أن الله خالق كل شيء ، وإنه تعالى خالق الأشياء بالأسباب ، وإنه خلق للعبد قدرة بها يكون فعله ، وإن العبد فاعل لفعله حقيقة .

فقولهـم فى خلق فعل العبد بإرادته وقدرته كقولهم فى خلق سائر الحوادث بأسبابها " [2] .

وقـد دلـت الدلائل اليقينية على أن كل حادث فالله (تعالى)[3] خالقه . وفعل العبد من جملة الحوادث . وكل ممكن [4] يقبل الوجود والعدم . فإن شاء الله كان وإن لم يشأ لم يكن . وفعل العبد من جملة الممكنات .

---

(١) السـنة التي يجب اتباعها ويحمد أهلها ويذم من خالفها هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمور الاعتقادات وأمور العبادات وسائر أمور الديانات .

وذلـك إنما يُعرف بمعرفة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثابتة عنه فى أقواله وأفعالـه وما تركه من قول وعمل ثم ما كان عليه السابقون والتابعون لهم بإحسان . وذلك فى دواويـن الإسـلام المعـروفة مثل صحيحى البخارى ومسلم وكتب السنن ... ومثل المسانيد المعروفة ... وهذا أمر قد أقام الله له من أهل المعرفة من اعتنى به حتى حفظ الله الدين على أهله والسـنة هـى الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عموماً ولمن يدعـى السـنة خصوصـاً ... فالمتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة .

انظر : " مجموع الفتاوى " : (٣ / ١٥٩ ، ٣٧٨) وما بعدها .

(٢) انظر : " منهاج السنة " : (١ / ٢٧٠) .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) الممكن هو الذى لا يلزم من فرض وقوعه محال . " دستور العلماء " : (٣ / ٣٣٠) .

قـال : " وجمهـور المسلمين وجمهور طوائفهم على هذا القـول الوسط [م/١٢أ] لـيس هـو قـول المعـتزلة ولا قـول جهم بن صفوان وأتباعه الجبرية .[ت/١٦أ]

فمن قال : إن شيئـاً من الحوادث – أفعال الملائكـة والجن والإنس – لم يخلقهـا الله (تعالى)[١] فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع السلف والأدلة العقلية [٢] .

ولهـذا قـال بعض السلف : من قال إن كلام الآدميين وأفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من يقول : إن سماء الله وأرضه غير مخلوقة . " [٣]

وبالجملة : فقول محققى أهل السنة : إن الله تعالى خلق قدرة العبد وإرادته وفعله .

---

(١) ليست فى [ت] . وما أثبته من [م] وهو الموافق لما فى المنهاج .

(٢) قوله : الكتاب والسنة وإجماع السلف والأدلة العقلية – هذه الأربعة هى أدلة الأحكام .
وقد عرفها الأصوليون بقولهم :

الكـتـاب : القرآن وهو كلام منزل على محمد صلى الله عليه وسلم معجز بنفسه متعبد بتلاوته ...

والسـنـة : قول النبى صلى الله عليه وسلم ولو بكتابة وفعله ولو بإشارة وإقراره – وزيد الهمُّ – ...

والإجماع : اتفاق مجتهدى الأمة فى عصر على أمر ولو فعلاً بعد النبى صلى الله عليه وسلم .
وأما الأدلة العقلية كضرب الأمثلة والأقيسة والبدهيات العقلية والاسقراء وغيرها .

انظر : " مختصر التحرير " : ص (٤١ – ٤٥) .

(٣) انظر : " منهاج السنة " : (١ / ٢٧٠ ، ٢٧١) .

ويقولــون : إنّ العبد فاعل لفعله حقيقة ، ومحدث لفعله ، والله سبحانــه جعله فاعــلاً له ، محدثاً له .

قــال تعــالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [1] أثبت تعالى بذلك (مشــيئة العبد)[2] وأخبر أنها لا تكون إلاّ بمشيئة الرب – وهذا صريح قول أهل السنة فى إثبات مشيئة العبد ، وأنها لا تكون إلاّ بمشيئة الرب .

قــال ابن تيمية : " وهذا قول جماهير أهل السنــة من جميع الطوائف [3]– وهو قول كثير من أصحاب الأشعرى .

كأبى إسحاق الإسفرايينى[4] وإمام الحرمــين [5] وغيرهما – فيقولــون : .

---

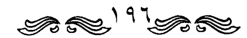
(١) سورة الإنسان : آية رقم (٣٠) .

(٢) ليست فى [م] .

(٣) المراد بجميع الطوائف هنا أتباع المذاهب الأربعة المشهورة وغيرها كأهل الحديث والظاهرية والفقهــاء المجتهدين والمفسرين وصالحي مشايخ الصوفية كالجنيد وبشر ممن كان عمدتهم الاتباع لا الرأى والابتداع . وليس الشيعة والقدرية والجهمية والخوارج وأتباع هذه الفرق وإن تسموا بأسماء مختلفة ، ليسوا من أهل السنة .

(٤) أبو إسحاق الإسفرايينى : هو العلامة الإمام الأستاذ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الأصــولى المتكــلم الشــافعي الأشــعرى أحد المجتهدين فى عصره . ارتحل فى طلب الحديث . (ت ٤١٠ هـــ) . انظر : " سيرأعلام النبلاء " : (١٧ / ٣٥٤) .

(٥) إمــام الحــرمين : هو الإمام الكبير شيخ الشافعية أبو المعالى عبد الملك ابن الإمام أبى محمد عبد الله الجوينى النيسابورى صاحب التصانيف المشهورة ؛ منها : " الإرشاد فى أصول الدين " ، و " العقيدة النظامية " ، و " الشمائل فى أصول الدين " ، و " غياث الأمم فى إلتياث الظلم " ، و " الورقــات فى أصــول الفقه " . تفقه على والده ودرّس مكانه وله عشرون سنة (٤١٩ – ٤٧٨ هـــ) . انظر : " السير " : (١٨ / ٤٦٨) .



العـبد فـاعل لفعلـه حقيقة ، وله قـدرة واختيـار ، وقدرته مؤثرة فى مقدورهـا كمـا تؤثـر القـوى والطبائـع والأسباب ، كما دل على ذلك الشـرع والعقـل [1] . قال تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [2] ، وقـال (تعالى)[3] : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [4] ، وقال (تعالى) [3] : ﴿ يهدى به كثيراً ﴾ [5] .

ومـثل هـذا كـثير فى الكـتاب والسنة يخبر تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب .

وكذلـك دلّ الكتاب والسنة على إثبات القوى والطبائع للحيـوان [6] وغـيره ؛ كمـا قـال تعـالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [7] وقال (تعالى) [3] : ﴿ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [8]. " [9]

---

(١) قـال فى " العقيدة النظامية " : ... فى المصير إلى أنه لا أثر لقدرة العبد فى فعله قطع طلبات الشـرائع والتكذيـب بمـا جاء به المرسلون ... فإذن لزم المصير إلى أن القدرة الحادثة تؤثر فى مقدورها . وهذا خلاف رأية فى " الإرشاد " كما بينته فى مبحث القدر .

انظر : " العقيدة النظامية ": ص (٣٠ – ٣٢) . وانظر : " الملل والنحل " : (١/ ٩٨) .

(٢) سورة الأعراف : آية رقم (٥٧) .

(٣) المثبت من [م] .

(٤) جزء من ثلاث آيات من سور البقرة : (١٦٤) ، و النحل : (٦٥) ، والجاثية : (٥) .

(٥) سورة البقرة : آية رقم (٢٦) .

(٦) الحيوان : هو الجسم النامى الحساس المتحرك بالإرادة . التعريفات : ص (٨٤) .

(٧) سورة التغابن : آية رقم (١٦) .

(٨) سورة فصلت : آية رقم (١٥) .

(٩) انظر : " منهاج السنة " : (٢ / ١٧ ، ١٨) .

فهـؤلاء [ت/١٦ب] يثبـتون للعـبد قدرة ، ويقولون : إن تأثيرها فى مقدورها كتأثير سائر الأسباب فى مسبَّباتها ؛ على ما تقدم قريباً .

وأما الفرق بين الأفعال الاختيارية الواقعة عن قصد ؛ والأفعال الاضطرارية كحركة النبض والمرتعش والواقع من شاهق ؛ فهو أمر اضطرارى لا ينازع فيه أحد من أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق فى الدين .

هذا وقد صار الإمام (١) فى آخر عمره إلى أن القدرة الحادثة تؤثر فى أصل إيجاد الفعل كما ذهبت إليه المعتزلة (٢) [م/١٢ب] إلاّ أنه قال : إن العبد إنما يوقع ما يوقعه على أقدار قدرها الله تعالى(٣) كما ذهب إليه ابن تيمية .

قال الإمام (١) :

وهـذا المذهب هو الجامع لمحاسن المذاهب ؛ فإن القدرة إذا لم تؤثر من وجه البتة لم يحسن التكليـف ولا تخصيص فعل ما بثواب ولا عقاب كما ألزمتـه

---

(١) المعنيُّ هنا : إمام الحرمين أبو المعالي الجوينى رحمه الله . وقد أشار الكرمى هنا إلى تغير موقف الجويـنى عـن إنكـار تـأثير القدرة فى الفعل كما فى ((الإرشاد)) إلى إثبات تأثيرها كما فى ((النظامية)) .

وانظر : مسألة الاستطاعة من مبحث القدر من هذه الرسالة .

(٢) لم تتمـيز المعـتزلة بهـذه المسألة حتى تنسب إليها وحدها ؛ بل هو مذهب السلف ، وإنما تمـيزت الفرق بمقالاتها المفارقة لعقيدة السلف ، أما ما وافقت فيه السلف فهو الأصل ، ولا يعد من مقالات الفرق وإن كانت تقول به .

(٣) انظر : " العقيدة النظامية " : ص (٣٥) .

ومعلـوم أن العقـيدة النظامـية من آخر ما كتبه إمام الحرمين كما أشار إليه الشيخ مرعي رحمه الله .

(المعتزلة) [1] للأشعرى [2] .

ومن قال : إن العبد لا يوقـــع إلاّ ما قدر الله له ، وما شـــاء أن يوقعه ؛ لم يلـــزمه مـــا لزم المعتزلة من مخالفة الإجماع وهو : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ولا المحذور اللازم من تقدير إلهـــين .

قال ابن التلمسانى [3] : وما ذكره لا ينجيه من الجبر ؛ فإن العبد إذْ كان لا يوقع إلاّ ما خصصه الله له وقدر إيقاعـــه ، فعند ذلك لا يتأتىمنه الفعل بدون ذلك . وإذا أراد الله ذلك فلا يتأتى منه الترك ألبتة . فالجبر لازم [4] .

---

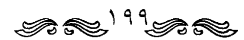
(١) هذه الكلمة أثبتها من [ت] ، وقد سقطت من [م] ثم استدركها الناسخ فى الهامش .

(٢) قال القاضى عبد الجبار المعتزلى ناقداً نظرية الكسب الأشعرية : إن مذهبكم فى الكسب لا يعقل ، وإن عقل فإنه متعلق بالله تعالى ، فلا يبقى للفعل جهة تضاف إلينا ... فصح أن على هذا المذهب لا يتصور استحقاق المدح والذم ، ويلزم أن يكون الظلم والكذب وغيرهما من الأفعال كطـــول القامـــة وقصرها فى أنه لا يصح استحقاق المدح والذم عليها ألبتة . وذلك يوجب قبح بعثة الأنبياء وبطلان الشرائع أصلاً . انظر : " شرح الأصول الخمسة " : ص (٣٣٣ ، ٣٣٤)

(٣) ابـــن التلمســـانى : هـــو أبـــو محمد عبد الله بن محمد بن علىّ الفهرى المصرى الشافعي . المعـــروف بـــابن التلمسانى . فقيه أصولى تصدر للإقراء بالقاهرة . وهو غير التلمسانى المعروف " بالعفيف " الفيلسوف الصوفى . انظر : " معجم المؤلفين " : (٦ / ١٣٣) .

(٤) جاء بهامش المخطوط [ت] أمام هذه الفقرة ما نصه :

وأهـــل السنة والجماعة توسطوا ؛ فلم ينفوا الاختيار عن أنفسهم بالكلية ، ولم ينفوا القضاء والقـــدر عن الله تعالى بالكلية ؛ بل قالوا : أفعـــال العباد من الله تعالى من وجه ، ومن العبد من وجه لأنه كاسبها ، وللعبد اختيـــار فى إيجاد فعله ، واعلم أنّ قضاء الله تعالى على أربعة أوجه . نُقل من " تبيين المحارم " . والمعلق هنا عنى بأهل السنة والجماعة الأشاعرة كما لا يخفى . والحق أن الأشـــاعرة فى مسألة القدر ليسوا من أهل السنة بل هم جبرية ، كما أنهم فى مسألة الصفات متأثرين بالجهمية المعطلة .



(و) [1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" فـإن قيل : حيث قلتم : إن فعل العبد كله مخلـوق لله ، وإنه إذا جعله الله فـاعلاً [ت/١٧أ] وجب وجود ذلك ، وخلق الفعل يستلزم وجوده ، فيقتضى ذلك الجبر . وهو باطل .

قـال : (و)[1] الجـواب : أن لفظ الجبر لم يرد فى كتاب ولا سنة ، فإن المشهور من معناه فى اللغة أن إطلاق (لفظ)[2] الجبر والإجبار إنما يكون على ما يفعله المجبور مع كراهته كما يجبر الأب ابنته على النكاح .وهذا (المعنى)[3] منـتف فى حـق الله تعالى ، فإنه سبحانه لا يخلق فعل العبد الاختيارى بدون اختياره ، بل هو الذى جعله مختاراً مريداً ، وهذا لا يقدر عليه إلاّ الله .

ولهذا قال من قال من السلف (رضى الله عنهم)[4] : الله أعظم وأجل من أن يجـبر . إنمـا يجبر غيره من لا يقدر على جعله مختـاراً . والله تعالى يجعـل العـبد مختـاراً ، فلا يحتاج إلى إجبـاره .

ولهذا قال الإمـام الأوزاعـى[5] وغـيره : نقـول : ((جَبَـلَ)) [6]

---

(١) ليست فى [م] .

(٢) ليست فى [ت] والمثبت من [م] وهو الموافق لما فى " منهاج السنة النبوية " .

(٣) ليست فى [م] والمثبت من [ت] وهو الموافق لما فى " المنهاج " .

(٤) ليست فى [ت] ، ولا فى المنهاج ، والمثبت من [م] .

(٥) الإمـام الأوزاعـى : هو عبد الرحمن بن عمرو ، شيخ الإسلام ، وعالم أهل الشام . الإمام المحـدث الفقيه . كان مولده فى حياة الصحابة سنة ثمان وثمانين . توفى سنة سبع وخمسين ومائة . أورد له الذهبى ترجمة فى عشرين صفحة . انظر : " السير " : (٧ / ١٠٧) .

(٦) وبهذا اللفظ جاء حديث أشج وفد عبد القيس الذى رواه الإمام مسلم وأبو داود =

ولا نقـــول : ((جَبَـــرَ)) .

والمنصـــوص علـــيه عند أئمة الإســـلام مثل الأوزاعـــى[1] والثـــورى[2] وعبد الرحمن بن مهدى[3] وأحمد بن حنبـــل وغيرهم أن لفظ الجبر لا يُثبت ولا يُنفى . فلا يقال : جَبَرَ أو لم يَجْبُرْ " [4] .

فإن قال السائل : أنا أريد بالجبر معنى أن نفس جعل الله العبد (قادراً) [5] فاعلاً للفعل يستلزم الجبر .

قيل له : هذا المعنى حق [م/١٣أ] ولا دليل على إبطاله .

= والترمذى ولفظ أبي داود : فقال له : " إن فيك خلتين يحبهما الله . الحلم والأناة . " قال : يا رسول الله : أن أتخلق بهما أم جبلني الله عليهما ؟ قال : " بل الله جبلك عليهما " قال : الحمد لله الذى جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله . أبو داود (٥٢٢٥) .

(١) فى [م] : كالأوزاعى . وما أثبته من [ت] هو الموافق لما فى " المنهاج " .

(٢) الإمـــام الثورى : سفيان بن سعيد بن مسروق ، شيخ الإسلام وإمام الحفاظ ، أبو عبد الله الـــثورى الكـــوفى حـــدث عن التابعين ، وحدث عنه عبد الرحمن بن مهدى والوليد بن مسلم وخلق .

قـــال ابـــن معين : لا يقدم على سفيان أحد فى زمانه فى الفقه والحديث والزهد . (٩٧ – ١٦١ هـــ) . أورد له الذهبى ترجمة فى خمسين صفحة . انظر : " السير " : (٧ / ٢٢٩) .

(٣) عـــبد الـــرحمن بـــن مهـــدى : هو الإمام الناقد سيد الحفاظ ، أبو سعيد البصرى . سمع الـــثورى وشـــعبة ومالكاً ، وحدث عنه أحمد وابن المبارك وابن معين وخلق . قال ابن المدينى : لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى لم أر أحداً أعلم من عبد الرحمن بن مهدى . (١٥٣ – ١٩٨ هـــ) . انظر : " السير " : (٩ / ١٩٢) .

(٤) انظر : " منهاج السنة " : (٢ / ٥١) بتصرف يسير جداً لا يخل بالمعنى .

(٥) ليست فى [م] .

وحــذاق المعتزلة كأبي الحسين البصرى [1] وأمثاله يسلمون أن مع وجود الداعي والقدرة يجب وجود الفعل [2] ، وسلموا أن الله خلق الداعى والقدرة ؛ فلزم أن يكون الله خالق أفعال العباد ؛ ولكن لم يقولوا بذلك .

وأبــو الحســين هــذا – وإن كان يدعى الغلوّ فى الاعتزال ؛ حتى ادعى (أن)[3] العــلم بأن العبد يوجد أفعاله أمر ضرورى – كان أيضاً عظيم الغلو فى القول بالجبر [4] [ت/١٧ب] .

وحيث قلنا : إن حقيقــة القول إن الله سبحانه هو الخالــق لفعل العبد ؛ فــإذا قالــت القدرية : هذا ينافى كون العبد مختاراً ، لأنه لا معنى للمختار إلا معــنى كونــه قادراً على الفعل والترك ، وأنه إن شاء فعل هذا ، وإن شاء فعل هذا .

---

(١) أبــو الحســين البصــرى : محمد بن على شيخ المعتزلة ، كان فصيحاً بليغاً يتوقد ذكاء ، صاحب تصانيف ، انتصر لمذهب الاعتزال ودافع عنه . توفى ببغداد سنة ست وثلاثين وأربعمائة وقد شاخ . ولم يذكروا له تاريخ ولادة .

انظر : " السير " : (١٧ / ٥٨٧) ، و " البداية والنهاية " : (١٢ / ٥٣) .

(٢) قــال القاضــى عــبد الجبار : التصرفات يجب وقوعها بحسب قصودنا ودواعينا ، ويجب انــتفاؤها بحســب كراهتنا وصارفنا مع سلامة الأحوال . انظر : " شرح الأصول الخمسة " : ص (٣٣٦) .

وقــد نســب الرازى هذا القول إلى أبي الحسين البصرى أيضاً ، ويكاد هذا النص أن يكون مقتبســاً من الرازى فى كتابه " الأربعين فى أصول الدين " : (١ / ٣١٩) الكليات الأزهرية . تحقيق د / أحمد حجازى السقا سنة ١٩٨٦ م .

(٣) ليست فى [ت] . والمثبت من [م] هو الموافق لما فى منهاج السنة .

(٤) انظر : " الأربعين " للرازى : (١ / ٣١٩) ، و " منهاج السنة " : (٢ / ٥٢) .

قـــيل لهم : هذا مسلَّم . ولكن هل هو قادر على الفعل والترك على سبيل الـــبدل أو عـــلى سبيل الجمع ؟ والثانى باطل . فإن الفعل والـــترك ضدان ، واجتماعهما ممتنع .

فعُلم أن قولنا : قادر على الفعل والترك . أى : يقدر أن يفعل فى حال عدم الترك ، ويقدر أن يترك فى حال عدم الفعل .

فقول القائل : القادر إن شاء فعل ، وإن شاء ترك .

هـــو على سبيل البدل ، لا أنه يقدر أن يشاء الفعل والترك معاً . بل حالَ مشـــيئته للفعـــل لا يكون مريداً للترك ، وحالَ مشيئته للترك لا يكون مريداً للفعل .

فحـــال كونه شاء (الفعل)[1] مع القدرة التامة يجب وجود الفعل . وحال وجـــود الفعـــل يمتنع أن يكون مريداً للترك مع الفعل ، وأن يكون قادراً على الترك مع الفعل .

والتخـــيير بيـــنهما إنما يكون عند عدمهما جميعاً ، فأما حال الفعل فيمتنع الـــترك ، وحـــال الترك يمتنع الفعل . وحينئذ : فالفعل واجب حال وجوده ؛ لا فى الحال التى كان مخيراً فيها بين الفعل والترك .

نعـــم ؛ قـــد يكون الفاعل حال الفعل مريداً للترك بعد الفعل ، وهذا ترك ثان ؛ ليس هو ترك ذلك الفعل فى حال وجوده . فتأمـــل [ت/١٨أ] .

---

(١) فى [ت] : للفعل .

إذا تقـــرر هـــذا فاعـــلم أن مذهب جمهور أهل السنة : أن أفعال الإنسان الاختـــيارية مســـتندة إليه ، وأنه (فاعلها)(١) ، والله (تعالى)(٢) (جعله)(٣) فاعلاً ، وأنه مريد مختار ، والله (تعالى)(٢) جعله مريداً مختـــاراً . فالماشى مثلاً يمشى حقيقـــة ، والله (تعالى)(٢) جعله ماشياً ، [م/١٣ب] بمنـــزلة مريض يمشى بين اثنين . ولله المثـــل (الأعلى)(٤) .

ويثبـــتـــون (٥) للعبد قـــدرة هى مناط الأمر والنهى ؛ وإن اختلفـــوا هل هـــى مؤثـــرة فى مقـــدورها ، أو فى بعض مقدورها ، أو فى بعض صفاتـــه ، أو لا تأثير لها (٦) .

---

(١) فى [ت] : فاعل لها .

(٢) ليست فى [ت] .

(٣) فى [ت] : خلقه

(٤) كتبت هذه الكلمة فى [م] هكذا (الأعلا) ، والمثبت من [ت] .

(٥) الضمير يعود على جمهور أهل السنة .

(٦) هذه ثلاثة أقوال .

أما القول الأول : وهو كون القـــدرة مؤثرة فى مقدورها ؛ فهو قول الجمهـــور . قاله ابن تيميـــة فى المنهـــاج : (١ / ٥٢ ، ٥٦) .

وأما القول الثانى : وهو كون (القدرة مؤثرة فى بعض مقدورها أو فى بعض صفاته .) فهو قـــول الباقلانى . حكاه عنه الشهرستانى قال : " الدليل قد قام على أن القدرة الحادثة لا تصلح للإيجـــاد ، لكن ليست تقتصر صفات الفعل أو وجوهه واعتباراته على جهة الحدوث فقط ... فلم لا يجوز أن يكون تأثير القدرة الحادثة فى حال هوَ صفة للحادث أو فى وجه من وجوه الفعل وهو كون الحركة مثلاً على هيئة مخصوصة " . " الملل والنحل " : (١ / ٩٧) .

وأما القول الثالث : وهو أن القدرة لا تأثير لها . فهو قول الأشعرى نفسه .

والفخر الــرازى(١) يثبــت هذه القدرة(٢) ، وهــو (بعدها)(٣) يصــرح بأنــه يقول بالــجبر(٤) .

قال الشهرستانى : " ولم يثبت شيخنا أبو الحسن رحمه الله للقدرة الحادثة صلاحية أصلاً ، لا لجهــة الوجود ولا لصفة من صفات الوجود . " . " الملل والنحل " : (١ / ٧٢) . وهو قول الــرازى ، وكــان الجويــنى يرى ذلك ثم رجع عنه آخر أمره حيث قال : " لزم المصير إلى أن القــدرة الحادثة تؤثر فى مقدورها " . انظر : " العقيدة النظامية " : ص (٣٢) ، و " الأربعين فى أصول الدين " للرازى : (١/ ٣٢٠)

ويلاحــظ هنا أن الشيخ مرعي رحمه الله عدّ الأشاعرة فى هذه المسألة من جمهور أهل السنة . وهــم وإن كــانوا من أهل الإثبات للقدر إلاّ أنهم إلى الجبر أقرب ، فهم يثبتون قدرة وجودها كعدمها . بشهادة الإمام الجوينى نفسه . انظر : " النظامية " : ص (٣٠) .

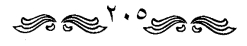
(١) هــو العلامــة أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشى ، فخر الدين الرازى الشافعي المفســر المتكــلم ، صاحب التصانيف المشهورة مثل التفسير الكبير والمحصول فى أصول الفقه ، والمطالب العالية ، والأربعين فى أصول الدين (ت ٦٠٦ هـ) .

انظــر : " الســير " : (٢١ / ٥٠٠) ، و " الــبداية والــنهاية " : (١٣ / ٥٥) ، و " شذرات الذهب " : (٥ / ٢١) .

(٢) حيث يقول فى كتابه الأربعين فى أصول الدين : " اعلم أن القادر هو الذى يصح منه الفعل والــترك بحسب الدواعى المختلفة ؛ مثاله : الإنسان . إن شاء أن يمشى قدر عليه ، وإن شاء أن لا يمشى قدر عليه . أما تأثير النار فى التسخين فليس كذلك . " (١ / ١٧٤) . فأنت تراه هنا يثبت القدرة التى ينفيها فى نفس الكتاب . وهذا من حيرة المتكلمين .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) قلــت : صرح بذلك فى كتابه الأربعين قال : " إن صدور الفعل عن القادر موقوف على الإرادة ، وهذه الإرادة فى الشاهد محدثة فافتقرت إلى محدث . فإن كان ذلك المحدث هو العبد ؛ لــزم التسلسل وهو محال . فوجب القول بانتهاء الإرادات إلى إرادة ضرورية يخلقها الله تعالى فى العبد ابتداءً وعندها يصير الجبر لازماً " (١ / ٣٢٣) .



والجمهـــور يقولون : إن لقدرة العبد تأثيراً فى فعله من جنس تأثير الأسباب فى مســـبَّباتها ، ولـــيس لها تأثير الخلق والإبداع ، ولا وجودها كعدمها [1] . وهذه القدرة قد تكون قبل الفعل ، ولا يجب أن تكون معه .

ويقولـــــون أيضـــاً إن القـــدرة التى يكـــون بها الفعل لابد أن تكون مع الفعـــــل إذ لا يجـــوز أن يوجد الفعـــل بقـــدرة معدومـــة ، ولا بـــإرادة معدومـــة ؛ كما لا يوجـــد بفاعـــل معـــدوم [2] .

وأمـــا القدريـــة فيزعمون : أن القدرة لا تكون إلاّ قبل الفعل [3] . ومن قابلهم يقولون : لا تكون إلا مع الفعل [4] .

= وانـــتهى الأســـتاذ محمـــد صالح الزركان إلى هذا الرأى أيضاً فى رسالته القيمة ((الرازى وأراؤه الكلامـــية)) حيث قال : " لا ينبغى أن نفهم أن الرازى يرى فى الإنسان مختاراً اختياراً حقيقـــياً ؛ وإن قـــال إنه فاعل على الحقيقة . ذلك لأنه يعتقد أن اختياره اختيار صورى . ولهذا فهو كثيراً ما كان يردد أن [الإنسان مضطر فى صورة مختار] " .

ثم ذكـــر نصوصاً للرازى يصرح فيها بالجبر كذلك مثل قوله : " الحق إما القول بالجبر وإما القول بنفى الصانع " .

.انظـــر : " الرازى وآراؤه الكلامية " . رسالة ماجستير بدار العلوم . وقد طبعت بدار الفكر بدون تاريخ . ص (٥٢٩ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣) .

(١) انظـــر : " مـــنهاج السنة " : (٢ / ٥٢ ، ٥٦) ، وانظر : " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٣٣) ، و " شفاء العليل " : ص (٢٤٩) ، و " لوامع الأنوار " : (١ / ١٥١) .

(٢) انظر : " منهاج السنة النبوية " : ١ /٢٧٣ ، و " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٢٩) .

(٣) انظـــر : " شرح الأصول الخمسة " : ص (٣٩٠) ، و " مقالات الإسلاميين " : (٢ / ١٠٣) ، و " الملل والنحل " : (١/ ٥٢ ، ٥٥ ، ٧١ ، ٨١) .

(٤) وهـــم الأشاعرة . انظر : " اللمع للأشعرى " : ص (٩٢) ، و " الإنصاف " للباقلانى : ص (٤٦) و " تحفة المريد على جوهرة التوحيد " : ص (١٢٣) ، =

قال ابن تيمية : " وقول الأئمة والجمهور هو الوسط من أنها لابد أن تكون معـــه وقد تكون مع ذلك قبله ، وتلك القدرة تكون متقدمة على الفعل كما قـــال تعـــالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (١) فأوجـــب الحـــج على المستطيع . فلو لم يستطع إلا من حج ؛ لم يكن الحج قد وجب إلاّ على من حج ولم يعاقب أحد [ت/١٨ب] على ترك الحج . وهذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام .

وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٢) فأوجب التقوى بحسب الاســـتطاعة فلـــو كـــان من لم يتق الله لم يستطع التقوى ؛ لم يكن قد أوجب الـــتقوى إلاّ عـــلى مـــن اتقى ، ولا يعاقب من لم يتق . وهذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أيضاً . " (٣)

وهـــؤلاء إنما قالوا هذا لأن القدرية من المعتزلة والشيعة وغيرهم قالوا : إن القدرة لا تكون إلاّ قبل الفعل لتكون صالحة للضدين : الفعل والترك (٤) .

= و " شـــرح الهدهـــدى على أم البراهين " : ص (١١٠) ، وكذا " حاشية الشرقاوى على شرح الهدهدى " المطبوع معه نفس الصفحة ، و " الاقتصاد فى الاعتقاد " : (٨٥) .

(١) سورة آل عمران : آية رقم (٩٧) .

(٢) سورة التغابن : آية رقم (١٦) .

(٣) انظر : " منهاج السنة " : (١ / ٢٧٣) بتصرف يسير جدّاً لا يخل بالمعنى .

(٤) انظـــر : " شرح الأصـــول الخمســـة " : ص (٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٤١٦) ، و " مقالات الإســـلاميين " : (١ / ٣٠٠) ، و " الفصل " : (٣ / ١٤) ، و " الملل والنحل " : (١ / ٥٢ ، ٦٤ ، ٧١) وغيرها ، و " الفرق بين الفرق " للبغدادى : ص (١٨٦) .

وأما حين الفعل فزعموا أنه حينئذ لا يكون قادراً ؛ لأن القادر لابد أن يقدر عـلى الفعـل والـترك ، وحين الفعل لا يكون قادراً على الترك . فلا يكون قادراً [(1)].

وأهـل السـنـة يقولون : لابد أن يكون قادراً حين الفعل ، ويكون أيضاً قـادراً قبل الفعل[(2)] .

و(قالت)[(3)] طائفة منهم[(4)] : لا يكون قادراً إلا حين الفعل [(5)] .

وهـؤلاء يقولون : إن القدرة لا تصلح للضدين ، [م/١٤أ] فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلاّ لذلك الفعل ، وهى مستلزمة له ، لا توجد بدونه ، فـإن المقارن للشيء مستلزم له ، لا يوجد مع عدمه ، فإن وجود الملزوم بدون اللازم ممتنع .

---

(١) انظر : " مقالات الإسلاميين " : (١ / ٣٠١) .

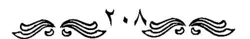
(٢) انظـر كلام الإمام أبى جعفر الطحاوى ، وابن أبى العزّ فى شرحه على الطحاوية ، والإمام ابـن حزم والإمام ابن تيمية وغيرهم . " شرح الطحاوية " : (٤٣٢ ، ٤٣٣) ، و" الفصل " : (٣ / ٢٠) ، و " مجموع الفتاوى " : (٨ / ٣٧٢) .

(٣) فى [ت] : قال .

(٤) الضمير عائد على القدرية المعتزلة .

(٥) قـال الأشعرى : قال بعض المتأخرين ممن كان ينتحل المعتزلة : القدرة مع الفعل ، ونسب الأشـعرى والشهرسـتانى هذه المقالة إلى الحسين بن محمد النجار ، ثم قال : وأكثر معتزلة الرى وما حواليها على مذهبه .

انظر : " مقالات الإسلاميين " : (١ / ٣٠٠ ، ٣٤٠) ، و " الملل والنحل " : (١ / ٨٨ ، ٨٩) .



وهــذا قالته القدرية بناءً على أصلهم الفاسد ؛ وهو : أن إقدار الله المؤمن والكافــر والــبرّ والفاجر سواء . فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان .

بل يقولون : إن إعانته للمطيع والعاصى سواء [1] ، ولكن هذا بنفسه رجح الطاعــة ؛ كالوالد الذى أعطى كل واحدٍ من ابنيه [ت/١٩أ] سيفاً . فهذا جاهد به فى سبيل الله ، وهذا قطع به الطريق . أو أعطاهما مالاً . فهذا أنفقه فى طاعة الرحمن ، وهذا أنفقه فى طاعة الشيطان .

وهــذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة ؛ فإنهم متفقون على أن لله عــلى عــبده المؤمن المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [2] الآية . وقال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [3]

والآيات فى مثل هذا كثيرة تبين اختصــاص عباده المؤمنين بالهدى والإيمان والعمل الصالح [4] .

---

(١) انظر : " الفصل " : (٣ / ١٠٥) .

(٢) سورة الحجرات : آية رقم (٧) .

(٣) سورة الأنعام : آية رقم (١٢٥) .

(٤) قــال الأشــعرى : " أجمعوا على أنه تفضل على بعض خلقه بالتوفيق والهدى وحبب إليهم الإيمان وشرح صدورهم به ... وأنه تعالى لم يتفضل على بعض خلقه بذلك . "

" رسالة أهل الثغر " : (ص ٨٨ ، ٨٩) تحقيق الدكتور/ محمد السيد الجليند . مطبعة التقدم سنة ١٩٨٧ م ، و " الإبانة " : (٥٧) .

والعقل يدل على ذلك أيضاً ؛ فإنه إذا قُدِّر أن جميع الأسباب الموجبة للفعل مـــن الفاعل كما هي من التارك ؛ كان اختصـــاص الفاعل بالفعل ترجيحـــاً لأحـــد المـــثلـــين عـــلى الآخر (من غير) [1] مرجح . وذلك معلوم الفساد بالضـــرورة .

وهذا هو الأصل الذى بنوا عليه إثبات الصانع ، فإن قدحوا فى ذلك انْسَدَّ علـــيهم طـــريق إثبات الصانع . وغايتهم أن قالوا : القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح . وهذا فاسد فإن مع استواء الأسباب من كل وجه يمتنع الرجحان .

وأيضـــاً : فقول القائل : يرجح بلا مرجح . إن كان لقوله : ((يرجح)) معنى زائد على وجود الفعل ؛ فذاك هو السبب المرجح .

وإن لم يكن له معنى زائد ؛ كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعـــل ، ثم الفعل حصل فى إحدى الحالـــين دون الأخرى بلا مرجح . وهذا مكابرة للعقل .

= وقـــال الـــرازى : ليس إدراك الإيمان بالاجتهاد . بل الله بيّن البرهان ، وزين الإيمان حتى حصل اليقين .

وقـــال الباقلانى : إن أفضل وأعظم نعمة الله على خلقه الطائعين وعباده المؤمنين خلقه الإيمان فى قلوبهم ... وخلق الإيمان والتوفيق له نعمة خص الله تعالى بها المؤمنين دون الكافرين .

انظـــر : " التفســـير الكبير " : (٢٨ / ١٢٣) وما بعدها ، و " الإنصاف " : (١٩) ، و " تفســـير القـــرطبى " : (١٦ / ٣١٤) ، و " تفسير ابن كثير " : (٤ / ٢١٠) ، و " شرح الطحاوية " : (٣٤٤) .

(١) فى [ت] : ((بلا)) .

فلما كان [ت/١٩ب] أصل قول القدريَة : أن فاعل الطاعات [م/١٤ ب] وتاركها (كليهما)[١] فى الإعانة والإقدار سواء [٢] ؛ امتنع على أصلهم أن يكـــون مـــع الفعـــل قدرة تخصه ، لأن القدرة التى تخصّ الفعل لا تكون للتارك ، وإنما تكون للفاعل . والقدرة لا تكون إلاّ من الله ، وما كان من الله لم يكن مختصاً بحال (وجود الفعل) [٣] .

ثم لمـــا رأوا أن القـــدرة لابـــد أن تكون قبل الفعل ؛ قالوا : لا تكون مع الفعل ، فإن القدرة هى التى يكون بها الفعل والترك .

وحال وجود الفعل يمتنع الترك كما تقدم .

---

(١) جاء بالنسختين : ((كلاهما)) . والصواب كليهما كما أثبت لأنها توكيد معنوى لاسم إنّ والمعطـــوف علـــيه ، وهى ملحقة بالمثنى فى الإعراب فتنصب بالياء . وتوجيهها على إلزام المثنى الألف تكلف .

(٢) ثَـــمَّ تعلـــيق على هذا الموضع من المخطوط [ت] بخط يخالف خط النسخة ، فهو لبعض متملكيها .

وهـــذا نصـــه : " قوله : كلاهما فى الإعانة والإقدار سواء . أقول : إن كليهما فى الإقـــدار ســـواء لا فى الإعانة ؛ لأن الإعانة لا تكون إلاّ فى الطاعات دون المعاصى لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحـــة / آية ٥] فلا يجوز أن يعينهم على المعاصى . ولم يقل به أحـــد من المعتزلة وغيرهم . " ، قلت : هو كلام جيد ، غير أن الذى يظهر لي أن الكرمى أراد بالإعانة " الإقدار والتقوية ، لا المساعدة فيكون من جنس ما حكاه الأشعرى فى المقالات قال : اختلفـــت المعتزلة ؛ هل يقال : إن الله سبحانه قوى الكافر على الكفر أم لا على مقالتين : ... وقال عباد : إن الله قد قوى الكافر على الكفر وأقدره عليه . " (١ / ٣٠٧) .

(٣) فى [م] : وجوده لفعل .

قـال ابـن تيمـية : " وهذا باطل قطعاً ؛ فإن وجود الأثر مع عدم بعض شـروطه الوجوديـة ممتنع . بل لابد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمـور الوجوديـة موجوداً عند الفعل . فنقيض قولهم هو الحق . وهو أن الفعل لابد أن يكون معه قدرة .

لكـن صار أهل إثبات القدرة للعبد هنا فريقين : فريقاً قالوا [1] : لا تكون القدرة إلاّ مع الفعل . ظنّاً منهم أن القدرة نوع واحد[2] . وظناّ من بعضهم أن القدرة عرض لا تبقى زمانين [3] . فيمتنع وجودها قبل الفعل .

والصـواب الذى عليه أئمة الفقه والسنة أن القدرة نوعان [4] : نوع مع الفعل مقارن له .

ونـوع مصـحح للفعل يمكن معه الفعل والترك . وهذه هى التى يتعلق بها الأمر والنهى ، وتحصل للمطيع والعاصى ، وتكون قبل الفعل ، وتبقى إلى حين

---

(١) لفظ فريق مفرد ، ومعناه جمع ، وما كان هكذا يجوز معه مراعاة لفظه أو معناه عند الإسناد إليه .

وقوله : ((قالوا)) راعى فيه المعنى لا اللفظ ؛ فأسند إلى الجمع .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : ٩] ففى قوله تعالى : ﴿ اقْتَتَلُوا ﴾ مراعاة للمعنى . ولو أراد اللفظ قال : ((اقتتلتا .)) وله نظائر كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ [غافر : ٤١] .

(٢) وهذا قول الأشاعرة . انظر : " اللمع " : (٩٢) .

(٣) منهم الأشعرى والباقلانى . انظر : " اللمع " : (٩٣) ، و " الإنصاف " : (٤٧) .

(٤) وهؤلاء هم الفريق الثانى من الفريقين اللذين ذكرهما المؤلف فى الصفحة السابقة .

الفعل ؛ إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض . وإما بتجدد أمثالها عند من يقول : إن الأعراض لا تبقى [(١)] .

وهــذه قــد تصح للضدين . [ت/٢٠أ] وأمر الله لعباده مشروط بهذه الطاقة . فلا يكلف الله من ليست معه هذه الطاقة . وضد هذه العجز ." [(٢)].

و(اعــلم أنه)[(٣)] على هذه المسألة ينبني مسألة تكليف مالا يطاق . فمن قــال : إن القدرة لا تكون إلاّ مع الفعل – كالأشعرى وغيره – يقول : كل كافر وفاسق قد كلف مالا يطاق [(٤)] ، لأن من سبق فى علم الله أنه لا يؤمن لا يقدر على الإيمان أبداً .

---

(١) وهو قول الإمام الطحاوى وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وشارح الطحاوية ابن أبى العز وقال : هو قول عامة أهل السنة .

انظر : " الفصل " : (٣ / ٢١) ، و " شرح الطحاوية " : (٤٣٢ ، ٤٣٣) .

(٢) انظر : " منهاج السنة النبوية " : (١ / ٢٧٤) .

(٣) ليست فى [م] .

(٤) قــال الأشعرى : " ... فدل ذلك على جواز تكليف مالا يطاق ، وأن من لم يقبل الحق ولم يسمعه على طريق القبول لم يكن مستطيعاً " .

ووافقــه ابن حزم والغزالى والآمدى والرازى ، وأغلب الأشاعرة حاشا الجوينى فى النظامية حيث قال : " لا يتصور قصد امتثال الأمر دون فهمه والعلم بالأمر وإلاّ كان ذلك تكليف مالا يطاق وهو مستحيل " . وهذا الموقف منه خلاف ما قرره فى " الإرشاد " ص (٢٠٣) كما بينته فى بحث القدر .

انظر : " اللمع " : (٩٨) ، و " الإحيــاء " : (١ / ١١٢) ، و " الاقتصاد فى الاعتقاد " : (١٥١) ، و " الفصل " : (٣ / ٧٨) ، و " مفاتيح الغيب " : (٧ / ١٥٢) ، و " الإحكام " للآمدى : (١ / ١٩٢) ، و " النظامية " : (٤٢) .

وبعضهم قال : هذا تكليف بالمستحيل [1] .

وكنـت مشـيت علـى هذا فى كتابى ((البرهان فى تفسير القرآن))[2] فى أول سـورة الـبقرة عـند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [3] . [م/١٥أ]

ومـن قـال : إن القدرة المشروطة فى التكليف تكون قبل الفعل ، وبدون الفعـل ، وقـد تبقى إلى حين الفعل ، والقدرة المستلزمة للفعل لابد أن تكون موجودة عند وجوده ، يقول : إنه لم يكلف ما لا يطاق ؛ بل كلف ما أطاق .

قال ابن تيمية : " وهذا قول جمهور أهل السنة وأئمتهم ، فإن الله تعالى قد أوجـب الحـج على المستطيع ؛ حج أو لم يحج . وأوجب صيام الشهرين فى الكفـارة عـلى المستطيع ؛ كفّر أو لم يكفّر . وأوجب الإسلام على الكافر ؛ أسلم أو لم يسلم وأوجب العبادات على القادرين دون العاجزين ؛ فعلوا أو لم يفعلوا " [4] .

---

(١) هذا قول الرازى فى تفسير أواخر البقرة من " تفسيره الكبير" : (٧ / ١٥١) . والغزالى فى " الإحـياء " : (١ / ١١٢) ، وفى " الاقتصـاد فى الاعـتقاد " : (١٥١ – ١٥٣) ، والجوينى فى " الإرشاد " : (٢٠٣) .

(٢) سـبق أن ذكر المؤلف رحمه الله كتابه هذا ص (٨٨) من النص المحقق ؛ ويبدو أن المؤلف قـد كتـبه فى مرحلة مبكرة من حياته العلمية ، ثم رجع عن كثير من الآراء التى دونها فيه كما أشار هو إلى ذلك .

(٣) سورة البقرة : آية رقم (٦) .

(٤) انظر : " منهاج السنة " : (١ / ٢٧٦) .

ثم اعلم أن تكليف مالا يطاق ينقسم إلى قسمين [1] :

أحدهمـــا : مـــالا يطاق (لعجز)[2] عنه بطريق الآلات ؛ كتكليف المقعد القـــيام والمشـــى ، وتكليف الإنسان الطيران ، والأعمى نقط [ت/٢٠ب] المصاحف . فهذا غير واقع فى الشريعة ، ولم يكلف الله (عز وجل)[3]به أحداً .

وثانـــيهما : تكلـــيف مـــالا يطاق للاشتغال بضده مع سلامة الآلات ؛ كتكلـــيف الكافر الإيمان مع سبق علم الله بأنه لا يؤمن . والتكليف بهذا واقع بالاتفاق .

فاشـــتغال الكافـــر بالكفر (الذى هو ضد الإيمان)[4] هو الذى صدَّه عن ضـــده الـــذى هو الإيمان . فإنه بمنـــزلة القاعد المأمور بالقيام ، فإن اشتغاله بالقعود هو الذى يمنعه أن يكون قائماً .

والإرادة الجازمـــة لأحـــد الضـــدين تنافى الضد الآخر . وتكليف الكافر والعاصى السابق علم الله وقدره فيهما من هذا الباب .

وتكلـــيف مثل هذا ليس بقبيح شرعاً ولا عقلاً عند أحد من العقلاء ؛ بل العقـــلاء مـــتفقون على أمر الإنسان ونهيه بما لا يقدر عليه حال الأمر والنهى لاشتغاله بضده إذا أمكن أن يترك ذلك الضد ويفعل الضد المأمور به [5] .

---

(١) انظر : " اللمع " للأشعرى : ص (٩٨) ، و " شرح الطحاوية " : ص (٤٣٦) .

(٢) فى [ت] : للعجز .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) ليست فى [ت] .

(٥) انظـــر : " اللمع " للأشعرى : ص (٩٨ ، ٩٩) ، و "شرح الطحاوية " : ص (٤٤٦) ، و " مجموع الفتاوى " : (٨ / ٢٩٥ ، ٢٩٦) .

فإن السيد لا يأمر عبده الأعمى بنقط المصاحف ، ويأمره أن يقوم . ويعلم بالضرورة الفرق بين هذا وهذا .

وتكليف مالا يطاق للاشتغال بضده لا نزاع فى وقوعه كما تقدم .

وإنما النــزاع : هل يسمى هذا تكليف مالا يطاق لكونه تكليفاً بما انتفت فيه القدرة المقارنة للفعل ؟

فمــنهم مــن يدخــل هذا فى تكليف مالا يطاق كما [م/١٥ب] يقوله القاضــى أبو بكر[١] والقاضى أبو يعلى[٢] وغيرهما ، فإنهم يقولون : مالا يطاق قسمان : مالا يطاق (لعجز)[٣] عنه ، ومالا يطاق للاشتغال بضده .

ومنهم من يقول : هذا لا يدخل فى [ت/٢١أ] تكليف مالا يطاق .

قــال ابن تيمية : " وهذا هو الأشبه بما فى الكتاب والسنة وكلام السلف ؛ فإنه لا يقال للمستطيع المأمور بالحج إذا لم يحج : إنه كُلف مالا يطيق . فإن الله خلــق له القدرة المشروطة فى التكليف المصححة للأمر والنهى ؛ كما فى العباد إذا أمر بعضهم بعضاً .

---

(١) هو ابن الطيب الباقلانى سبق الترجمة له .

(٢) القاضــى أبو يعلــى : هو محمــد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء الحنبلــى ، شيخ الحــنابلــة وممهد مذهبهم فى الفروع . كان من العلماء الثقات . له تصانيف كثيرة فى مذهب الإمام أحمد . (٣٨٠ – ٤٥٨ هــ) .

انظر : " السير " : (١٨ / ٨٩) ، و " البداية والنهاية " : (١٢ / ٩٤) .

(٣) فى [ت] : للعجز .

فمـــا يوجـــد من القدرة فى ذلك الأمر فهو موجود فى أمر الله لعباده ؛ بل تكليف الله أيسر ، ورفعه للمشقة والحرج أعظم .

والـــناس يكلف بعضهم بعضاً أعظم مما أمرهم الله ورسوله ، ولا يقولون هذا تكليف مالا يطاق .

ومـــن تأمل أحوال من يخدم الملوك والأكابر ، ويسعى فى طاعتهم – وجد عندهم من ذلك ما ليس عند المجتهدين فى العبادة لله تعالى . " [1]

وأما قوله سبحانه : ﴿ **وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً** ﴾ [2] لم يُرد به هذا . فإن جميع الناس قبل الفعل ليس معهم القدرة الموجبة للفعل . فلا يختص بذلك العصاةُ ؛ بل المراد أنهم يكرهون سماع الحق كراهة شديدة لا تستطيع أنفسهم معها سماعه لبغضهم ذلك ، ونفرتهم منه ؛ لا لعجزهم عنه ؛ كما أن الحاسد لا يستطيـــع الإحســـان إلى المحســـود لبغضه له ؛ لا (لعجز)[3] عنه .

وعـــدم هـــذه الاستطاعة لا تمنع الأمر والنهى ، فإن الله يأمر الإنسان بما يكرهه كالقتال ، وينهاه عما يحبه كهوى النفس .

ولـــيس مـــن شـــروط المأمور (به)[4] أن يكون العبد مريداً له ، ولا من شـــروط المنهى عنه أن يكون العبد كارهاً له ؛ فإن الفعل يتوقف على القدرة والإرادة .

(١) انظر : " منهاج السنة النبوية " : (١ / ٢٧٦) .
(٢) سورة الكهف : آية رقم (١٠١) .
(٣) فى [ت] : للعجز .
(٤) ليست فى [م] .

والمشروط فى التكليف أن يكون العبد قادراً على الفعل ؛ لا أن [ت/٢١ ب] يكون مريداً له لكنه لا يوجد إلاّ إذا كان مريداً له ، (فإن الإرادة)[١] شرط فى وجوده ؛ لا فى وجوبه .

إذا علمـــت هـــذا علمت أن الله تعالى لم يكلف العباد مالا يطيقون ؛ لقوله تعالى : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [٢] ، وإنما كلفهم بما فى [م/١٦أ] وسعهم وطاقتهم ؛ فإن العـــبد لـــه قدرة وإرادة وفعل حقيقـــة يقدر به على فعـــل ما كلـــف به ، وعلى تركـــه كما تقدم ، وإن كان الله تعالى هو خالق ذلك كله كما هو خالق كل شيء .

فـــإن خلقه القدرة فى العبد مع سلامة الآلات ، مع الإرشاد والبيان لما هو النافع والضار ببعث الرسل المزيحة للعلل محض فضل منه تعالى .

وقد اختلف العلماء فى حكمة تكليف المكلفين وعقاب العاصين :

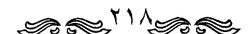
وانقسموا فى ذلك إلى قسمـــين : أهـــل الحكمـــة والتعليـــل[٣] .

---

(١) فى [ت] : فالإرادة .

(٢) سورة البقرة : من الآية (٢٨٦) .

(٣) وهـــم جمهـــور أهل السنة . قال ابن القيم : " إنه سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته وإرادته . ويفعـــل ما يفعله بأسباب وحكم وغايات محمودة . وقد أودع العالم من القوى والطبائع والغرائز والأســـباب والمســـببات ما به قام الخلق والأمر . وهذا قول جمهور أهل الإسلام وأكثر طوائف الـــنظار ، وهـــو قول الفقهاء قاطبة ؛ إلاّ من خلّى الفقه ناحية وتكلم بأصول النفاة فعادى فقهه أصول دينه . " . " شفاء العليل " : ص (٣٤٦) . وانظر : " شرح الطحاوية " : (١١٦) ، و " لوامع الأنوار " : (١ / ٢٨٣) .



وأهـل المشيئـة والتفويـض [1] .

فقال أهل المشيئـة : لا حكمة فى تكليف المكلفـين وعقاب العاصـين إلاّ محـض المشـيئة الإلهـيـة ، فهو سبحـانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [2] .

وقـال أهـل التعليل : إن من أسمائه تعالى الحكيـم ، فهو لا يفعل شيئاً إلاّ لحكمـة ، ولا يـتركه إلاّ لانتفاء الحكمة فيه ؛ وإن كنا نحن لا نعلم وجه الحكمة [3] .

وقالوا : تكليف الله العباد ليس لاحتياجه إلى ذلك ، فإنه سبحانه غنى عن العـباد ، بل لتزكيتهم (وتطهيرهم)[4] ورفعهم من الحضيض الأسفل ؛ فإن التكلـيف كلـه إرشاد وهدى وتعريف للعباد ما ينفعهم فى المعاش والمعاد ، فأمرهم سبحانه على ألسنة رسله بما ينفعهم ، ونهاهم عما يضرهم [ت/٢٢أ] وبين لهم النافع ليرتكبوه ، والضار ليجتنبوه [5] . وأعطى كل مكلف القدرة

---

(١) وهـم جمهور الأشاعرة . قال الجوينى : الأفعال لا تتفاوت فى حق الله تعالى ، فتعلق الإرادة بهـا عـلى قضـية واحـدة لا تختلف " ، وقال الغزالى : " إنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء ... ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ . انظر : النظامية : (٢٧) ، والإحياء : (١ / ١١٢) ، والأربعين للرازى (١ / ٣٥٠) ، والاقتصاد فى الاعتقاد : (١٥٤) .

(٢) سورة الأنبياء : آية رقم (٢٣) .

(٣) انظر : " مجموع الفتاوى " : (٨ / ٣٧٨) ، و " شفاء العليل " : (٣٤٦) ، و " شرح الطحـاويـة " : (١١٦) ، و " لوامـع الأنـوار " : (١ / ٢٨٤) ، و " معارج القبول " : (١ / ١٢٠) .

(٤) ليست فى [ت] .

(٥) انظر : " شفاء العليل " : (٣٧٧) .

والإرادة وسلامة الآلات فيما كُلف به .

فهـــو تعـــالى محسن إلى عباده المكلفـــين عموماً لأمره لهم بما (ينفعهم)[1] و(نهـــيه عما يضرهم)[2] ، مع الإرشاد والبيان وخلق القدرة فيهم ، ومحسن بإعانته على الطاعة لمن شاء منهم خصوصاً ، ولو قُدّر أن عالما صالحا أمر الناس بما ينفعهم ؛ ثم أعان بعض الناس على فعل ما أمرهم به ولم يعن آخرين ؛ لكان محســـناً إلى هؤلاء إحساناً تاماً ، ولم يكن ظالماً لمن لم يحسن إليه ؛ كالطبيب إذا أمـــر المريض بشرب الدواء لم يكن عليه أن يعاونه ، والمفتى إذا أمر المستفتى بما يجب عليه لم يكن عليه أن يعاونه وإن كان قادراً على معاونته .

ولو قُدر أنه عاقب المذنبين المخالفين العقوبة التى يقتضيها عدله [م/١٦ب] وحكمته لكان أيضاً محموداً على ذلك ، ولم يكن ذلك ظلماً .

ولـــيس لهم أن يقولوا : أنت لم تعنا . مع كونهم قادرين . فإذا أمر سبحانه مثل فرعون وأبى لهب بالإيمان كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم إذا فعلوه . ولا يلـــزم إذا أمرهم أن يعينهم ، بل قد يكون فى إعانتهم وجه مفسدة ، فإنه تعالى يخلق ما يخلق لحكمة وإن كنا لا نعلمها ، وإن لم تُعلل أفعاله بالحكمة فإنه سبحانه يفعل ما يشاء [3] .

---

(١) فى [ت] : ينفع .

(٢) فى [ت] : ونهيهم عما يضر .

(٣) قوله : " وإن لم تُعلل أفعالُه بالحكمة ..." تعبير موهم يشبه قول نفاة الحكمة ؛ وباستحضار المحكم من تعبير المؤلف يظهر أنه يعنى [وإن لم يظهر لنا وجه الحكمة فى أمر ما ...] .

وربمـــا قال ذلك على سبيل التنزل والجدل لتقرير نفى الظلم عن الله تعالى على كل حال . يشهد لذلك المعنى قوله بَعْدُ : " وعلى كل تقدير فهو سبحانه ليس بظالم ... "

وعـــلى كل تقدير : فهو سبحانه ليس بظالم ، خلافاً لما قد يتوهمه من قصر فهمه ، وانثنى عن أبواب السعادة عزمه .

وقـــد اختلفوا فى تفسير الظلم . فقال قوم من أهل المشيئة والتفويض : إنما يكون الظلم ممن (يتصرف)[1] [ت/٢٢ب] فيما لا يملك ، والله تعالى مالك كل شيء [2] .

ويُــروى عـــن إيـــاس بن معاوية [3] رحمه الله تعالى قال : ما خاصمـــت بعقلـــــي كله إلاّ القدرية . قلت لهم : أخبرونى ما الظلم ؟ قالوا : أن يتصرف الإنسان فيما ليس له . قلت : فلله كل شيء [4] .

---

(١) فى [ت] : تصرف .

(٢) انظـــر : " اللمـــع " : (١١٦) ، و " الإحيـــاء " : (١ / ١١٢) ، و " الاقتصـــاد فى الاعتقاد " : (١٥٤)

(٣) هـــو : أبو واثلة إياس بن معاوية ، قاضى البصرة . روى عن أبيه عن أنس رضى الله عنه . كان يضرب به المثل فى الذكاء والدهاء والسؤدد والعقل . ترجم له ابن كثير فى البداية فى خمس ورقات وعنون له بإياس الذكى . توفى كهلاً سنة إحدى أو اثنتين وعشرين ومائة .

انظر : " السير " : (٥ / ١٥٥) ، و" البداية والنهاية " : (٩ / ٣٧٦) .

(٤)الأثـــر رواه الآجرى فى الشريعة بسنده عن إياس بن معاوية بلفظ : " لم أخاصم بعقلى كله مـــن أصـــحاب الأهواء ، غير أصحاب القدر . قلت : أخبرونى عن الظلم فى كلام العـــرب : مـــا هـــو ؟ قالوا : أن يأخذ الرجـــل ما ليس له ، قال : فقلت : فإن لله عز وجل كل شيء . " [ص : ٢٢٠] تحقيق : محمد حامد الفقى . مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م . وانظـــر قول إياس – أيضاً – فى " منهـــاج السنـــة النبويـــة " : (١ / ٢٦٨) ، و " مختصر الصـــواعـــق المرسلـــة " : (٢٣٤) ، و " البداية والنهايـــة ط : (٩ / ٣٧٧) ، و " لوامع الأنوار " : (١ / ٢٨٩) .

وأهل هذا القول قالوا : إنه تعالى لو عذب العبد بسبب لونه وطوله وقصره لم يكن ظالماً.

بـــل قـــالوا : إنه تعالى لو عذب أهل السموات والأرض جميعاً من الملائكة والأنبـــياء وغيرهم لكان عدلاً منه وحقاً له ، وحكمة من فعله ؛ وإن كان لا يفعل ذلك .

ولـــو لم يخلق النار ؛ وأدخل الخلق جميعاً الجنة لكان عدلاً منه وحقاً وحكمة . كل ذلك عدل من الله ؛ لا من غيره ، ولله الحجة البالغة ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ (١) . وأنـــه لا يجب ولا يحرم ولا يحسن ولا يقبح شيء إلاّ ما أوجبه الله أو حرمه أو حسنه أو قبحه (٢) .

وقـــد أباح سبحانه أخذ أموال قوم بالمشرق من أجل قريب لهم قتل قتيلاً خطأ بالمغرب .

وهذا الوطء بالتزويج حسن حلال ، وبالزنا (حرام قبيح) (٣) . بل الخمرة قبل تحريمها وبعده كذلك مع أن الصورة والعين واحدة .

وكذلـــك ذبح الإنسان بقرته وذبحه حماره ؛ فالأول حسن حلال ، والثاني قبيح حرام لما فيه من تعذيب الحيوان والتصرف فيما لا يملك فعله .

---

(١) سورة الأنبياء : آية رقم (٢٣) .

(٢) انظر : " اللمع " : (١١٦) ، و " الفصل " : (٣ / ٥٨) ، و " الإحياء" : (١ / ١١٢) ، و " تحفة المريد على جوهرة التوحيد " : (١٣٠) ، و "رسالة أهل الثغر " : (٧٨) .

(٣) في [ت] : قبيح حرام .

ولـــو أن شخصاً قام ثم وضع رأسه (مطأطئاً فى الأرض)[1] فى غير صلاة بحضرة الناس لكان – بلا شك – عابثاً مقطوعاً عليه بالرعونة .

و (كذلـــك)[2] لـــو تجرد شخص من ثيابه أمام الجموع فى غير حج ولا عمـــرة [م/١٧أ] وكشـــف رأسه واستدار حول (بناية)[3] قائماً مهرولاً ، ورمى بالحصا لكان عند [ت/٢٣أ] كل من يراه مجنوناً بلا شك . لاسيما إن امتنع من قص شاربه وأظفاره .

لكـــن لمـــا أمر الله بذلك (كله)[4] صار كله حسناً واجباً ، وصار تركه قبـــيحاً ، وإنكاره (كفراً)[5] . فأى مدخل للتعليل هنا أو للعقل فى تحســـين أو تقبيـــح كما (يقول)[6] المعتزلة [7] ، وكيف العقل يحسن أو يقبح ؟

فثبت يقيناً [8] أنه لا ظلم ولا قبح إلاّ ما نهى الله عنه ، ولا حسن ولا عدل

---

(١) فى [ت] : فى الأرض مطأطئاً .

(٢) فى [ت] : كذا .

(٣) فى [ت] : بناء .

(٤) ليست فى [ت] .

(٥) معطـــوف عـــلى خـــبر صـــار منصوب ، وفى [م] كفر ، بالرفع على أنه خبر للمبتدأ ((إ نكار)) والواو استئنافية لا عاطفة .

(٦) فى [ت] : يقوله .

(٧) قـــال القاضـــي عـــبد الجبار : " نقول : إن السمع لا يوجب قبح شيء ولا حسنه ، وإنما يكشف عن حال الفعل على طريق الدلالة كالعقل " . انظر : المغنى : (٦ / ٦٤) .

(٨) المؤلف رحمه الله هنا لا يعبر عن رأيه ؛ وإنما يحكى قول أهل المشيئة والتفويض . يشهد لهذا قوله بعد فقرة : والجمهور من أهل هذا القول قالوا : .. كما صرح بذلك الأشعرى ... =



إلاّ ما أمر الله به وفعله تعالى ؛ أى شيء كان (1) .

وتكليف مالا يطاق والتعذيب عليه إنما هو قبيح بالنسبة لنا ؛ لا بالنسبـة له تعالى ؛ إذ الخلق كلهم ملكه وعبيده على الحقيقة لا المجاز .

والجمهـــور مــن أهل هذا القــول(2) قالــوا : إن الظلم فى حقه تعالى ممتــنع لذاتــه غــير مقــدور . كمــا صــرح بذلك الأشعرى(3) والقاضى أبو بكر(4) (والقاضى أبو يعلــى وأبو المعــالى)(5) وابن الزاغــوني (6) .

= وكل الذين ذكرهم المؤلف من الأشاعرة ، أو من وافقهم فى هذه المسألة كالقاضى أبي يعلي وابن الزاغوني وهما وإن كانا حنبليين إلا أن لهما ميولاً أشعرية كلامية انتُقدا بسببهما .

(1) قـال الــرازى : " قالت المعتزلة : المؤثر فى هذه الأحكام [يعنى الحسن والقبح والثواب والعقاب] صفات عائدة إلى الأفعال . ومذهبنا : أنه مجرد حكم الشرع " .

وقال : " وجب أن يكون القول بالحسن والقبح العقلى باطلاً . "

انظر : " الأربعين فى أصول الدين " : (١ / ٣٤٦ ، ٣٤٧) .

(2) يعنى أهل المشيئة والتفويض ؛ نفاة الحكمة .

(3) انظر : " اللمع " للأشعرى : باب الكلام فى التعديل والتجوير (ص ١١٥ – ١١٧) .

وهــذا القــول قالــه الأشعرى ومن وافقه بناءً على تعريفهم لمعنى الظلم . وهو عندهم – التصــرف فى ملــك الغــير بغير إذنه . فقالوا : إن الله تعالى لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً .

(4) هو ابن الباقلانى . انظر : " الإنصاف " : ص : (١٥٦ ، ١٥٧) .

(5) فى [ت] : هكذا (وأبو المعالى والقاضى أبو يعلى) بتقديم الثانى على الأول .

(6) فى [م] :[ابــن الزعفــرانى] : وهو أبو الحسن محمد بن مرزوق العلامة الفقيه المحدث البغدادى الشافعي .كتب الكثير وصنف (٤٤٢ – ٥١٧ هـ) . وما أثبته من [ت] .

وأمــا ابــن الــزاغونى : فهو أبو الحسن علي بن عبيد الله بن الزاغونى العلامة شيخ الحنابلة صاحب " التصانيف " . (٤٥٥ – ٥٢٧ هـ) . قال فى " الإيضاح " ص (٢٨١) :

وغيرهـــم [1] .

ويقولون : إنه تعالى غير قادرعلى الظلم والكذب وغيرهما من القبائح ، ولا يصـــح وصـــفه بشيء من ذلك لأن ذلك مستحيل فى حقه تعالى ، وقدرته لا تتعلق بالمستحيل .

وقال آخرون [2] من أهل الحكمة والتعليل : إن الظلم مقدور عليه فى حقه تعالى ، وهو منـــزه عنه [3] .

قـــيل : وهـــذا قـــول الجمهور من المثبتين للقدر ونفاته ، وقول كثير من أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعي وأحمد .

وتفسير الظلم على قول هؤلاء : هو تعذيب الإنسان بذنب غيره [4] .

" الظـــلم وضع الشيء فى غير موضعه ، أو التصرف فيما لا يملكه أو لا يستحقه وذلك لا يوجد فى حق الله تعالى ... فإذا لم يتصور سبب التسمية فى حقه امتنعت التسمية . "

انظر : ترجمة الأول فى " السير " : (١٩ / ٤٧١) ، والثانى : (١٩ / ٦٠٥) .

(١)كالغزالى رحمه الله . انظر : الاقتصاد فى الاعتقاد : ص (١٥٤) ، والإحياء : (١ / ١١٢) .

(٢) قوـــله : " آخرون من " يقتضى أن هذاالقول ليس قول جميع أهل الحكمة والتعليل وليس الأمر كذلك ، بل هو قول أهل السنة ، ومن خالفهم فى هذه المسألة فليس على قولهم فيها وإن كان منتسباً إليهم فى جمهور مسائل العقيدة .

(٣) قال شارح الطحاوية :

" هـــو ســـبحانه كتب على نفسه الرحمة ، وحرّم على نفسه الظلم ، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه ، لا ما هو ممتنع عليه . " . " شرح الطحاوية " : (٤٤٩) ، وانظر : " شفاء العليل " لابن القيم : (٤٥٥) ، و " لوامع الأنوار " : (١/ ٢٩٠) .

(٤) قـــال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى فى قوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً ﴾ [طه : ١١٢] " لا يُظلَمون ولا يهضمون ؛ أى لا يزاد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم .

أو تعدى ماحُدَّ لـــه [1] . والله منـــزه عن كل منهما .

وقـــالوا الفرق بين تعذيب الإنسان على فعله الاختيارى و (فعل غيره)[2] الاختيارى أمر مستقر فى [ت/٢٣ب] فطر العقول .

وأما كون الرب خالق كل شيء ، فذلك لا يمنع كون العبد هو الملوم على ذلك شرعاً وعقلاً وعرفاً .

أما شرعـــــــاً : فواضـــح .

وأما عقلاً وعرفاً : فلأن غيره من المخلوقين يلومه على ظلمه وعدوانه مع إقرارهم بأن الله خالق ظلم العباد .

وجمـــاهير الأمم مقرة بالقدر وأن الله تعالى خالق كل شيء ، وهم مع هذا يذمـــون الظالمين ، ويعاقبونهم لدفع ظلمهم وعدوانهم ؛ كما أنهم يعتقدون أن الله خلق الحيوانات المضرة وهم [م/١٧ب] مع ذلك يسعون فى دفع ضررها بالقتل وغيره .

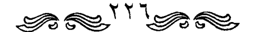
= قالـــه ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد . فالظلم : الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره ، والهضم النقص . "

وقال فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [ق : ٢٩] " أى : لستُ أعذب أحداً بذنب أحد ، ولكن لا أعذب أحداً إلاّ بذنبه بعد قيام الحجة عليه . " .

انظـــر : " تفســـير " ابـــن كثير (٣ / ١٦٦) ، (٤ / ٢٢٦) ، و " شرح الطحاوية " : (٤٤٩) ، و" شفاء العليل " : (٤٥٦) ، و " لوامع الأنوار " : (١ / ٢٩٠) .

(١) قلت : تفسير الظلم بأنه " تعدى ما حُدّ " هو مذهب أهل المشيئة والتفويض (الأشاعرة) وليس مذهب أهل الحكمة والتعليل كما ذكر المؤلف هنا . وراجع الهامش السابق .

(٢) فى [ت] : وغير فعله .



وهـــم أيضـــاً متفقون على أن الكاذب والظالم مذموم بكذبه وظلمه ، وأن ذلـــك وصـــف سيئٌ فيه ، وأن نفسه المتصفـــة بذلك خبيثة ظالمة لا تستحق الإكرام الذى يناسب أهل الصدق والعدل .

وقـــد اســـتقر أيضاً فى بدائه العقول أن الأفعـــال الاختيـــارية يكسب بها الإنســـان صفات محمودة وصفات مذمومة ؛ بخلاف نحو لونه وطوله وعرضه ، فإنه لا فعل فيه للعبد بوجه من الوجوه .

واستشكل أن خلق الفعل مع حصول العقوبة عليه ظلم .

وأجيـــــب (بـــأن)[1] هـــذا بمنـــزلة أن يقال : إن خلق أكل السَّم ثم حصـــــول الموت به ظلم . أو خلق الحمَّى ثم حصول الموت بها ظلم . والظلم وضع الشيء فى غير موضعه ؛ كما أن العدل وضع الشيء فى موضعه .

فكل نعمة من الله فضل ، وكل نقمة منه عدل ؛ لأنه محسن للعبد بلا سبب تفضـــلاً وإحساناً ، ولا يعاقبه إلا بذنبه ، وإن كان هو قد خلق الأفعال كلها لحكمة له فى ذلك .

وإذا كان الإنسان قد يفعل مصلحة اقتضتها حكمته ولا تحصل[ت/٢٤أ] إلاّ بتعذيـــب حـــيوان ولا يكون ذلك ظلماً منه ؛ فالله أولى أن لا يكون ذلك ظلماً منه .

ثم اســـتحقاق هذا الفاعل لأثر فعله الذى هو معصية الله كاستحقاقه لأثره إذا ظلم العباد .

---

(١) فى [ت] : أن .

فتـبين بهـذا أن خلق الفعل فى العبد ليس بظلم ؛ سـواء قيل : إن الظلم ممتنع من الله [1] أو قيل : إنه مقـدور عليه . فإن الظلم الذى هو ظلـم : أن يعاقـب الإنسـان على فعل غيره . وأما عقوبته على أفعاله الاختياريـة ، وإنصاف المظلومـين من الظالمـين فهو من كمال العـدل .

وإذا كـان العقاب على فعل العبد الاختيارى بالنسبة لنا ليس بظلم ؛ فهو بالنسبة إلى الرب تعالى له فيه حكمة يحسن لأجل تلك الحكمة ، وبالنسبة إلى العبد عدل ؛ لأنه عوقب على فعله . فما ظلمه الله ولكن هو ظلم نفسه .

وهـذه المسألة – مسألة غايات أفعال الله ونهاية حكمته – مسألة عظيمة . لعلها أجل المسائل الإلهية ؛ لا يتسع هذا الموضع لبسط الكلام عليها .

واعتبر الحال لو كان المعاقِبُ (للعاصى)[2] – غير الله – يظهر لك العدل وعدم الظلم ، فلو عاقبه ولى أمر على إيذائه للناس ؛ فقطع يد السارق ، وحد القاذف ، وضرب الباغى ، أليس ذلك عدلاً منه ؟

فإنـه قد استقر فى فطر الناس وعقولهم أن ولى الأمر إذا أمر الغاصب برد المغصـوب إلى مالكـه ، وضمَّنه التالف ، أنه يكون حاكماً بالعدل . وما زال العدل معروفاً فى القلوب والعقول .

---

(١) قـول المؤلـف : " سواء قيل : إن الظلم ممتنع من الله ... " لا يعنى أن المؤلف يقول بأن الظلم غير مقدور لله تعالى . وإنما يقوله على سبيل التسليم الجدلى ؛ إذ غرضه الرد على المحتجين بـالقدر على المعاصى . وهؤلاء يخالفهم أهل الحكمة والتعليل الذين هم أهل السنة وأهل المشيئة والـتفويض الذين هم الأشاعرة . والمؤلف يوظف قول هاتين الفرقتين فى الرد على المحتجين على المعاصى بالقدر . وكان أولى به الاكتفاء بقول أهل السنة وعدم التكثر بقول هو خطأ فى نفسه .

(٢) ليست فى [م] .

ولو قال هذا المعاقَبُ : أنا قد قُدِّر عليَّ هذا . لم يكن هذا حجة له باتفاق العقلاء كما تقدم بيانه[1]، ولا مانعاً لحكم الوالى أن يكون عدلاً [ت/٢٤ب]

---

(١) جـــاء بهامش المخطوط [ت] ص (٢٤ ب) تعليق على هذه الفقـــرة هذا نصه : " وقد ذكـــر صـــاحب التجريد (الطوسى) (*) فى تجريده أن القضاء والقدر إنْ أُريد بهما الخلق لزم المحـــال . وإنْ أُريد بهما الإلزام ؛ صحّ فى الواجب خاصة . وإنْ أُريد بهما الإعلام صحّ مطلقاً ؛ يعنى : فى أفعال العباد صحّ مطلقاً على سبيل البيان ؛ لا على طريق الحكم والإلزام .

ثم أورد عـــلى هذا المعنى حديث الأصبغ بن (نُباتة)[1] أن شيخاً قام إلى علىّ بن أبى طالب رضـــى الله عنه بعد انصرافه من صفين فقال : أخبرنا يا علىّ عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره ؟

فقال رضى الله عنه : والذى (فلق)[2] الحبة وبرأ النسمة ؛ ما وطئّا موطناً[3] ، ولا هبطنا وادياً ، ولا علونا (تلعة)[4] إلاّ بقضاء الله وقدره .

فقال الشيخ : أحتسب عنائى . ما (أرى)[5] لى من الأجر شيئاً .

فقال : مَهْ أيها الشيخ . عظّم الله أجْركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون . ولم تكونوا فى شيء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين .

فقال الشيخ : كيف القضاء والقدر ؟ ثبتنا .

فقـــال : ويحـــك ! لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حتماً ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهى ، ولم يأت ملامة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن . تلك مقالـــة عبدة الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها [6] .

إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسيراً ولم يُعْصَ مغلوباً ، ولم يُطَعْ مكرهاً ، ولم يرسل الرســـل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

فقال الشيخ : ما القضاء والقدر (اللذين) [7] ما سُيِّرْنا إلاّ بهما ؟

= فقـــال : هو الأمر من الله تعالى . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه** ﴾ [الإسراء : ٢٣] . انتهى (٨)

(*) فى الأصل : (الســـوس) هكذا ، وكاتب التعليق له أخطاء إملائية كثيرة ، وقد خطر لى أنـــه يعنى : السوسى نسبة إلى سوس المغرب . وقد ذكر صاحب هدية العارفين اثنين من العلماء يتلقبان بهذا اللقب إلاّ أنى لم أجد لأحد منهما كتاباً اسمه التجريد . فرجحت أنه أراد (الطوسى) صاحب " تجريد الكلام " لجملة قرائن :

الأولى : وجـــود كـــتاب له اسمــه (التجريد) . الثانية : أن التعليق يمثل مذهب الاعتزال والطوســـى (نصير الدين) شيعي والشيعة قدرية . الثالثة : كثرة الأخطاء الإملائية من كاتب التعليق وهو غير ناسخ المخطوط .

(١) فى الأصل : (ضبانة) ، وهو تصحيف ، فليس ثم راوٍ بهذا الاسم ، والصواب ما أثبته .

انظر : " الكاشف " للذهبى : (١ / ١٣٦) ، و " التقريب " : (١ / ٨١) ، و " تهذيب التهذيب " : (١ / ٢٢٩) .

(٢) فى الأصـــل : (يبســـىء) ، ولم أر لهـــا معنى ، ولعله أراد [ينشىء] وليس من المناسب تعاطف المضارع (ينشىء) والماضى (برأ) . والمحفوظ ما أثبته .

(٣) كذا بالأصل ، ولما كان لها وجه من التَّوطُّن أبقيت على الأصل ، وإن كان الأرجح عندى (وطئنا موطناً) .

(٤) بالأصل (تلفه) ، وهو تصحيف واضح ، والصواب ما أثبته .

والتلعة : أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل . اللسان : مادة تلع (١ / ٤٤٠) .

(٥) فى الأصل : (مارى) بغير الألف فزدته .

(٦) لفـــظ ((القدريـــة)) يتدافعه المعتزلة وأهل السنة لورود الذم به ، فالمعتزلة يقولون : أولى الناس بهذا اللقب المثبتون للقدر ؛ لا النافون له .

وأهـــل السنة يقولون : أولى الناس به النافون له الذين ابتدأوا الكلام فيه بغير ما كان يعرف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . =

= والمتكلم هنا يتكلم بلسان الاعتزال واصفاً أهل السنة بالقدرية .

انظر : " الإبانة " للأشعرى : (٦١) ، و " شرح الأصول الخمسة " : (٧٧٢) .

(٧) فى الأصل : (الذين) بلام واحدة موصول الجمع ، والكلام هنا على مُثَنَّىا .

(٨) هذا الأثر أو هذه القصة – وليس الحديث كما قال صاحب التعليق حيث من المعروف فى مصطلح الحديث أن الحديث ما كان منسوباً للنبى صلى الله عليه وآله وسلم خاصة والأثر يتسع ليشمل ما كان منسوباً إليه صلى الله عليه وآله وسلم وإلى غيره من الصحابة – أقول هذا الأثر لا يصح سنداً ولا متناً نسبته إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

أمـــا مـــن حيث السند : فهو من رواية الأصبغ بن نُباتة عن علىٍّ رضى الله عنه . والأصبغ هذا متروك ؛ اتفقوا على تركه .

قـــال الإمـــام النســـائى : متروك الحديث . وقال الحافظ الذهبى : تركوه . وقال ابن حجر مـــتروك ، رُمى بالرفض . وقال فى التهذيب : قال أبو بكر بن عياش : الأصبغ بن نباتة وهيثم من الكذابين . وقال ابن معين : ليس يساوى حديثه شيئاً . وقال العقيلى : كان يقول بالرجعة .

وقـــال ابن حبان : فُتِنَ بحب علىّ فأتى بالطامات فاستحق الترك ... فهذا إجماع منهم على تركه .

وأمـــا من حيث المتن : فالنكارة بادية عليه . فلم يروه أحد من أصحاب الكتب المعتمدة فى الآثـــار ، إنمـــا يتداوـــله الشيعة والقدرية مثل نصير الدين الطوسى وابن أبى الحديد والقاضى عبد الجبار .

هـــذا والصنعة تطل برأسها من خلال المصطلحات المستعملة فى هذا النص قبل زمانها الذى ظهرت فيه مثل ((الوعد والوعيد)) وسياق هذا المصطلح وسباقه صنعة معتزلية فى هذا النص .

ثم الجـــناس فى ((منصـــرفون)) مـــع ((ســـائرون)) و ((مضطرين)) مع ((مكرهين)) والأوثان مع الشيطان ، وتخييراً .. تحذيراً .. يسيراً .

وقوله : ذلك ظن الذين كفروا ... تكفير لمن قال بالقضاء والقدر من الله تعالى . كيف وهى عقـــيدة كل الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين فى كل عصر وحين .فى حين لم يكفر عـــلىٌّ رضى الله عنه الخوارج الذين حملوا عليه السيف وكفروه حينما سئل عنهم قال : هم من الكفر فرُّوا . =

مـــنه ، فالله تعالى أعـــدل العادلـــين إذا اقتص للمظلوم من ظالمه فى الآخرة ، وأحق بأن يكون ذلك عدلاً منه .

فـــإن قـــال الظالم : هذا كان مقدراً عليَّ . لم يكن هذا عذراً صحيحاً ولا مسقطاً لحق المظلوم .

وإذا كـــان الله هو الخالق لكل شيء ؛ فذاك لحكمة أخرى له فى الفعل . فخلقـــــه تعالى حسن بالنسبـــة إليه لما له فيه من الحكمـــة . والفعل المخلوق قبـــيح من فاعله لما عليه فيه من المضرة ؛ كما أن أمر الوالى بعقوبة الظالم يسرُّ الـــوالى لمـــا له فيه من الحكمة ؛ وهو إظهار عدله وأمره بالعدل . وذلك يضر المعاقَبَ لما عليه فيه من الألم .

هـــذا ؛ ومثل هذه الأمثال ليست مثل فعل الله تعالى ، فإن الله ليس كمثله شيء ؛ لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وقياس أفعال الله على أفعال العباد خطأ ظاهر ، وإنما هذا تقريب للعقول . والمِثْلُ لفعل الرب من كل وجه لا يمكن فى حق المخلوق ، فإن الله ليس كمثله شيء .

= كيف والمشهور عن عليّ رضى الله عنه قوله إيماناً بالقدر وشجاعة .

أىُّ يومَىَّ من الموت أفـــرّ ... يوم لا قُدِّرَ أم يـــوم قُـــدِرْ

يومَ لا قُـــدِّر لا أرهبـــه ... ومن المقدور لا يغنىُ الحَذَرْ

انظر : " الضعفاء والمتروكين " للنسائى : (٢٢) ، و" الكاشف " للذهبى : (١ / ١٣٦) ، و " التقريـــب " لابـــن حجـــر : (١ / ٨١) ، و " تهذيـــب التهذيب " : (١ / ٢٢٩) ، و " سلســـلة الـــتراث الســـلفى " : مـــن قضايا علم الكلام فى ضوء الكتاب والسنة للدكتور الجليند : (٥٦) .

وقد سئل بعض الشيوخ عن أمثال هذه المسائل فأنشد :

ويقبح من سواك الفعل عندى   فتفعله فيحســـن منك ذاكا

قيل : ومما يبين هذا أن جهة خلق الله وتقديره غير جهة أمره وتشريعـــه[1] فإن أمره وتشريعه مقصوده به بيانُ ما ينفع العباد إذا فعلوه ، وما يضرهم إذا ارتكبوه ؛ بمنـــزلة أمر الطبيب ونهيه للمريض بما ينفعه ويضره . فأخبر الله تعالى عـــلى ألســـنة رسله بمصير السعداء والأشقياء ، وأمر بما يوصل إلى السعادة ، ونهى عما يوصل إلى الشقاوة . [م/١٨ب]

وخلقه وتقديره يتعلق بذلك[2] وبجملة المخلوقات . فهو تعالى [ت/٢٥أ] يفعـــل مـــا (له)[3] فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه ؛ وإنْ كان فى ضمن ذلك مضـــرة لـــبعض الـــناس . كما أنه تعالى ينزل المطر لما فيه من الحكمة والرحمة والنعمة العامة ؛ وإنْ كان فى ضمن ذلك تضرر بعض الناس بسقوط منـــزله ، وانقطاعه بسفره ، وتعطيل معاشه .

وكذلـــك إرســـالُ محمد صلى الله عليه وسلم رحمةٌ للعامين ؛ وإنْ كان فى ضمن ذلك سقوط رئاسة أقوام وشقاوتهم .

فـــإذا قدَّر سبحانه على الكافر كفره قدَّره لما (له فى ذلك من الحكمة)[4] والمصلحة العامة ، وعاقبه لاستحقاقه (ذلك)[3] بفعله الاختيارى .

---

(١) والأول وهو الإرادة الكونية ، والثاني هو الإرادة الشرعية .

(٢) يعنى بالشريعة .

(٣) ليست فى [م] .

(٤) فى [م] : (فى ذلك من الحكمة له) بتأخير ((له)) .

وبالجملـة : فعقوبـته تعـالى للعصاة عدلٌ منه باتفاق المسلمين ، وعفوه ومغفرته إحسان منه وفضل . وهذا قول من يقول : إنّ الله خالق أفعال العباد ، ومن يقول : إنهم هم الخالقون لها ، ومن يقول : إنها أفعالٌ له كسبٌ لهم(٤) .

قلـت : لكن هنا إشكالات واردة على طريقة أهل التعليل لم أر من تعرض لهـا .

الأول : أن الله تعـالى قد عذب بالطوفـان من قوم نوح المذنب ومن لا ذنب له بذنب غيره ؛ كالأطفال وبقية الحيوانات .

وقـد تقرر أن الظلم الذى هو ظلم : أن يعاقب الإنسان على فعل غيره . وهذه الحيوانات قد عُذبت كلها بعموم الطوفان بذنب قوم نوح .

ولعـل الجواب أن هذا ليس من باب التعذيب والعقوبة وإنما هو من باب الهلاك والفناء ببلوغ الآجال المقدرة على جرى العادة الإلهية من أنه لكل موتة سبب . وحينئذٍ فلم يُعَاقِبْ من لا ذنب له بذنب غيره (٣) .

---

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) الأول : قول السلف ، والثانى : قول المعتزلة ، والثالث : قول الأشاعـرة . والمؤلف رحمه الله يذكـر هـنا أقوال الطوائـف الثـلاثة محتجاً بقولهم بعدل الله تعالى فى تعذيبه أصحـاب المعاصى دافعاً فى صـدور المحتجـين على المعاصى بالقـدر .

(٣) جاء بهامش المخطوط [ت] أمام هذا الإشكال ما نصه :

" أجـاب الإمام ابن عرفة (أ) بأن هلاك الظالم بظلمه . وهلاك من لم يظلم إنما هو ابتلاء له فـيعظم ذلـك أجـره ومثوبته . فهو رحمة منه بهذا الاعتبار . قال البسيلى (ب) فى تفسيره . فاعرفه لكاتبه أحمد بن عبد الله السوسى (ج) ، غفر الله له بفضله ورحمته . " =

الـــثاني : أن جـــرم الكافر متناهي . ومقابلة الجرم المتناهي [ت/٢٥ب] بعقـــاب ما لا نهايـــة له ظلم ، وهو على الله محال . ولهذا قال قوم بفناء النار وانقطاع عذاب الكفار ؛ كما بسطت الكلام على هذا في مؤلف لطيف سميته : ((توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين))[١] .

ولعل الجواب أن يقال :

إن جرم الكافر أيضاً غير متناهي ؛ لأنه بموته على الكفر استمـــر كافراً إلى الأبـــــد ، ووصف الكفر لازم له كذلك . فلم يعاقب بعقاب غير متناهي[٢] إلا بذنب غير متناهي[٣] .

---

(١) ذكـــر المحبي والغزي وابن حميد وحاجي خليفة والسفاريني والشيخ الألباني حفظه الله هذا الكتاب منسوباً للشيخ مرعي رحمه الله .

وهـــا هـــو ذا يذكره ضمن هذه الرسالة مما يوثق نسبتها ، ويعبر عن مذهبه في فناء النار من خلال العنوان : ... خلود أهل الدارين . وانظر : مبحث فناء النار من هذه الرسالة .

(أ) هو محمد بن محمد بن عرفة . إمام تونس وعالمها وخطيبها (٧١٦ – ٨٠٣ هـــ) الأعلام للزركلي : (٧ / ٤٣) .

(ب) هـــو أحمـــد بن محمد بن أحمد البسيلي . مفسر من أهل تونس كان من تلاميذ ابن عرفة ، حضر دروسه وجمع كتاباً مما كان يمليه في التفسير مخطوط . (ت ٨٣٠ هـــ) .

" الأعلام " : (١ / ٢٢٧) .

(ج) لم أجـــد ترجمـــته وهو أحد المتملكين للمخطوط ، أو من طالعوا فيه وهو الأرجح كما تدل عبارته .

(٢) في [ت] : متـــناهٍ . وكلاهمـــا صحيح . فالتنوين عوض عن حرف محذوف مثل غواشٍ وجوارٍ .

(٣) جاء بهامش المخطوط [ت] ص (٢٦ أ) أمام هذا الإشكال ما نصه : =

الثالـــث : أنا نراه تعالى يؤلم الأطفال إلى الغاية ، وكذلك بقية الحيوانات التي لا تكليف لها أصلاً .

ولعل الجواب : أن هذا ليس من باب العقاب . لأن العقاب أن تقع تلك العقوبـــة فى مقابلـــة ذلك الذنب بخصوصه . وأما هذا فلعله من باب الابتلاء والاعتبار . فاعتبروا يا أولى الأبصار .

وممـــا يـــدل على أن هذا ليس من باب العقوبة أن الله سبحانه لا يعاقب أنبياءه ورسله الكرام مع أنا نجدهم من أشد الناس بلاءً ، ومنهم من قُتل ونُشر بالمنشار . فظهر أن جهة البلاء غير جهة العقوبة ؛ لأن العقوبة هى التى تقع فى

" قال الفخر فى تفسير قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [غافر : ٤٠] كيف رتب العذاب الأبدى على كفر من كفر ساعة واحدة ومات مع أنه لم يجز مثل كفره ؟

قال البسيلى : وهذا لم يزل يتكرر منه [أى : الرازى] فى تفسيره .

وجوابــه : إمـــا بأنه نوى بذلك الدوام على الكفر فعوقب على نيته ، وإما بأن يقال : ليس المراد المماثلة عقلاً بل المماثلة شرعاً . انتهى كلامه .

ومـــا قالـــه البســـيلى عن ابن عرفة نقله الشيخ يوسف بن عمر فى شرح الرسالة ونصه : واســـتحق الكفار الخلود فى النار بنياتهم . إذ نياتهم أن لو عاشوا فى الدنيا أبداً لما زالوا كافرين . انـــتهى كلامــــه . فاعرفه لكاتبه أحمد بن عبد الله السوسى غفر الله له ولوالديه بفضله ورحمته . آمين .

ثم رأيت فى شرح الفقه الأكبر لملا على القارى : ... "

[قلـــت : خلاصـــة مـــا ذكره المعلق " السوسى " عن ملا على القارى مذهب أبى منصور الماتـــريدى فى المسألة ؛ وهو أن الكفر مذهب يعتقد ، فالعقوبة على المعتقد إذا كانت دائمة فلا تستنكر .]

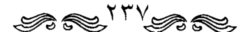
وقـــد ذكـــرتُ الخلاصة لأن المصورة لم تستوعب حوالى ست كلمات هى رءوس أسطر من ذلك التعليق .

مقابلة الذنب لما مرّ ولقوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (1) وقوله تعـالى : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ (3)

وأما ما وقع لا فى مقابلة ذنب ؛ فهو بلاء وابتلاء من الله تعالى لعباده .

لكـــن يبقـى الكلام فى نفس هذه الحكمة الكلية فى هـذه الحوادث . فهـــذه ليس على الناس معرفة أسرارها الحقيقية ، ويكفيهم التسليم لمن قد علموا أنه بكل شيء عليم وأنه أرحم الراحمين .

ومن العجب قول كثير من النـاس : إنه تعالى يؤلم الأطفـال ليكثر [ت/ ٢٦أ] بذلك ثواب والديهم . وفيه نظر (لما)(4) قال الإمـام ابن حزم : إن مـن الجـور والعبث تعذيب من لا ذنب له أصلاً ليكـثر بذلك ثواب مذنب آخر أو غـير مذنب ، وقد يكون هذا الطفـل أبواه كافـرين(5) .



(1) سورة الزمر : آية (٢٤) .
(2) سورة النمل : آية (٩٠) .
(3) سورة الحج : آية (١٠) .
(4) ليست فى [م] .
(5) انظر : " الفصل" : (٣ / ٦٨) بتصرف يسير فى النقل – على عادة المؤلف – لم يغير المعنى ونـص ابن حزم فى الفصل : " لا عبث أعظم من أن يعذب إنساناً لا ذنب له ليوعظ بذلك آخـرون مذنـبون وغير مذنبين ... وأجاب بعضهم فى ذلك بأن قال : إنما فعل ذلك عز وجل بالأطفـال ليؤجر آباءهم . وهذا كالذى قبله فى الجور سواء بسواء . أن يؤذى من لا ذنب له ليـؤجر بذلـك مذنباً أو غير مذنب حاشا لله من هذا .. لأن هذا التعليل يُنقض عليهم فى أولاد الكفار وأولاد الزنى " .

وأيضـــاً فبقـــية الحيوانات كالكلاب ونحوها ، فإيلامها بالأمراض ونحوها لماذا ؟ فلم يبق إلاّ أنا نقول : لله تعالى فى هذا سرّ من الحكمة والعدل نوقن به ، ولا نعلم ما هو ولا كيف هو . فتأمل فإنه دقيق .

ونجد أيضاً الحيوان بعضه مسلطاً على بعض بالقتل وغيره ، وبعض الحيوان يؤكـــل ولا يأكل هو حيواناً (آخر) [(١)] أصلاً . فأى ذنب كان له حتى سُلط عليه غيره فقتله ؟ ومن ذا الذى يثاب هنا ؟

قلت : وإيراد مثل هذا فى هذا المقام تلبيس موقع فى الحيرة ، لأن المطلوب مـــن أهـــل الحكمة والتعليل إنما هو تعليل تكليف المكلفين وعقوبة العاصين . وهذا تقريب معقول المعنى كما تقدم تقريره .

وأما تعليل أفعال الله كلها الجارية فى المكلفين وغيرهم فهذا مما لا سبيل إلى معرفته والوقوف على سرّ حقيقته .

وفى مـــثل هـــذا الكـــلام تخبطـــت الأفهام . فقالت طائفة : إن البهـــائم والأطفـــــال (لا)[(٢)] (تـــألم)[(٣)] ولا تحس بالألم . وهذا جحد للضرورة ، ومكابرة فى المحسوس[(٤)] .

---

(١) ليست فى [ت] .

(٢) فى [م] : لم .

(٣) فى [ت] : تتألم .

(٤) قال ابن حزم : " ... بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد ، فإنه قال : إن الأطفال لا يألمون ألبـــتة : (قال أبو محمد بن حزم) : ولا ندرى لعله يقول مثل ذلك فى الحيوان " . " الفصل " : (٣ / ٦٨) .



وقالت طائفة : إن ذلك لا يصدر إلا من فاعل الشرّ (١) .

وقالـت طائفة من غلاة الرافضة بالتزام التناسخ . وقالوا : إنما حسن ذلك لاسـتحقاقهم ذلـك بجـرائم سابقة اقترفوها في غير هذه القوالب ، فنُقلت أرواحهم إلى هذه القوالب عقوبة لهم . (٥) [ت/٢٦ب]

وموجب هذا التخليط تعلق أمل هؤلاء بمعرفة حقيقة أسرار أفعال الله تعالى في المكلفـين وغيرهـم . وهذا مما لا سبيل إلى معرفته . ويكفى معرفة الحكمة والتعليل في ثواب وعقاب المكلفين . وهو المراد .

---

(١) وهم طوائف المجوس الثنوية . انظر : " الملل والنحل " : (١ / ٢٣٣) وما بعدها .

قـال الشهرستاني : " إن المجوس زعمت أن إبليس لم يزل في الظلمة والجو خلاء بمعزل عن سـلطان الله ، ثم لم يزل يزحف ويقرب بحيله حتى رأى النور فوثب وثبة فصار في سلطان الله ، وأدخـل معـه هذه الآفات والشرور ... يرمي بالآفات والفتن والمحن إلى خلق الله تعالى . فمن أحياه الله رماه بالموت ، ومن أصحه رماه بالسقم ، ومن سره رماه بالحزن ، فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة " . السابق : (٢٣٦) تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

(٥) قال الأشعرى في مقالات الإسلاميين : ((والفرقة الثانية منهم وهم أهل الغلو – يعنى غلاة الرافضة – ينكرون القيامة والآخرة . ويقولون : ليس قيامة ولا آخرة ، وإنما هى أرواح تتناسخ في الصـور . فمن كان محسناً جوزى بأن ينقل روحه إلى جسد لا يلحقه فيه ضرر ولا ألم . ومن كان مسيئاً جوزى بأن ينقل روحه إلى أجساد يلحق الروح فيها الضرر والألم . وليس شيء غير ذلك . وأن الدنيا لا تزال أبداً هكذا .))

وقال الشهرستانى : " وبدع الغـلاة – غلاة الرافضـة – محصورة في أربـع : التشبيه ، والبداء ، والرجعة ، والتناسخ . "

انظـر : " مقالات الإسلاميين " : (١ / ١١٩) ، و " الملل والنحل " : (١ / ١٧٣) ، (٢ / ٥٥ ، ٥٦) .

وإلاّ فمن المحال معرفة أسرار أفعاله كلها لأن الرب تعالى لا يمثل بالخلق ؛ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله بل له المثل (الأعلى)(1) .

فمـــا ثبت لغيره من الكمال فهو أحق به ، وما تنـــزه عنه من النقص فهو (تعـــالى) (2) أحـــق بتـــنـــزيهه عـــنه سبحانه (وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً) (3) .

ولـــيس كـــل ما كان ظلماً من العبد يكون ظلماً من الرب ، ولا ما كان قبيحاً من العبد يكون قبيحاً من الرب ، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء ؛ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

لكن القدرية شبهت فى الأفعال ، فقاسوا أفعال الله على أفعال خلقه . وهو من أفسد القياس .

ولهـــذا قـــال جمهـــور المعتزلة : وجدنا فى الشاهد أن من فعل الجور كان ظالمـــاً جائـــراً ، ومـــن أعان فاعله على فعله ثم عاقبه عليه كان جائراً عابثاً ، والعـــدل مـــن صـــفات الله (تعالى) (4) ، والظلم منفى عنه (سبحانه) (5) .باتفاق المسلمين (6) .

---

(1) رسمت فى [م] بالألف هكذا (الأعلا) .

(2) ليست فى [ت] .

(3) ليست فى [ت] .

(4) ليست فى [ت] .

(5) فى [ت] : ((تعالى)) . والمثبت من [م] .

(6) انظـــر : " شرح الأصول الخمسة " : ص (٣٤٥) . فأنت تراه يقيس فعل الله تعالى عن الشاهد يعني المخلوق ، وهذا باب ضلال عظيم فقد وقعوا فى التشبيه وإن رفعوا راية التنزيه .

قـال ابـن حزم : " وليس الأمر كما ظنته عقولهم الحاكمة على الله تعالى فى أنـه لا يحسـن مـنه تعالى إلاّ ما حسنته عقولهم ، وأنه يقبح منه ما قبحته عقولهم " [1] .

قـال : " والحـق أن كل ما فعله الله سُبحانه فهو حق وعدل ؛ أىَّ شيءٍ كان . وإن كان منا جوراً وسفهاً . " [2] .

وقالـت طائفـة : إن مـن خلـق خلقاً ثم سلط بعضهم على بعض فهو (جائر ظالم)[3] عابث . فقالوا : إن خالق الخير غير خالق الشرّ [4] .

وقالـت الـبراهمـة [5] : إن مـن العبـث والجـور [م/٢٠أ] وخـلاف الحكمـة أن يعرض الله عباده [ت/٢٧أ] لما يعلم أنهم يعصونه فيه ويستحقون العذاب عليه . يريدون بذلك إبطال الرسالة والنبوات [6] .

---

(١) انظر : الفصل : (٣ / ٥٦) .

(٢) السابق : (٣ / ٦٠) .

(٣) فى [ت] : ظالم جائر .

(٤) انظر : " الفصل " : (٣ / ٥٧) .

(٥) البراهمة : ذكرهم الشهرستانى فى الملل والنحل ضمن آراء الهند ، ثم قال فى سبب تسميتهم " من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام . وذلك خطأ .

فـإن هـؤلاء هـم المخصوصون بنفى النبوات أصلاً ورأساً ؛ فكيف يقولون بإبراهيم عليه السـلام ؟ ... وهـؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له ((براهم)) ، وقد مهد لهم نفى النبوات أصلاً . " .

انظر : " الملل والنحل " : (٢ / ٢٥٠ ، ٢٥١) ، و " الفصل " : (١ / ٦٣) .

(٦) انظر : " الفصل " : (١ / ٦٣) .

وموجـــب هذا كله قياس أفعال الله على أفعال خلقه . تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً .

ولـــيس على العباد أن يعلموا تفصيل حكمة الله فى كل شيء ؛ بل يكفيهم العلم العام والإيمان التام . والله أعلم .

* * *

وأما الجــواب عن الخــامس

وهو أنه ربما لزم عليه إفحام الأنبياء وانقطاع حجتهم ... إلخ [1] .[2]

فنقول : الجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن هـــذا إنمـــا يكون إفحاماً وانقطاعاً لو كان الاحتجاج بالقدر ســـائغاً . فأمـــا إذا كـــان الاحتجاج به باطلاً بطلاناً ضروريّاً متقرراً فى الفطر والعقول كما تقدم لم يكن هذا الاعتراض متوجهاً .

وأيضـــاً فمـــن المســـتقر فى فطر الناس وعقولهم أنه من طُلب منه فعل من الأفعال الاختيارية لم يكن له أن يحتج بمثل هذا . ومن طلب دينـــاً له على آخر ؛ لم يكن له أن يقـــول : لا أعطيك حتى يخلق الله فىّ الإعطاء . ومن أمر عبده لم يكن له أن يقول : لا أفعله حتى يخلق الله فىّ فعله أو القدرة على ذلك .

وهذا أمر جُبل عليه الناس ؛ مسلمهم وكافرهم ، مقرهم بالقدر ومنكرهم ولا يخطر ببال أحد منهم الاعتراض بمثل هذا .

فـــإذا كان هذا الاعتراض معروف الفساد فى بدائه العقول لم يكن لأحد أنْ يحتج به على الرسول .

---

(١) فى [ت] : إلى آخره .

(٢) وتـــتمة هـــذا الإشكال : لأن النبى إذا قال للكافر آمن بي وصدقنى . يقول له : قل للذى بعثك يخلق فىّ الإيمان والقدرة عليه فأومن .

وإلاّ ؛ فكـــيف أومـــن ولا قـــدرة لي علـــيه ؟ لأنه خلق فىّ الكفر ، وأنا لا أقدر على دفع ما خلقه .

الـثاني : أن الرسـول يقول لـه : أنا نذير لك . إن فعلت ما أمرتك به نجوت وسعدت . وإن لم تفعل عوقبت . كما قال صلى الله عليه وسلم لما صعد الصـفا ونادى قومه فأجابوه [ت/٢٧ب] فقال : ((أرأيتم لو أخبرتكم أن عدوّاً مصبحكم . أكنتم مصدقِيَّ ؟))

قـالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : ((فإني نذير لكم بين يدى عذابٍ شديد))[1] .

ومـن المعلـوم أن من أُنذر بعدوٍّ لم يَقُلْ لنذيره : قل لله يخلق فىّ قدرة على الفرار حتى أفر . بل يجتهد فى الفرار ، والله تعالى هو الذى يعينه على الفرار .

فهـذا الكـلام لا يقوله إلاّ مكذب للرسول النذير . إذ ليس فى الفطر مع تصديق النذير الاعتلال بمثل هذا .

وإذا كـان هذا تكذيباً حاق به ما حاق بالمكذبين ؛ فإنه لا يقال لأحد من [م/٢٠ب] الـناس : هذا العدوّ قد قصدك ، (أو)[2] هذا السبع ، أو هذا السـيل المنحدر . ويقول : لا أهرب حتى يخلق الله فىّ الهرب . بل يحرص على الهرب ، ويسأل الله الإعانة .

---

(١) الحديـث أخرجه أحمد فى " مسنده " (١ / ٣٠٧) حديث رقم (٢٨٠٢) عن عبد الله ابـن عـباس ، والـبخارى فى " كـتاب التفسير " حديث رقم (٤٧٧٠) عن ابن عباس ، و (٤٧٧١) عن أبى هريرة ، ومسلم فى " كتاب الإيمان " : (١ / ٤٨٥) رقم (٣٢٠) من الكتاب ، والترمذى فى " التفسير " رقم (٣٣٧٤) وقال : حسن صحيح .

(٢) فى [م] : ((و)) .

وكذلــك المحتاج للطعام والشراب واللباس ، فإنه لا يقول : لا آكل ولا أشرب ولا ألبس حتى يخلق الله فيّ ذلك [1] .

الثالث : أن يقال : مثل هذا الكلام إما أن يقوله من يريد الطاعة ويعلم أنها تــنفعه ، أو من لا يريدها ولا يعلم أنها تنفعه . وكلاهما يمتنع منه أن يقول مثل هـــذا الكـــلام . فإن من أراد الطاعة وعلم أنها تنفعه أطاع قطعاً ؛ إذا لم يكن عاجزاً . فإن نفس الإرادة للطاعة مع القدرة توجب الطاعة .

فإنـــه مع وجود القدرة والداعي التام يجب وجود المقدور كما تقدم . فمن أراد النطق بالشهادتين مثلاً إرادة جازمة نطق بهما قطعاً لوجود القدرة والداعي التام . ومن لم ينطق عُلم أنه لم يُرد .

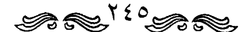
ومن لم يُرد الطاعة فيمتنع أن يطلب من الرسول أن يخلقها (الله)[2] فيه . [ت/٢٨أ] فإنه إذا طلب من الرســول أن يخلقهــا الله فيه كان مريداً لها . ولا يتصــــور أن يقــول مثل ذلك إلاّ مريــد ، ولا يكون مريداً للطاعــة إلاّ ويفعلها .

الــرابع : أن يقال لــه : أنت متمكن من الإيمــان ، قــادر عليه . فلو أردتـــه فعلته . وإنما لم تؤمن لعدم إرادتك له ، لا لعجزك عنه وعدم قدرتك عليـــه .

(فإن قال : قل لله يجعلني مريداً للإيمان . قيل له : إنْ كنت تطلـــب منه

(١) بـــل المصدق يبذل جهده في النجاة مما حُذّر منه ، فإن لم يسع في ذلك كان مكذباً يشهد له حاله . وسيحيق به ما حاق بمثله من المكذبين .

(٢) ليست في [ت] .



ذلك حقيقة)[1] فأنت مريد للإيمان . وإن لم تطلب ذلك حقيقة ؛ فأنت كاذب فى قولك .

فـإن قال : كيف يأمرنى بما لم يجعلنى مريداً له ؟ لم يكن هذا طلباً للإرادة ؛ بل مجرد عناد ومكابرة ومخاصمة .

ومـثل هـذا ليـس على الرسـول جوابـه ، ولا فى تـرك جـوابه انقطـاع لأنـه (عنـيد مكابر)[2] فى المحسوس . وجوابه حينئذٍ ليس إلاّ السـيف والجهـاد فـيه . ولذلك شرع الله الجهاد لقمع أهل العناد ، وردع المكابر من العباد .

* * *

(١) ما بين القوسين ليس فى [م] .

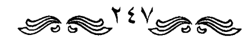
(٢) فى [م] : (حينـئذٍ مكابرة) ، ولها وجه على اعتبار الضمير فى (لأنه) ضمير الشأن . أمـا عـلى ما اخترت إثباته وهو الموجود بالنسخة (ت) فالضمير عائد على المجادل فى القدر . وهو الأقرب .

خاتمة

اعلم أن فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (١) دقة وخفاءً . فإن ظاهر تفسيره واضح جلىّ ، وحقيقة معناه غامض خفى . فإنه إثبات للرمى ونفى له ؛ وهما متضادان فى الظاهر ما لم يُفهم أنه رَمَى من وجه ولم يرمِ من وجه ، ومن الوجه الذى لم يرمِ رَمَى الله تعالى . [م/٢٠١أ]

وبعضهم يقول وما رميت حقيقة إذ رميت مجازاً ، ولكن الله رمى حقيقة (٢) .

وقد احتج بعض المثبتة للقدر بهذه الآية على أن الله تعالى خالق أفعال العباد (٣) .



وبعضهم توهم [ت/٢٨ب] أنه تعالى هو الموصوف بذلك حقيقة لظاهر هذه الآية ظنًا منه أنه تعالى لما خلق الرامى والرمى كان سبحانه هو الرامى فى الحقيقة . وهذا غلط بلا ريب ، فإنهم متفقون على أن العاصى هو المتصف بالمعصية ، والمذموم عليها ، فإن الأفعال يوصف بها من قامت به ، لا من خلقها فإن الله تعالى لا تقوم به أفعال العباد ، ولا يتصف بها ، ولا يعود إليه أحكامها التى تعود إلى موصوفاتها .

---

(١) سورة الأنفال : آية رقم (١٧) .

(٢) انظر :" مفاتيح الغيب " : (١٥ / ١٤٤) ، و " الجامع لأحكام القرآن " : (٧ / ٣٨٥) .

(٣) قال الرازى : احتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

وقال القرطبى : نزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده ، وهذه الآية ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم .

" مفاتيح الغيب " : (١٥ / ١٤٤) ، و " الجامع لأحكام القرآن " : (٧ / ٣٨٤) .

وإذا كان ما لا يتعلق بالإرادة والاختيار كالطعوم والألوان توصف بها محالها لا خالقها في محالها . فكيف الأفعال الاختيارية ؟ !

ولهــذا قــال بعض المحققين : إن أفعال العباد مخلوقة لله ؛ وهى فعل العبد . وإذا قيل : هى فعل الله . فالمراد أنها مفعوله ؛ لا أنها هى الفعل الذى هو مسمى المصدر ، فإن الجمهور يقولون إن الله خالق أفعال العباد كلها .

والخلق عندهم ليس هو المخلوق فيفرقون بين كون أن أفعال العباد مخلوقة مفعولــة للرب وبين (نفس)[1] فعله الذى هو المصدر . فإنها فعل للعبد بمعنى المصــدر ؛ وليســت فعلاً للرب بهذا الاعتبار ؛ بل هى مفعولة له ، والرب لا يتصف بمفعولاته .

وهنا يلتبسُ الحال على من لا يفرق بين فعل الرب ومفعوله كما يقول ذلك الجهم وموافقوه

وقد تقرر الفرق بين ما خلقه صفة لغيره وبين ما اتصف هو به (بنفسه)[2] والفرق بين إضافة المخلوق إلى خالقه وإضافة الصفة إلى الموصوف بها .

قــال ابن تيمية : " وهذا الفرق معلوم باتفاق العقلاء ؛ فإنه تعالى إذا خلق لغــيره [ت/٢٩أ] حــركة لم يكن هو المتحرك بها ، وإذا خلق للرعد ونحوه صــوتاً لم يكــن هــو المتصف بذلك الصوت ، وإذا خلق الألوان فى النبات والحيوان والجماد لم يكن سبحانه هو المتصف بتلك الألوان ، وإذا خلق فى غيره عــلماً وقدرة وحياة ، أو كذباً أو كفراً لم يكن هو المتصف بذلك ، كما إذا

---

(١) ليست فى [ت] .

(٢) فى [ت] : فى نفسه .

خلـق فـيه طوافاً وسعياً ورمى جمار وصياماً وركوعاً وسجـوداً لم يكن هو الطائف والساعى والراكع والساجد [م/٢١ب] والرامى بتلك الجمار " [(١)] .

قال : " وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [(٢)]

معناه : ما أصبت إذ حذفت ولكن الله هو الذى أصاب ، فالمضاف إليه[(٣)] الحذف باليد ، والمضاف إلى الله الإيصال إلى العدوّ ، وإصابتهم به .

قـال : وليس المراد بذلك ما يظنه بعض الناس أنه لما خلق الرامى والرمى كـان هـو الـرامى فى الحقيقـة . فإن ذلك لو كان صحيحاً لكونه خالقـاً لرمـيه لاطـرد ذلك فى سائـر الأفعـال ؛ ويقال : وما مشيت ولكن الله مشى ، وما لطمت ولكن الله لطـم ، وما ضربت بالسيف ولكن الله ضرب ، ومـا ركبـت الفرس ولكن الله ركب ، وما صمت وما صليت وما حججت ولكن الله صام وصلى وحج .

قال : ومن المعلوم بالضرورة بطلان هذا كله .

قال : وهذا من غلـوّ المثبتـين للقـدر ، ولـهذا يُـروى عن عثمـان ابن عفـان (رضى الله عنه)[(٤)] أنهم كانوا يرمونه بالحجارة لما حُصر ، فقال

(١) انظر : " منهاج السنة " : (٢ / ٤٣ ، ٤٤) .
(٢) سورة الأنفال : آية (١٧) .
(٣) يعنى إلى الرسول ﷺ .
(٤) ليست فى [ت] . والمثبت من [م] ، وهو الموافق لما فى " منهاج السنة " .

لهـم : لماذا ترمـونى ؟ فقالوا : ما رميناك ولكن الله رماك . فقال : لو أن الله رمانى لأصابنى ، ولكن أنتم [ت/٢٩ب] ترموننى وتخطئونى [١] .

قـال : وهـذا مما احتج به القدرية النفاة على أن الصحـابة لم يكونـوا يقولـون : إن الله خالق أفعال العباد . كما احتج بعض المثبتة بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ . وكلاهمـا خطأ " [٢]. انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله (تعالى)[٣] .

قلـت : والظاهر أن الضابط فيما يضاف إليه تعالى وينسب له هو ما انفرد سـبحانه بإيجاده من غير فعل للعبد فيه ولو صورة ، وهو المسبَّب دون السبب المتصف به العبد .

فـيقال مـثلاً : وما قتلت ولكن الله قتل ؛ لأن القتل هو زهوق الروح ، وهو مسبَّب عن القتل ، ناشيء عنه ، حاصل بفعل الله خاصة ، وكذا ما داواك الطبيـب ، أو ما شفاك ولكن الله شفاك ، وما شربت ولكن الله أرواك ، وما أكلـت ولكن الله أشبعك ، وما ضربت ولكن الله آلم ؛ على معنى ما ضربت ضرباً مؤلماً ولكن الله آلم ، وما سودت لون الثوب ولكن الله سوده . لأن كل واحـد من هذه الأمور سبب ، والله خالق المسبَّب بدون مشاركة صورية كما فى قولـه تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فإن الإصابة مسبَّبة عن الرمى الذى هو السبب [٤] .

---

(١) لم أجد هذا الأثر فيما اطلعت فيه من مراجع بعد الجهد .

(٢) انظر : " منهاج السنة " : (٢ / ٤٤) بتصرف يسير لا يضر بالمعنى .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) جملة هذه الأمثلة التى ساقها المؤلف رحمه الله ليست من جنس معنى هذه الآية كما ذهب =

ولا ينازع أحد فى أن [م/٢٢أ] الأمر بالأسباب الموجبة كالقتل والتداوى ليس أمراً بمسبابتها الذى هو الزهوق والشفاء .

= إلـيه المؤلف ؛ بل هى من قبيل قول الأشاعرة بنفي تأثير السبب فى المسبَّبِ ، وأن الله خلق الأشياء عند أسبابها لا بها .

فإن أهل السنة فى تفسير هذه الآية على أنها من قبيل المعجزة بإيصال ما لا يمكن إيصاله عادة – وهو فى هذه الآية إيصال الحصى إلى جميع وجوه المشركين من رمية بكف – إذ هذا لا يكون عادة . فلما حدث كان معجزة من الله يؤيد بها عبده ورسوله وسبباً فى نصر المؤمنين .

ففـي قوله : " وما قتلت ولكن الله قتل " مغالطة . ولو قال : وما أمتَّ إذ قتلت ولكن الله أمـات . كـان أوفق وهذا الغلط ناشيء عن فساد تعريفه للقتل حيث يقول : " إن القتل هو زهوق الروح " .

قـال فى " اللسـان " : " قتله : إذا أماته بضرب أو حجر أو سم أو علة " . وليس الموت كذلك . فكل قتل موت وليس كل موت قتلاً . فالإماتة لا تكون إلاّ من الله تعالى والقتل يكون من فعل الله تعالى ويكون من فعل العبد .

قـال تعالى عن نفسه : ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾ وقال : ﴿ **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** ﴾ وقال : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** . ﴾

وقال تعالى فى القتل : ﴿ ... **وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ** ﴾ وقال : ﴿ **وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ** ﴾ وقال : ﴿ **وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ** ﴾ .

وقولـه المؤلف : " وما داواك الطبيب ... " لو اقتصر على " وما شفاك الطبيب ... " كان الصـواب ؛ إذ الشفاء هو النتيجة المترتبة على المداواة . وقد تكون أوْ لا . والمداواة من العبد والشـفاء مـن الله . وقد بين النبي ﷺ الفرق بين التداوي والشفاء فنسب الشفاء إلى الله تعالى وحده فى قوله : " .... اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً " فى حين نسب التداوي إلى الناس فى قوله : " ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواء فتداووا عباد الله .. "

وقل مثل ذلك فى سائر الأمثلة التى ضربها المؤلف عفا الله عنه .

وأمـــا من حيث الخلق فيضاف إليه سبحانه كل مخلوق ، لأن من المعلوم أن كـــل مخلوق يقال : هو من الله . بمعنى أنه خلقه بائناً عنه ، لا بمعنى أنه قام به واتصف به [1] .

---

(١) جاء بهامش المخطوط [ت] ق / ٣٠ أ أمام هذه الفقرة تعليق هذا نصه :

" قـــال الشــيخ نجم الدين داية (أ) تلميذ الشيخ ولى الله نجم الدين كُبْرَىا (ب) فى تفسيره المسمى ((بحر العلوم)) عند كلامه على آية : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٩] بعد كلام ما نصه :

ثم اعـــلم أن للأعمال أربع مراتب . منها مرتبتان لله تعالى ، وليس للعبد فيهما مدخل ؛ وهما الـــتقدير والخلـــق . فإن الله قدر الأشياء قبل خلقها ثم خلقها كما قال عليه السلام : ((إن الله تعالى فرغ من الخلق والرزق والأجل))(ج) يعنى قدر هذه الأشياء وفرغ من تقديرها ؛ لأنه يخلق كل يوم وساعة ولحظة خلقاً آخر . كيف فرغ من الخلق ؟ فافهم جدّاً .

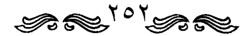
ومـــنها مرتبـــتان للعبد ، وليس لله فيهما مدخل ؛ وهما الكسب والفعل . فإن الله منزه عن الكسب وفعل السيئة فإنهما متعلقان بالعبد ، ولكن العبد وكسبه وفعله مخلوق ؛ خلقه الله تعالى كما قال : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] . فهذا هو توفيق قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله ﴾ [النساء : ٧٨] خلقاً وتقديراً لا كسباً وفعلاً . فافهم واعتقد ، فإنه مذهب أهل الحق وأرباب الحقيقة . انتهى كلامه رحمه الله هنا)) .

(أ) أبـــو بكـــر بـــن عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدى الرازى المعروف بداية كان من خيار الصوفية . أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين المعروف بالكُبْرَىا له كتاب " التأويلات النجمية " فى التفسير ، ومات قبل أن يتمه فأكمله من بعده علاء الدين السمنانى (ت ٦٥٤ هـــ) .

انظر : " التفسير والمفسرون " للدكتور / محمد حسين الذهبى : (٢ / ٣٧٦) .

(ب) أحمـــد بـــن عمـــر بن محمد الخوارزمى سمع من أبى طاهر السِّلفى وطبقته . قيل : إنه فسر القرآن فى اثنى عشر مجلداً . قُتل فى عشر الثمانين مجاهداً ضد التتار سنة ٦١٨ هـــ

انظر : " سير أعلام النبلاء " : (٢٢ / ١١١) .



هــذا ؛ وقــد توهم كثير من زنادقة المتصوفة من نحو قوله تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ** [ت/ ٣٠أ] **إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** ﴾ وقوــله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ (١) أن العــبد هو عــين الرب . تعالى الله عن ذلك .

قال العلامة المفتى ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير سلطان الأندلس (٢) فى كلامه على رأى أهل الوحدة المطلقة : وارتكبت هذه الطائفة مرتكباً غريباً من القول بالوحدة المطلقة ، وهاموا به (وموهوا) (٣) ورمــزوا

(ج) صــحيح الحديث بهذا اللفظ أخرجه العلامة علاء الدين الهندى فى " كنز العمال " : (١ / ١٠٨ ، ١١٧) حديث رقم (٤٩٤) ، (٥٥١) وقال : " رواه ابن عساكر عن أنس " .

وروى أحمــد فى المسند بزيادة يسيرة عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " فرغ الله إلى كل عبد من خمس : من أجله ورزقه وأثره وشقى أم سعيد " . المسند : (٥ / ١٩٧) .

وقــد صحح الإمام الألباني رحمه الله حديث أنس الذى رواه ابن عساكر . انظر : " صحيح الجــامع " رقم (٤٢٠١) وذكر لهما شواهد عن ابن مسعود عند الطبراني فى " الأوسط " ، وأبي داود عند أحمد ، والطبراني فى " الكبير " . انظر " صحيح الجامع " (٤٢٠٠) ، (٤٢٠٢) .

(١) سورة الفتح : آية رقم (١٠) .

(٢) محمــد بن عبد الله بن سعيد السلمانى اللوشىّ الأصل . الغرناطى الأندلسى أبو عبد الله ، الشــهير بلســان الدين ابن الخطيب . وزير مؤرخ نبيل . ولد ونشأ بغرناطة . كان يلقب بذى الوزارتــين : القلم والسيف . مؤلفاته تقع فى نحو ستين كتاباً ؛ منها الإحاطة فى تاريخ غرناطة . (٧١٣ – ٧٧٦ هــ) . انظر : " هدية العارفين " للبغدادى : (٦ / ١٦٧) ، و " الأعلام " للزركلى : (٦ / ٢٣٥) .

(٣) ليست فى [ت] .

واحتقروا الناس من أجله .

قـــال : وتقـــرير مذهبهـــم علـــى سبيـــل الإحـــاطة لا فائـــدة فيـــه .

وحاصلـــه : أن البارى سبحانه هو مجموع ما ظهر وما بطن ، وأنه لا شيء خلاف ذلك .

وأطال الكلام هو وغيره من العلماء على ذلك كما بسطت الكلام عليه فى غير هذا الموضع ، وسمعت بأذنى هذا من بعض مشايخهم .

والحاصـــل : أن هذا القـــول لم يقله أحد من المتقدمـــين ، وإنما حدث بين المتصـــوفة المتأخرين [١] . وهو شر من مقالة الفلاسفـــة ؛ فإنهم أثبتـــوا وجود واجـــب الوجـــود [٢] ، ولم ينازع فيه لا معطل ولا مشرك ؛ إلاّ أن بعض الناس قالوا : إن هذا العالم حدث بنفسه .

ولـــيس هـــذا بقول معروف لطائفة يذبون عنه ؛ فإن حدوث الحوادث بلا محـــدث بطلانـــه مـــن أبين العلوم الضرورية . غايته أن الفلاسفة تقول : إن الفلك [٣] متحرك حركة اختيارية ؛ بسببها تحدث الحوادث من غير أن يكون قد حدث من جهة الله ما يوجب حركته .

---

(١) المـــراد بمتقدمى الصوفية : الزهاد الأوائل الذين لم يخلطوا زهدهم وعقائدهم بمشارب غير إسلامية كالجنيد و بشر وسهل أما المتأخرون المعنيون هنا أمثال : ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين والعفيف التلمسانى . انظر : " الزهاد الأوائل " لأستاذنا الدكتور / مصطفى حلمى : ص (١٨٠) . وجزئي " التصوف والسلوك " من " مجموع الفتاوى " لشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٢) المراد بواجب الوجود : الله عز وجل ، وهو اصطلاح فلسفي .

(٣) قال صاحب " التعريفات " : الفلك جسم كرّىّ يحيط به سطحان ؛ ظاهرى وباطنى ، وهما متوازيان مركزهما واحد . =

فـإن حـركة الفلك – عندهم – بالاختيار كحركة الإنسان . فلم يثبتوا لحـركة الفلك [ت/٣٠ب] محدثاً أحدثها غير الفلك ، كما لم تثبت القدرية لأفعال الحيوان (١) محدثاً أحدثها غير الحيوان .

ولهـذا كان الفـلك – عندهم(٢) – حيواناً كبيراً يتحرك للتشبه(٣) بالعلة الأولى (٤) كحـركة المعشوق للعاشق . [م/٢٢ب] فذلك المعشوق المحبوب هو المحرك لكون المتحرك أحبه ؛ لا لكونه أبدع الحركة ولا فعلها .

ولهذا قالوا : إن الفلسفة هي (التشبه)(٣) بالإله حسب الطاقة (٥) .

وفى الحقـيقة ليس عندهم الباري إلـهاً للعالم ، ولا ربّاً للعالمين ، بل غاية مـا يثبـتونه أن يكون شرطاً فى وجود العالم ، وأن كمال المخلوق أن يكون متشبهاً به .

= انظر : " التعريفات " : ص (١٤٧) ، و " دستور العلماء " : (٣ / ٤٤) .

(١) قـال فى " اللسان " : كل ذي روح حيوان . وتعريفه عند الفلاسفة : النامى الحساس . وهـو جـنس ينوعون منه فيقولون للإنسان : ناطق أو ضاحك أو مفكر ، وللفرس : صاهل ؛ وهكذا .

(٢) أقـرب مذكـور للضمير هنا هم القدرية مما يوهم عودة الضمير عليهم ، والسياق يوضح خلاف ذلك ؛ إنما الضمير عائد على الفلاسفة .

(٣) فى النسختين : ((للتشبيه)) لكن الفعل تشبَّه فيكون المصدر منه تشبُّهاً لا تشبيهاً .

(٤) المراد بالعلة الأولى عند الفلاسفة : الله عز وجل .

(٥) انظـر : " الـتعريفات " : (١٤٧) ، وأضـواء على الفلسفة العامة لأستاذنا الدكتور / عـبد اللطـيف محمـد العبد : ص (١١) ، و " قضية التوحيد بين الدين والفلسفة " لأستاذنا الدكتور / محمد السيد الجليند : ص (٨٢) .

هذا ؛ ومقالة من يقول : إن الرب (سبحانه)[١] عين العبد[٢] هى شرّ من مقالة هؤلاء الفلاسفة .

وقـد دخل كثير من أهل الإسلام فى طرق مبتدعة يطول ذكرها وأخرجوا من التوحيد ما هو منه كتوحيد الإلهية [٣]، وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته[٤]، ولم يعـرف كـثير مـنهم مـن التوحـيد إلاّ توحيد الربوبية ؛ وهو أن الله (تعالى) [٥] رب كل شيء وخالقه [٦] .

---

(١) ليست فى [ت] .

(٢) وهـم القائلون بوحدة الوجود تلك المقالة التى أنضجها وأظهرها وصاغها فى قوالب الشعر والنثر المعقد ابن عربى فى فتوحاته وغيرها .

قال فى الفصوص له :

وأنـت رب وأنـت عـبد ••• لمن له فى الخطـاب عهـد

وقال : فلم يبق إلاّ الحق ، لم يبق كائن ••• فما ثم موصول وما ثم بائـنُ

بذا جاء برهان العيـان فما أرى ••• بعينى إلاّ عينـه إذ أعـايـن

انظر : " فصوص الحكم " شرح القاشانى : ص (١١٨ ، ١١٩) .

(٣) توحـيد الإلهية : هو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له . انظر : "شرح الطحاويـة ": ص (٧٨) ، و"قضـية التوحيد بين الدين والفلسفة ": ص (٧١) . وكتاب " التوحيد " للإمام محمد بن عبد الوهاب ، الباب الأول منه .

(٤) وهـو توحـيد الأسماء والصفات فما يقال فى الذات يقال فى الصفات : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشـورى : ١١] . فكما أنه تعالى لا شبيه له فى ذاته فكذا لا شبيه له فى صفاته . انظر : " شرح الطحاوية " : ص (٧٩) ، و " قضية التوحيد بين الدين والفلسفة " : ص (٤٣) ، و " العقيدة الواسطية " لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

(٥) ليست فى [ت] .

(٦) انظر : " شرح الطحاوية " : ص (٧٩) . و " قضية التوحيد " : ص (٧٣) .

وهـذا التوحـيد كـان يقـر بـه المشـركون الذيـن قال الله عنهم : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١) ، وقال عنهم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

قالت طائفـة من السلـف (رضى الله عنهم)(٣) : يقول لهم : من خلق السموات والأرض ؛ فيقولون : الله . وهم مع هذا يعبدون غيره (٤) .

وإنمـا التوحـيد الذى أمر الله به (عباده)(٥) هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية ، بأن يعتقد إثبات الله وصفاته ، ويعبده ولا يشرك به شيئاً .

والعبادة تجمع غاية الحب وغاية الذل لـه سبحانه . رزقنا الله ذلك وثبتنا عليه . آمين .

قـال مؤلفه رحمه الله تعالى ونفعنا به - آمين - : تمّ بخط مؤلفه بعد العشاء الآخـرة فى لـيلة نصف رجب من شهور سنة ١٠٣٢ اثنتين وثلاثين وألف ، والحمد لله على التمام وحسن الختام هو المرام (٦) .

---

(١) سورة لقمان : آية (٢٥) .

(٢) سورة يوسف : آية (١٠٦) .

(٣) ليست فى [ت] .

(٤) انظر : " تفسير ابن كثير " : (٢ / ٢٩٤) . وقد عزا هذا القول إلى ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

(٥) فى [ت] : العباد .

(٦) التذيـيل الذى أثبته من [م] ، وفى [ت] : تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه قبيل ظهر آخـر يـوم من شعبان من شهور سنة ١٠٣٢ هـ اثنتين وثلاثين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وفى الهامش : مرّ عليه مؤلفه مرور تصحيح بالجامع الأزهر آخر شعبان سنة ١٠٣٢ هـ .



دراسة نصوص الكرمي
في مسائل العقيدة

الفصـل الأول : منهجـه الكـلامي

وفيه أربعـة مباحث :

المبحث الأول : موقفه من الفلاسفة والمتكلمين .

أ- موقفه من الفلاسفـة .

ب- موقفه من المتكلمـين .

المبحث الثاني : موقفه من التصوف والصوفية .

المبحث الثالث : موقفه من التأويـل .

المبحث الرابع : موقفه من السلـف .

موقفه من الفلاسفة والفرق الكلامية

أ- موقفه من الفلاسفة :

الفلسفـــة كلمة منحوتة من كلمتين يونانيتين هما ((فيلا)) ، ((سوفا)) بمعنى محبة الحكمة ، فالفيلسوف هو محب الحكمة ، والفلاسفة هم الحكماء .[1]

والحكمة بمعنى الفلسفة يقسمونها إلى نوعين : " عمليّ وعلميّ .

ثم مـــنهم مـــن قدم العمـــلى على العلـــمى ، ومنهم من أخَّرَ ... فالقسم العمـــلى هو عمل الخـــير ، و القسم العلمى هو علم الحقّ .. وهذان القسمان مما يوصل إليه بالعقل الكامل والرأى الراجح . "[2]

وقد نقد الكرمى الفلسفة فى قسميها المشار إليهما آنفاً مع إقراره للفلاسفة بالذكـــاء والفطـــنة إلاّ أنهم ساروا فى متاهات بغير دليل من نور النبوة فكان ذكاؤهم كالبصر فى ظلام دامس ، سواء وجوده وعدمه من حيث الانتفاع به. وصدق عليهم قول القائل :

إذا لم يكن عون من الله للفـــتى ... فأول ما يجـــنى عليه اجتهـــاده

فالناس يتطلعون إليهم فى حين أنهم يشقون بعقولهم ويتحسرون على حيرتهم كما قال المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقـــاوة ينعم

(١)انظـــر : " الملـــل والـــنحل " : (٢ / ٥٨) ، و " أضواء على الفلسفة العامة " لأستاذنا الدكتور / عبد اللطيف العبد : (١١) .

(٢)انظر : " الملل والنحل " : (٢ / ٥٩) ، و " أضواء على الفلسفة " : (١٢) .

والكرمى يصور ذلك بقوله :

" الفلاســفة هــم أرباب النهاية فى العقول . لكن العقول إذا لم تستند إلى الشــــرع المنقول وقعت فى الحيرة والضلالات ، وطرأت عليها الخيــالات والاستبعادات لما جاءت به الرسل . " (١)

ثم يوضــح الكرمى أنهم يشهدون على أنفسهم بهذه الحيرة ، ويقرون بأن عقولهــم لا تســعفهم باليقين فى الإلهيات ، ويستأنس لرأيه ذلك بقول للطوفى أورده الكــرمى فى كتابه ((أقاويل الثقات)) .

قــال : " وقد اعترف أكثر أئمة الكــلام والفلسفة الأولين والآخرين أن الطــرائــق التى سلكوها فى أمور الربوبية بالأقيسة التى ضربوها لا تفضى بهم إلى العــلم واليقين فى الأمور الإلهية مثل تكلمهم بالجسم والعرض فى دلائلهم ومســائلهم ومقالــة أساطين الفلسفة من الأوائل أنهم قالوا : العلم الإلهى لا سبيل فيه إلى اليقين ، وإنما يُتكلم فيه بالأولى والأحرى ..

ولهــذا اتفــق كل من خبر مقالة هؤلاء المتفلسفة فى العلم الإلهى أن غالبه ظنون كاذبة ، وأقيسة فاسدة ، وأن الذى فيه من العلم والحق قليل . " (٢)

وهذا النص يوضح موقف الكرمى من المناهج الفلسفية فى الإلهيات ، وهو أن هذه المناهج لا تورث اليقين والعلم ، وإنما تورث الحيرة والضلال والظنون وهــو فى ذلك يفرق بين العلم الإلهى والعلم الطبيعى من الرياضيات والفلك وســائر العلوم الخاضعة للتجربة ، فذلك النوع لم يتعرض الكرمى لــه بنقد .

---

(١) " أقاويل الثقات " : (١١١) .

(٢) " أقاويل الثقات " : (١١١) .

وإنما كان نقضه منصباً على أقوالهم ومناهجهم فى العلم الإلهـى كما فى النص السابق : " الطرائـق التى سلكوها فى أمور الربوبيـة ... " ، " لا تفضى بهم إلى العـلم واليقين فى الأمور الإلهيـة " ، " العلم الإلهـى لا سبيـل فيه إلى اليقين " ، " مقالة هؤلاء المتفلسفة فى العلم الإلهى أن غالبه ظنون كاذبة " .

وموقـف الكـرمى هـذا تجاه الفلسفة موافق تماماً لموقف ابن تيمية تجاه الفلاسفة فى باب الإلهيات أيضاً حيث يقول :

" أرسـطو وأتباعه ... ليس عندهم من العلم بالله إلاّ ما عند عباد مشركى العـرب ما هو خير منه . وقد ذكرت كـلام أرسطـو نفسه الذى ذكره فى علـم ما بعد الطبيعـة فى ((مقالة اللام)) وغيرها ؛ وهو آخر منتهى فلسفته وبينت بعض ما فيه من الجهل ." (١)

ويـرى الكـرمى أن إكبار الفلاسفة لعقولهم واعتدادهم بها أداهم إلى ترك الأخذ عن الأنبياء فصارت هذه النعمة العظيمة – نعمة العقل – محنة لا منحة ، وصاروا كمن يسعى فى حتفه بظلفه .

يقول الكرمى :

" الفلاسفة يعتقدون أن عندهم من العلوم والمعارف ما يستغنون به عن علم الأنبياء عليهم السلام " (٢)

وهـذا الذى قـرره الكرمـى أشار إليه ابن تيمية فى رده على المنطقيين حيث قال عن الفلاسفة :

---

(١) " الرد على المنطقيين " : (١٤٣) .

(٢) " أقاويل الثقات " : (١١١) .

" وهـــم – وإن عظموا الأنبياء ونواميسهم فلأجل أنهم أقاموا قانون العدل الذى لا تقوم مصلحة العالم إلاّ به ، ويوجبون طاعة الأنبياء والعمل بنواميسهم وهـــى الشرائع التى جاءوا بها ، ولكنهم لم يأتوا بالأمور العلمية بل العمليات النافعة .

والعملـــيات – عـــندهم – إما أن تكون التى عَلِمها [يعنى الرسول] وما أمكـــنه إظهارها ، بل أظهر ما يخالف الحق عنده لمصلحة الجمهور . وإما أنه لم يعلمها ." (١)

فظنُّ الفيلسوف أن النبى لم يعلم العلميات العقليات التى يعلمها الفيلسوف بالنظر معناه أن الفيلسوف يرى نفسه فى مرتبة فوق مرتبة النبوة .

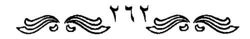
يقول الكرمى :

" ... وكانوا إذا سمعوا بوحى الله تعالى دفعوه وصغروا علم الأنبياء بالنسبة إلى عـــلمهم .. ولمـــا سمع بقراط الحكيم (٢) بموسى عليه السلام قيل لـــه : لو هاجرت إليه .

---

(١) " الـــرد عـــلى المنطقيين " : (٤٤٢) . وقد عقب ابن تيمية ذلك بقوله : " فهم – يعني الفلاســـفة – يجـــوزون للـــرجل أن يتمسك بأي ناموس كان [يعني أي شرع أو منهج] ولا يوجبون اتباع نبي بعينه – لا محمد ولا غيره – إلا من جهة مصلحة دنياهم بذلك لا لأنه يعذب فى الآخـــرة على مخالفة شريعة محمد أو غيره . ولهذا لما ظهرت الترك الكفار وأراد من أراد منهم أن يدخـــل فى الإسلام قبل ظهور الإسلام عليهم أشار عليه بعض من كان معه من الفلاسفة بأن لا يفعل فإذ ذاك لسانه عربي ولا يحتاجون إلى شريعته ، ونحو هذا الكلام " .

(٢) بقراط : أشهر الأطباء الأقدمين ، يونانى (٤٦٠ – ٣٧٧ ق . م) .



فقال : نحن قوم مهديون ، فلا حاجة بنا إلى من يهدينا ." (١)

وإذا كــان هــذا الــنقد يتوجه فى الأعم إلى الفلاسفة غير الإسلاميين فإن الكرمى يشمل فلاسفة الصوفية بهذا الحكم أيضا فهم مبتلون أيضا بالاستعلاء على الفقهاء والازدراء لهم مثلما ازدرى سلفهم الأنبياء .

يقول الكرمى :

" فهــذه الخصــلة بعينها ــ يعنى ازدراء الشريعة ــ موجودة فى المتصوفة المتفلســفة فــإنهم يحــتقرون عــلم الفقهاء بالنسبة لعلمهم ، ويزعمون أنهم محجوبون ، وأنهم هم الواصلون . نعم ؛ ولكن إلى سقر . " (٢)

وبعــد أن تــبين لنا موقف الكرمى ــ بصفة عامة ــ من الفلسفــة ؛ فى جانــبها العــلمى نعقب ذلك بجملة نصوص للكرمى تعبر عن موقفه هذا تجاه الفلاســفة وقد سقتها عارية عن التعليق ؛ لأن الكرمى أوردها مقتضبة تعبر – فقط – عن موقفه .

١– بعد أن ذكر الكرمى كلام الغزالى فى بعض منافع النجوم من أنها " تارة جعلها الله زينة ورجوماً للشياطين وعلامات يُهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك

---

(١)" أقــاويل الــثقات " : (١١١) . والظاهر عدم صحة هذه الرواية ، فالتلفيق باد عليها حيــث موســى عليه السلام كان قبل المسيح عليه السلام بأكثر من ألف عام ، أى قبل بقراط بأكثر من خمس مائة سنة . انظر : " المنجد فى الأعلام " : (١٣٨) .

(٢) " أقاويل الثقات " : (١١١ ، ١١٢) .

وهــذا هو قول فلاسفة الصوفية الذين يسمون أنفسهم بالأولياء ، ويزعمون أنهم أفضل من الرسل والأنبياء ، كما يقول زعيمهم ابن عربي :

مقــام النبــوة فى بــرزخ   فويق الرسول ودون الولي

فقـد أخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعنيه ، ومراده [يعني الغزالى] بذلك الرد على من يزعم أنها تمطر وتحرك الرياح . " (١)

ثم علق على ذلك بقوله : " وللمنجمين والفلاسفة كلام كثير كله هذيان لا يقوم عليه من الوحى برهان ." (٢)

٢- قـال الكرمى : " ... من الفلاسفة من أثبت أنواعاً أخر من الملائكة ، وهـم الملائكـة الأرضية المدبرة لأحوال هذا العالم السفلي ثم الخَيِّرةُ منها هم الملائكة ، والشريرة منها هم الشياطين ... والفلاسفة فيهم كلام كثير لا ينبغى ذكره إذ هو كفر محض ." (٣)

٣- وفى البعـث والنشـور : " إن المعاد للأرواح بأبدانها ، وقيل : المعاد للأبـدان فقـط ، وهو قول كثير من المتكلمين الجهمية والمعتزلة القائلين بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل المحسوس لا غير ، وقيل : المعاد للأرواح فقط ، وهـو قول الفلاسفة والملاحدة ، وأجمع أهل السنة أن الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها . " (٤)

أمـا فـيما يتعلق بالجانب العملى من الفلسفـة : وهو الجانب الأخلاقى والاجـتماعى والنفسى ، فيرى الكرمى أن الفلاسفة ليس لديهم خير يُقدمونه للناس وإنما جل بضاعتهم الكلام ؛ ثم لا شئ بعد الكلام .

---

(١) " البهجة " : ل ٢٧ أ .

(٢) السابق : ل ٢٧ أ .

(٣) السابق .

(٤) السابق : ل ١٢٦ أ ، ب .

بيـــنما الأنبـــياء علـــيهم جمـــيعاً الصلاة والسلام يربون الناس ويعلموهم ويأخذون بأيديهم بعد ما يبينون لهم منافعهم ومضارهم وعلاج هذه المضار .

يقول الكرمي :

" إن مـــن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم يأمرون الخلق بما فيه صـــلاحهم ، ويـــنهونهم عما فيه فسادهم ، ولا يشغلونهم بالكلام فى أسباب الكائـــنات كمـــا يفعـــل ذلك المتفلسفة ؛ فإن ذلك كثير التعب قليل الفائدة أو موجب للضرر .

ومثال النـــبى مثال طبيب دخل على مريض فرأى مرضه فعلمه ؛ فقال له : اشرب كذا واجتنب كذا . ففعل ذلك فحصل الشفاء والعافية .

والمتفلســـف قـــد يطيل معه الكلام فى سبب ذلك المرض وصفته وذمه وذم مـــا أوجـــبه ولو قال المريض : فما الذى يشفينى منه ؟ لم يكن له بذلك علم تـــام . " (1)

هذا موقف الكرمى تجاه الفلاسفة العقليين ، أما موقفه تجاه فلاسفة الصوفية فـــيرى أن جلّ البلاء الذى حلّ بالشريعة من إباحية وتأويل للشرائع واستهانة بالأمـــر والنهى فَمنْ قبَلهم . وما ألف الكرمـــى رسالته فى القضاء والقدر إلاّ ردّاً عـــلى هذا النوع من الفلاسفة ، وعلى من لف لفهم ممن لم يبلغ مبلغهم فى الفهم ، بل ردد أقوالهم تحللاً من الشرع واتباعاً للهوى ، فإن " القول بالإباحة وحلّ المحرمات ... فى الأصل ؛ إنما هو قول أئمة الباطنية القرامطة وكثير من

(1) " شفاء الصدور " : ل ٦٥ أ .

الفلاسفة . " [١]

وقـــد أطـــال الكـــرمـــى الكـــلام على الـــحلاج وغيره من أصحـــاب هـــذا الاتـــجـــاه فى ((رفـــع الشـــبهة)) – الـــنص المحقق – بما يغنى عن تكراره هنا [٢] .

* * *

(١) " رفع الشبهة " – النص المحقق : ص (١٢٠) .

(٢) انظر ص (١١٧) وما بعدها من النص المحقق .

ب – موقفــه من المتكلمــين

الكــلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية ؛ أى المنسوبة إلى دين الــنبى صلى الله عليه وسلم ، وإن لم تكن مطابقة للواقع ، لعدم إخراج الخصم عن أن يكون من علماء الكلام . فموضوعه : العقائد الدينية . وثمرته : إثباتها ونصرتها .[1]

ويُرجع بعض الباحثين فى هذا العلم نشأته إلى عاملين : داخلى [إسلامى] وخــارجى مـــن جرّاء نقل الفلسفة بعد عصر الترجمة عن اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، ثم ينص على أنه يعنى بالعامل الداخلى وجود المتشابه فى القرآن الكريم .[2]

والقــول بأن القرآن الكريم نفسه بما يشمل من متشابه هو سبب اختلاف المســلمين ونشــأة الفرق ؛ قول لا يُوافَقُ عليه ؛ إذ الحق والصواب خلافه . كــيف والقــرآن الكــريم ﴿ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ كيف مع قوله ﷺ : ((تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله))[3]

---

(١) انظــر : " عــلم الكلام : تعريفه وعوامل نشأته " . للدكتور عامــر النجار : ص (٧) وما بعدها . و " لوامع الأنــوار " : (١ / ٤) .

(٢) انظر : " علم الكلام " للدكتور عامر النجار : ص (٣٠) .

(٣) صــحيح . رواه مســلم فى " كتاب الحج " ، باب / حجة النبي ﷺ عن جابر بن عبد الله رضــى الله عــنهما (١٢١٨) ، وأبو داود فى كتاب المناسك ؛ باب صفة حجة النبى ﷺ حديث رقــم (١٩٠٥) ، وابــن ماجــة فى " كــتاب المناســك " ؛ بــاب حجــة النبى ﷺ رقم (٣٠٧٤) . وهذه الجملة جزء من حديث طويل فى صفة حجة النبي ﷺ .

هــذا مع أن أشد الناس تأثراً وامتثــالاً لما جاء به القرآن الكريم وتدبراً لما فــيه – وهــم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم – ثم من تبعهم بإحسان لم يُعْرَفْ عنهم خلاف فى القرآن .

فــالحق أن يقال : إن سبب نشأة الفرق واختلاف المسلمين هو القول على الله تعــالى بغير علم ، والجرأة على القول فيما لو سألوا عنه لأجيبوا بخلاف ما قرّروا هم فلو سكت من لا يعلم لما كان خلاف أصلاً .

قــال صلى الله عليه وسلم : ((ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العيّ السؤال .)) (1)

قال الإمام البخارى رحمه الله تعالى :

" انتحل نفر هذا الكـــلام فافترقوا على أنواع لا أحصيها – من غير بصر ولا تقلـــيد يصح – فأضل بعضهم بعضاً جهلاً بلا حجة أو ذكْرِ إسناد ، وكله من عند غير الله إلاّ من رحم ربك ، فوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . " (2)

والكـــرمى يعتقد افتراق المسلمين إلى فرق كثيرة افتراقاً حقيقياً ، خلافاً لمن يزعم أن اختلاف الناس فى كثير من المسائل اختلاف لفظى لا حقيقى ، ويعتمد الكـــرمى فى موقفـــه هذا حديث النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((إن بنى

---

(1) صـــحيح . رواه أبـــو داود فى كتاب الطهارة ؛ باب فى المجروح يتيمم رقم (٣٣٦) عن جابـــر ورقـــم (٣٣٧) ، وابـــن ماجة فى كتاب الطهارة ؛ باب فى المجروح تصيبه الجنابة ... (٥٧٢) عن ابن عباس . وصححه الإمام الألبانى رحمه الله فى " صحيح الجامع " (٤٣٦٢) ، (٤٣٦٣) ، وفى " الإرواء " (١٠٥) .

(2) خلـــق أفعـــال العـــباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل . للإمام البخارى – مكتبة التراث الإسلامى – القاهرة . ص (٨٩) .

إســرائيل تفرقــت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وســبعين ملــة . كلهم فى النار إلاّ واحدة . قالوا : من هى يا رسول الله ؟ قال : من هى على ما أنا عليه وأصحابى .)) (١)

ويعزو الكرمى أسباب هذا الافتراق إلى عدة عوامل :

منها : عدم الرد عند النــزاع إلى الله ورسوله فى حال حياة النــبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى سنته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

حيث يقول :

" إن الــذى يجب الرجوع إليه ، ويعول عند النــزاع عليه . هو كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

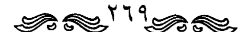
قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (٢) فلا حجة فى قول أحد مع قولهما . " (٣)

---

(١) انظر : " أقاويل الثقات " : (١٨١) ، والحديث أخرجه : أبو داود فى " كتاب السنة " ؛ بــاب / شــرح السنة (٤٥٩٦) ، والترمذى فى الإيمان ؛ باب / ما جاء فى افتراق هذه الأمة (٢٦٤٩) وقــال : حسن صحيح ، وابن ماجة فى الفتن ؛ باب / افتراق الأمم (٣٩٩١) ، وجملــة : ((مــا أنا عليه اليوم وأصحابى)) ذكرها الآجرى فى " الشريعة " ص (١٤) . وانظر " السلســلة الصــحيحة " حديــث رقــم (٢٠٣ ، ٢٠٤) : (١ / ٣٥٦) ومــا بعدها . و" صــحيح الجــامع " (١٠٨٢) ، (١٠٨٣) وقد بحث الإمام الألباني هذا الحديث من حيث الســند والمتن وناقش أقوال المخالفين ، وتأيد بأقوال الموافقين لاسيما الشيخ المقبلي فى " العلم الشامخ " فى بحث قيم فى الموضع المشار إليه من " السلسلة الصحيحة " ينبغي الرجوع إليه .

(٢) سورة النساء : آية (٥٩) .

(٣) " شفاء الصدور " : ل ٤ أ .



ومـــنهـــا : عـــدم الرد إلى أقوال الصحابة التابعين وأئمة الدين الذين لهم لســـان صـــدق في الأمة . لقولــه صلى الله عليه وآله وسلم : ((خير الناس قـــرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) (1) ، ولقولـــه صلى الله عليه وآله وسلم : ((... إن العلمـــاء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر)) (2)

وفي ذلك المعنى يقول الكرمي :

" فإن لم يوجد التصريح به [يعني محلّ النـــزاع] في قولهما [يعني الله عز وجـــل والرســـول صلى الله عليه وآله وسلم] فالمرجع ما استنبطه الأئمة من الصـــحابة التابعين والأئمة المجتهدين . فأولئك على أقوالهم الشريفـــة يعتمد ، وإلـــيهم ممـــا أشكل أمره المردّ ، وإياك والاغترار والعدول عن طريقة الأخيار فتكون من أصحاب النار . " (3)

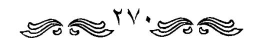
ومنها : الجهل بالسنة ، والمسارعة بالقول بلا علم خاصة وأن مجال اختلاف الفـــرق في أبواب العقيدة ، فعلى افتراض إصابتهم في بعض ما ذهبوا إليه من

---

(1) الحديـــث : مـــتفق عليه ؛ رواه البخاري في " كتاب الشهادات " ؛ باب / لا يشهد على شـــهادة جور إذا أُشهد (٢٦٥١) ، ومسلم في " كتاب الفضائل " ؛ باب / فضائل الصحابة ثم الذيـــن يلونهـــم : (٧ / ٣٩٥) عن عمران بن حصين . وروياه عن ابن مسعود في مواضع أخرى .

(2) الحديـــث : رواه الترمذي في " كتاب العلم " ؛ باب / ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم (٢٦٩١) ، وأبو داود في " كتاب العلم " ؛ باب / الحث على طلب العلم (٢٢٣) ، وأحمد في " مسنده " : (٥ / ١٩٦) حديث رقم (٢١٧٦٣) .

(3) " شفاء الصدور " : ل ٤ أ .



غـــير طـــريق الـــنبى صلى الله عليه وآله وسلم فهم موزورون على ذلك غير مـــأجورين لأنهم كحاطب ليل يجمع الحطب ولا يأمن أن تلدغه حية أو عقرب فتصيب منه مقتلا .[1]

ومنها : عدم جمع النصوص التى تتحدث فى الموضوع الواحد قبل الوصول إلى قول أخير فى ذلك الموضوع .

يقول الكرمى :

" ولا يـــراعون ألفـــاظ الحديـــث إمـــا لعـــدم معرفة ألفاظ طرقه كلها ؛ أو لمسارعتهم للباب بلا تأمل . "[2]

ومنها : التأويل فالتأويل أخطر الأسباب التى أدت إلى افتراق الأمة وتحريف النصوص عن معانيها التى قصد إليها الشارع [3].

يقول الكرمى :

" الخلف – خصوصاً المتكلمين – تجد عندهم التأويل فى مثل هذا – [يعنى آيات وأحاديث الصفات] بالمجازفة . "[4]

ومن ثمَّ يرى الكرمى الخوض فى علم الكلام على غير بصيرة بمنهج السلف مفسداً للدين ويرى السلامة فى ترك ذلك فـ " ليس للمرء أسلم فى دينه من تـــرك الخـــوض فى مثل هذا ، والإعراض عن الخوض فى علم الكلام المذموم

(١) انظر : " أقاويل الثقات " : (١٨١) .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) راجع : مبحث موقف الكرمى من التأويل من هذه الرسالة .

(٤) " أقاويل الثقات " : (١٨١) .

واقتفاء طريقة السلف فإنهم لم يخوضوا فى شيء من هذا ولم يبحثوا عنه معتقدين أنّ لنا ربّاً موجوداً ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) أفلا يسعنا ما وسعهم ؟ " (٢)

هذا ، وقد يسبق إلى فهم كثير من اعتماد السلف والحنابلة حديثَ افتراق الأمة أنهم يكفرون أتباع الفرق الأخرى بناءً على قوله ﷺ : ((كلها فى النار إلاّ واحدة)) (٣). ومن ثمّ يذكر الكرمى – فى لفظ واضح لا إشكال فيه – أنه لا يكفر أحداً لشبهــة عنده ؛ حيث يقول : " ولا نكفر أحداً من أهل الفرق بمـا ذهــب إليه واعتقده ، خصوصاً مع قيام الشبهة والدليل (٤) عنده ؛ فإن الإيمان المعتبر فى الشرع هو تصديق القلب الجازم بما علم ضرورة مجيء الرسول بــه من عند الله تفصيلاً فيما علم تفصيلاً كالتوحيد والنبوة ، وإجمالاً فيما علم إجمالاً كالأنبياء السالفة والصفات القديمة التى نطق بها القرآن . وهذا هو الحق فــلا نكفــر بقية الفرق خلافاً لمن زعم من المتكلمين أن الإيمان هو العلم بالله وصفاته على سبيل الكمــال والتمــام . فبهذا – لا جرم – أقدم كل طائفة على تكفــير مــن عداه (٥) من الطوائف .

---

(١) سورة الشورى : آية (١١) .

(٢) " أقاويل الثقات " : (١١٠) .

(٣) الحديث صحيح . تقدم تخريجه ص ٢٦٩من هذا المبحث، وانظر: " السلسلة الصحيحة " : (١/٣٦٥) وما بعدها حيث دفع الشيخ الألباني رحمه الله عن السلف تهمة القول بخلودهم فى النار .

(٤) قولــه : " مــع قيام الشبهة والدليل عنده " غير متين . فالدليل ما كان معتبراً صحيحاً فى نفســه يفضــى إلى معــنى صحيح كالقرآن والسنة والإجماع والقياس وصريح العقل والحس ، والشبهة ضد ذلك ، فإن كان المخالف مخطئاً فى الواقع فليس معه دليل ؛ بل شبهة قد يعذر بها .

(٥) كذا بالأصل : والأسلــوب يقتضــى أن يكــون هكــذا : =

لكن لا بأس بتكفير بعض الغلاة من أهل البدع ؛ فإن من الجهمية من غلا حتى رمى بعض الأنبياء بالتشبيه ؛ فقال : ثلاثة من الأنبياء مشبهة :

موســى حيــث قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ (١) ، وعيسى حيث قال : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ (٢) ، ومحمــد حيث قال : ((ينــزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا)) (٣) " (٤)

ويظهــر من هذا النص اعتدال الكرمى بعدم تكفيره المخالف شأن الجائرين فى أحكــامهم عــلى مخالفــيهم وإلصاقهم أقذع الألفاظ من الكفر والفسوق والزندقة لمجرد المخالفة .

وممــن يوصفون بالتشدّد فى المسائل العلمية ابن تيمية رحمه الله ، وأمره فى الجدال وشدة تتبع الأفكار والتدقيق فى الألفــاظ معروف ، إلاّ أنى أُرجع ذلك إلى أن غرضه فى مناظراته أو فتاويه إنما هو إقناع الخصم بما يراه ابن تيمية حقّاً وخلخلة الخصم عما يراه عليه من الباطل .

لكن حينما يتحول المجال إلى إصــدار أحكــام على الناس ترى الاعتدال والبعد عن التأثيرات الخطابية والشدّة على المخالف . انظر إلى ذلك النــص

= " أقدمت كل طائفة على تكفير من عداها " ، إلاّ أن يكون راعى لفظ " كلّ " .

(١) سورة الأعراف : (١٥٥) .

(٢) سورة المائدة : (١١٦) .

(٣) الحديــث مــتفق عليه : رواه البخارى فى " كتاب التهجد " ؛ باب / الدعاء والصلاة من آخر الليل رقم (١١٤٥) وفى مواضع أخرى ، ومسلم فى " كتاب صلاة المسافرين " ؛ باب / صلاة الليل مثنى مثنى : (٣ / ٧٤ ، ٧٥) .

(٤) " أقاويل الثقات " : (٦٩ ، ٧٠) .

الحليم من ابن تيمية رحمه الله حيث يقـول :

" لا ريـب أن الخطـأ فى دقـيق العلم مغفور ، وإن كان ذلك فى المسائل العلمـية . ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة . وإذا كان الله تعالى يغفر لمن جهـل وجوب الصلاة وتحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل مع كونه لم يطلب العـلم ؛ فالفاضل المجتهد فى طلب العلم بحسب ما أدركه فى زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناتـه ، ويثيـبه على اجتهاده ، ولا يؤاخذه بما أخطأه تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (1) " (2)

وجملة القول فى موقف الكرمى من المتكلمين :

أنـه يـذم الكلام والمتكلمين ويحذر من اتباع سبيلهم ، إلاّ أنه لا يكفر ذا شـبهة فضلاً عن أن يكفر ذا قدم فى طلب العلم من أتباع الفرق . وقد فصلنا أسباب افتراق الأمة كما رآها الكرمى .

أمـا موقفـه من كل فرقة على حدة فيظهر من مناقشة أفكار كل فرقة فى دراسة النص ، وفى مذهبه الكلامىّ . وقد نجد به ميلاً إلى الاشاعرة فى كثير من المسـائل كالصـفات ومبحث الإيمان وأحكامه . وهو الأثر الذى لم يستطع الـتخلص مـنه بالرغم من اجتهاده فى اقتفاء أثر ابن تيمية فى كتبه ومؤلفاته الأخيرة .

* * *

(1) سورة البقرة : آية (٢٨٦) .

(2) " درء تعارض العقل والنقل " : (٢ / ٤٩) .

موقــف الكرمــى من التصــوف

يكـــاد يجمع الدارسون قديماً وحديثاً على أن التصوف الإسلامى كان وليد حركة الزهد التى وجدت فى البصرة والكوفة .(١)

والـــزهد فى حدّ ذاته تربية للنفس يدعو إليها الدين ، وسيد الزاهدين النبى صـــلى الله عليه وآله وسلم ؛ قد كان يبيت الليلتين والثـــلاث طاوياً لا يذوق ذواقـــاً (٢)، ثم يأتـــيه من يسأله فيعطيه غنماً بين جبلين تأليفاً لقلبه (٣) ، ويؤثّر الحصـــير فى جنبه الشريف حتى يرثى له عمر رضى الله عنه (٤)، ثم تأتيه قطعة الذهـــب تحمـــل فى أدم (٥) فيجعلها بين ثلاثة أو أربعة من أصحابه رضى الله

(١) انظـــر : " مـــن قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة " لأستاذنا الدكتور / محمد السيد الجليند : ص (٣٨) .وانظر : " الخلاف فى سبب تسمية التصوف " تحقيق النص : ص ١١٦

(٢) روى الإمـــام أحمد فى مسنده ((أن فاطمة رضى الله عنها ناولت رسول الله صلى الله عليه وســـلم كسرة من خبز شعير فقال : " هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام " (٣ / ٢١٣) حديـــث رقـــم (١٣٢٤٦) ، ورواه أبو الشيخ فى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وآدابه : ص (٢٨٦) حديث رقم (٨٢٥) كلاهما عن أنس بن مالك وإسناده حسن .

(٣) الحديـــث رواه مسلم فى " كتاب الفضائـــل " ؛ باب / " سخـــاؤه صلى الله عليه وسلم " عـــن أنـــــس رضى الله عنـــه : (٧ / ١٦٩) ، وأحـــمد فى " مسنده " : (٣ / ١٠٨) ؛ حديث رقم (١٢٠٧٠) ، وأبو الشيـــخ : ص (٤٩) ، حديث رقم (٩٠ ، ٩٢)

(٤)الحديـــث مـــتفق عليه :رواه البخارى فى " اللباس " ؛ باب / ما كان النـــبى صلى الله عليه وسلم يتجوز من اللبـــاس والبســـط (٥٨٤٣) ، ومسلم فى " كتاب الطلاق " ؛ باب / بيان أن تخييره امرأته لا يكون طلاقاً : (٤ / ٤٣٨) عن عمر رضى الله عنه .

(٥) الأدم : الجلـــد . كـــناية عن كبر حجم قطعة الذهب أنهما تحمل فى جلد حيوان مدبوغ ، وليس فى كيس صغير .



عنهم [١]، وكان له الخمـــس [٢] فيرده على المسلمـــين فهو فى الزهـــد الإمام والصادقون له تبع ، فصلى الله عليه وآله وسلم وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

وقد ألف الأئمة فى الزهد كابن المبارك [٣] ، وأحمد [٤] رحمهما الله .

لكن الزهد لم يقف عند حدّ تربية النفس على الرضا بالقليل ، وترك منازعة الناس فى دنياهم ، وصرف فضول الأوقات فيما هو أجدى من التكثر من جمع الحطـــام ، بل أنه أمسى منهجاً له ملامـــحه وأصولـــه حتى إن اســـمه نفسه تطـــور إلى اســـم آخر فصار يعرف بعد بالتصوف .

وبعد هذا التطور دخل فى التصوف ما لم يكن من الزهد من حيث الأفكار والعقـــائد حـــتى صـــار بعـــض الصوفية يتبرأ من بعض ، وكثرت فيه الطرق وتشعبت بهم المذاهب حتى آل الأمر إلى عَدِّ الباطنية والحلولية وهمج الناس من المتصوفة .

---

(١) رواه أحمـــد : (٣ / ٤) حديـــث رقم (١١٠٢١) عن أبى سعيد الخدرى قال : " بعث عـــلىٌّ مـــن اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذهبة فى أديم مقروظ لم تحصل من ترابها فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة ... " ، وصححه الشيخ الألبانى فى " صحيح الجامع " (٢٦٤٥) وهو صحيح .

(٢) انظر : " المسند " : (٣ / ٣٦٥) ؛ حديث رقم (١٤٩٧٤) .

(٣) عبد الله بن المبارك : شيخ الإسلام ، عالم زمانه (١١٨ – ١٨١ هـ) انظر : " السير " . (٨ / ٣٧٨) .

(٤) هو أحمد بن حنبل رحمه الله ، وقد طبع كتابه " الزهد " عدة طبعات منها طبعة دار الدعوة بالأسكندرية ؛ ط الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .



فمن ثم تعرض التصوف للنقد ، ولعل أبرز من تصدى لنقد التصوف الإمام ابن تيمية رحمه الله فى فتاويه الكثيرة – خاصة المجلدين العاشر والحادى عشر – وهمـــا التصوف والسلوك من مجموع الفتاوى . وكذا كتابه العظيم (اقتضاء الصـــراط المســـتقيم) . وقد ذكرت فى مبحث تأثر الكرمى بابن تيمية أنه فى ((رفـــع الشـــبهة)) يكـــاد يعتمد اعتماداً أساسيـــاً على ((منهـــاج السنة النـــبوية)) ، وفى ((شـــفـــاء الصدور)) يكاد لا يخرج عن ((الاقتضاء)) لابن تيمية ، وأغلب نقد الكرمى للتصوف فى كتابيه هذين .

وقـــد بينـــت فى المبحث الأول من الفصـــل الأول وهو عصر المؤلف أن الخلافة العثمانية شجعت التصوف ، ومن ثم فقد تأثر الكرمى بالتصوف الغالي ســـلباً فى أوّل أمـــره [1] ثم إيجاباً [2] فى آخره – على ما سنوضح إن شاء الله تعـــالى – . ومن مزايا كتب الكرمى رحمه الله أنه يذيل مؤلفاته بتاريخ الانتهاء مـــنها فى الأعم الاغلب الأمر الذى ييسر على الباحث فى تطور فكره التأريخ لهذه الأفكار من حيث اعتناقها أو التحول عنها .

فمن أوائل كتبـــه ـــ رغم كبره نسبياً بالقيـــاس إلى مؤلفاتـــه الأخـــرى ـــ كتاب ((بهجة الناظرين وآيات المستدلين)) [1] وقد عقد فيه الكرمى فصلاً فى النـــور المحمـــدى فقـــال :

---

(١) يعني أنه كان فى أول أمره صوفياً حسن الظن بالصوفية .

(٢) يعنى أن الكرمي فطن إلى عيوب التصوف بحاله الذى كان عليه فى القرنين العاشر والحادي عشر ، هذه العيوب التى كان لها وجود قبل هذين القرنين وما زال لها وجود بعدهما .

(١) له نسخ كثيرة بدار الكـــتب ، وتبلغ عدد أوراق إحدى هذه النســـخ ٢٣٤ ق ، فى حين له رسائـــل كثيرة ما بين الثلاثين والعشرين من الأوراق . انظر مخطوط : (١٧٠١) كلام .

" عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى أخـبرنى عن أول شئ خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال : يا جابر : إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ؛ فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ، ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ، ولا جنة ولا نار ، ولا مَلَكٌ ولا سماء ولا أرض ... " (١)

ثم يقـول فى موضـع آخر : " فهو عليه السلام أصل الموجودات ، ونور الكائـنات وهـو أصل الوجود وسيده ، ومبدأ العالم ومدده ، وهو صلى الله عليه وسلم المشار إليه فى قول بعض ذوى العرفان : ليس فى الإمكان أبدع مما كان " (٢) .

والواقع أن هذا النص للكرمى يصور إغراقه فى التصوف الغالي ـــ فى أول أمـره ـــ ، فكونـه صلى الله عليه وآله وسلم نوراً على الحقيقة ، ثم هو نور مخلـوق من نور الله تعالى وتقدس على الحقيقة ، ثم كونه صلى الله عليه وسلم أصل الموجودات على الحقيقة . فهذه هى نظرية الإنسان الكامل عند الجيلى(٣) حيث يقول فى كتابه ((الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل)) :

" إن الله تعـالى لمـا خلق محمداً صلى الله عليه وسلم من كماله ، وجعله مظهراً لجماله وجـلاله ، خلق كل حقيقـة فى محمد صلى الله عليه وسلم من

---

(١) " بهجة الناظرين " : ل ١٠ ب ، ١١ أ .

(٢) السابق : ل ١٢ أ .

(٣) عـبد الكـريم الجيلى ، يلقب بقطب الدين ، ولد فى بغداد ، له ((الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائـل)) [ت ٨٣٢] انظر : " المنجد فى الأعلام " : (٤٥١) .

حقـيقـة من حقـائق أسمائـه وصفاتـه ثم خلق نفـس محمـد صلى الله عليه وسلم من نفسـه ، وليسـت النفـس إلاّ ذات الشـئ " [1]

ويقول فى موضع آخر :

" اعـلم أن الله تعالى لما خلق النفس المحمدية من ذاته ، وذات الحق جامعة للضدين خلق الملائكة العالين من حيث صفات الجمال والنور والهدى من نفس محمـد صلى الله عليه وسلم ، وخلق إبليس وأتباعه من حيث صفات الجلال والظلمة والضلال من نفس محمد صلى الله عليه وسلم . " [2] ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ .

وكـتاب الكـرمى هذا قد انتهى من تأليفـه سنة ١٠٢٢ هـ ، كما هو مثبت على المخطوط . وكان له من العمر آنذاك أربع وثلاثون سنة . ومؤلفاته التى كتبها فى تلك الفترة تعبر عن هذه الوجهة الصوفية الفلسفية التى نرى فيها نَفَس الجيلى كما أشرنا آنفاً .

ومن هذه الكتب التى انتهى منها فى نفس هذا العام كتاب ((إرشاد ذوى العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان)) قال فيه :

" وقـع فى كـلام بعـض العلمـاء من أهل التصـوف وغيرهـم :

---

(١) " الإنسان الكامل " : (٢ / ٥٩) . ط ٤ – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨١ م الحلبى .

وهـذه العقيدة فى النبي ﷺ تشبه قول النصارى فى عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسـلام . وصـدق رسـول الله ﷺ حينما قال : " الله أكبر إنها السنن أتقولون كما قالت اليهود لموسى : اجعل لنا إلهً كما لهم آلهة " .

(٢) " الإنسان الكامل " : (٢ / ٦١) .

اعـــلم أن كـــل ما قدر الله تعالى من ابتداء العالم إلى آخره مثبت فى اللوح المحفوظ ، وهو لوح لا يشبه لوح الخلق ، وثبوت المقادير فى هذا اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن فى دماغ حافظه حتى كأنه يقرأه وينظر إليه ، فلو فتشت دماغه لم تشاهد شيئاً ، فاللوح كمرآة تظهر عليها الصور ، والقلب إذا تخلص مـــن الشواغل وكان صافياً ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ؛ فوقع فيه كـــل شيء مما فى اللوح المحفوظ كما تقع الصورة من مرآة إ لى أخرى . ثم إن لقلب الإنسان عينين عليهما غشاوة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يكاد أن يبصر شيئاً من عجائب الغيب والملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عيني قلبه . ولما كانت تلك الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء وبعض الأولياء ؛ فلا جرم أنهم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه . " [1]

هكـــذا ذكر الكرمـــى هذا النـــص من غير تعليق عليه بما يفيد موافقتـــه عليه ، ولنا عليه مآخـــذ :

الأول : تشبيه كيفية ثبوت المقادير فى اللوح المحفوظ بكيفية ثبوت كلمات القـــرآن أو المحفوظات عموماً فى ذاكرة الدماغ – إخبار عن غيب بغير نصّ ، والإخبار عن الغيب طريقه النقل ، لا العقل والهوى .

الثانى : القول بأن تلقى القلب عن اللوح المحفوظ كارتسام المنظر من مرآة فى أخـــرى ، معـــناه أن طريق علم الغيب المجاهدة الروحية وتصفية النفس لا الوحى والنبوّة .

(١) " إرشاد ذوى العرفان " : ص (٧٠ ، ٧١) .

الثالــث : لازم هذا القول الإحاطة بعلم الله تعالى الذى فى اللوح المحفوظ والذى حجبه عن الملائكة المقربين .

الـــرابع : التسوية بين الأنبيـــاء وأصحاب المجاهدة حيث قال : إن طريق ارتسام ما فى اللوح المحفوظ فى قلب النبى – إنما هو بالمجاهدة والتصفية .

الخامس : أن ذلك يتعارض مع اعتقاد الوحى من الأصل ؛ إذ حصول النبى على علم ما فى اللوح باجتهاد النبى لا بنزول الخبر عليه بواسطة الملك . وليس ذلك مختصاً بالأنبياء وحدهم وإنما يشركهم فى ذلك بعض الأولياء .

السادس : يلزم عن هذا القول أن النبوة مكتسبة وليست اجتباءً .

إلاّ أنى أزعم أن الكرمى لم يدر بخلده شيء من هذه المآخذ عند كتابته هذه الكـــلمات ، ويؤيد هذا الزعم جملةُ أثارِه فلم يكن من فلاسفة الصوفية ، وإنما كان حَسَنَ الرأى فيهم ، ذاهلاً عن مراميهم إلى وقت متأخر من عمره .

وهـــذه المؤلفـــات التى تعبر عن هذه الوجهة الصوفية لم أجده تعرض فيها لذكـــر ابن تيمية إلاّ مرة واحدة فى كتاب ((البهجة)) الأمر الذى يعنى أنه لم يكن تأثر بابن تيمية بعد فى هذه الفترة ، فلما أقبل على قراءة كتبه وجدنا لغته تخـــتلف فى تناولـــه للصوفية والتصوف ، حيث ينقد مجرد ذكر الألفاظ التى يســـتعملها الصوفية ما لم ترد بها السنة ؛ فضلاً عن هذه الأفكار الخارجة عن محيط الشريعة المطهرة .

يقـــول الكرمى فى كتابه ((شفاء الصدور)) ـــ وهو من الكتب التى انتهى منها قبل وفاته بسنة أو أقل ـــ :

" مال السيوطى إلى إثبات القطـب ونحوه ، وأفرده بمؤلف سماه : ((الخبر الـدال عـلى وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال .)) [١] وساق فيه أحاديث عن نحو خمسة وعشرين صحابيا غير مراسيل التابعين . وفيها للمتأمل المنصف كثير من التعارض .

وذكـر فى آخر الكتاب عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قيل لـه : هل لله فى الأرض أبدال ؟ قال : نعم . قيل : من هم ؟ قال : إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال ما أعرف لله أبدالاً .

ولعـل السيوطى لم يطلع على كلام الحافظ ابن تيمية [٢] ، لأنه لم يتعرض لذكره ولا لردّ ما احتج به مما لا يمكن ردّه ، وناهيك بالإمام أحمد حجة ومعرفة بالحديث ، وكلامه يساعد ابن تيمية . " [٣]

فهـذا أثر ابن تيمية واضح فى رفض الكرمى لمجرد ذكر ألقاب تدور على ألسـنة الصوفية مثل : القطـب والغـوث والوتـد والبـدل ، ثم يترقى إلى أن ينقدهـم بلهجة شديـدة حيث يقول :

" المتصـوفة المتفلسفة يحتقرون علم الفقهاء بالنسبة لعلمهم ويزعمون أنهم محجوبـون وأنهـم هم الواصلون . نعم ولكن إلى سقر ، اتخذوا الكـلام على

---

(١) انظـر :رسـالة السيوطى المشار إليها ضمن ((الحاوى للفتاوى : ٢ / ٤٥٥ – ٤٧٢)) مكتبة القدسى ، بدون بيانات .

(٢) قوله : " ولعل السيوطي لم يطلع لعى كلام ابن تيمية " كان الشيخ مرعي يريد أن يقول : هكـذا كنـت من قبل أن أطلع على كلام ابن تيمية فى مسائل أصول الدين فلما اطلعت تغير حالي ؛ ولو اطلع السيوطي على كلام ابن تيمية لغير رأيه فى كثير من المسائل مثلي .

(٣) "شفاء الصدور" : ل ٧٦، وانظر كلام ابن تيمية فى " مجموع الفتاوى " : (١١ / ١٦٧).

الـــذات والصـــفـــات ديدناً لهم فإذا دخل إلى مجلسهم العاصى وهو لا يحسن الوضـــوء كلمـــوه بدقائـــق الجنيـــد وإشـــارات الشبلـــى " [1] .

والكرمى نفسه يصرح بتأثره بابن تيمية الذى أشرت إليه فى مواضع كثيرة من كتبه المتأخرة ((كشفـــاء الصدور)) و ((رفع الشبهـــة)) ، وليس أدَلّ على ذلك من تأليفه رسالتين فى ابن تيمية هما ((ثناء الأئمـــة)) و ((الكواكب الدريـــة)) .

يتلخص مما سبق أن الكرمى فى موقفه من التصوف قد مرّ بطورين :

الأول : كان فيه صوفيـــا يتكلم بلسانهم متأثـــراً بهم ، وقد ألف فى هذه الفترة كتابيه ((بهجة الناظرين)) و ((إرشاد ذوى العرفان)) .

ويمكن إرجاع تأثره فى هذه الفترة بالتصوف إلى أمرين :

الأول : تتلمذه المباشر على بعض مشايخ الصوفية من أمثال الشيخ محمـــد حجازى الواعـــظ والشيخ أحـــمد الغنيـــمى [2] ولا يخـــفى تأثـــر التلميـــذ بشـــيوخـــه خاصـــة فى بداية الطلب ؛ حيث يرى التلميذ الصادق فى شيوخه المـــثل الأعـــلى والقدوة حتى إذا شبّ عن الطوق واتسعت دائرته العلمية ، وتتلمذ على كتب العلمـــاء الكبـــار الذين لم يتيسر له لقاؤهم والأخذ عنهم إما بسبب البعد المكانى أو السبق الزمانى – إذا قرأ كتب هؤلاء النابهين أضاف إلى مشـــايخه مشـــايخ آخرين بواسطة الكتب ، وإلى علومه التى تلقنها علوماً أخـــرى بواســـطة النظر ، وإلى قدوته ومثله الأعلى فى شيوخه المباشرين مثلاً

(١) " أقاويل الثقات " : (١١٢) .

(٢) انظر : ترجمتهما فى مبحث شيوخه : ص (٥٤ ، ٥٦) .

أخــرى كما هو الشأن مع شيخنا الكرمى بعد اطلاعه على كتب ابن تيمية فى سنى عمره المتأخرة .

الســـبب الثانى : غلبة التصوف على ذلك العصر العثمانى كما ذكرنا فى الفصل الأول من هذه الرسالة ، فالناس عادة ما ينشّأُون على الأفكار السائدة فى بيـــئاقم ؛ فالناشـــيء بـــين الشيعة يظل شيعياً مالم يكن من الأفذاذ الذين يســـتقرئون العلوم من حولهم . وقُلْ مثل ذلك فى الناصبى بل وسائر الأفكار . فالناس أشبه بعصورهم [1] إلاّ الأفذاذ القلائل الذين لا يأخذهم لوم اللوّم بعد ظهـــور الحـــق لهم ، ويغلب على ظننا أن الكرمى رحمه الله من هؤلاء القلائل الذين تركوا ما كانوا عليه إلى ما رأوه صواباً ، وهو الطور الثانى .

والـــذى يدل لصدقه فى نقده أنه لم ينقلب على الصوفية انقلاب المأزومين وإنمـــا رأى فيهم الصادقين الفضلاء ، والمخالفين الأدعياء والزنادقة السفهاء ، فلم تكن رؤيته لهم واحدة ، ولا تناوله لهم واحداً لمجرد اتصافهم بالتصـــوف . ولـــو كـــان مأزومـــاً لأعـــرض عـــنهم جملة ، ولجعلهم فى صف واحدٍ لكن الـــذى أنطقـــه – فـــيما نظن به وبمثله من أهل العلـــم – ظهور الحق لـــه . وفيما يلى عرض لموقفـــه تجاه كلٍّ من الأقســـام الثلاثـــة .

* * *

(١) " الأرواح النوافخ بهامش العلم الشامخ " للعلامة صالح بن المهدى المقبلى اليمانى . مكتبة دار البيان دمشق : ص (٦) .

أولاً : موقفـــه تجاه فلاسفة الصوفيـــة

يقـــول الدكتور عبد القادر محمود : " إذا كان البسطامى [١] هو التمهيد المباشـــر لمدرسة الحلاج [٢] فى بدايات الطريق المنفصل عن المنهج الإسلامى ؛ فـــإن مدرســـة الحلاج ، ومدرسة الفارابى [٣] فى نظريتى الاتحاد والاتصال هى متوســـطات الطـــريق الذى ظهـــرت فلسفتـــه مع مدرسة الإشراق الجامعة لنظرتى الاتحاد والاتصال أو مدرسة الحلاج والفارابى معاً .

ومـــن هـــنا ... من متوسطات الطريق تجمعت كل أسباب الظهور لمدرسة ابـــن عـــربى [٤] الـــتى تعتبر هى نهايات الطريق فى الآفاق المنفصلة عن المنهج الإسلامى بما جمعت من أنظار فلسفية وراء نظرية وحدة الوجود . " [٥]

وهـــذا الـــذى قـــرره الدكـــتور عـــبد القادر محمود يمثل رأى ابن تيمية رحمه الله [٦].

---

(١) البسطامى : أبو يزيد طيفور بن عيسى ، أحد الزهاد (ت ٢٦١ هـ) انظر : " السير " : (١٣ / ٨٦) .

(٢) الحلاج : انظر ترجمته فى قسم التحقيق ص (١١٧) .

(٣) الفـــارابى : أبـــو نصر محمد بن محمد بن طرخان التركى ، كان يتزهد زهد الفلاسفة (ت ٣٣٩ هـ) انظر : " السير " : (١٥ / ٤١٦) .

(٤) ابـــن عربى : أبو بكر محمد بن على الطائى الحاتمى من تآليفه الفتوحات والفصوص ، كان من المتصوفة القائلين بوحدة الوجود (ت ٦٣٨ هـ) . انظر : " السير " : (٢٣ / ٤٨) .

(٥) " الفلسفة الصوفية " للدكتور عبد القادر محمود : ص (٣٢٦) .

(٦) انظر فى ذلك : " مجموع الفتاوى " لابن تيمية : ج٢ حيث يقول عن كتاب =

ويؤيد هذا الفهم مفكـــر فذ آخر عرفتـــه العلوم العربية هو العلامـــة ابن خلدون (١) رحمه الله ، وهو المادح للتصوف جملة الناقد له تفصيلاً حيث يقول في مقدمته :

" إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلـــوا في ذلـــك ، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملؤوا الصحف منه من مثل الهروي (٢) في كتاب المقامـــات له وغيره ، وتبعه ابن عربي وابن سبعـــين (٣) وتلميذهما ابن العفيف (٤) وابن الفارض (٥) والنجم الإسرائيلي (٦) ، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيليـــة المتأخرين من الرافضة (٧)

= " الفصـــوص " لابن عربي : " هذه الكلمات المذكورة المنكورة ؛ كل كلمة منها هي من الكفر الذي لا نزاع فيه بين أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فضلاً عن كونه كفرًا في شريعة الإسلام " (٢/١٢٢) .

(١) ابـــن خلـــدون : عبد الرحمن بن خلدون ؛ عالم دقيق الملاحظة ، مالكي المذهب درس في الأزهر، وعاش في الأندلس ومصر، له " المقدمة " الشهيرة .انظر: " المنجد في الأعلام " : (١٠)

(٢) الهروي : أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري شيخ الإسلام ، صاحب " منازل السائرين " (٣٩٦ – ٤٨١ هـ) انظر : " السير " : (١٨ / ٥٠٣) .

(٣) ابن سبعين : الفيلسوف الصوفي الإشبيلي ، عبد الحـــق بن إبراهيم (ت ٦٦٨ هـ) . انظر : " فـــوات الوفيـــات " : (٢ / ٢٥٣) .

(٤) ابن العفيف : سليمان بن علي ، كوفي الأصل ، كان يميل إلى النصيرية (ت ٦٩٠ هـ) انظر : " فوات الوفيـــات " : (٢ / ٧٢) .

(٥) ابن الفارض : عمر بن علي ، الفيلسوف الصوفي : انظر : " المنجد " : (١٢) .

(٦) الـــنجم الإسرائيل : محمد بن سوّار بن إسرائيل (٦٠٣ – ٦٧٧ هـ) . انظر : " فوات الوفيات " للكتبي : (٣ / ٣٨٣) .

(٧) الإسماعيلية : انظر : " النص المحقق " : ص (١٢٠) .

الدائنين أيضاً بالحلول وإلهيـة الأئمـة مذهباً لم يعرف لأولهـم ؛ فأُشرب كلٌ واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم " (١)

ولمـا كان الكرمى ناشئاً فى حضن التصوف ؛ كان على دراية بأقوال أهله وأسرارهم ، ولذلك فقد صدر الرسالة المحققة ((رفع الشبهـة)) بقوله : " إن كـثيراً ممـن ينتسـب إلى التصـوف قد صدرت منهم مقـالات شنيعة واعتقـادات فظيعة فى هذا الزمان وقبل هذا الزمـان .

فمنهم من يقول : إن الله تعالى يحل فى قلب العارف ... ومنهم من يقول : هـذا السرّ الذى باح به الحلاج وغيره ، وهو عندهم من الأسرار التى يكتمها العارفون ، ولا يبوحون بها إلاّ لخواصهم ... " (٢)

فلم يكن نقد الكرمى للصوفية من خلال قراءته فى كتبهم فقط إنما كان له مخالطة بهم واطلاع على أحوالهم فهو يقول :

" صرح كثير من المتصوفة أن البارى هو عين ما ظهر وما بطن من الوجود وأنـه تعالى هو العالم بأسره (٣) ، وقد شافهنى بعض مشايخهم المتعمقين بذلك .

---

(١) " مقدمة ابن خلدون " : ص (٤٤٥) .

(٢) " رفع الشبهة " : النص المحقق : ص (١١٧) .

(٣) قـال ابـن تيمية رحمه الله : " صاحب هذا الكتاب المذكور الذى هو " فصوص الحكم " وأمـثاله مـثل صـاحبه القونوى والتلمساني وابن سبعين والششتري وابن الفارض وأتباعهم مذهـبهم الـذي هم عليه أن الوجود واحد ، ويُسمون أهل وحدة الوجود ، ويدعون التحقيق والعـرفان ، وهم يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات فكل ما يتصف به المخلوقات من حسن وقبيح ومدح وذم إنما المتصف به عندهم عين الخالق ، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات منفصل عنها أصلاً بل عندهم ما ثم غيرُ أصلاً للخالق ولا سواه ، =

فقلت لــه : ومن أين دليل هذا ؟ فقال : من قوله سبحانه : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ (١)، فـإذا كان هو يقول : ﴿ **هو الظاهر والباطن** ﴾ ، تقول أنت : لا ؟! فعجبت من مقالتــه ، ومن تحسين الشيطان لعقــول هؤلاء الخــرافات والمحـــالات . فقرأ فى المجلس قـــارئ .. : ﴿ **لله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ (٢) فقلت لــه : أيها الشيـــخ ، هذه الآيـــة ترد ما قلت ، حيـــث جعل للّه ما فيهما ، فهو سبحانه غيرهما لا عينهما . فقال على الفور : لَلَّـــهُ مـــا فى السمـــوات وما فى الأرض . بفتح لام للّه . فعجبـــت من هذه الفلســـفـــة والـــزندقـــة والسفسطة المحققة . أعاذنا الله تعالى منها ومن الزيغ والضلال . " (٣)

والكرمى يلخص مذهبهم بعبارته :

" يقولـــون : سبحـــان من هو الكل ولا شيء سواه ، الواحـــد فى نفسه المتعدد بنفسه ، ويقولون :

وما أنت غير الكون بل أنت عينه ويفهم هذا السرّ من هو ذائق (٤)

= ومن كلماتهم : " ليس إلاّ الله " . " مجموع الفتاوى " (٢/١٢٤) .

(١) سورة الحديد : آية رقم (٣) .

(٢) سورة البقرة : آية رقم (٢٨٤) .

(٣) " أقـــاويل الثقات " : (١٠٨) . وانظر أيضاً الصفحات : (٩٧ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ١١٠) .

(٤) هـــذا البيت للنجم الإسرائيلى ، ذكره الكتبى فى " فوات الوفيات " ضمن ترجمته : (٣ / ٣٨٤) .

فقلت : تعاليت يا الله عن ذلك .

وما أنت عين الكون بل أنت غيره　　　ويفهم هذا القول من هو مسلم

... وتقريـــر مذهـــبهم على سبيل الإحاطة والتطويل يطول ، وحاصله : أن الـــبارى عـــندهم هـــو مجمـــوع ما ظهر وما بطن ، وأنه لا شيء خلاف ذلك . " [1]

* * *

(١) " أقاويل الثقات " : ص (١٠٩) .

ثانياً : موقفه من الطُّرقية وجهال الصوفية

تقــدم أن عصــر المؤلف كان يعج بالتصوف طرقاً وأربطة وخوانق ، وقد انتشــرت فى مصر بدع الموالد منذ العهد العبيدى ، ومع تقادم الزمن كثرت الموالــد حتى امتلأت أيام السنة بهذه الموالــد ، وامتد الاحتفــال بها فى طول البــلاد وعرضها لأناس كانوا معروفين فى حياتهم بالصلاح ، ولآخرين مجهولين بــل ولآخــرين كانوا معروفين بفسقهم أو ذهاب عقولهم . وتكفى نظرة فى طبقات الشعرانى لمعرفة أحوال هؤلاء .

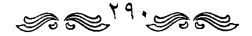
ويصــف الكرمى رحمه الله هذه الحالة البائسة التى صار إليها هؤلاء القوم بقوله :

" قد أفضى الحال إلى أن بعض القبــور ربما اجتمع الناس عندها اجتماعات كــثيرة فى مواســم معينة . وهذا بعينه هو الذى نهى عنه النبى صلى الله عليه وســلم بقولــه : ((لا تتخذوا قبرى عيداً .)) [1] ، وبقــوله : ((لعن الله الــيهــود والنصــــارى ، اتخــذوا قبور أنبيائهم مساجد)) [2] وبقوله : ((لا تــتخذوا القبور مساجد ، فإن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور

---

(١) الحديــث صــحيح : رواه أحمد : (٢ / ٣٦٧) ؛ رقم (٨٧٩٠) ، وقد حسن الإمام الألــبانى إســناد أحمد فى كتاب " تحذير الساجد " ص (٩٧) ، وأبو داود فى المناسك ؛ باب / زيارة القبور ؛ رقم (٢٠٤٢) وصححه الإمام الألبانى فى " صحيح الجامع " (٧٢٢٦) .

(٢)الحديــث : متفق عليه : رواه البخارى ؛ فى " كتاب الصلاة " ؛ باب (٥٥) حديث رقم (٤٣٥ ، ٤٣٦) ، ومسلم فى " كتاب المساجد" ؛ باب / النهى عن بناء المسجد على القبور : (٣ / ٣٤٤) ، عن عائشة وابن عباس وأبى هريرة .



مســاجد)) [1] ، مــع ما يقع فى تلك الاجتماعات من المفاسد واللغط ورفع الأصوات والإنشاد والغناء والرقص والتصفيق واختلاط الرجال بالنساء والمرْد مع مهملات قبيحة لا ينبغى ذكرها .

وكــأن النبى صلى الله عليه وسلم علم بهذا كله بإطلاع الله له على ذلك ، فنهى عن ذلك خوف المفسدة والفتنة " [2]

وهــذا الوصف الذى ذكره الكرمى ينطبق تماماً على ما نراه فى هذه الموالد فى أيامــنا هذه [3] ، وهو فى نقده لهذه الموالد وما فيها من مخالفات شرعية لا يعــدم من يرميه بالنصب والعداء لأولياء الله ليصرف الناس عن قوله ، لذلك نراه يسارع بنفى هذه التهمة عن نفسه لقطع الطريق على المغرض فيقول :

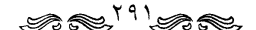
" اعــلم أن أهل القبور من الأنبياء والصالحين يكرهون ما يفعل عندهم مما نهى عنه الشرع كلّ الكراهة ؛ كما أن المسيح يكره ما يفعله النصارى بسببه ، والحسين يكره ما تفعله الرافضة بسببه ، فلا يحسب المرء المسلم أن النهى عن ذلــك فــيه غضٌّ من أصحابنا أو استهانة بهم ، أو نقص لهم ، كما قد يتوهم

---

(١) الحديث : لم أجده بهذا اللفظ ؛ والراجح أن المؤلف قدّم وآخر فى هذا الحديث الذي رواه مســلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ " ... ألا وإن من كانوا قبلكم كــانوا يــتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ... " مسلم (٥٣٢) كتاب " المساجد ومواضع الصلاة " باب / النهي عن بناء المساجد على القبور .

(٢) " شفاء الصدور " : ل ٢٠ أ ، ب .

(٣) وإنــا والله لــنألم أشــد الألم لذلك ، لما فى هذه الاجتماعات (الموالد) من التنغيص على الصــالحين ، والتلبيس على السذج وأطفال المسلمين ، والصد عن سبيل الله بحيث لو اطلع غير المسلمين عليها وظنوها من الإسلام كان ذلك حائلاً بينهم وبين قبول الإسلام .



الجـاهل ، بـل هو من باب إكرامهم ، وذلك أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن ، فنجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور المعظمين لها معرضين عن سنة ذلك المقبور وطريقته ، مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه ، وإكرام الأنبياء والصالحين إنما هو اتباع ما أمروا به ودعوا إليه من العمل الصالح ليكثر أجرهم بكثرة أجور من اتبعهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً)) (١) " (٢)

وإذا كان الغالب على رواد هذه الموالد أن يكونوا أصحاب شهوات مدعين ، فلا شك أن فيهم أيضاً أصحاب شبهات يظنون أن المقبور ينفع ويضر . فأخطئوا الحق . والكرمي يصف هؤلاء بقوله :

" تجـد أقوامـاً كثيراً ما يتضرعون عند القبور ويخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى المساجد ، وبل ولا فى أوقات السحر ، ومنهم قوم جهال يسـجدون لهـا ، ومنهم من يطوف بها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجون فى المساجد التى تشد إليها الرحال (٣) ، وتراهم

---

(١) الحديث صحيح : رواه أحمد (٣٩٧/٢) (٩١٤٩) ، ومسلم (٢٦٧٤) فى كتاب " العلم " باب / من سن سنة حسنة أو سيئة .. ، وأبو داود (٤٦٠٩) فى كتاب " السنة " باب / لزوم السنة ، والترمذى (٢٦٨٣) فى كتاب " العلم " باب / من دعا إلى هدى .. وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجة (٢٠٦) فى المقدمة ، باب / من سن سنة حسنة أو سيئة . جميعهم عن أبي هريرة ﷺ .

(٢) " شفاء الصدور " : ل ١٦ أ ، ب .

(٣) وهي الثلاثة التى سماها النبي ﷺ فى قوله : " لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : =

يزدحمون للصلاة فى مساجد القبور ، ويهجرون الصلاة فى مساجد أذن الله أن تـــرفع ، ويذكـــر فيها اسمه ، ومن أكابرهم من يقول : الكعبة فى الصلاة قبلة العامة ، والصلاة إلى قبر الشيخ فلان قبلة الخاصة . وهذا كفر بالإجماع .

ولأجل ذلك حسم صلى الله عليه وسلم مادة المفسدة حتى نهى عن الصلاة فى المقـــبرة مطلقاً وإنْ لم يقصد المصلى بركة البقعة كما يقصد بركة المساجد ، ونظـــير ذلك كما نهى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها لأنها الأوقات التى يقصد المشركون الصلاة للشمس فيها ، فينهى المسلم عن الصلاة حينئذ ؛ وإن لم يقصد ذلك . سدّاً للذريعة . "[1]

وفيما يتعلق بالعهود والمواثيق التى يأخذها المشايخ على أتباعهم ومريديهم فالغالب أنها تشتمل على حق وباطل ، ومعروف ومنكر ، ولذا ينصح الكرمى أتـــباع هؤلاء باتباع الشرع فى ذلك فما كان فيها من معروف وفَّوْا به ، وما كـــان فـــيه من منكر فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فـــ " حكم جميع العهـــود والعقود التى يأخذها المشايخ وغيرهم على الناس يوفَّى منها بما كان طاعة ، ولا يوفى منها بدين لم يشرعه الله تعالى . "[2]

* * *

= المســـجد الحـــرام ومســـجدي هذا والمسجد الأقصى . " متفق عليه : رواه البخارى (١١٨٩) فى كـــتاب " فضـــل الصـــلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ومسلم (١٣٩٧) فى كتاب " الحج " باب / لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد .

(١) " شفاء الصدور " : ل ١٥ أ ، ب .

(٢) السابق : ٢٨ أ .

ثالثاً : موقفه تجاه الصالحين من الصوفية

بعـد أن عرضنا لموقف الكرمى رحمه الله منّ فلاسفة الصوفية وجهالهم فلا شـك أن الرجل تتلمذ على مشايخ لم ير منهم إلاّ الخير والصلاح لذا لم يكن سـيء الرأى فيهم وفى أمثالهم . فهو يقول فى أحد أواخر كتبه وهو ((أقاويل الثقات)) وهو الكتاب الذى نقد فيه فلاسفة الصوفية – يقول :

" ... و نَقْـلُ هذا الذى قرّرته عن سيدى الشيخ أبى السعود الجارحى (١) المدفون بمصر ... فهذا مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم وهو الحق الذى اختاره الصوفية الكرام وفقهاء الإسلام . " (٢)

فهو يصف الصالحين منهم بالسيادة والكرم ، فالتصوف الصحيح عنده ما كان زهداً خالياً عن فلسفة الصوفية وبدعهم ، وهو بذلك يعود به إلى ما كان فى أول عهـده ؛ زهـداً يدعـو إلـيه الإسـلام ويحض عليه . لا علاقة له بالمصـطلحات الخاصـة ؛ حتى إنه ليرفض كما قدمنا كلمات من مثل القطب والوتد والبدل . وكذا يرفض التعبير عن الحب لله عز وجل بلفظ العشق حيث يقـول : " .. وأمـا العشق ؛ فالله سبحانه لا يعشق ولا يُعشق . قال الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام (٣) : لأن العشق فساد يخيل أن أوصاف المعشـوق

---

(١) هـو محمد أبو السعود الجارحى (ت ٩٣٣ هـ) من آثاره : حزب الشكوى ودفع الهم والبلوى . انظر : " إيضاح المكنون " : (١ / ٤٠١) .

(٢) " أقاويل الثقات " : (٩٧) .

(٣) عز الدين بن عبد السلام : عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقى الشافعى ،

فوق ما هى عليه . ولا يتصور ذلك هنا . " [١]

وقـــول ابـــن تيمية رحمه الله فى هذه المسألة قريب من قول الإمام العز ابن عـــبد السلام رحمه الله حيث يقول : " العشق مرض نفساني ، وإذا قوي أثر فى الـــبدن فصار مرضاً فى الجسم إما من أمراض الدماغ كالماليخوليا ؛ ولهذا قيل هـــو مـــرض وسواســـيٌّ شبيه بالماليخوليا ، وإما من أمراض البدن كالضعف والـــنحول ونحـــو ذلـــك ... والناس فى العشق على قولين : قيل إنه من باب الإرادات وهذا هو المشهور .

وقـــيل من باب التصورات ، وإنه فساد فى التخييل حيث يتصور المعشوق عـــلى ما هو به . قال هؤلاء : ولهذا لا يوصف الله بالعشق ولا أنه يعشق لأنه متره عن ذلك ، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالاً فاسداً ، وأما الأولون فمنهم من قـــال : يوصـــف بالعشق فإنه المحبة التامة والله يحب ويحب ، وروي فى أثر عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : " لا يزال عبدي يتقرب إليّ يعشقني وأعشقه " . وهـــذا قول بعض الصوفية . والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ فى حق الله ؛ لأن العشق هو المحبة المفرطة الزائدة عن الحد الذى ينبغي ، والله تعالى محبته لا نهاية لها ، فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته .

قـــال هـــؤلاء : والعشـــق مذموم مطلقاً لا يمدح ، لا فى محبة الخالق ولا المخلوق . " [٢]

= ولِّ قضاء مصر (٥٧٧ – ٦٦٠ هـــ) . انظر : " فوات الوفيات " : (٢ / ٣٥٠) .

(١) " أقاويل الثقات " : (٧٩ ، ٨٠) .

(٢) انظر : " مجموع الفتاوى " (١٠/١٢٩ – ١٣١) .

ولـــيس الصوفي عنده ممخرقاً مشعوذاً بدعوى الكرامة ، وإنما الصوفي الحق والكرامة الحقة هي المداومة على السنة ، فليس خرق العادة بغير ضورو كرامة " إنمـــا الكرامة فى الحقيقة ما نفعت فى الآخرة ، أو نفعت فى الدنيا ولم تضر فى الآخرة . " (١)

* * *

(١) " شفاء الصدور " : ل ٦٦ / أ .

موقف الكرمى مـن التأويل

أسـهمت قضـية التأويل بنصيب وافر فى توسيع دائرة الخلاف بين الفرق الإسـلامية ، وسـارت بـه إلى أبعد نتائجه خطورة ... فالفلاسفة وشاركهم الباطنـية عمدوا إلى تأويل نصوص المعاد واليوم الآخر [1] ، وهى تعدل ثلث القرآن .

والقـرامطة قـد اختصوا بتأويل العبادات [2] ، وهى ثلث القرآن أيضاً ، والمتكلمون وشاركهم الفلاسفة عمدوا إلى تأويل نصوص الألوهية وصفاها[3] ، وهـى ثلـث القرآن أيضاً . وبذلك القرآن كله قد صار مؤولاً ومصروفاً عن ظاهره لدى هذه الفرق التى اعتمدت التأويـل منهجاً فى التعامل مع نصوص الشرع . [4]

---

(١) فقـالوا : إن المعاد بالأرواح فقط دون الأجساد ، وأولوا الجنة بالسعادة الروحية ، والنار بالشـقاء الروحي . قال الشهرستاني : " الفلاسفة الإلهيون قالوا : ... وكذلك ما يخبرون به من أحـوال المعـاد من الجنة والنار مثل قصور وأنهار وطيور وثمار فى الجنة فترغيبات للعوام بما تميل إلـيه طباعهم . وسلاسل وأغلال وخزي ونكال فى النار فترهيبات للعوام بما تنزجر عنه طباعهم وإلا ففـي العـالم العلـوي لا يتصور أشكال جسمانية وصور جرمانية . " . " الملل والنحل " (٢/ ٣ ، ٤) .

(٢) " تهـدف دعوتهـم فى عمومهـا إلى نشر الإلحاد وإبطال الشرائع وتعطيلها " . دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة " ص (٢٩١) .

(٣) وهو تعطيل المتكلمين : الجهمية والمعتزلة والأشاعرة .

(٤) انظر : " ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل " لأستاذنا د/ محمد السيد الجليد : ص (١١)

ولأهمية قضية التأويل فى الفكر الكلامى أفردت هذا المبحث لمعرفة موقف الكرمى من التأويل .

وقـبل الخـوض فى دراسـة موقف الكرمى . ينبغى أن نعرف التأويل لغة واصطلاحاً .

أولاً : التأويل لغة : من الأَوْلِ . أى : الرجوع إلى الأصل .

ومـنه المؤئـل للموضع الذى يرجع إليه . وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المـرادة منه علماً كان أو فعلاً . ففى العلم نحو : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ (١) ... وفى الفعل كقولـه تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** ﴾ (٢) أى : بيانه الذى هو غايته . (٣)

ثانـيـاً : الـتأويل اصـطلاحاً : قد صار لفظ التأويل مستعملاً فى ثلاثة معانى :

الأوّل : هـو اصـطلاح كـثير من المتأخـرين من المتكلمـين فى الفقه وأصـولـه وهو : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليل يقترن به . وهو الذى عناه أكثر من تكلم من المتأخرين فى تأويل نصوص الصفات ؛ وتَرْكِ تأويلها ؛ وهل ذلك محمود أو مذموم أو حق أو باطل . (٥)

---

(١) سورة آل عمران : آية رقم (٧) .

(٢) سورة الأعراف : آية رقم (٥٣) .

(٣) انظر : " المفردات فى غريب القرآن " للراغب الأصفهانى : (٣١) ، و " لسان العرب " لابن منظور : (١٧١) .

(٥) انظـر : " اللسـان " : (١٧٢) ، و " الـتعريفات " : (٤٣) ، و " شرح الطحاوية " : (٢١٥) ، و " مجموع الفتاوى " : (٣ /٥٥) ، و " إيثار الحق " : (٩١) ، =

الـثاني : التأويل بمعنى التفسير ، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير (١) .

الثالـث : " من معاني التأويل هو الحقيقـة التي يؤول إليها الكلام كما في قولـه تعـالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ (٢) فتأويل ما في القرآن من أخبار المعـاد هـو ما أخبر الله به فيه مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك . " (٣)

ونلاحـظ أن المعـنى الأول مـن معـاني التأويل هو المراد عند المتكلمين وهـو الذي ندرس موقف الكرمي منه . وقد عرف الكرمي نفسه التأويل بهذا المعـنى في أقاويل الثقـات فقال : " التـأويل : هو أن يراد باللفظ ما يخالف ظاهـره . أو هـو صـرف اللفـظ عن ظاهره لمعنى آخر . وهو في القرآن كثير . " (٤)

= و " لوامـع الأنوار " (١٠٢/١) ، و " مختصر الصواعق " : (١١/١) ، و " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن " للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٢٣٤/١) .

(١) انظر : " تفسير ابن جرير " : (٦ /٢٠٤) ، وما بعدها ، و " البرهان " للزركشي : (٢ / ١٤٩) ، ومختصر الصواعق : (١٠/١) ، و " شرح الطحاوية " : (٢١٣) ، و " إيثار الحق " : (٩١) ، و " مفاتيح الغيب " : (٧ /١٧٩) ، و " مجموع الفتاوى " : (٣ / ٥٥) .

(٢) سورة الأعراف : آية : (٣٥) .

(٣) " مجمـوع الفتاوى " : (٦٦/٣) ، وانظر : " مختصر الصواعق " : (١٠/١) وما بعدها ، و " إيثار الحق " : (٩١) ، و " شرح الطحاوية " : (٢١٣) .

(٤) " أقاويل الثقات " : (٤٨) .

فنأخذ من قول الكرمي :

" وهـــو فى القـــــرآن كثير " أنه يقول بالتأويـــل ويشهد لما ذهبت إليه نصوص كثيرة للكرمى ؛ منها قوله فى أقاويل الثقات بعد كلام للفخر الرازى فى الصفات .

" قلـــت : وعــلى هـــذا الضابط فكذلك يقال فى الرضا والكرم والحلم والشـــكر والمحـــبة ونحـــو ذلك . فإن الظاهر أن هذه كلها فى حقنا كيفيات نفســـانية "[1] فقد وافق الكرمى الرازى فى أن كل صفة من هذه الصفات لها أول وآخـــر فـــتحمل فى حق الله تعالى على آخرها " فالغضب أوله غليان دم القلب ،وغايته إرادة إيصـــال الضرر إلى المغضـــوب عليه ، فلفظ الغضب فى حـــق الله تعـــالى لا يحمـــل على أوله الذى هو غليان دم القلب بل على غايته أو غرضه الذى هو إرادة الإضرار "[2] .

فهـــذا تأويل صريح يخالف مذهب الحنابلة الذى ينتمى الكرمى إليهم وقال فى صـــفة المجـــئ لله تعـــالى : " قال مسلمة بن القاسم[3] فى كتاب ((غرائب الأصول)) : حديث تجلى الله يوم القيامة ومجيئه فى ظلل من الغمام محمول على أنـــه تعالى يُغير أبصار خلقه حتى يروه كذلك ، وهو على عرشه غير متغير عن عظمته ، ولا منتقل عن ملكه " .

---

(١) " أقاويل الثقات " : (٧٥) .

(٢) السابق : (٧٤) .

(٣) مسلمة بن القاسم بن إبراهيم ، الأندلسى القرطبى . لم يكن ثقة ، حُفظ عليه كلام سوء فى التشبيه . (ت ٣٥٣ هـــ) . انظر : " السير " : (١٦ / ١١٠) .

ثم عقب الكرمى على هذا الكلام بقوله :

" وهو تأويل حسن يطرد فى كثير من المواضع " [١] .

فهــذه النصوص تدل دلالة قاطعة على أن الكرمى ينهج طريق التأويل فى باب الأسماء والصفات .

إلاّ أنــنا نجد له نصوصاً أخرى يرفض فيها التأويل ويذمه ويحذر منه ؛فمن هــذه النصــوص قوله : " ... اعلم أن من المتشابهات آيات الصفــات التى التأويل فيها بعيد فلا تؤول ولا تفسر ، وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها . " [٢]

وقــال أيضاً : " ذكرت فى كتابى ((البرهان فى تفسيرالقرآن)) عند قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ [٣] ــ وبعد أن ذكــرت مذاهب المتأولين ــ أن مذهب السلــف هو عدم الخــوض فى مثل هذا ، والسكــوت عنه ، وتفويــض علمه إلى الله تعالى . " [٤]

فهذه النصوص المتكافئة فى قبول التأويــل والردّ له تظهر تردد الكرمى فى هــذه المســألة ، وعــدم سيره على منهج واحد . بل نراه أحياناً ينهج طريق

---

(١) " أقاويل الثقات " : (١٩٧ ، ١٩٨) .

(٢) المرجع السابق : (٦٠) .

(٣) سورة البقرة : آية (٢١٠) .

(٤) " **أقاويل** الثقات : (٦١) ، وقد نقل نصوصاً كثيرة فى التحذير من التأويل عن أم سلمة رضى الله عنها ، وعن الترمذى واللالكائى ، وابن عباس والزهرى وابن خزيمة وأحمد وغيرهم .

الـــتأويل ، وأحـــيانا يخالفه . وقد صور موقفه هذا نص واحد له جمع فيه بين القولين ؛ حيث قال :

" ذكـــر الشـــيخ السُّهروردى [1] فى كتاب العقائد : " أخبر الله تعالى أنه اســـتوى عـــلى العرش ، وأخبر رسوله بالنـــزول ، وغير ذلك مما جاء فى اليد والقدم والتعجب ، فكل ما ورد من هذا القبيل دلائل التوحيد ، فلا يُتصرف فيه بتشبيه ولا تعطيل ، فلولا إخبار الله تعالى وإخبار رسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى ، وتلاشى دونه عقل العقلاء ولب الألباء .

قال الطيـــبى : هذا المذهب هو المعتمد عليه . وبه يقول السلف الصالح ، ومـــن ذهب إلى التأويل شرط أن يكون مما يؤدى إلى تعظيم الله تعالى وجلاله وكـــبريائه ، ومـــا لا تعظـــيم فيه فلا يجوز الخوض فيه . فكيف بما يؤدى إلى التجسيم والتشبيه ؟ انتهى "

ثم عقب الكرمى على ذلك :

" وهو كـــلام فى غاية التحقيـــق إلاّ أن تَرْك التأويـــل مطلقاً وتفويـــض العلـــم إلى الله أسلـــم . " [2]

والمـــأخوذ من هذا النص أن الكرمى يرى ترك التأويل أولى حتى وإن كان الـــتأويل بهدف التنـــزيه لله تعالى وإجلاله وإعظامه ؛ إلاّ أن ترك التأويل عنده

(١) أبو النجيب السهروردى عبد القاهر بن عبد الله (٤٩٠ – ٥٦٣) .
انظـــر : " السير " : (٢٠ / ٤٧٥) ، وانظر : النص فى ((آداب المريدين)) له بتصرف : (١٦ ، ١٧) .

(٢) " أقاويل الثقات " : (١٦٢) .

يعنى التفويض وعدم العلم فهو أسلم لا أعلم ، وفى ذلك نسبة الجهل للقائلين بعـدم الـتأويـل ، وهو قول لا يُوافَقُ الكرمى عليه ، فترك التأويل لا يعنى الجهـل بـالمعنى وإنما يعنى عدم العلم بالكيف وليس ذلك جهلاً ، ولم يطالبنا الشرع بمعرفة الكيف ، وليس يسع أحداً غير الله تعالى علمُه .

وهو يقول بالتفويض فى مواضع أخرى منها قوله :

" أسـلم الطـرق التسليـم ، فما سلم دين من لم يسلّم لله ورسـوله ، ويـرد عـلم ما اشتبه إلى عالمـه . ومن أراد علم ما يمتنع علمـه ، ولم يقنع بالتسـليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافى المعرفة والإيمـان . والتعمـق فى الفكر ذريعة الخـذلان وسلـم الحرمـان ... " [١]

هـذا ، والكـلام فى الـتأويل أو التفويض مبنى على اعتبار كون آيات وأحاديـث الصـفات من المحكم أو من المتشابه ، وهذا يجرنا إلى دراسة هذه المسألة ، ومن ثم التعرف على موقف الكرمى منها .

* * *

---

(١) " أقاويل الثقات " : (٦٧) .

موقفـه مـن المحكـم والمتشـابـه

المحكم لغـة : هو المتقن ، يقال : أحكم الأمر : أتقنه .(١)

والمتشابه لغة : ما كان يشبه بعضه بعضاً .(٢)

أما تعريفهما من حيث الاصطلاح فقد ذكر الكرمى اختلاف أهل العلم فى ذلك فى أول كتابه أقاويل الثقات فقال :

" اخـتلفوا فى المحكم والمتشابه ، فقيل : المحكم ما وضح معناه ، والمتشابه نقيضه .

وقـيل : المحكـم مـا لا يحتمل من التأويل إلاّ وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احـتمل أوجهـاً . وقـيل المحكم ما تأويله تنزيله ، والمتشابه ما لا يُدرى إلاّ بالتأويل .

وقيل : المحكم مالم تتكرر ألفاظه ، والمتشابه القصص والأمثال .

وقـيل : المحكم ما يعرفه الراسخـون فى العلم ، والمتشابه ، ما ينفرد الله بعـلمه ، وقـيل : المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وما سوى ذلك محكم . " (٣)

---

(١) انظر : " اللسان : (٩٥٣) .

(٢) السابق : (٢١٩٠) .

(٣) " أقـاويل الـثقات " : (٤٩) ، وانظـر فى ذلك : " تفسير الطبرى " : (٦ / ١٧٤) ومـا بعدهـا ، والقـرطبى : (٤ / ٩) وما بعدها ، والرازى : (٧ / ١٨٣) ، وما بعدها ، وابن كثير : (١ / ١٤٥) . =

ونحـــن نلاحظ أن هذه التعريفات جعلت المحكم قسيم المتشابه ، فما كان محكمـــاً لا يكون متشابهاً ، وما كان متشابهاً لا يكون محكماً . وهذا الإحكام والتشـــابه بالنظر إلى الاصطلاح أما من جهة اللغة ، فيصح وصف القرآن كله بالإحكام كما يصح وصفه كله بالتشابه .

وقد أشار الكرمى إلى ذلك فقال :

" قـــد اختلفوا ، فقيل : القرآن كله محكم لقوله تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ** ﴾ (١)، وقيل : كله متشابه لقوله تعالى : ﴿ **نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً** ﴾ (٢) والأصح انقسامه إليهما (٣) ، والمراد بـــ (أحكمت آياته) : أتقنت ونـــزهت عن نقص يلحقها . وبـــ (متشابهاً) أنه يشبه بعضه بعضاً فى الحق والصدق والإعجاز . " (٤)

وقد ذكر الزركشى فى البرهان ذلك النوع من التشابه قائلاً :

" فهو يشابه بعضه بعضاً فى الحـــق والصـــدق والإعجـــاز والبشـــارة

= يقول الشنقيطي : " ومعنى أن منه آيات محكمات وأخر متشابهات اختلف فيه اختلافاً مبنيًّا عـــلى الاختلاف فى معنى الواو فى قوله : " والراسخون فى العلم " فمن قال إن الواو استئنافية ، والراســـخون مبـــتدأ خبره جملة " يقولون آمنا به " والوقف تام على قوله " إلا الله " فإنه يفسر المتشابه بأنه ما استأثر الله بعلمه ، وعلى هذا القول أكثر أهل العلم " . " مذكرة أصول الفقه " ص (٦٣) .

(١) سورة هود : آية رقم (١) .

(٢) سورة الزمر : آية رقم (٢٣) .

(٣) يعنى : اتصافه بهما ، يشهد لذلك بقية النص .

(٤) " أقاويل الثقات " : (٤٨ ، ٤٩) ، وانظر : " مذكرة أصول الفقه " ص (٦٣) .

والنــذارة وكل ما جاء به وأنه من عند اللــه ... " [1]

فــلا نــزاع فى اتصــاف القــرآن بهذا التشابه ، والمتكلم فيه برىء من وصمه بالزيغ والضلال المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ [2]

أمــا التشــابه الخــاص الــذى هو قسيم الإحكــام الخــاص فقد عرفه الراغــب بقولــه :

" هــو ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره ... " [3] وقال الجرجانى : " هو ما خفى بنفس اللفظ ، ولا يرجى دركه أصلاً ؛ كالمقطعات فى أوائل السور ." [4] وقــال الرازى : " هو أن يكون أحد الشيئين مشابهاً للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز ... ومنه يقال : اشتبه علىَّ الأمران . إذا لم يفرق بينهما ...

ثم لمــا كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما ؛ سُمى كل ما لا يهتدى الإنسان إليه بالمتشابه . " [5]

ويلاحظ على هذه التعريفات جميعها التسوية بين المتشابهين من كل وجه ، وهذا خلاف المعروف من التشبيه فى اللغة والعرف والواقع .

---

(١) " الـبرهان فى علوم القرآن " : (٢ / ٧٠) ، وانظر : " مجموع الفتاوى " : (٣ / ٥٩ – ٦١) .

(٢) سورة آل عمران : آية رقم (٧) .

(٣) " المفردات " : (٢٥٤) .

(٤) " التعريفات " : (١٧٦) .

(٥) " مفاتيح الغيب " : (٧ / ١٨٠ ، ١٨١) .

وقد لفت ابن تيمية الأنظار إلى هذه الحقيقة قائلاً :

" التشابـــه الـــخاص مشابهة الشيء لغيره من وجه مع مخالفته له من وجه آخـــر ؛ بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو ؛ أو هو مثله . وليس كذلك . والإحكام هو الفصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر . وهذا التشابه إنما يكون بقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما . ثم من الناس من لا يهتدى للفصل بينهما فيكون مشتبهاً عليه ، ومنهم من يهتدى إلى ذلك . " (١)

أمـــا الكـــرمى فـــيرى أن المتشـــابه نوعان ؛ نوع يمكن معرفته وعلمه ، أما الآخر فلا يمكن معرفته ، إنما هو مما استأثر الله تعالى بعلمه . حيث أورد فى ((أقاويله)) نصاً للقرطبى واصفاً إياه بالتحقيق . قـــال :" قـــال القرطـــبى : المتشـــابه يتنوع ، فمنه ما لا يعلم ألبتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بغيـــبه ، وهـــذا لا يتعاطى علمه أحد ... وأما ما يمكن حمله على وجوه اللغة ومناح فى كلام العرب فيتناول ويعلم تأويله المستقيم " (٢)

إذا تقـــــرر هـــذا ؛ فما مكانة الأسمـــاء والصفـــات من هذه المسألة ؟ وما موقف الكرمى منها ؟ هذا ما أحاول الإجابة عنه فى المبحث التالى .

* * *

---

(١) " مجمـــوع الفتاوى " : (٣ / ٦٢) . وهذا التفصيل والإيضاح والبيان لا تكاد تجده إلاَّ عند ابن تيمية رحمه الله .

(٢) " أقاويل الثقات " : (٥٤) ، وانظر : نص القرطبى فى " تفسيره " : (٤ / ١٨) .

الأسماء والصفات بين الإحكام والتشابه

١- اختلف الناس فى هذه المسألة . فقال ابن جرير رحمه الله :

" المتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه ؛ وذلـك نحو : الخبر عن وقت مخرج عيسى ابن مريم ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة ، وفناء الدنيا ، وما أشبه ذلك ، فإن ذلك لا يعلمه أحد ... " (١)

ونحـن نلاحـظ أن ابن جرير لم يجعل آيات الصفات من قبيل المتشابه فى الأمثلة التى ذكرها للمتشابه ، وهو يستدل لذلك بقوله :

" جميـع مـا أنزل الله عز وجل من آى القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فإنما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدىً للعالمين . وغير جائز أن يكون فيه مـا لا حاجة بهم إليه ، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل . " (٢)

ولا يتناسـب مع هذا الغرض من القرآن أن تكون آيات التوحيد كلها من المتشابه الذى لا يعلم .

إذا كـان هذا رأى الإمام ابن جرير الطبرى شيخ المفسرين ، فإن القرطبى والرازى يريانها من قبيل المتشابه . يقول القرطبى :

---

(١) " تفسير الطبرى " : (٦ / ١٧٩) .

(٢) السابق : (٦ / ١٨٠) .

" متـبعو المتشـابه لا يخلـو أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك فى القرآن وإضـلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون فى القرآن ؛ أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسنة مما ظاهـره الجسـمية حتى اعتقدوا أن البارى تعالى جسم مجسم وصورة مصورة ذات وجـه وعين وجنب ورجل وإصبع – تعالـى الله عن ذلك – أو يتبعوه عـلى جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها ، أو كما فعل صبيغ حين أكثر على عمر فيه السؤال . فهذه أربعة أقسام . " (١)

ففـي قولـه : " متبعو المتشابه " وقوله : " طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه " مـا يـدل على أن القرطـبى يعد آيات الصفـات من المتشـابه ، وفعله فى تفسير هذه الآيات أيضاً يشهد لذلك .

أمـا الـرازى فيوافق القرطبى فى هذا القدر ثم يزيد عليه بأن هذه الآيات المتشابهات تصير فى حق من اتبع قانون التأويل محكمات ؛ حيث يقول :

" إن القـرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية . وطبانع العوام تنبو فى أكثر الأمر عن إدراك الحقائق ، فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه ؛ ظن أن هذا عدم ونفيٌ ، فوقع فى التعطيل . فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه ، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح .

فالقسـم الأول وهـو الذى يخاطبـون به فى أول الأمـر يكون من باب المتشابـهات .

---

(١) " تفسير القرطبى " : (٤ / ١٣ ، ١٤) .

والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات " [1]

ومن ذهب إلى ذلك أيضاً الراغب الأصفهاني في كتابه " المفردات في غريب القـرآن " [2] ، وابـن الوزيـر اليمني في كتابه " إيثار الحق على الخلق " ، واستدلوا لمذهبهم بأن تلك الصفات لا تتصور لنا إذ كان لا يحصل في نفوسنا صـورة مـالم نحسّه أو لم يكن من جنس ما نحسّه ، وأن الذي يتصور إنما هو المخلوقات .

يقول ابن الوزير : " والذي وضح لي وضوحاً لا ريب فيه بحسن توفيق الله أمـور . أحدها : أن الكلام في ذات الله تعالى على جهة التصور والتفصيل ، أو عـلى جهة الإحاطة على حد علم الله كلاهما باطل بل من المتشابه الممنوع الـذي لا يعلمه إلا الله تعالى ؛ لقوله تعالى ﴿ **ولا يحيطون به علما** ﴾ ولقوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ وإنما تتصور المخلوقات وما هو نحوها ، ولما روي من النهي عن التفكر في ذات الله ، والأمر بالتفكر في آلاء الله . " [3]

* * *

---

(١) " التفسير الكبير " : (٧ / ١٨٦) .

(٢) انظر : ص (٢٥٤) .

(٣) انظر : ص (٩٣) .

موقــف الكرمــى فى هــذه المسألــة

يــرى الكرمى آيات الصفات من قبيل المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلاّ الله حيــث حكــى قــول الراغــب فى هذه المسألة " المتشــابه من حيث المعنى أوصــــاف الله تعــالى ... " ثم عقــبه بقولــه : " وهو كلام فى غاية الحسن والتحقــيق . " (١) ، بــل إنه يذهب إلى أبعد من كون ذلك رأياً رجحه هو ، إلى أن يجعلــه رأى السلــف على وجه العموم والحنابلة على وجه الخصوص . قال :

" واختلفوا : هل يجــوز الخــوض فى المتشابــه على قولــين :

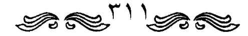
مذهــب الســلف وإليه ذهب الحنابلة وكثير من المحققين عدم الخوض – خصوصــاً فى مسائل الأسماء والصفات – فإنه ظن ، والظن يخطىء ويصيب ، فــيكون من باب القول على الله بلا علم . وهو محظور . ويمتنعون من التعيين خشــية الإلحاد فى الأسماء والصفات . ولهذا قالوا : " والسؤال عنه بدعة " (٢) فإنــه لم يعهد من الصحابة التصرف فى أسمائه تعالى وصفاته بالظنون . وحيث عملــوا بالظنون فإنما عملوا بها فى تفاصيل الأحكام الشرعية ، لا فى المعتقدات الإيمانية " (٣)

---

(١) " أقاويل الثقات " : (٥٥) .

(٢) يشير إلى الأثر المروي عن أم سلمة رضى الله عنها ومالك بن أنس رحمه الله – وهو مشهور عــنه – حيــنما سأله سائل عن الاستواء فقال : " الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .." وقد خرجته فى مبحث الاستواء من هذه الرسالة .

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .



ولقـــد كان ابن تيمية رحمه الله أدق من الكرمى فى تقريره هذا ، فلم يجعل هـــذا القول مذهباً للسلف ولا لجملة الحنابلـــة – كما قـــرر الكـــرمى – بل ذكـــر أنـــه مذهب بعض الحنابلة ؛ وليس هو المذهب الصحيح عند جميعهم ؛ حيث يقول :

" وأمـــا إدخـــال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلاّ الله ، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذى استاثر الله تعالى بعلم تأويله كمـــا يقـــول كلٌّ واحدٍ من القولين طوائفُ من أصحابنا [يعنى : الحنابلة] وغيرهـــم ... فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد ابن حنـــبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل فى هذه الآية ونفى أن يعلم أحـــد معـــناه ، وجعلـــوا أسماء الله وصفاته بمنـــزلة الكلام الأعجمى الذى لا يُفهم . " (١)

وقـــد تـــابع الســـفارينى – وهو حنبلى متأخر يعتمد كتب الكرمى كثيراً فى كتابـــه لوامـــع الأنـــوار – تابع الكرمى فى هذه المسألة فقال :

" كل ما جاء عن الله تعالى فى القرآن العظيم من الآيات القرآنية ، أو صح مجيئه فى الأخبار بالأسانيد الثابتة المرضية ... مما يوهم تشبيها أو تمثيلاً فهو من المتشابه الذى لا يعلمه إلاّ الله .

نؤمـــن به وبأنه من عنـــد اللـــه ، ونُمرُّه كما جاء عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم . " (٢)

---

(١) " مجموع الفتاوى " : (١٣ / ٢٩٤ ، ٢٩٥) .
(٢) " لوامع الأنوار " : (١ / ٩٥) .

وقد أجمل الزركشى – وهو ممن يذهب إلى أنها من المتشابه – مذاهب الناس فى آيات الصفات فقال : " اختلف الناس فى الوارد منها فى الآيات والأحاديث على ثلاث فرق :

أحدهـــا : أنه لا مدخل للتأويل فيها ، بل تجرى على ظاهرها ، ولا نؤول شيئاً منها . وهم المشبهة (!!)

والـــثانى : أن لها تأويلاً ، ولكنا نمسك عنه مع تنـــزيه اعتقادنا عن الشبه والتعطيل ، ونقول : لا يعلمه إلاّ الله . وهو قول السلف .

والثالث : أنها مؤولة . وأولوها على ما يليق به .

والأول باطل . والأخيران منقولان عن الصحابة ... ونحن نجرى على طريق المؤولين حاكين كلامهم . " (١)

وتعقيباً على هذه المسألة يقول أستاذنا الدكتور محمد السيد الجليند :

" إن شأن جميع آيات القرآن التى تتصل بصفات الله تعالى أو تتحدث عنه أو عن القيامة والبعث لم نكلف إلا معرفة معناها فقط ومعنى ما تدل عليه .

أما البحث فى كيفيتها وحقيقتها فهذا هو التأويل المحجوب عنا ، لأن ذلك من الغيوب التى استأثر الله بعلمها حيث لا يعلم تأويلها إلاّ الله ...

ولقـــد نشـــأ الغلط فى ذلك من خلط المتأخرين بين علم معنى الآية الذى خوطبـــنا بـــه وبين تأويلها الذى هو حقيقتها المحجوب عنا ولم يفرقوا بين معنى الآيـــة وبين تأويلها ، وزعموا أن السلف حين تناهوا فيما بينهم عن الخوض فى

(١) " البرهان " : (٢ / ٧٨ – ٨٠) .

هـــذه الآيـــات أنهم نهوا أنفسهم عن البحث فى معناها لأنها من المتشابه الذى لا يعلمه إلاّ الله . وهذا غلط نشأ من عدم التفرقة بين المعنى وبين التأويل .

فـــالذى كـــفّ الســـلف أنفســـهم عن الخوض فيه هو البحث فى كيفية الصفة . " (١)

فابن تيمية وهو من هو إحاطة بالمذاهب الكلامية ونشأة المقالات وتطورها يقول إنه لا يعلم أحداً من السلف والأئمة المتبوعين قال إن آيات الصفات من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إ لاّ الله . (٢)

وأما المفوضة فى باب الأسماء والصفات فحقيقة قولهم أن الله تعالى :

" لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقده ، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والردّ إليه (٣) لم يبين به الحق ولا كشفه " (٤) .

وجملة القول فى هذا المبحث :

أن آيات الصفات وأحاديثها من المحكم الذى نعلم معناه ، ولا نعلم حقيقة كـــنهه . وأن مذهب السلف تفسيرها وتأويلها – بمعنى تَدَبُّر وتَفَهُّم معناها – لا بمعنى صرف الألفاظ عن ظواهرها ؛ فإن هذا المعنى للتأويل لم يكن معروفاً فى

---

(١) " موقف ابن تيمية من قضية التأويل " : (٦٣) .

(٢) انظر : " مجموع الفتاوى " : (١٣ / ٢٩٤) وما بعدها .

(٣) يعنى عند التنازع .

(٤) " موافقـــة صـــحيح المـــنقول لصريح المعقول " لابن تيمية (١ / ١٥٧) . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

كـــلام العرب ، ولا جاء فى كتاب الله عز وجل ولا فى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا فى كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

وأن الـــتفويـــض لـــيس مذهب السلـــف ولا محققـــى الحنابلـــة . وأن مذهب الكرمـــى فى هـــذه المسألـــة أن الصفـــات من المتشابـــه وقد تردد مذهـــبـــه فـــيها بين الأخـــذ بالتأويـــل بالمعنى الكـــلامى وتركه ، وحينما رجـــح تركـــه كان ذلك منه جنوحـــاً للتفويض .

* * *

مبحث : موقف الكرمى من منهــج السلــف

تــوفى الكــرمى – رحمه الله تعالى – سنة ثلاث وثلاثين وألف من الهجرة ١٠٣٣ هـــ . وقد ألف كتابه ((أقاويل الثقات فى الأســماء والصفات)) سنة اثنتين وثلاثين وألف من الهجرة ١٠٣٢ هــ . أى قبل وفاته بسنة أو أقل فعلى آرائه فى هذا الكتاب المعتمدُ عند تعارض آرائه .

وقد قال الكرمى فى آخر هذا الكتاب :

" بمذهـــب السلف أقول ، وأدين الله تعالى به ، وأسأله سبحانه الموت عليه مع حسن الخاتمة فى خير وعافية . " (١)

وهـــو ينصح باتباع مذهب السلف كل من تبلغه دعوته هذه امتثالاً لقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((لا يؤمن أحـــدكم حتى يـــحب لأخيه ما يحب لنفســـه)) (٢) ، ولقوله : ((الدين النصيحة)) (٣) وقد صاغ ذلك بعـــبارة رائقـــة : " فعليك – وفقك الله – باتباع ما قام عليه الدليل ، وإياك

(١) " أقاويل الثقات " : ص (٢٠٠) .

(٢) الحديـــث مـــتفق علـــيه ؛ رواه البخارى فى " كتاب الإيمان " ؛ باب / من الإيمان أن يحب لأخـــيه ما يحب لنفسه (١٣) ، ومسلم فى " كتاب الإيمان " ؛ باب / خصال الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك (١ / ٢٢٠) .

(٣) الحديـــث : رواه مســـلم فى كـــتاب " الإيمان " : (١ / ٢٣٧) ، والترمذى : فى " البرّ والصـــلة " ؛ باب / ما جاء فى النصيحة (١٩٣٢) ، والنسائى فى " البيعة " ؛ باب / النصيحة للإمام (٤٢٠٨) ، وأبو داود فى " الأدب " ؛ باب / فى النصيحة (٤٩٤٤) .

وزخرف الأقاويل واتباع الأباطيل ، والزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وإنْ أنكـــر عليك من أنكر ، أو أبى[1] قبوله الجاهل واستكبر ، ، واحرص على التمســـك بالســـنة باطـــناً وظاهراً فى خاصتك وخاصة من يطيعك ، واعرف المعـــروف وأنكر المنكر ، ، وادع الناس إلى السنة بحسب الإمكان ، ولا ترجع إلى قـــول من يخالف الفقهاء كائناً من كان ، وإن عارضك معارض فأقم عليه الدليل بالأحاديث الصحيحة وأقوال الأئمة الصريحة ، وتمسك بطريق السلف الصـــالح لا سيما الخلفاء الراشدين ، ولا تغتر بما يفعله كثير من الجاهلين وإن كـــانوا فى نفـــس الأمر من الصالحين فإنهم غير معصومين ، ففى الصحيح عن عائشـــة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) (1) " (2)

وقـــال فى موضـــع آخر : " فانظر – رحمك الله – إلى السلف وطريقتهم وكن على مثل ما كانوا تربح ، وإياك ومحدثات الأمـــور المخالفة لطريقتهم ؛ فـــإنك إن ركبـــتها تضـــل وتخسر ، ولا تعتبر بما غلب على الطبـــاع وألفته العـــــادات الفاســـدات ، وإيـــاك وموافقة الغوغـــاء وأرباب الجهالة تقع فى الضلالة " (3) .

والسلف الذين دعا الكرمى إلى التمسك بمذهبهم هم الذين شهد لهم النبى ﷺ بالخيرية حيث قال : ((خير النـــاس قرنى ثم الذين يلونهـــم ثم الذين

---

(1) الحديـــث : مـــتفق عليه ؛ رواه البخارى فى " الصلح " ؛ باب / إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧) ، ومسلم فى " الأقضية " (٥ / ٣١٢) .

(٢) " شفاء الصدور " : مخطوط : ل ١ ب ، ٢ أ .

(٣) السابق : ل ٣٧ أ .

يلونـــهم)) [1] .

" والسنة هى ما تلقاه الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقاه عـــنهم التابعون ثم تابعوهم إلى يوم القيامة " [2] . فهي التطبيق العملي لكتاب الله تعـــالى ، وهي حقيقة الإسلام وهدي خير الأنام ، وهي الصراط المستقيم ؛ من سار عليه أوصله إلى الجنة ، وليس إلى الجنة طريق سواها .

وقد اشتهر انتساب الكرمى إلى المذهب الحنبلى حتى إنه ليلقب بالحنبلى ، وقـــد كتـــب فى فـــروع المذهب كتباً لقيت شهرة وقبولاً عند الحنابلة ؛ منها ((غاية المنتهى فى الجمع بين الإقناع والمنتهى)) ، و ((دليل الطالب)) الذى شُرح شروحاً عديدة .[3]

والـــذى يعنيـــنا هنـــا :

ماذا يعنى انتماء الكرمى للمذهب الحنبلى من الناحية العقدية ؟ وهل يتميز الإمام أحمد عمن سبقه من الأئمة بشيء فى هذا الباب ؟

عاصـــر الإمـــام أحمد من تسلُّطِ البدع ما لم يكن كذلك فى عهد سلفه من الأئمة ، فرد هذه البدع بالكتاب والسنة وآثار السلف فكلامه رحمه الله فى هذا الباب " جار على كلام من تقدم من أئمة الهدى ، ليس له قول ابتدعه ، ولكن أظهر السنـــة وبينهـــا ، وذَبَّ عنها ، وبين حال مخالفيهـــا ؛ وجاهد عليها ، وصبر على الأذى فيها لَمّا أُظهرت الأهواء والبدع .

---

(١) الحديث : متفق عليه ، وتقدم تخريجه فى مبحث موقفه من الفلاسفة ص (٢٧٠) .

(٢) " مجموع الفتاوى " : (٣ / ٣٥٨) .

(٣) انظر : مبحث مؤلفات الكرمى .

وقـــد قال تعالى ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [١] فبالصبر واليقين تُنال الإمامة فى الدين . فلما قام بذلك قُرنـــت باسمـــه من الإمامة فى السنة ما شُهر به ، وصار متبوعاً لمن بعده ، كما كان تابعاً لمن قبله . " [٢]

وكـــلام أبي الحسن الأشعرى فى شأن الإمام أحمد معروف مشهور ؛ قال فى الإبانة : " ... وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل – نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ؛ لأنه الإمـــام الفاضل والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق ، ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وجليل معظم مفخم " [٣] .

وبعـــد أن ذكر جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة قال : " فهذه جملة مـــا يأمـــرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب ... " [٤]

فلا عجب إذاً أن يقرّر الكرمى دائماً حنبليته قائـــلاً :

لئن قلد النـــاس الأئمـــة إننى ... لفى مذهب الحبر ابن حنبل راغب
أقلد فتـــواه وأعشـــق قولـــه ... وللناس فيما يعشقـــون مذاهـــب

---

(١) السجدة : (٢٤) .
(٢) " مجموع الفتاوى " : (٣ / ٣٥٨) ، وانظر : (١٢ / ٤٣٨ – ٤٤١) .
(٣) " الإبانة " : (٨ ، ٩) .
(٤) " مقالات الإسلاميين " . ط الذخائر . ص (٢٩٧) .

والسـؤال الآن :

هـل يكفـى مجرد الانتساب لمذهب الإمام أحمد دليـلاً على موافقته فى تفاصيل مسائل الاعتقاد ؟

يجيب على هذا التساؤلِ الحنبليُّ المنصفُ ابن تيمية رحمه الله فيقول :

" مـا زال فى الحنبلـيـة مـن يكون ميله إلى نوع من الإثبـات الذى ينفـيه طائفـة أخـرى منهم ، ومنهم من يمسك عن النفى والإثبات جميعاً . ففيهم جنس التنازع الموجود فى سائر الطوائف لكن نزاعهم فى مسائل الدقّ ، وأمـا الأصـول الكـبار فـإنهم متفقون عليها . ولهذا كانوا أقل الطوائف تـنازعاً وافـتراقاً لكـثرة اعتصـامهم بالسنة والآثار . لأن للإمام أحمد فى بـاب أصـول الدين من الأقوال المبينة لما تنازع فيه الناس ما ليس لغيره ... ولهـذا كـان جمـيع مـن ينتحل السنة من طوائف الأمة فقهائها ومتكلميها وصوفيتها ينتحلونه " [(١)]

فالحـنابلة لـيس " فـيهم مـن الغلو ما ليس فى غيرهم ، بل من استقرأ مذاهـب الـناس وجد فى كل طائفة من الغلاة فى النفى والإثبات ما لا يوجد مـثله فى الحنبلـية ، ووجـد من مال منهم إلى نفى باطل أو إثبات باطل فإنه لا يسـرف إسـراف غيرهـم مـن المـائلين إلى الـنفى والإثبات ، بل تجد فى الطوائـف مـن زيـادة الـنفى الباطل والإثبات الباطل ما لا يوجد مثله فى الحنبلية " [(٢)]

---

(١) " مجموع الفتاوى " : (٤ / ١٦٦) .

(٢) " مجموع الفتاوى " : (٤ / ١٧٠) .

وأقول بناء على وصف ابن تيمية هذا للحنابلة فى باب العقيدة :

إن الكرمى اجتهد أن يكون حنبليـاً ما أمكنه فى عصر يشيع فيه التصوف سـلوكاً ، والمذهب الشافعى فروعاً ، والمذهب الأشعرى كلاماً ، بل قد تتلمذ هـو نفسـه عـلى الحـنفى الماتريدى ، والشـافعى الأشعـرى ، والواعظ الصـوفى ، على ما وضحت فى مبحث شيوخه [1]- أقول اجتهد الكرمـى أن يتخلص من تأويل متأخرى الأشاعـرة فى مسائل الصفات فتذبذب ما بين السـلف وهـؤلاء ، وفى مسألة الإيمان كان أشعرياً خالصـاً ، وحينما كان يرفض التـأويل كان ذلك يعنى عنده التفويـض .

فالكـرمى نشأ على المذهب الأشعرى فى مسائل العقيدة وما كان منه من تحـول وظهور للمنهج السلفى فى كتبه المتأخرة كشفاء الصدور ورفع الشبهة فبسـبب التفاته إلى كتب ابن تيمية رحمه الله على ما سنفصله فى المبحث التالى إن شاء الله .

* * *

---

(١) انظر : مبحث شيوخ الكرمى .

تأثـر الكرمـى بابـن تيميـة

عاش ابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ) فى القرنين السابع والثامن الهجريين فأثـرى عصره وأثر فيه وفيما تلاه من العصور إلى وقتنا الحاضر فكان متكلم السلف ومجاهد العلماء .

ولقـد أعجب الكرمى بشخصية ابن تيمية الموسوعية ؛ ويشهد لذلك أن ألـف فـيه كتابين هما : ((الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية)) ، و ((الكواكب الدرية فى مناقب المجتهد ابن تيمية))[١] .

ومـن قول الكرمى فى ابن تيمية : " قد علمنا علم اليقين وتحققنا التحقق المـبين من الثقات الناقلين وأئمة الحديث الناقدين أن ابن تيمية تقى الدين هو الإمام الحافظ الحجة العلم المجتهد الضابط المتقن المفسر أعجوبة الزمان وترجمان القرآن ...

حبر إذا مدّ اليراع جرى الندى   من راحتيه فضائـلا وعجائباً
كالبحر يقذف للقريب جواهراً   جوداً ويبعث للبعـيد سحائباً

مـا برز فى موطن بحث إلاّ برز على الأقران ، ولا أجرى جياد علومه إلى غاية إلاّ كانت مطلقة العنان "[٢] .

---

(١) انظر : مبحث مؤلفات الكرمى .

(٢) " ثناء الأئمة " : مجموع تونس ل ٥٩ [باختصار بغير تصرف فى اللفظ] .

ولقــد تأثــر الكرمى فى مؤلفاتــه الأخيرة بابن تيمية كثيراً حتى إنها لتكاد تكون مختصرات لها . وهو يصرح كثيراً بالأخذ عنه فيها والرسالة التى حققناها تشــهد لذلــك ؛ فهذه الرسالة فيها نفس ابن تيمية فى منهاج السنة النبوية . وشــفاء الصــدور للكــرمى فيه نفس ابن تيمية فى الاقتضاء ، وكذا مسبوك الذهب أيضا .

وقــد أشار إلى هذا المعنى أستاذنا الدكتور محمد السيد الجلينــد فى مقدمة كــتاب " دقــائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية "، بل اشتبه على من ضم مجمــو ع الكواكــب الدرارى لابن عروة الحنبلى الذى يشمل بعض المؤلفات الســلفية فقد " جاء تفسير ابن تيمية متداخلاً مع تفسير [مرعى الحنبلى] ... والــذى درس ابن تيمية وعرف روحه فى الكتابة والحوار والجدل وطريقته فى إيراد النصوص للاستدلال بها لا يجد صعوبة فى تلمس منهج ابن تيمية وروحه فى كثير من تفسير [مرعى] مما يؤدى إلى التساؤل : هل كتب [مرعى] هذا التفسير المنسوب إليه كله أم أنه كتب البعض وأضاف إلى نفسه بعض ما كتبه ابــن تيمــية فى كثير من ذلك ؟ أم أن صاحب مجموعة الكواكب الدرارى قد اختلط عليه الأمر ؟ هذه قضية تحتاج إلى دراسة مستقلة ألفت النظر إليها." [1]

وأقــول : إن الكــرمى قــد صرح بأن لــه تفسيراً سماه : ((البرهان)) لم يتمه ، وقد ذكر المترجمون له هذا التفسير ضمن كتبه . ومن خلال دراستنا لكتــب الكرمى ولأسلوبه مثل ((شفاء الصدور فى زيارة المشاهد والقبور)) و ((مســبوك الذهب)) و ((رفع الشبهة)) و ((الشهادة الزكية)) نقطع

(١) مقدمة " دقائق التفسير " : ص (١٧) .

بتأثر الكرمى بابن تيمية فى هذه المؤلفات تأثراً واضحاً فهو يصرح بالاقتبـــاس من ابن تيمية كثيراً ، بل يطيل الاقتبـــاس من ابن تيمية حتى يصل إلى الصفحة الكاملة على عادة المؤلفين القدماء .

فالواقع أن هذا التفسير المنسوب للكرمى له فعلاً ، وما يبدو فيه من تشابه بأســـلوب ابن تيمية موجود فى كتب الكرمى المتأخرة المشار إليها آنفا . فهو كلام الكرمى المتأثر بابن تيمية .

وإذا كـــان الكرمى قد تأثر بابن تيمية من الناحية العلمية فقد تأثر به أيضا مـــن الناحـــية الاجتماعية ، فلقد كان ابن تيمية حريصا على نفع من حوله ، وتبيين أحكام الشرع فيما يجد عليهم من مسائل لم تقع لمن كان قبلهم ، وهذا مـــا نجده عند الكرمى أيضا فقد ألف رسائل صغيرة فى موضوعات جدّت على الأمـــة ليس للأولين فيها كلام كبدعة شرب الدخان الذى استحدث فى عصر الكرمى فألف فى ذلك رسالة يبين فيها اجتهاده فى حكم شرب الدخان .

ولمـــا كانت الدولة العثمانية قائمة بفريضة الجهاد حتى أدخلت بلاد البلقان فى الإســـلام بل وصلت بالفتوحات إلى النمسا والمجر وأجزاء من فرنسا فحفز ذلك الكرمى للكتابة فى فضل الغزاة من العثمانيين [١] .

ومن ثم نجد الكرمى يدافع عن ابن تيمية ، ويذب عنه من وقع فيه فيقول : " ومـــن العجب أن ابن تيمية رحمه الله قائل بزيارة القبور حتى قبور الكفار .. وكتـــبه فى الفقه ومناسكه فى الحج مصرحة بذلك ، ومع هذا فتجد كثيراً من المتعصـــبين وممن يستحل الوقعية فى أئمة الدين ينقلون عنه القول بتحريم زيارة

(١) انظر : مبحث عصر المؤلف .

قـبور الأنبـياء والصالحين إما جهلاً أو بغضا وعناداً ممن أشـاع عنه ذلك فى الأصل ثم قلده فى ذلك من لا يحتـاط فى دينه ونسى قوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (١)

وقـول القائـل :

وكم من عائب قولاً صحيحا   وآفتـه من الفهـم السقيـم

فنسـألـه سـبحانـه أن لا يفضحنا يوم تبلى السرائـر وأن يجعلنا من المتـأدبين مع الأئمـة الأكـابر " (٢) .

وأختم هذا المقام بأبيات للكرمى قالها فى ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

" إمام المعـالى والمعـانى يعيبـه

على فضله من كان فى الرتبة الدنيا

ومن ذا يعيب البدر والبحر والهدى

ومن كان فرداً بالفضائل فى الدنيا

وما ضر نور الشمس أن كان ناظراً

إليه عيون لم تزل دهرهـا عمـيا

وهل جاء فى الدنيا كأحمـد بعـده

وهل حلّ بدر فى منازلـه العليـا " (٣)

---

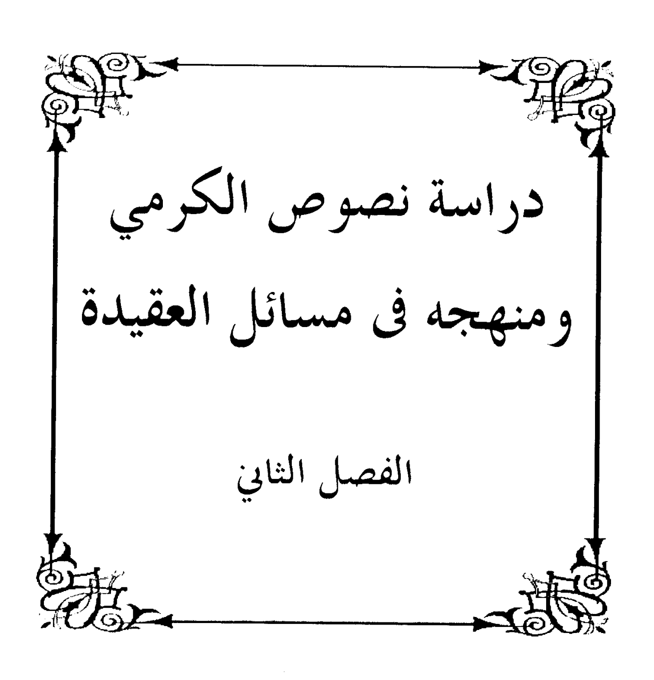
(١) سورة الحجرات : آية رقم (٦) .

(٢) " شفاء الصدور " : المجموع ل ٨٢ ، وانظر : ل ١١٢ أ .

(٣) مجموع تونس : ل ٣٢ أول ورقة من الشهادة الزكية .

هذا ولا يفوتنا التنبه إلى أن تأثر الكرمى بابن تيمية كان فى آخر عمره كما تشـــهد لذلـــك مؤلفاته المتأخرة . أما مؤلفاته الأولى فلا يكاد يوجد فيها ذكر لابـــن تيمية ويغلب عليها الطابع الصوفى بل أقول : الصوفي الغالي الأشعرى كمـــا فى ((بهجـــة الـــناظرين)) و ((توضيح البرهان فى الفرق بين الإسلام والإيمـــان)) و ((رفـــع التلبيس عَمَّنْ توقف فيما كفر به إبليس)) وغيرها . هذا ولا ريب أن اللاحق ينسخ السابق والأعمال بالخواتيم نسأله تعالى حسن الخاتـــمة .

* * *



دراسة نصوص الكرمي ومنهجه فى مسائل العقيدة

الفصل الثاني

الفصـــل الثاني : مذهبـــه الكـــلامى فى الإلهيـــات

وفيه ثـــلاثة مباحث :

المبحث الأول : وجـــــــود الله تعـــالى .

أ- موقفه من النظر والاستدلال .

ب- موقفه من صحة إيمان المقلد .

المبحث الثانى : العلـــوّ والفوقيــــــة .

المبحث الثالث : جـــواز رؤيـــة الله تعالى .

مبحـــث وجـــــود اللـــه

" يـــندر أن تقع على كتاب من كتب النظار لا تتصدره البرهنة على وجود الله تعالى أو إثبات البارى " (١)

وتختلف طرق الاستدلال والبرهنة على وجوده تعالى تبعاً لاختلاف المدارس ما بين فلسفية وكلامية وسلفية وصوفية . ويمكن تصنيف هذه الأدلة إلى عقلية ونقلية وفطرية وكشفية . (٢) وتوسلُ الكشف طريقاً لمعرفة الله تعالى هو طريق الصـــوفية الذين " يرون أن عالم الغيب من الأسرار الإلهية يمنح الله معرفته لمن يشاء من عباده " (٣)

وصـــاحب هذا المنهج " يؤمن إيماناً تاماً بعالم الإلهية ، وكل رجائه أن يصل إلى أنواره ، وأن يحصل على قبس منه " .(٤)

وغـــنى عـــن القـــول أن هـــذا الكشف لا يُنال إلاّ بالمجاهدة والرياضة ؛ فـــلا يستشعر نتائجه إلاّ من عاناه ، فالأمر – عندهم – من ذاق عـــرف ، ثم إن الداخل فى هذا الطريـــق ابتداءً مؤمنٌ ؛ شعاره : " أغنى الصبـــاح عن

(١) " دراسات فى العقيدة " : لأستاذنا الدكتور محمد الشرقاوى ص (٨٠) ، وانظر على سبيل المثال :" شرح الأصول " : (٦٥) ، وما بعدها ، و" اللمع " : (١٨ – ٢٢) ، و" الانصاف " : (١٧،١٨) ، و" النظامـــية " : (١١ – ١٤) ، و" الاقتصاد " : (٢٩ – ٣٨) ، و" الأربعين " : (١٩) وما بعدها .

(٢) انظر : " لمحات من الفكر الكلامى " : لأستاذنا الدكتور / حسن الشافعى : ص (٧) .

(٣) " الإسلام والعقل " للدكتور / عبد الحليم محمود : ص (٥٥) .

(٤) المرجع السابق : ص (٥٦) .

المصبـــاح " [1]

أما الدليل النقلى فليس قسيماً – كما قد يُظن – للدليلين العقلى و الفطرى وإنما هو مشتمل عليهما . فكل دليل نقلى هو فى ذاته عقلى ، وإنما سُمى نقلياً باعتــبار وروده فى الشرع منقولاً إلينا ، أو هو لافت إلى الفطرة المركوزة فى أنفسنا ، مثير لها .

فى حـــين ليس كل دليل عقلى نقلياً ، فضلاً عن أن يكون دليلاً صحيحاً ، أو على الأقل نافعاً . [2]

" أمـــا الاتجاه العقلى فيتمثل بوضوح لدى الفلاسفة الإسلاميين والمتكلمين الذيـــن ارتضـــوا العقل سبيلاً إلى معرفته تعالى ، وإن أضاف بعضهم إلى ذلك الدليل النقلى أيضاً . " [3]

ولقد اعتمد المتكلمون فى سعيهم لإثبات وجود الله عز وجل إثبات حدوث العالم ، ومن ثم فكل حادث لابد له من محدث ، وقد توسلوا فى ذلك :

" دليلين مشهورين هما :

١- دليل الجوهر والعـــرض .

٢- دليل الممكن والواجـــب . " [4]

---

(١) " بهجة الناظرين " للكرمى : ل ٨ ب .

(٢) انظر : " دراسات فى العقيدة " : ص (٨٥) .

(٣) " لمحات من الفكر الكلامى " : ص (٧) .

(٤) " دراسات فى العقيدة ط : ص (٨٠) .

ويتـلخص دلـيل الجوهـر والعرض فى " أن الأجسام تنقسم إلى جواهر وأعـراض فالجواهـر ما قامت بنفسها ، والأعـراض لا تقوم بنفسهـا بل بالجواهـر ، وهـذه الأعـراض متغيرة متحولة ، ومن ثم فهى حادثة ، وهذه الأعراض ملازمة للجواهر وما لازمه الحادث لابد أن يكون حادثاً مثله ... وبما أن الأجسـام تتألف من الجواهر والأعراض وهما حادثان ، فالأجسام حادثة . وكل حادث لابد له من محدث يحدثه ، وهذا المحدث هو الله تعالى " [١]

أمـا دليل الممكن والواجـب فيتلخص فى " أن العـالم ممكن ، وكل ممكن يحـتاج إلى مخصـص ومـرجح . إذاً فالعالم – لأنه ممكن – بحاجة إلى مخصص ومرجح وهو الله تعالى . " [٢]

ولقـد اعتمد الكرمى دليل المتكلمين الجوهر والعرض دليلاً على حدوث العالم ومن ثم وجود الله تعالى ، إلاّ أنه لم يورد الدليل بلغة منطقية ، وإنما عرضه فى صورة مسلمات مفروغ منها حيث يقول : " والعالم إما أعيان أو أعراض ، فـالعين مـا قـام بنفسه والعرض مالا يقوم بنفسه بل بغيره كاللون والطعم والصوت . وهو بجميع أجزائه محدث ؛ بمعنى أنه كان معدوماً فوجد ، والمحدث له هو الله القديم الحي القادر السميع البصير " [٣]

---

(١) المصدر السابق : ص (٨١) ، وانظر : " الاقتصاد" : (٢٩) ، و " الأربعين " : (٢٠،٢١)
(٢) " دراسات فى العقيدة " : (٨٤) ، وانظر : " النظامية " : (١١) .
(٣) البهجة : ل ٦ ب .

قولـه : " هـو الله القـديم " : لم يرد فى نص صحيح وصف الله تعالى بالقديم ؛ إنما ورد فى نصـوص لا تثبت . منها رواية ابن ماجة لحديث الأسماء الحسنى عن أبي هريرة ﷺ ، وهى رواية لا يثبتها أهل الحديث ومنهم من يقول إنها مدرجة من بعض الرواة ؛ لكن صح وصف =

= سلطان الله تعالى بالقديم فى الحديث الصحيح الذى رواه أبو داود فى " سننه " عن عبد الله ابـن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فى دعاء دخول المسجد قال : عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخـل المسـجد قـال : " أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم " صححه الإمام الألباني فى " صحيح الجامع " (٤٧١٥) .

ووصفه تعالى بالقدم إنما هو أثر كلامي . قال فى " اللسان " : " والقديم على الإطلاق : الله عـز وجل " . بل سبق إلى ذلك الإمام الطحاوي نفسه فى " عقيدته " فقال : " قديم بلا ابتداء دائـم بـلا انتهاء " . لكن " القدم " لا يُشعر إلا بتقادم الزمان والسبق للغير . قال الراغب : " وقـد ورد فى وصف الله : يا قديم الإحسان " ولم يرد فى شيء من القرآن ولا الآثار الصحيحة " القـديم " فى وصـف الله تعـالى ، والمتكـلمون يستعملونه ويصفونه به ، وأكثر ما يستعمل " القـديم " باعتـبار الزمان ؛ نحو ﴿ **العرجون القديم** ﴾ وقوله : ﴿ **قدم صدق عند ربهم** ﴾ " أي : سابقة فضيلة . " .

وقـال ابن أبي العز فى شرحه كلام الطحاوي : " قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء " ... وقد أدخـل المتكلمون فى أسماء الله تعالى " القديم " وليس هو من الأسماء الحسنى ، فإن القديم فى لغة العـرب الـتى نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث لـلجديد ، ولم يستعملوا هذا الاسم إلاّ فى المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم كما قال تعالى ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ والعـرجون القديم : الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الـثاني ، فإذا وجد الجديد ؛ قيل للأول : قديم . وقال تعالى ﴿ **وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ ... ومنه : القول القديم والجديد للشافعي رحمه الله تعالى ... وإما إدخال " القديم " فى أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام ، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلـف مـنهم ابـن حزم ، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً فى نفس التقدم فإن ما تقدم على الحـوادث كلها فهو أحق بالتقدم على غيره ، لكن أسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى التى تدل عـلى خصـوص ما يمدح به ، والتقدم فى اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها فلا يكـون من الأسماء الحسنى . وجاء الشرع باسمه " الأول " وهو أحسن من " القديم " لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف " القديم " والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة .

انظر : " سنن " أبي داود حديث رقم (٤٦٦) ، " صحيح الجامع " (٤٧١٥) ، =

فالكـــرمى هـــنا لا يدلل ولا يبرهن إنما يقرّر ، ويكاد فى تقريره هذا يكون مترسماً تقرير صاحب العقائد النسفية .(1) بل يكاد الكرمى يميل إلى أن وجود الله تعـــالى بدهي فلا يحتاج إلى برهنة واستدلال ، وإنما مجرد وجود العالم يدل علـــيه لا بطريق المنطق بل بطريق البداهة حيث يقول : " اعلم أن العالم اسم لما ســـوى الله تعالى مما يُعلم به ويُستدل عليه بسببه ، وسُمى العالم عالماً لأنه عَلَمٌ عـــلى وجـــود الصانع جلّ ذكره . (2) ، ولذلك قال بعضهم أصل عالم عَلَم ؛ فزيدت الألف للإشباع . " (3)

والكرمى يستدل على حدوث العالم بأنه مركب من الجواهر والأعراض (4) وبكونـــه مـــتغـــيراً حيث يقول : " قد أجمع أهل الحـــق على حدوثه إذ هو متغـــير " (5) ثم بامتناع التسلسل ، حيث أنه (ثابت بالدلائل القطعية امتناع القـــول بوجود حوادث لا أول لها." (6) ثم يوازر الأدلة العقلية بالدليل النقلى " ففى البخارى عن عمران بن حصين قال : إنى عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جـــاءه قـــــوم من بنى تميـــم ، فسألـــوه عن أول هذا الأمـــر ما كان ؟

= " لســـان العرب " : مادة (قدم) ، و " المفردات فى غريب القرآن " : مادة (قدم) ص : (٣٩٧) ، و" العقيدة الطحاوية " مع شرحها : (١١١ –١١٣) .

(1) انظر : " شرح النسفية " : (٢٣ – ٣١) .

(2) انظر : " التعريفات " : (١٢٦) ، و " التفسير الكبير " للرازى : (١ / ٢٣٣) .

(3) " الـــبهجة " : ل ٦ ب . قـــال القرطبى : ((هو [العالم] مأخوذ من العَلَم والعلامة لأنه يدل على موجده)) انظر : " التفسير " : (١ / ١٣٩) ، وانظر قول الخليل نفس الصفحة .

(4) انظر : المرجع السابق : نفس الصفحة .

(5) المرجع السابق : ل ٩ ب .

(6) المرجع السابق : نفس الصفحة .

فقال : ((كـــان الله ولم يكن شيء قبلـــه ، وكان عرشـــه على المـــاء ، ثم خلق السمـــوات والأرض ...)) " [1]

والكـــرمى وإن استعمل المصطلحات الكـــلامية فى الاستدلال على وجود الله تعالى من الجوهر والعرض وامتناع التسلسل ، والتغير ؛ إلاّ أنه لم يستعملها بالروح الكلامية الجدلية ، بل بروح التقرير .

* * *

(1) البهجة : ل ٩ ب . والحديث أخرجه البخارى . كتاب " بدء الخلق باب / ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** . ﴾ حديث رقم (٣١٩١) جـ (٦ / ٣٣٠) وفى مواضـــــع أخـــرى من " الصحيـــح " . وأخرجه النسائى فى ((الكبرى)) فى التفسير كما فى " تحفة الأشراف " : (٨ / ١٨٣) .

موقف الكرمى من النظر والاستدلال

ذهبـــت المعـــتزلة وبعض الأشاعرة [1] إلى أن أول واجب على المكلف " النظر المؤدى إلى معرفة الله تعالى ، لأنه تعالى لا يُعرف ضرورة ، ولا بالمشاهدة فيجب أن نعرفه بالتفكر والنظر . " [2]

وقولهـــم : " إنه تعالى لا يعرف ضرورة " مردود بقوله ﷺ : ((كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) [3]

قال ابن حجر رحمه الله : " إن الكفر ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه ، بـــل إنمـــا حصـــل بســـبب خارجي ، فإن سلم من ذلك السبب استمر على الـــحق . " [4]

---

(١)انظر على سبيل المثال : " الإنصاف " للباقلانى : ص (٢٢) .

(٢) " شرح الأصول الخمسة " : ص (٣٩) .

(٣) الحديـــث : رواه الـــبخـــارى . كتاب " الجنـــائز " : باب / إذا أسلم الصبى فمات هل يصـــلـــى علـــيه ، رقـــم : (١٣٥٨ – ٣ / ٢٦٠) ، عن أبي هريرة وفى مواضع أخرى من الصحيح ، ورواه مسلم فى كتاب" القدر " : باب/ كل مولود يولد على الفطرة : (٨ / ١٧) .

قـــال شـــارح " الطحاوية " : " ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري ، والشرك حادث طارئ ، والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عـــادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم فى المطاعم والملابس والمساكن يُقال لهم : أنتم كنتم معـــترفين بالصـــانع مقـــرين بـــأن الله ربكم لا شريك له وقد شهدتم بذلك على أنفسكم . " ص (٤٥ ، ٢٤٦) .

(٤) انظر : " فتح الباري " (٢٩٢/٣) .

وبآية الميثاق (١) ، وبقوله تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ** ﴾ (٢)

قال ابن حجر رحمه الله : " أجمع أهل العلم بالتأويل أن المراد بقوله تعالى . ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ** ﴾ : الإسلام . (٣)

وحَصْرُ المعتزلة طرق معرفة الله تعالى فى التفكر والنظر هو الذى أداهم إلى أن يجعلوا النظر أول واجب على المكلف . ووافقت الأشاعرة المعتزلة فى القول بوجوب النظر ؛ إلاّ أنهم جعلوا دليل وجوبه الشرع لا العقل . (٤)

والقرآن الكريم والسنة المطهرة يحضان على النظر العقلى والتفكر فى بديع صـــنع الله تعالى لأن ذلك يزيد المؤمنـــين إيماناً ؛ قال تعالى: ﴿ **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ (٥) وقـــال تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ . . .** ﴾ (٧)

---

(١)وهى قولـــه تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٢) الروم : (٣٠) ، وانظر : " موافقة صريح المعقول .. " : (٢ / ١٣٤) .

(٣) انظر : " الفتح " (٢٩٢/٣) .

(٤) انظر : " الآمدى وآراؤه الكلامية " : ص (١١١) .

(٥) الذاريات : (٢١) .

(٦) الـــروم : (٤٢) .

(٧) فصلت : (٥٣) .

ولمــا نزلت هذه الآيات : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ (١)

قال النبى صلى الله عليه وسلم ((.. ويل لمن قرأهن ولم يتفكر فيهن)) (٢)

فــلا شــك بعــد ذلك فى أهمية النظر والتفكر فى زيادة الإيمان ، أما مجرد حصــول الإيمــان فلــيس طريقه الوحيد النظر والتفكر ؛ بل من طرقه الخبر والفطــرة كما قال تعالى :﴿ ... **ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ (٣) . لذلك جعل الكرمى النظر من أهم طرق العلم ؛ لا أهمها على الإطلاق ؛ فقال : " اعلم أن مــن أهــم العلــوم فى القدر والشأن وأعظمها فى السرّ والبرهان علم النظر والاســتدلال والتفكير فى قدرة الكبير المتعال ، فبالنظر فى مصنوعات الصانع يستدل عليه ، والنظر فى عجائب الملكوت يرشد إليه . " (٤)

ويترتب على هذه المسألة مسألة : صحة إيمان المقلد .

* * *

---

(١) آل عمران : (١٩٠ ، ١٩١) .

(٢) انظــر تفسير هاتين الآيتين عند ابن كثير : (١ / ٤٤٠ ، ٤٤١) ، وقد عزا هذا الحديث إلى ابن مردويه وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن أبى شيبة وابن حبان وابن أبى الدنيا . وهو من رواية عائشة .

(٣) الإسراء : (٦٧) .

(٤) البهجة : ل ٣ أ .

صحـــة إيمـــان المقلـــد

ذهبـــت المعتزلة إلى عدم صحة إيمان المقلد فقالوا : " إن المقلد لا يأمن خطأ من قلده فيما يقدم عليه من الاعتقاد ، وأن يكون جهلاً قبيحاً ، والإقدام على مالا يُؤمَنُ كونه جهلاً قبيحاً بمنزلة الإقدام عليه مع القطع على ذلك ." (١)

بـــل حكى الآمدى وغيره (٢) تكفير أبي هاشم من المعتزلة لمن لم يعرف الله بالدليل (٣) ، أما الأشاعرة فذهبوا إلى صحة إيمان المقلد ، وجعلوا " الإيمان عن تقلـــيد ؛ وهـــو الإيمـــان الناشـــيء عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل ... للعوام " (٤)

وقـــد صـــرح الغزالى بذلك حيث يقول : " الاعتقاد الصحيح والتصديق والجزم .. حاصل بالتقليد . والحاجة إلى البرهان ودقائق الجدل نادرة . " (٥)

وذلـــك مذهب السلف ؛ حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم يقبلون من أقر بالإسلام ولا يسألونه عن أسباب قناعته (٦) .

---

(١) " شرح الأصول الخمسة " : ص (٦٣) .

(٢) انظر : " شرح الهدهدى على السنوسية " : (٤٤) .

(٣) انظر : " الآمدى وآراؤه الكلامية " : (١١٣) .

(٤) " شرح البيجورى على الجوهرة " : (٥٤) .

(٥) " الاقتصاد فى الاعتقاد : (٢٠) .

(٦) روى الـــبخارى فى " كتاب المغازى " : حديث رقم (٤٢٦٩) عن أسامة بن زيد رضى الله عـــنهما قـــال : ((بعثـــنا رســـول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال : =

وإلى ذلـــك ذهب الكرمى حيث يقول : " ... فى صحة إيمان المقلد نزاع كثير وخلاف كبير والراجح عند المحققين صحة إيمانة . " (١)

ثم جعـــل الخلاف بين أهل السنــــة فى هذه المسألة خلافاً لفظياً ، واستأنس لذلك بقوله : " قال بعضهم إن من قال بإيمان المقلد من أهل السنة ومن لم يقل بـــه متفقون على أن مقابل التقليد هو الاستدلال بأثر على المؤثر ، وبالمصنوع على الصانع ، ولا يلزم منه الاقتدار على إيراد الحجج ودفع الشبه ... وحينئذ لم يوجـــد بين المسلمـــين مقلد قط إذ أجهلهـــم كالرعاة وسكان البوادى إذا رأى شـــيئاً عجيـــباً يقول : سبحـــان من خلقه . وهذا منهم استـــدلال على موجـــد العالم ، فكيف بمن نشأ بين المسلمين ؛ العلماء والوعاظ ولازم الجماعة والجمعة ؟ ! " (٢)

فجملـــة القـــول فى مذهب الكرمى فى الاستدلال على وجود الله تعالى أنه موافق للأشاعرة حيث اعتمد حدوث الكون دليلاً على المحدث ، وتوسل فكرة الجوهـــر والعرض لإثبات حدوث الكون ؛ ولم يغفل جانب الفطرة فى قوله : " العالم . علم على وجود الصانع " مع قوله بصحة إيمان المقلد .

= لا إله إلا الله . فكفّ الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبى صلى الله علـــيه وســـلم فقال : يا أسامة أقتلته بعدما قـــال : لا إله إلاّ الله ؟! قلت : كان مـــتعـــوذاً . فمـــا زال يكـــــررها حتى تمنيتُ أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .))
والحديـــث متفق عليه فقد رواه مسلم أيضاً فى كتاب الإيمـــان باب تحريم قتل الكافر بعد قول لا إله إلا الله : (١/ ٢٩١) .

(١) " توضيح البرهان " : (١٢) .

(٢) " توضيح البرهان " : (١٢ ، ١٣) .

مبحـــث العلوّ والفوقية والاستواء

ترتبط مسائل الجهة والاستواء والرؤيـــة والجسمية والحيز ببعضها البعض في الـــدرس الكلامـــي ، وقـــد عرضت لبعض ذلك في مبحث الرؤية ، فمن اســـتدلال المعتزلة على نفي الرؤية قولهم : إنه لا يُرى إلاّ ما كان جسمـــاً في جهـــة ، ومـــا كان كذلك يجب أن يكون محدثاً ؛ لأن الأجســـام لا تخلو من المعاني المحدثة ، وما كان كذلك جازت عليه الحاجة والزيادة والنقصان ؛ ومن ثم جـــاز علـــيه الجور في الحكم ، والكذب في الخبر ، فإذا كان إثبات الرؤية يؤدي إلى كل هذه المحالات فيجب أن تنفى عنه في مذهبهم . [1]

أمـــا الاستواء فقد أوّلوه بالاستيلاء والغلبة [2] ، وجعلوا اختصاص العرش بالاستيلاء لأنه أعظم مخلوق ؛ وإن كان مستولياً على العالم كله قاهراً له . [3] ومـــنهم مـــن أجـــاز تـــأويل العرش أيضاً بالْمُلْك .[4] فنفوا الجهـــة والمكان

---

(١) انظر : " شرح الأصول الخمسة " : (٢٧٦) .

(٢) انظر : المرجع السابق : (٢٢٦) ، و " المقالات " : (٢٣٧) .

قـــال أبو الحسن الأشعري : " قالت المعتزلة في قول الله عز وجل : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ : يعني : استولى .

(٣) انظر : " شرح الأصول " : (٢٢٧) .

(٤) انظر : المرجع السابق : نفس الصفحة .

قـــال ابن أبي العز : " وأما من حرّف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك ، كيف يصنع بقولـــه تعـــالى : ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ وقوله : ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** ﴾ أيقـــول : ويحمـــل ملكه يومئذ ثمانية ؟ ! وكان ملكه على الماء ؟! ويكون موسى عليه السلام آخذًا من قوائم الملك ؟! هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟!

والجسـمية والحـيز والـرؤيـة [1] ، وأوّلوا الاستواء بالاستيلاء ، " وقد شـاركهم فى هـذه الجملـة الخـوارج وطوائـف من المرجئة وطوائف من الشيعة . " [2]

أمـا مثبـتو الرؤيـة من حيث الجملـة فقد تباينت مقالاتهـم فى سائر المسـائـل المشـار إليها ؛ فمنهـم من أثبتهـا جميعـاً كالكراميـة [3] ، وبعـض الشـيعـة المـتقدمـين [4] حيـث جمهور متأخريهم على مقالات المعتزلة . [5]

---

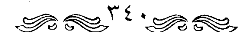
(١) انظر : " المقالات " : (١ / ٢٣٥) .

(٢) انظر : المرجع السابق : (١ / ٢٣٦) .

(٣) انظر : " الفرق بين الفرق " : (٢١٦) وما بعدها . و " الملل والنحل " : (١ / ١٠٨) وما بعدها .

(٤) كالبيانـية أتـباع بيان بن سمعان الذى " زعم أن معبوده على صورة إنسان عضواً فعضواً وجـزءاً فجزءاً ." " الملل والنحل " : (١/١٥٣) ، وكالمغيرية أصحاب المغيرة بن سعيد العجلى الذى ادعى أن " الله تعالى صورة وجسم ذو أعضاء ... وصورته صورة رجل من نور على رأسه تاج من نور ... " " الملل والنحل " : (١/١٧٧) وكالهشامية أصحـاب هشام بن الحكم الذى زعـم أن الله تعـالى " جسم ذو أبعاض ...وهو سبعة أشبار بشبر نفسـه ... مماس لعرشه ، لا يفضـل منه شيء عن العرش ولا يفضل من العرش شيء عنه " " الملل والنحل " : (١/١٨٤) . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

(٥) قـال الشهرسـتانى : " أكـثرهم فى زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأى واجتهاد ؛ أما فى الأصول فيرون رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة ، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهـل البيت ... " [الملل والنحل : ١ / ١٦٢] ويعلل الشهرستانى دخول مذهب الاعتزال على الشيعة بتتلمذ زيد بن على لواصل بن عطاء . " الملل والنحل " : (١ / ١٥٠) .



أما الأشاعرة فيجمعهم القول بنفى التجسيم والحيز [(١)] ، وكذا لفظ الجهة والمكـان [(٢)] على خلاف بينهم فى تحقيق إثبات معنييهما ، كما يجتمعون على إثـبات لفـظ الاستـواء [(٣)] – لوجود النص – على خلاف بينهم فى تأويل معناه .

فالأشـعرى رحمـه الله يثبت العلو والفوقية ؛ ويستدل على ذلك بالآيات والأحاديث [(٤)] ؛ وإن لم يرد فى كلامه لفظ " الجهة " لا بنفى ولا إثبات قائلاً : " الله عز وجل مستوٍ على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله عز وجـل عـلى العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض . " [(٥)]

والاسـتواء عند الأشعرى بمعنى العلو ؛ ولذلك فقد أنكر – فيما أنكر – على المعتزلة والجهمية تأويلهم الاستواء بالاستيلاء أو القهر والغلبة . [(٦)]

كمـا أنكر الأشعرى على من قال أيضاً بأنه تعالى فى كل مكان . [(٧)] وهو وإن كان لم يصرح بنسبة المكان لله تعالى فقد اعتمد حديث الجارية الذى فيه

---

(١) انظر : " اللمع " : (٢٤) ، و" رسالة أهل الثغر " : (٧٤) ، و " الإنصاف " : (١٨٨) ، و " المسائل الخمسون " : (٣٥) .

(٢) انظر : " الإنصاف " : (٤١) ، و " المسائل الخمسون " : (٣٦) .

(٣) انظر : " الإبانة " : (٣٦) ، و" الإنصاف " : (٤١) ، و " المسائل الخمسون " : (٤٠) .

(٤) انظر : " الإبانة " : (٣٦ – ٤٠) .

(٥) انظر : " الإبانة " : ص (٣٦) .

(٦) انظر : " الإبانة " : (٣٧) ، و " أهل الثغر " : (٧٥) .

(٧) انظر : " الإبانة " : (٣٧) .

السؤال من النبى صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ : " أين " [1]

ثم عقـب الأشعـرى استـدلاله بهـذا الحديث قائلاً : " ... وهذا يدل على أن الله عز وجل على عرشه فوق السماء . "

فهـذا الإمام رأس المذهب الأشعري أثبت الفوقيـة والعلـو ، والأينيـة وإن لم يجر فى كلامه لفظ الجهـة والمكـان " .

ثم جـاء السـباقلانى من بعده ؛ فنفى عن الله عز وجل الجهة والمكان فقال : " إنه تعالى متقدس عن الاختصاص بالجهات ، ... ولا نقول إن العرش له قرار ولا مكان ، فلما خلق المكان لم يتغير عما كان " . [2]

ثم اسـتانس الباقـلانى بقول أبى عثمـان المغربى [3] " كنت أعتقـد شيئاً من حديث الجهة [4] ، فلمـا قدمـت بغـداد وزال ذلك عن قلبى ، فكتبت

---

(١) الحديـث : رواه مسـلم فى " كتاب المساجد ومواضع الصلاة " : (٢ / ٣٥١) ، وفى مواضـع أخـرى من " الصحيح " ، وأبو داود فى " كتاب الأيمان والنذور " ؛ باب / فى الرقبة المؤمـنة : رقـم (٣٢٨٢) ، والنسائى فى " كتاب الصلاة " ؛ باب / الكلام فى الصلاة : رقم (١٢١٧) ، ورواه أحمد فى " مسنده " : (٥ /٤٤٧) رقم (٢٣٨١٣ ، ٢٣٨١٦ ، ٢٣٨١٨) كلهم عن معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يا رسول الله ، جارية لي صككتها صكة . فعظم ذلـك عـلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أفلا أعتقها ؟ قال : " إئتنى بها " قال : فجئت بها ، قال : " أين الله ؟ " قالت : فى السماء . قال : " من أنا ؟ " قالت : أنت رسول الله قال : " اعتقها فإنها مؤمنة " .

(٢) " الإنصاف " : (٤١) .

(٣) سعيد بن سلاّم المغربى القيروانى ، نزيل نيسابور . (؟ – ٣٧٣ هـ) .

انظر : " السير " : (١٦ / ٣٢٠) ، و " البداية والنهاية " : (١١ / ٣٠٢) .

(٤) يعنى حديث الجارية المتقدم .

إلى أصحابنا : " إني قد أسلمت جديداً . " "[1]

ويحكى عن بعضهم قوله : "إن قلت : أين ؟ فقد تقدم المكان وجودُه ." [2]

أمـــا الاستواء فإن الباقلاني يثبت اللفظ كما جاء في الكتاب والسنة [3] إلاّ أنه ينفي العلوّ على العرش " لأنه لو كان على العرش لكان محمولاً " [4] .

فـــالعلوّ – عند الباقلاني – علوّ منزلة ورفعة وجلال وقهر [5] . وقد وافق ابنُ فورك [6] الباقلانـــيَّ فقال : " باستحالة كونه في مكان " [7]

وقـــال : " إن ظاهـــر اللغة تدل من لفظ أيـــن أنها موضوعة للسؤال عن المكـــان " [8] إلاّ أنـــه أوّلهـــا في حديـــث الجارية – بعد إثباته – بأن المراد : الاستفهام عن المكانة والمرتبة قائلاً : " ... احتُمل أن يُقال : إن معنى قوله ﷺ: ((أيـــن اللـــه ؟)) استعلام بمنـــزلته وقدره عندها وفي قلبها ... " [9] فهو

---

(١) " الإنصاف " : (٤٢) . فالباقلاني لا يجيز السؤال عن الله تعالى " بأيـــن " حيث يقول : " فـــإن قـــيل : إذا كان مرئيـــاً فأين هو ؟ ... قيل لهم : الأين سؤال عن مكان ، وليس هو مما يحويه مكان ... " . " الإنصاف " : (١٩٣) .

(٢) المرجع السابق : (٤٢) .

(٣) المرجع السابق : (٤١) .

(٤) المرجع السابق : (٤٢) .

(٥) " الإنصاف " : (١٩٣) .

(٦)أبو بكر ؛ محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني الأشعري (؟ – ٤٠٦ هـــ) . انظر : " السير " : (١٧ / ٢١٤) .

(٧) " مشكل الحديث وبيانه " : (١٦٨) .

(٨) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٩) المرجع السابق : (١٦٩) .

وإن أثبت الحديث من حيث اللفظ ، فقد نفاه من حيث المعنى بتأويل المكان إلى المكانة والمنزلة .

ويترتب على موقفه هذا نَفْيُه الجهةَ أيضاً ، فإشارة الجارية إلى السماء تدل – عـنده – عـلى رفعة شأنه وعظمة مقداره (١) ، كما لم يجعل الاستواء علوّاً حقيقياً ؛ بَلْ أوّله على معنى القهر والتدبير وارتفاع الدرجة بالصفة .(٢)

ثم صار جمهـور الأشاعـرة بَعْدُ على القول بنفي الجهة والمكان (٣) وتأويل الاسـتواء بالاستيلاء والقهر والغلبة (٤) فوافقوا المعتزلة فيما أنكره عليهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله على ما قدمنا .

* * *

(١) " مشكل الحديث وبيانه " : نفس الصفحة ، وانظر : ص : (٤٧٧) .
(٢) المرجع السابق : (٤١٣) .
(٣) انظر : " العقيدة النظامية " : (١٥) ، و " الاقتصاد " : (٤٤) ، و " المسائل الخمسون " : (٣٦) ، و " شرح الجوهرة " : (١٠٩ ، ١١٥) .
(٤) انظر : " الاقتصاد " : (٥٦) ، و " شرح الجوهرة " : (١٠٩) .

موقف السلف فى هذه المسألة

أجمـــع السلف على إثبات صفات الله عز وجل التى جاءت فى القرآن والسنة من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ، ولا تأويل . (١)

ومـــن هـــذه الصـــفات صفة الاستواء على العرش والعلوّ والفوقية ، فقد ذُكـــرت هذه الصفـــات بألفاظها ومعانيها فى القـــرآن الكريم ؛ قال تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ** ﴾ (٤).

وقـــد تواترت الأحاديث فى إثبات العلوّ والفوقية (٥) ، وقد أجمع الصحابة ومن بعدهم على إثبات الاستواء والعلوّ والفوقية (٦) على الحقيقة لا المجاز (٧) ،

---

(١) انظـــر : " العقـــيدة الواسطية " ضمن مجموعة الرسائل الكبرى : (١ / ٢٩٣) ، ولا يكاد يخلو كتاب لابن تيمية وابن القيم من التنبيه على هذا المعنى .

(٢) طه : (٥) ، وتكررت فى مواضع أخرى من القرآن الكريم .

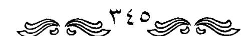
(٣) النساء : (١٥٨) .

(٤) النحل : (٥٠) .

(٥) انظـــر : " مختصـــر العلـــوّ " للذهـــبى ؛ اختصار الشيخ الألبانى رحمه الله : ص (٨٠) ، و " اجـــتماع الجيوش الإسلامية " : (٣٨) . قال الذهبي : " فمن الأحاديث المتواترة الواردة فى العلو ... "

(٦) انظر : " الجيوش الإسلامية " : (٣٧) ، وانظر : " شرح الطحاوية " : (٢٨٨) .

(٧) انظـــر : " مختصـــر الصـــواعق المرسلة " : (٣٧٩ ، ٣٨٥) . قال ابن القيم : " قوله : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ فى ســـبع آيات من القرآن : حقيقة عند جميع فرق الأمة إلا الجهمية ومن وافقهم ؛ فإنهم قالوا : هو مجاز ثم اختلفوا فى مجازه ... " .



وأن الاستواء بالذات [1] ، وليس بالصفة كما زعمت المعتزلة والأشاعرة .

وإثبات الاستواء بالذات على الحقيقة يُفهم ضمن القاعدة القائلة إن القول فى الصـــفات تابع للقول فى الذات . [2] وأن القول فى بعض الصفات كالقول فى بعضها الآخر . [3] وكذلك فى ضوء قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [4] .

فهـــذه الآية تعطى لمن تأملها تأملاً يليق بكلام الله تعالى وإحكامه – تعطيه المـــنهاج القويم فى مسألة الصفات ، وهو إثبات ما أثبته الشارع منها مع نفى توهم المماثلة والمشابهة .

وكـــلمة الإمام مالك المشهورة فى مسألة الاستواء [5] ؛ تطبيق عملى لهذا المـــنهج السلفى فى التعامل مع نصوص الصفات . فالاستواء لغة معلوم ، وهو العلـــوّ والارتفـــاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه [6] ، وذلك فى حق

---

(١) انظـــر : المـــرجع السابق : ٣٨٦ ، و " اجتماع الجيوش " : (٥٩) ، و "رسالة الإكليل لابن تيمية ضمن " مجموعة الرسائل الكبرى " : (٢/ ٣٣ ، ٣٤) .

(٢) انظـــر : مقدمة " مختصر العلوّ ": (٤٨) ، ومقدمة " دقائق التفسير " لأستاذنا الدكتور محمد السيد الجليند : (٥٤) .

(٣) انظر : " الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل " : (٣٤٨) .

(٤) الشورى : (١١) .

(٥) أخـــرجها الإمام الذهبى فى ((العلوّ)) [مختصره للشيخ الألبانى] الأثر رقم : (١٣٢) ، وعقـــبه الذهـــبى بقوله : " هذا ثابت عن مالك ، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك ، وهو قول أهل السنة قاطبة ... " . ص : (١٤١) .

(٦) انظر : " اللسان " : (٢١٦٤) ، و " اجتماع الجيوش " : (٦٠) .

الذوات المعلومة المشاهدة ، كما قال تعـالى : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [1] يعـنى : اسـتقرت . وقولـه تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ [2] يعـنى : تمكنتم واستقـررتم ، وقوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [3]. أى : علـوتم الـدواب وتمكنتم عليها ... فهذا الاستـواء معلـوم .

أما إذا كان الكلام فى حقه تعالى ؛ فالاستواء صفة تصوُّرُها فرع على تصور الـذات . ولما كانت ذات الله تعالى غير متصورة لنا كانت صفته كذلك غير متصورة لنا ؛ إلاّ بالمعنى العام ؛ وهذا المعنى هو قول مالك : "والكيف مجهول " يعنى فى حقه تعالى .

و " الإيمـان به واجب " لورود ذلك فى الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والـتابعين علـيه ." والسـؤال عـنه بدعـة " لأنه لا يُسـأل عنه تعالى بـ " كيـف " لأنه تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وقد رد ابن القيم – ممثلاً لمذهب السلف – تأويلات الاستواء بالإستيلاء ، وعلـوّ المكانـة والرفعـة ، والقـدرة وغير ذلك بالنقل واللغـة والعقل من اثنين وأربعين وجهاً فى كتابه ((الصواعق المرسلة)) [4]

---

(١) هود : (٤٤) .

(٢) المؤمنون : (٢٨) .

(٣) الزخرف : (١٣) .

(٤) راجع " الصواعق " : (٣٧٩ – ٤٠٠) .

وقـد أفـرد الذهـبى رحمه الله هذه المسألة بمؤلف خاص جمع فيه الآيات والأحاديـث الدالة عليها ، ثم تتبع الآثار المروية عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين والأئمة طبقةً طبقةً فذكر أقوالهم بالأسانيد على طريقة أهل الحديث ، وهو الكتاب الموسوم ((بالعلوّ للعلى الغفار)) .

فالسـلف يثبتون الألفـاظ التى جاء بها النص بمعانيها اللائقة بذات الله عز وجل أما الألفاظ المحدثة التى لم تكن دائرة على ألسنة الصحابة التابعـين غير أنهـا وجـدت بَعْدُ بين المتكلمين – حيث رأى المتكلمون أنها تلزم من إثبات الاستـواء والعلـوّ والفوقيـة مثل : الجسم والجهة والمكان والحيز والحدّ – فـإنّ السلف يفصلون القول فى هذه الألفاظ ، فلا يثبتونها جملة ، ولا ينفونها جملـة ؛ حـتى يُعلم مراد قائلها منها لأنها صارت مصطلحات قد تقترب من معناها اللغوى الأصلى ، وقد تبتعد عنه شأن الاصطلاحات عموماً .

فإذا نُفِيَتْ لعدم ورودها عن أهل القرون الأولى فربما أراد قائلها منها حقاً فيكون ردّها ردّاً للحق . وربما أراد منها معنى باطلاً فى نفسه فيكون إثباتها جملة قبولاً للباطل وكلاهما مجانبة للصواب .[1]

---

(١)انظر : " درء التعارض " : (١ / ١٨٣) ، و " مجموع الفتاوى " : (٥ / ٢٩٩ ، ٣٠٥) ، و " منهاج السنة " : (١ / ٢٤٩) ، و" شرح الطحاوية " : (٢١٨) .

قـال شـارح الطحاوية : الألفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الإثبات والنفي ، فنثبت مـا أثبته الله ورسوله ﷺ من الألفاظ والمعانى ، وأما الألفاظ التى لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حـتى يـنظر فى مقصـود قائلها ؛ فإن كان معنى صحيحاً قُبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصـوص دون الألفـاظ المجملة إلاّ عند الحاجة مع قرائن تبين المراد ، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك .

أما لفظ الجسم : فلم يرد عن أحد من السلف إطلاقه كما لم يرد عن أحد منهم نفيه (١).

فـلما أُحدِث قالوا : " من نفى الجسم وأراد به نفى التركيب من الجواهر الفردة ، أو المادة والصورة فقد أصاب فى المعنى ، لكن منازعوه يقولون : هذا الـذى قلـته ليس هو مسمى الجسم فى اللغة (٢) ولا هو أيضاً حقيقة الجسم الاصطلاحي (٣) .

وإذا كان منازعوه ممن ينفى التركيب من هذا وهذا فالفريقان متفقان على تـنـزيه الـرب عـن ذلك ؛ لكن أحدهما يقول : نفى الجسم لا يفيد هذا التـنـزيه ، وإنمـا يفيده نفى هذا التركيب ونحوه ، والآخر يقول : بل نفى الجسم يفيد هذا التنـزيه .

ومـن قـال : هو جسـم . إنه يفسر ذلك بأنه الموجـود أو القائـم بنفسـه لا بمعنى المركـب .

وقد اتفق الناس على أن من قال : إنه جسم . وأراد هذا المعنى فقد أصاب فى المعنى ، لكن إنما يخطئه من يخطئه فى اللفظ ... " (٤)

وبعد مناقشة طويلة لأقوال الفريقين قال ابن تيمية رحمه الله : " إن فى هذا

---

(١) انظر : " درء التعارض " : (١ / ١٨٣) ، و " منهاج السنة " : (١ / ٢٥٨) .
(٢) الجسـم لغـة : قال ابن منظور : " قال أبو زيد : الجسد ، وكذلك الجسمان والجثمان : الشخص " . انظر : " اللسان " : (٦٢٤) .
(٣) الجسم اصطلاحاً : عند المتكلمين هو ما يشار إليه . انظر: " منهاج السنة " : (١ / ٢٤٧)
(٤) " منهاج السنة " : (١ / ٢٤٧) .

اللفــظ مــن المــنازعات اللغوية والاصطلاحية والعقلية والشرعية ما يبين أن الواجــب على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة كما أمرهم الله تعالى بذلك في قوله : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) " (٢)

وكذلك لفظ الجهة : فإن السلف لا ينفون هذا اللفظ ، ولا يثبتونه ، لأنه مجمل يحتمل أحد معنيين :

الأول : أمر وجودى ، وهو ما كان مخلوقاً .

الثاني : أمر عدمى ، والعدم ليس شيئاً .(٣)

فالســلف يــنفون لفــظ الجهــة بالمعنى الأول ، ويثبتونــه على المعنى الثــاني . وبيــان ذلك " أنه لا موجود إلاّ الخالق والمخلوق . فإذا أُريد بالجهة أمر وجودى غير الله تعالى ؛ كان مخلوقاً ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات تعالى الله عن ذلــك .

وإن أُريــد بالجهــة أمــر عدمى ؛ وهو ما فوق العالم ، فليس هناك إلاّ الله وحــــده . فإن قيل إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح . ومعناه : أنه فوق العالم ؛ حيث انتهت المخلوقات ، فهو فوق الجميع ، عال عليه . " (٤)

---

(١) آل عمران : (١٠٣) .

(٢) " منهاج السنة ": (١ / ٢٤٨) .

(٣) انظر : " منهاج السنة " : (١ / ٢٥٠) ، و " درء التعارض " : (١ / ١٩٢) ، و " شرح الطحاوية " : (٢٢١) .

(٤) " شرح الطحاوية " : (٢٢١) ، وانظر : " منهاج السنة " : (١ / ٢٥٠) ، و " الدرء " : (١ / ١٩٢) .

وكذلك القول فى لفظ الحـيز والمكـان :

فـإن " المتحـيز " ؛ يـراد به : ما أحاط به شيء موجود ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ ﴾ (١) ويراد به : ما انحاز عن غيره وباينه .

فمن قال : إن الله متحيز بالمعنى الأول . لم يسلّم له .

ومن أراد أنه مباين للمخلوقات . سُلّم له المعنى ، وإن لم يطلق اللفظ ." (٢)

فمـن أثبـت من السلف شيئاً من هذه الألفاظ ؛ فإنما عنى بها ذلك المعنى العدمي ، ولم يَعْنِ أن الله عز وجل يحيـط به شيء ، أو أنه تعالـى يفتقـر إلى شيء ، تعالى الله عن ذلك علـوّاً كبيـراً .

* * *

(١) الأنفال : (١٦) .

(٢) " مجموع الفتاوى " : (٥ / ٣٠٠) .

موقف الكرمي من الاستواء والجهة والمكان

أولاً : موقفه من مسألة الاستواء :

أثبـــت الكرمي الاستواء لله تعالى قائلاً : " العلم بأنه سبحانه استوى على العـــرش بعد أن خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، فهذا دليل سمعى ، علم مـــن جهة إخبار الأنبياء عليهم السلام . " (١) وهو مذكور فى سبع آيات من القرآن الكريم .(٢)

وقـــد عرف الكرمي الاستواء لغة : بأنه العلوّ والصعود ، والاستقرار . (٣) وردّ تأويلـــه بالاستيلاء ؛ بأن هذا المعنى غير معروف فى لغة العرب " فقد سُئل الخليل بن أحمد (٤) إمام أهل اللغة والنحو :

هـــل وجـــدت فى اللغـــة استوى بمعنى استولى ؟ فقال : هذا مما لا تعرفه العرب ، ولا هو جار فى لغتها . سأله عن ذلك بشر المريسى (٥) ...

---

(١) " أقاويل الثقات " : (٨٦) ، وانظر : " البهجة " : ل ١٤ أ .

(٢) انظر : " أقاويل الثقات " : (١٢٠) .

والآيـــات هي : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ (البقرة :٢٩) ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ (الأعراف :٥٤) ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ (يونس : ٣) ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (الرعد :٢) ، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه : ٥) .

(٣) انظر : المرجع السابق : (١٢٣ ، ١٢٦ .

(٤) الخلـــيل بن أحمد الفراهيدى ، منشيء علم العروض ، أستاذ سيبويه ، كان رأساً فى العربية (١٠٠ – بضع وستين ومائة هـــ) السير : (٧ / ٤٢٩ .

(٥) بشر بن غياث ، المتكلم المناظر ، كان من كبار الفقهاء تتلمذ على القاضى أبي يوسف ، =

وعـــن ابن الأعرابى أنه سُئل عن معنى استـــوى فقـــال : هو على عرشه كما أخبر .

فقيل له : يا أبا عبد الله ، معناه استولى ؟ فقال : اسكت . لا يقال استولى على الشيء إلاّ إذا كان له مضاد . فإذا غلب أحدهما ؛ قيل استولى . " (١)

كمـــا ردّ تـــأويل المعتزلة السابق الاستـــواء على أنه المـــلك بقـــول الله تعـــالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ (٢) ، فما كان حوله فهو خارج عنه . والملائكة ليست خارجة عن جملة المـــلك (٣) .

ثم لخص الكرمى مذهبه فى صفة الاستـــواء بتقريره كلام ابن تيمية قائلاً : " والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستوٍ على عرشه استواء يلـــيق بجلالـــه ، فكما أنه موصوف بالعلم والبصر والقدرة ، ولا يَثْبُتُ لذلك خصـــائص الأعـــراض الـــتى للمخلوقين فكذلك سبحانه ، هو فوق عرشه ، لا يثبـــت لفوقيـــته خصـــائص فوقـــية المخلوق على المخلوق . تعالى الله عن ذلك . " (٤)

= كـــان مـــن القـــائلين بخلـــق القرآن ، وله مناظرات مع الإمام الشافعي رحمه الله . انظر : " السير " : (١٠ / ١٩٩) .

(١) " أقـــاويل الثقات " : (١٢٤ ، ١٢٥) . قال ابن القيم : " قال ابن الاعرابي وقد سُئل هـــل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى ؟ فقال : لا تعرف العرب ذلك . وهذا هو من أكبر أئمة اللغة ." . " مختصر الصواعق المرسلة " : ص (٣٨١) .

(٢) الزمر : (٧٥) .

(٣) انظر : " أقاويل الثقات " : (١٢٨) .

(٤) المرجع السابق : (١٣١) .

ثانياً : مذهبه فى لفظ " الجهـة "

ذكـر الكرمى أدلة علوّه تعالى من مثل قوله تعالى : " ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ (١)، و ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ** ﴾ (٢) ، و﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ (٣) ، و ﴿ **أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ** ﴾ (٤) ... " (٥)

وذكر من السنة أحاديث المعراج (٦) وغيرها (٧) ، ثم عقبها بقوله : " ويجد الناظر فى النصـوص الواردة عن الله ورسوله فى ذلك نصوصـاً تشير إلى حقائق هذه المعانى ، ويجد الرسول تارة قد صرح بها مخبراً بها عن ربه ، واصفاً لـه بهـا . ومن المعلوم أنه عليه السلام كان يحضر فى مجلسه الشريف والعالم والجاهل والذكى والبليد والأعرابى الجافى ثم لا يجد شيئاً يعقب تلك النصوص مما يصرفها عن حقائقها لا نصاً ولا ظاهراً ، كما تأولها بعض هؤلاء المتكلمين .

---

(١) الأنعام : (١٨) .

(٢) المعارج : (٤) .

(٣) فاطـر : (١٠) .

(٤) الملك : (١٦) .

(٥) انظر : " أقاويل الثقات " : (٨٣) .

(٦) وهـى متواترة . انظـر : " نظم المتناثر من الحديث المتواتر " للكتّانى : ص (٢٠٧) ، الحديث رقم (٢٥٨) . وقال : " ... مجموع ذلك خمسة وأربعون صحابياً " يعنى الذين رووا قصة المعراج .

(٧) انظر : " أقاويل الثقات " : (٨٥) .

ولم ينقل عنه عليه السلام أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه فى صفته لربه من الفوقية واليدين ، ونحو ذلك .

ولا نُقِـلَ عنه أن لهذه الصفات معانى أخر باطنة غير ما ظهر من مدلولها ، ولما "قال للجارية أين الله ؟ قالت : فى السماء " لم ينكر عليها بحضرة أصحابه ، كى لا يتوهموا أن الأمر على خلاف ما هو عليه ؛ بل أقرها ؛ وقال : " أعتقها فإنها مؤمنة ." إلى غير ذلك من الدلائل التى يطول ذكرها . " [١]

ثم نقل الكرمى عن القرطبى إجماع السلف على عدم نفى الجهة .[٢]

هـذا . وقـد ردّ الكرمى على الشبهات التى تثار حول إثبات الجهة من استلزام ذلك للتجسيم وتعدد القدماء والظرفية فقال :

" إن كثـيراً من الناس يظنـون أن القائل بالجهة هو من المجسمـة لأن من لازم الجهـة التجسيم ، وهذا ظن فاسد ؛ لأن لازم المذهب ليس بلازم[٣] عند المحققـين . فكيف يجوز أن ينسب للإنسـان شيء من لازم كلامه وهو يفر منه ، بل قالوا :

نحـن أشـد الناس هرباً من ذلك ، وتنـزيهاً للبارى تعالى عن الحد الذى يحصره . فلا يحد بحد يحصره ؛ بل بحدّ يتميز به عظمة ذاته من مخلوقاته . " [٤]

---

(١) انظـر : " أقاويل الثقات " : نفس الصفحة . وهذا النص هو كلام الإمام أبي محمد الجويني والـد إمـام الحـرمين . انظـر : " مختصر العلوّ " للذهبي ؛ اختصار وتخريج الشيخ الألباني : ص (٢٨ ، ٢٩) .

(٢) انظر : " أقاويل الثقات " : (٨٩) .

(٣) يعنى : ليس بمذهب لقائله .

(٤) انظر : " الأقاويل " : (٩٢) .

وإثبات الجهة – عنده – لا يلزم منه تعدد القدماء ، ولا أن يكون الله تعالى مظروفاً فى شيء ، لأن مثبت الجهة يقول : " إن الجهات تنقطع بانقطاع العالم ، وتنــتهى بانتهاء آخر جزء من الكون ، والإشارة إلى فوق تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة . " (١)

فالجهــة عــند الكرمى : أمر عدمى لأن " الكون الكلى لا فى جهة ..... وما عدا الكون الكلى ، وما خلا الذات القديمة ليس بشيء ، ولا يشار إليه ، ولا يعرف بخلاء ولا ملاء . " (٢)

والكرمى يستدل لذلك ببطلان التسلسل لأن الكون الكلى " لو افتقر إلى مكــان لافــتقر المكــان الــثانى إلى ثالث ؛ ويتسلسل إلى ما لا نهاية . وهو مــحال . " (٣)

والكــرمى يلــزم القائلين بنفى الجهة [بالمعنى العدمى] بإلزامات هى فى نفســها باطلــة ؛ يقول الكرمى : " يلزم القائل بنفى الجهة عنه سبحانه أحد أمــرين : ... أنــه سبحانه بعد انتهاء العالم محيط به من سائر جوانبه وجهاته ، وحينــئذ فهو تعالى لا فى جهة ؛ بل فى جميع الجهات . " (٤) فيكون الكون كله مظروفاً فى ذاته تعالى عن ذلك .

---

(١) " أقاويل الثقات " : (٩٣) .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق : (١٠٧) .

(٤) المرجع السابق : نفس الصفحة .

أو " أنـــه سبحانـــه داخل العالـــم ؛ أو معه ساريـــاً فى جميعه ؛ كما يقول به بعض المتصوفة . " [١] وذلك باطل شرعاً وعقلاً . " لأن القديم [٢] لا يحل فى الحادث ، وليس هو محلاً للحوادث . فلزم أن يكون بائناً عنه ، وإذا كان بائناً عـــنه ، فيستحيل أن يكون العالم فى جهة الفوق ، والرب فى جهة التحت ؛ بل هو فوقه بالفوقية اللائقة به التى لا تكيف ولا تمثل ؛ بل تعلم من حيث الجملة والثبوت ، لا من حيث التمثيل والتكييف ، فيوصف الرب بالفوقية كما يليق بجلاله وعظمته ، ولا يفهم منها ما يفهم من صفات المخلوقين . " [٣]

أما مسألة : إثبات ((المكان)) لله تعالى :

فقد اختلف موقف الكرمى تجاه هذه المسألة ؛ حيث كان فى أول أمره ينفى المكـــان عن الله تعالى ، ولا يرى جواز السؤال عنه بأيـــن الدالـــة على المكان مـــتابعـــة للنفـــاة ، حيث يقول : " تَعَزَّزَ جل ذكره عن الأينية ... إن قلت : أين ؟ فقد طالبته بالأينية . " [٤]

وقـــال فى موضع آخر : " سأل قوم علياً كرّم الله [٥] وجهه فقالوا : يا ابن عـــم رســـول الله صلى الله عليه وسلم : أين كان ربنا ؟ فتغير وجهه وسكت ساعة ؛ ثم قال : قولكم أين ؟ سؤال عن المكان ، وكان ولا مكان ، ثم خلـــق

(١) " أقاويل الثقات ": نفس الصفحة .

(٢) قد بينا من قبل عدم جواز إطلاق لفظ " القديم " على الله تعالى .

(٣) المرجع السابق : (٩٣) .

(٤) " بهجة الناظرين " : ل ٧ أ .

(٥) السنة عدم تمييز علي ﷺ عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، بل يُقال فى حقه ما يُقال فى حق الصحابة : " رضي الله عنه " .

الزمان والمكان ، وهو الآن كما كان بلا مكان ولا زمان . " (١)

ونَفْيُ الكرمى المكان والسؤال بأين عن الله تعالى قد قرره فى كتابه ((بهجة الناظرين)) الذى انتهى من تأليفه سنة ١٠٢٢ هـــ .

أما كتابه ((أقاويل الثقات)) الذى انتهى منه سنة ١٠٣٢ هـــ فإنه يثبت فيه حديث الجارية الذى فيه التصريح بالسؤال بأيـــن حيث يقول :

" لمـــا قال [يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم] للجارية : " أين الله ؟ " فقالت : فى السماء .لم ينكر عليها بحضرة أصحابه كى لا يتوهموا الأمر على خلاف ما هو عليه ؛ بل أقرها وقال : " أعتقها فإنها مؤمنة ... " " (٢)

وقال أيضاً : " وكذلك الحديث المشهور (٣) الذى رواه أحمد وغيره عن أبي رزيـــن العقيلى رضى الله عنه أنه قال : " يا رسول الله : أين كان ربنا قبل أن يخلق العرش ؟ قال : كان فى عماء ... " (٤) " (٥)

---

(١) " بهجة الناظرين " : ل ٨ ب .

(٢) " الأقاويل " : (٨٥ ، ٨٨) . وقد تقدم تخريج حديث الجارية ؛ وهو صحيح .

(٣) لـــيس المـــراد هـــنا الشهرة بالمعنى الاصطلاحي عند المحدثين ، فمخرجه صحابي واحد هو أبو رزين العقيلي .

(٤) الحديـــث : رواه أحمد فى مسنده : (٤ / ١١) حديث رقم (١٦٢٣٣) ، (٤ / ١٢) رقـــم (١٦٢٤٥ ، والـــترمذى فى كـــتاب التفسير ؛ باب ((ومن سورة هود)) حديث رقم (٣١٢٠) وقـــال : هـــذا حديـــث حسن ، ورواه ابن ماجة فى المقدمة ؛ باب فيما أنكرت الجهمية رقم (١٨٢) . كلهم من حديث أبي رزين العقيلي . وقد فسر الترمذى معنى (العماء) فى هذا الحديث فقال : قال أحمد بن منيع : قال يزيد بن هارون : العماء ؛ أي ليس معه شيء .

(٥) " أقاويل الثقات " : (٨٨) .

فالكـــرمى فى هذيـــن النصـــين وغيرهما من هذا الكتاب ((الأقـــاويل)) يثبـــت المكانية والأينية ، لكن كما – قدمنا – بالمعنى العدمى فى مسألة الجهة بلا ظرفية .(١)

فجملـــة موقفه فى هذه المسألة أنه موافق للسلف ؛ فقد أثبت الاستواء على العـــرش بغير تأويل ولا تشبيه كما يليق بذاته عزّ وجل ، من غير تحيز أوظرفية أو مكانـــية أو جهـــة بالمعنى الوجودى ؛ بل بالمعنى العدمى ، بمعنى أن الموجود لا يخـــرج عن أن يكون الخالق والمخلوق ، فكل ما سواه تعالى مخلوق . ثم الله عز وجل مستعل عليه ، بائن منه على الحقيقة بالذات والصفة ، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢)

* * *

(١) " أقاويل الثقات " : (٨٩) .

(٢) سورة الشورى : (١١) .

مبحـــث رؤيـــة اللـــه تعالـــى

اختلفـــت الفـــرق الإسلامية فى مسألة الرؤية . شأنهم فى كثير من مسائل الصـــفات – مـــا بين رؤيته حقيقة فى الدنيا ؛ وهو قول الحلولية ، وبين إنكار رؤيـــته حتى فى الآخرة وهو قول الجهمية والمعتزلة كما سيتضح ذلك بعد إن شاء الله تعالى .

فذهـــب الســـلـــف [١] والأشـــاعرة [٢] والكرامية [٣] والماتريدية [٤] والظاهـــرية [٥] إلى أن المؤمـــنين يرون ربهم عز وجل فى الآخرة ، وقد ذكرت الأشاعرة فى هذا الفريق لأنهم يثبتون الرؤية لفظاً وإن كانوا يؤولونها بالعلم فقد آل أمـــرهم إلى أن يكونوا فى الحقيقة من الفريق الثاني ، وسوف يأتى إيضاح ذلك إن شاء الله .

---

(١) انظر: "صحيح البخارى" : كتاب التوحيد ؛ باب/ قوله تعالى : ﴿**وجوه يومئذ ناضرة**﴾ (٤٢٩/١٣) مـــع " الفتح " ، و" صحيح مسلم " : كتاب الإيمان ؛ باب/ إثبات رؤية المؤمنين لـــربهم فى الآخرة : (٤٢٥/١) مع شرحه " المنهاج " للنووى ، و" تأويل مختلف الحديث " لابن قتيـــبة : (١٣٨) ، و " مـــنهاج السنة " : (٢١٦/١) ، و " الطحاوية مع شرحها " : (١٨٨ ، ١٨٩) .

(٢) انظـــر : " اللمـــع " : (٦١) ، و " الإنصـــاف " : (١٧٦) ، و" تأويل مشكل الحديث" لابـــن فـــورك : (٢٣٦) ، و " النظاميـــة " : (٢٨) ، و" الاقتصاد " : (٥٩) ، و "الأربعين " للرازى : (٢٢٦/١) .

(٣) " درء التعارض " : (١٨٨/١) ، و " الآمدى وآراؤه الكلامية " : (٣٦٧) .

(٤) انظر : تفسير الماتريدى المعروف " بتأويلات أهل السنة " : (١٦١) .

(٥) انظر : " الفصل " : (٢/٣) ، والمحلى : (٣٤/١) ، المسألة رقم : (٦٣) .

وأنكـــرت الجهمـــية [1] والمعتزلة [2] وسائر من تأثر بهم فى نفى الصفات كالشيعة [3] والخوارج [4] أن يكون الله عز وجل يُرى بالأبصار .

وقـــد اســـتدل السلف لمذهبهم فى هذه المسألة بالكتاب والسنة مع إجراء النصوص كما وردت دون تحريف أو تعطيل أو تأويل أو تشبيه .

اســـتدلوا من القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [5]، وبقوله تعالى : ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ** ﴾ [6]

وبســـؤال موسى عليه الصلاة والسلام ربه أن يراه فى قول الله عز وجل : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ [7]وبالآيات الدالة على لقاء الله تعالى نحو قوله عز وجـــل : ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ [8] وغيرها .

---

(١) انظر : " الفصـــل " : (٢/٣) ، و" الملل والنحل " : (٨٨/١) ، و" الشريعة " : (٢٥٢) و" مـــنهاج الســـنة " : (٢١٤/١) ، و" شرح الطحاوية " : (١٨٩) ، و" حادى الأرواح " : (١٩٦) .

(٢) انظر : " شرح الأصول الخمسة " : (٢٣٢) ، و" المقالات " : (٢٣٨/١) ، و" الفصل " (٢/٣) ، و " الملل " : (٨٨/١) .

(٣) انظر :" الملل " : (١٥٠/١ ، ١٦٢) .

(٤) انظر : " المقالات " : (٢٣٦/١) .

(٥) سورة القيامة : (٢٢ ، ٢٣) .

(٦) سورة يونس : (٢٦) .

(٧) سورة الأعراف : (١٤٣) .

(٨) سورة الكهف : (١١٠) .

أمـا السنــة ؛ فقد حكى كثير من العلمــاء تواتر الأحاديث الدالة على رؤيــة البارى تعالى .[1] فمن هذه الأحاديث قول النــبى صلى الله عليه وآله وســلم : وقد سألــه ناسٌ : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : ((هــل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ " قالوا : لا يا رســول الله . قــال : ((هــل تضــارون فى الشمــس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : ((فإنكم ترونه كذلك ...)) [2]

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة — قال : يقــول الله تــبارك وتعــالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيــئاً أحب إليهم من النظــر إلى ربهم عز وجلّ .)) [3] وفى رواية ((ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .)) [4]

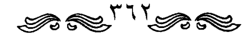
---

(١) انظــر : " الاعتقاد " : (٦٣) ، و" الشريعة " : (٢٥٧ — ٢٧٠) ، و " منهاج السنة " : (٧٥/٢) و" شــرح الطحاويــة " : (١٩٣) ، و" فــتح البارى " : (٤٤٣/١٣) ، و " ضوء السارى " : (٩٨ ، ٩٩) ، و " نظم المتناثر " : (٢٣٨) .

(٢)متفق عليه : رواه البخارى فى كتاب التوحيد ؛ باب قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ رقــم (٧٤٣٧) ، ومسلم فى " كتاب الإيمان " ، باب/ إثبات رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى (٤٢٧/١) . كلاهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) الحديــث : رواه مســلم فى " كتاب الإيمان " ؛ باب/ رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم : (١/ ٤٢٦) ، والــترمــذى : فى "صــفة الجــنة " ؛ باب/ ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى رقم (٢٥٦١) ، والنسائى فى " الكبرى " فى النعوت كما فى " التحفة " : (١٩٨/٤) ، وابن ماجة فى " المقدمة " ؛ باب فيما أنكرت الجهمية ، حديث رقم : (١٨٧) .

(٤) عند مسلم : (٤٢٧/١) ، ابن ماجة : حديث رقم (١٨٧) .



أما نفاة الرؤية فقد استدلوا لمذهبهم بقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . ﴾ (١) ، وبقوله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ (٢)

وقال الكتاني : " حديث إنكم سترون ربكم ... " ذكره السعد في " شرح النسـفية " ، وقـال : هـو حديث مشهور ، رواه أحد وعشرون من أكابر الصـحابة رضى الله عنهم ... وقال ابن أبي شريف أيضاً : ... أحاديث الرؤية متواترة معنى ، فقد وردت بطرق كثيرة عن جمع كثير من الصحابة . " (٣)

واحـتجوا – مـن العقل – بانتفاء الجسمية والجهة عن الله تعالى (٤) ، ولما كـان الرائى بالحاسة ، لا يرى إلاّ ما كان في مقابل (٥) ؛ امتنع أن يكون تعالى مرئياً .

وقـالوا – أيضـاً – : لو جازت رؤيته تعالى لوجب أن نراه الآن لانتفاء الموانع ، وذلك غير حاصل (٦) .

(١) سورة الأنعام : (١٠٣) . وانظر لاستدلالهم بهذه الآية : " شرح الأصول " : (٢٣٣) .
(٢) الأعراف : (١٤٣) .
(٣) " نظم المتناثر من الحديث المتواتر " : ص (٢٣٨ – ٢٤٠) .
(٤) انظر : " شرح الأصول " : (٢٤٩) .
(٥) انظر : المرجع السابق : (٢٤٨) .
(٦) انظر : المرجع السابق : (٢٥٣) .
قـال ابن أبي العز : " إنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا ، لا لامتناع الرؤية ، فهذه الشمس إذا حـدّق الرائي في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي ، فإذا كـان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته " . " شرح الطحاوية " ص : (١٩٥) .

وردّ الـنفاة استدلال المثبتين للرؤية بقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [1] ردّوا هذا الاستدلال من وجهين :

الأول : مـنعهم " من الاستدلال بالسمع أصلاً ؛ لأن الاستدلال بالسمع ينـبنى عـلى أنه تعالى عدل حكيم لا يظهر المعجز على الكذابين ، والقوم لا يقولون بهذا ، فلا يمكنهم الاستدلال بالسمع على شيء أصلاً . " [2]

الثانى : أن النظر فى هذه الآية ليس معناه الرؤية البصرية [3] ، بل معناه – عند النفاة – الانتظار ، وجعلوا كلمة ((إلى)) مفرداً لكلمة ((آلاء)) بمعنى النعم جمع النعمة .

كما ردوا استدلال المثبتين للرؤية بسؤال موسى عليه الصلاة والسلام إياها بأنه لم يكن موسى يسأل لنفسه ؛ بل كان يسألها لقومه وهم الذين حملوه على ذلـك [4] ، ثم استدل النفـاة لمذهبهـم بهذه الآية نفسهـا من قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ ، وزعموا أن الحرف ((لن)) يفيد تأبيد النفى [5] ، كما ردوا الاستدلال بالآيات الدالة على لقائه تعالى على الرؤية بأن اللقاء لا يعنى الرؤية

---

(١) سورة القيامة : (٢٢ ، ٢٣) .

(٢) " شرح الأصول " : (٢٦٢) .

(٣) انظر : " الفصل " : (٣/٣) ، و" شرح البيجورى على الجوهرة " : (١٣٥) ، وقد نسب ابن حزم هذا القول إلى الجبائى من المعتزلة .

(٤) انظر : " شرح الأصول " : (٢٦٢) .

(٥) انظر : " شرح الأصول " : (٢٦٤) .

قال ابن أبي العز : " وأما دعواهم [يعنى المعزلة] تأبيد النفي بلن ، وأن ذلك يدل على نفي الرؤية فى الآخرة ففاسد " . " شرح الطحاوية " : ص (١٩٢) .

ولا تلزم منه [1] .

وردوا استدلال المثبتين بالإجـماع بموقف عائشة رضى الله عنها من مسألة رؤيـة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ربه [2] المتنازع فيها بين الصحابة رضى الله عـنهم كما سيأتى عند ذكر هذه المسألة قريباً . بل ذهبوا إلى نسبة القول بنفى الرؤية إلى علىّ وكبار الصحابة رضى الله عنهم [3] .

كمـا ردّوا الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن " أكـثرها يتضـمن الحيز والتشبيه فيجب القطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقلـه ، وإن قـال فإنه قاله حكاية عن قوم ، والراوى حذف الحكاية ونقل الخبر " !!! [4] .

أمـا مثبتو الرؤية – وهم جمهور المسلمين – فقد نقضوا أدلة النفاة بالنقل والعقل كذلك. أما النقل – ويشمل الكتـاب والسنـة والإجماع – فاحتجوا مـنه كمـا قدمنا بقوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ كما قدمنا .

ودفعـوا تـأويل النفاة لهذه الآية بأن ((النظر)) إذا أسند إلى الوجه كان بمعنى الرؤية البصرية ، وإذا أسند إلى القلب كان بمعنى البصيرة والفكر ، وهو فى الآية التى معنا مضاف إلى الوجوه فيكون رؤية بصر . [5]

(١) انظر : " شرح الأصول " : (٢٦٥) .
(٢) انظر : المرجع السابق : (٢٦٨) .
(٣) انظر : المرجع السابق : (٢٦٨) .
(٤) انظر : المرجع السابق : (٢٦٨) .
(٥) انظر : " ضوء السارى " : (٥٢) .

كما أن النظر يختلف معناه باختـــلاف الحروف الداخلة عليه أو تجرده منها فإذا عُدّى ((بإلى)) وقُيّد بالوجه لم يَجُزْ إلاّ أن يكون معناه رؤية البصر . (١)

وردوا تفسير النفـــاة للحرف ((إلى)) بأنه يعنى النعمة واحدة الآلاء بأن الأفصح أن تكون بالفتح وأن ترسم بالألف هكذا [ألا] ، ويجوز فيها الكسر بالـــياء هكـــذا [إلى] (٢) كالحرف . لكن ما كان شأنه كذلك ترد به بعض القراءات وهذه جاءت على غير الفصيح " وليس فى القرآن كله كلمة مجمع عليها وهى على غير الفصيح ." (٣)

وهذه الكلمة لم ترد فى قراءة متواترة ولا شاذة بالفتح أو بالألف فلا يسلم هذا التفسير ، بل هذا من قبيل الإلغاز ، وكلام الله تعالى منـــزه عن ذلك .(٤)

الدلـــيل الـــثانى للمثبـــتين للرؤية من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ (٥) ، فقد فسر السلف ((الزيادة)) بأنها النظر إلى وجـــه الله الكـــريم ورووا فى ذلـــك أحاديـــث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم (٦) وآثاراً عن الصحابة والتابعين .(٧)

الدليل الثالـــث قولـــه تعـــالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

(١) انظر : " ضوء السارى " : (٥٤) .
(٢) انظر : " لسان العرب " : (١١٩) .
(٣) انظر : " ضوء السارى " : (٥١) .
(٤) انظر : المرجع السابق : (٥٢) .
(٥) سورة يونس : (٢٦) .
(٦) الحديث رواه مسلم والترمذى وغيرهما وقد تقدم .
(٧) انظر: " ضوء السارى " : (٦٥) .

﴿ لَمَحْجُوبُـونَ ﴾ [1] ووجـه الاستدلال بهذه الآية أن يقال : تخصيص الكفار بهذا الحجب دليل على أن المؤمنين لا يكونون محجوبين . [2] وقد استدل بهذه الآية مالك بن أنس وابن عيينة والشافعي وأحمد وجماعة من الأئمة . [3]

الدليل الرابع من القرآن الكريم : الآيات الدالة على لقاء الله عـز وجـل مـثل قولـه تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ... ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [5] .

قال البيهقي : " واللقاء إذا أطلق على الحي السليم لم يكن إلا رؤية بالعين ، وأهل هذه التحية لا آفة بهم " [6] .

أمـا الدليل على رؤيته تعالى من السنة ؛ فقد حكوا التواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بذلك ، وقد قدمنا ذلك أول البحث .

وقـد رد المثبتون للرؤية دعوى النفاة بأن سؤال موسى عليه السلام الرؤية دفعـه إليه قومه حيث قص علينا تعالى من خبرهـم أنهم قالوا : أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .[7]

---

(١) سورة المطففين : (١٥) ، وانظر : " ضوء الساري " : (٦٨) .

(٢) انظر : " ضوء الساري " : (٦٨) .

(٣) انظر : المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٤) سورة الكهف : (١١٠) .

(٥) سورة الأحزاب : (٤٤) . وانظر : " الضوء " : (٧٣) .

(٦) " الاعتقاد " : (٥٧) ، وانظر : " الضوء " : (٧٣) ، و" الحادي " : (٢٤٠) .

(٧) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥] .

فقال أهل الإثبات هذه غير تلك ، وتُرد هذه الدعوى بأن النبى الرسول لا يســتدرج إلى مــا يعلم بطلانه ، بل يصبر على ما يعلمه حقاً . وموسى عليه السلام من أولى العزم ، وهو كليم الله تعالى ، فهو أعلم بما يليق بجلاله وكماله تعالى وتقدس فالآية من أدلة المثبتين للرؤية لا من أدلة النفاة كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : " إنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلاّ وفى ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله " [1]

أمــا زعم النفاة للرؤية أن الحرف لــن يفيد تأبيد النفى ، فرُدّ بإفادة النفى غــير الموبــد فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً** ﴾ [2] مع تمنيه فى النار عند قولهم : ﴿ **يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**... ﴾ [3] وبقول ابن مالك :

ومن رأى النفى بلن مؤبــدّاً فقوله ارْدُدْ وسواه فاعضُدَا .[4]

أما زعم النفاة أن اللقاء لا يستلزم الرؤية ، والاستدلال لذلك بحصوله من الأعمــى [5] . فيقال : إن المؤمنين الذين يرون ربهم يوم القيامة وفى الجنة ليس فيهم آفة . [6]

---

(١) " حادى الأرواح " : (٢٠٢) .

(٢) سورة البقرة : (٩٥) .

(٣) ســورة الزخــرف : (٧٧) . وانظــر : " شــرح الطحاوية " : (١٩٢) ، و " البرهان " للزركشى : (٣٨٧/٤) .

(٤) انظــر : " شــرح الطحاويــة " : (١٩٢) ، و" شرح الواسطية " للشيخ محمد بن صالح عثيمين (١/ ٤١٦) ، وانظر : " أوضح المسالك " : (١٥٩) ، و " قطر الندى " : (٥٨) .

(٥) انظر : " شرح الأصول " : (٢٦٥) .

(٦) انظر : " الاعتقاد " : (٥٧) ، و " ضوء السارى " : (٧٣) .

وأما استدلالهم بموقف عائشة رضى الله عنها فى مسألة رؤية النبى صلى الله علـيه وآلـه وسلم ربه فى المعراج فهو استدلال فى غير محله إذ إنكارها كان منصباً على حصول ذلك فى الدنيا ؛ أما حصوله فى الآخرة فلم يرد عنها رضى الله عنها إنكاره ؛ بل ولا عن أحد من الصحابة .

وحكايتهم ذلك عن عليّ وكبار الصحابة !! فلم يذكروا لذلك نصاً واحداً بإسناد عن صحابى فضلاً عن كبار الصحابة ، والبينة على من ادعى .

أمـا ردّ الـنفاة الأحاديث المتواترة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى مسـألة الـرؤية ، وزعمهـم أن الراوى حذف القصة فى كل هذه الأحاديث فيقال : لو كان هذا حدث فى حديث واحد أو اثنين لكان الأمر قريباً عند غير المتضلعين من الحديث النبوي ، أما فى مسألة أدلتها متواترة من السنة ، ثابتة فى القـرآن قطعـية الثبوت قطعية الدلالة بتواترها المعنوى ؛ فلا شك أن دعوى حذف الراوى للقصة مكابرة وتحكم ظاهر لكل أحد .

أما استـدلال النفاة بقولـه تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُـهُ الْأَبْصَـارُ وَهُوَ يُـدْرِكُ الْأَبْصَارَ... ﴾ (١) فـإنهم سـوّوا بـين الإدراك والرؤية فى المعنى ، وهذا مالم يوافقهم عليه المثبتون لأن " الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الـرؤية . كمـا قـال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا

= قـال البـيهقي رحمه الله : " الله تعالى قال : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ واللقاء إذا أُطلـق عـلى الحيّ السليم لم يكن إلا رؤية العين ، وأهل هذه التحية لا آفة بهم . " وقد اعتضد أبو شامة فى كتابه " ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري " بنص البيهقي المذكور آنفاً .

(١) سورة الأنعام : (١٠٣) .

لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (١) فـلم يـنف موسى عليه السـلام الـرؤية ، ولم يريدوا بقولهم : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ : إنا لمرئيون ... فالـرؤية والإدراك كـل مـنهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالربُّ تعالى يُرى ولا يُدْرَكُ ، كما يُعلم ولا يُحاط به.

وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة من الآية . قال ابن عباس رضى الله عنهما : " ﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ : لا تحيط به الأبصـار . " (٢)

* * *

(١) سورة الشعراء : (٦١ ، ٦٢) .

(٢) " الحادى " : (٢٠٢) .

الدليل العقلى عند السلف على جواز الرؤية

تقـــدم أن نفـــاة الرؤية بنوا موقفهم هذا على القول بانتفاء الجهة والحيز ، أمـــا المثبـــتون لها فقد تعددت مشاربهم فمنهم المجسمة كالكرامية والهشامية ، ومـــنهم مـــن لم يثبت الجهة كمتأخرى الأشاعرة ، ومنهم من أثبتها كالسلف بمعناها العدمى كما تقدم فى مبحث المكان .

أم المجسمة فلا غرابة عندهم فى إثبات جواز الرؤية ؛ إذ كل جسم يصح أن يُـــرى .[1]

وأمـــا الســـلف والحـــنابلة فكتـــبهم الكلامية ذات الصبغة العقلية قليلة الوجـــود [2] ، إلاّ أنهـــم فيما يحتجون به من العقليات فرع على الأشاعرة فى الغالـــب ، كمـــا أن الأشاعرة فيما يثبتونه من السنة فرع على الحنابلة .[3] وقد اعتمد الأشاعرة ما يسمى بدليل الوجود فى إثبات جواز الرؤية لله تعالى .

وملخصـــه :

" أنـــنا نـــرى الجواهر والأعراض ، والجواهر والأعراض تختلف طبائعها ، فلابـــد من علة مشتركة تصح على أساسها الرؤية ، ثم فتشوا فما وجدوا من أمر مشترك بينهما إلاّ الوجود والحدوث ؛ فقالوا : لا يصح أن يكون الحدوث هـــو الأمر الذى لأجله تصح الرؤية ؛ لأن الحدوث عبارة عن مجموع الوجود

---

(١) انظر : " الآمدى وآراؤه الكلامية " : (٣٦٧) .

(٢) انظر : " إيثار الحق " : (١٢٠) .

(٣) انظر : " مجموع الفتاوى " : (٥٣/٦) .

والعدم . أي : أنَّا لا نسمي الشيء حادثاً إلاّ إذا انتقل من العدم إلى الوجود ، والعـــدم لا يصـــح أن يكـــون جزءاً للعلة ، فلم يبق إلاّ الوجود ، وعند هذا استنتجوا أن الله تعالى تصح رؤيته لأنه موجود " .(١)

إلاّ أن " أكثر مثبتي الرؤية لم يجعلوا مجرد الوجود هو المصحح للرؤية " (٢) ، ومـــن هـــؤلاء ابـــن كـــلاب(٣) وابن الزاغوني(٤) والغزالي في ((القسطاس المستقيم)) (٥) والرازي (٦) والآمدي (٧) وابن تيمية (٨) .

ثم مـــنهم من رأى الدليل العقلي لا يسعف في هذه المسألة ، بل المعوّل فيها عـــلى الدليل النقلي وحده كالرازي (٩) ، ومنهم من جعل المصحح للرؤية هو

(١) "الرازي وآراؤه الكلامية " : للأستاذ الزركان : ص (٢٦٦) ، وانظر: " الآمدي وآراؤه " (٣٧٠) ، و" الإبانة " : (١٧، ١٨) ، و" الإنصاف " : (٥٩) .

(٢) " مجموع الفتاوى " : (١٣٦/٦) .

(٣) المرجع السابق : (٣٤٠/١٧) ، و" الآمدي وآراؤه الكلامية " : (٣٧١) .

(٤) انظـــر : " الإيضـــاح " لابـــن الزاغوني : رسالة ماجستير بكلية دار العلوم قسم الفلسفة الإســـلامية تحقيق أ : عصام السيد محمود : ص (٣٢٠) ، وانظر : " مجموع الفتاوى " : (١٧/ ٣٤٠) .

(٥) انظر : " الآمدي وأراؤه الكلامية " : (٣٧١) .

(٦) انظر : " الأربعين " : (٢٧٧/١) ، و" الآمدي وآراؤه " : (٣٧١) .

(٧) انظر : " الآمدي وأراؤه " : (٣٧١) .

(٨) انظر : " الدرء " : (١٩١/١) .

(٩) انظر :" الأربعين " : (٢٧٧/١) ، وقد أشار الرازي إلى أنّ مصحح الرؤية عند الأشاعرة هـــو دليل الوجود إلاّ أنه أورد عليه اثني عشر سؤالاً وأقر بالعجز عن الإجابة عنها ، وأن دليله عـــلى ثبوت الرؤية هو السمع ، وكان الرازي جرى في كتابه ((الخمسون)) – وهو مختصر – على الاعتماد على ((دليل الوجود)) . [الخمسون : ٥٦] .

كونــه تعــالى ذاتاً قائمة بنفسها حاملة للصفات وهو مسلك ابن كلاب [1] وابن الزغوانى [2] .

معنى الرؤية عند من أثبتهــا :

ذهـــب السلف إلى أن الرؤية تكون بالأبصار كما أخبر النبى صلى الله عليه وآلــه وســـلم فى الحديث : ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب)) [3] فقد شبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئى بالمرئى .

أمـــا الأشـــاعرة الذين ينفون الجهة عن الله تعالى – فقد أولوها بالكشف وزيادة العلم [4] . ففسروها بما تفسرها به المعتزلة ، وقالوا : النزاع بيننا وبين المعتزلة لفظى .[5]

* * *

(١) انظر : " مجموع الفتاوى : (١٧/٣٤٠) ، و " الآمدى وآراؤه " : (٣٧١) .

(٢) انظر : " الإيضاح " : (٣٢٠) ، و " مجموع الفتاوى " : (١٧/٣٧١) .

(٣) سبق تخريج الحديث ، وهو متفق عليه .

(٤) انظــر : " النظاميـــة " : (٢٨) ، و " الاقتصاد " : (٦٤ ، ٦٦) ، و " الإحيـــاء " : (١/ ١٠٨) ، و" الآمدى وآراؤه " : (٣٧٦) ، و" الرازى وآراؤه " : (٣٦٤) هامش ٣ .

قـــال الغزالي : " إن الرؤية نوع كشف وعلم إلاّ أنه أتم وأوضح من العلم ، فإذا جاز تعلق العلم به [يعني بالله تعالى] وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة ، وكما يجوز أن يرى الله تعـــالى الخلق وليس فى مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يُعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يُرى كذلك . "

(٥) انظر : " الدرء " : (١/١٨٩) ، و" مجموع الفتاوى " : (٦/٩، ٤١) ، (١٦/٨٥) .

رؤية النبى ﷺ ربّـه فى المعـراج

" الذى عليـه أهل السنـة قاطبـة أن الله لم يره أحد بعينيه فى الدنيا وقد ذكر الإمام أحمـد وغيره اتفـاق السلـف على هذا النفى ولم يتنـازعوا إلاّ فى النـبى صلى الله عليه وسلم خاصة " [1]

فذهبت عائشة رضى الله عنها فى طائفة من الصحابة رضى الله عنهم إلى أنه صلى الله عليه وسلم لم ير ربّه . [2]

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رآه بعينه[3] ، والذى فى صحيح مسلم عنه : أنه رآه بفؤاده مرتين [4] .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على أنه لم يره [5]

وقد جمع ابن تيمية رحمه الله بين الفريقين فقال :

" ليس قول ابن عباس " إنه رآه " مناقضاً لهذا ، ولا قوله " رآه بفؤاده " ، وقـد صـح أنـه قال : ((رأيت ربى تبارك وتعالى)) ، ولكن لم يكن هذا فى

---

(١) " منهاج السنة " : (٢ / ٧٧) ، وانظر : " شرح الطحاوية " : (١٩٦) .

(٢) انظـر : " الشفا " للقاضى عياض مع شرحه للقارى : (١ / ٤١٦) ، و" زاد المعاد " : (٣ / ٣٦) ، و" مجمـوع الفتاوى " : (٣ / ٣٨٦) ، و" شرح الطحاوية " : (١٩٦) . والحديث رواه مسلم فى " كتاب الإيمان " ؛ باب / إثبات رؤية الله تعالى : (١ / ٤١٩) .

(٣) انظر : " الشفا " : (١ / ٤١٨) ، و" زاد المعاد ": (٣ / ٣٦) ، و" شرح الطحاوية " : (١٩٧) .

(٤) " كتاب الإيمان " ؛ باب / إثبات رؤية الله تعالى : (١ / ٤١٨) .

(٥) انظر : " زاد المعاد " : (٣ / ٣٧) ، و"شرح الشفا " : (١ / ٤٠١٨) .

الإسراء ، ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صـــلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبـــارك وتعـــالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، وقال : نعم . رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد ، ولكن لم يقـــل أحمد رحمه الله تعالى إنه رآه بعينى رأسه يقظة . ومن حكى عنه ذلك فقد وهـــم علـــيه ، ولكن قال مرة : رآه . ومرة قال : رآه بفؤاده . فحُكِيَتْ عنه روايتان ، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعينى رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ؛ ليس فيها ذلك . " [1]

وعـــلى هذا التفصيل يحمل قول ابن تيمية رحمه الله " كان ابن عباس رضى الله عـــنهما وأكثر علماء السنة يقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم رآى ربه ليلة المعراج " [2] .

وممـــن ذهـــب إلى أنه ﷺ رآه فى المعراج أبو الحسن الأشعرى ؛ حكاه عنه القاضـــى عـــياض [3] والباقلانى [4] وابن الزاغونى [5] ، وحكاه عن جماعة من الحـــنابلة ، والآجـــرى [6] ، والـــنووى [7] والقرطبى [8] . وكأن هذا مذهب

---

(١) " زاد المعاد " : (٣ / ٣٧) ، وانظر : " المجموع " : (٣ / ٣٨٧) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٣ / ٣٨٦) .

(٣) انظـــر : " الشفا " مع شرحه : (١ / ٤٢٣) ، وانظر : " تفسير القرطب " : (٧ / ٥٦) ، و" ضوء السارى " : (١٨٢) .

(٤) انظر : " الإنصاف " : (١٧٦) .

(٥) انظر : " الإيضاح فى أصول الدين " : (٣٣٣) .

(٦) انظر : " الشريعة " : (٤٩١) .

(٧) انظر : " شرح مسلم " : (١ / ٤١٦) .

(٨) انظر : " الجامع لأحكام القرآن " : (١٧ / ٩٢) .

ابن حجر حيث يقول : " ومنع ذلك فى الدنيا إلا أنه اختلف فى نبينا صلى الله علـيه وسلم ، وما ذكروه من الفرق بين الدنيا والآخرة أن أبصار أهل الدنيا فانية ، وأبصارهم فى الآخرة باقية – جيد ، ولكن لا يمنع من تخصيص ذلك بمن ثبت وقوعه له " (١) .

وممن ذهب إلى نفى رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه فى الدنيا متابعة لعائشة وجمهور الصحابة رضى الله عنهم الإمام مالك (٢) ، والإمام أحمد (٣) وابن تيمية وابن القيم وابن كثير (٤) وابن أبى العزّ الحنفى (٥) والغزالى (٦) .

ويمكـن الجمع بين المذهبين بأن الذين ذهبوا إلى حصولها فى المعراج أوّلوها بالكشف وزيادة العلم على ما ذهبت إليه المعتزلة والأشاعرة . والله أعلم .

* * *

(١) " فتح البارى " : (١٣ / ٤٣٥) .
(٢) انظر : " تفسير القرطبى " : (٧ / ٥٦) ، و " الشفا " : (١ / ٤٢٦) .
(٣) انظر : " تفسير القرطبى " : (٧ / ٥٦) ، و " الشفا " : (١ / ٤٢٢) .
(٤) انظـر : " تفسـير ابـن كثير " : (٤ / ٢٥٠) ، وقال : " لا يصح فى ذلك شيء عن الصحابة رضى الله عنهم " .
(٥) انظر : " شرح الطحاوية " : (١٩٧) .
(٦) انظر : " الإحياء " : (١ / ١٠٨) ، و" شرح الشفا " للقاري : (١ / ٤١٨) .

مذهب الكـــرمى فى هذه المسألـــة

أثبت الكرمى الرؤية متابعة لأهل السنة وجمهور السلف فقال :

" اعلم أن رؤية الله عز وجل ثابتة فى الآخرة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة جائـــزة بالأبصار فى العقل ، واجبة بالنقل . وقد ورد الدليل السمعى بإيجاب رؤية المؤمنين الله تعالى فى الدار الآخرة .

أما الكتاب : فقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٢)

وأمـــا السنة : فقوله صلى الله عليه وسلم : ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر)) (٣) قال السعد التفتازانى : وهو مشهور ، رواه أحد وعشرون من أكابر الصحابة .

وأما الإجماع ؛ وهو أن الأمة كانوا مجتمعين على وقوع الرؤية فى الآخرة ، وأن الآيات الواردة فى ذلك محمولة على ظواهرها .(٤)

---

(١) سورة يونس : (١٦) .

(٢) سورة القيامة : (٢٢ ، ٢٣) .

(٣) متفق عليه ، وقد تقدم مراراً .

(٤) انظـــر : " شرح العقائد النسفية " : ص (٥٣) . وقد ذكر الكتاني فى " نظم المتناثر من الحديـــث المتواتر " أسماء الصحابة الذين رووا أحاديث الرؤية ، فذكر الأحد وعشرين صحابياً الذيـــن أشـــار إلـــيهم الســـعد التفتازاني وزاد عليهم سبعة فبلغ بهم ثمانية وعشرين صحابياً ، وذكـــر ممن حكوا الإجماع : السعد التفتازاني ، وقاسم بن قطلوبغا الحنفي ، والحكيم الترمذي ، وابن أبي شريف ، واللقاني ، والدميري . انظر : " نظم المتناثر " ص (٢٣٨ – ٢٤٠) .

قـال الفضل بن غسان [1] : سمعت يحيى بن معين [2] يقول : عندى سبعة عشر حديثاً فى الرؤية كلها صحاح [3] .

إذا تقرر هذا ؛ فاعلم أن الله تعالى يراه المؤمنون من أهل الموقف فى الموقف ، ورد بذلك أحاديث صحيحة ، ويراه أهل الجنة فى الجنة بلا نزاع . " [4]

أما موقف الكرمـى من حصـول رؤيـة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ربه فى الدنيا [فى المعراج] فقد ذهب فى ((البهجة)) إلى وقوعها فقال :

" وأما فى الدنيا ؛ فلم تثبت فيها لنبى مرسل ولا لملك مقرب إلاّ للنبى صلى الله عليه وسلم على نزاع فى ذلك .

والصحيح أنه رآه بعين رأسه ؛ وهذه من خصوصياته . " [5]

لكـنه فى ((أقـاويل الـثقات)) – وهـو من أواخر مؤلفاته ؛ ألفه بعد ((البهجة)) بحوالى عشر سنين – بعد أن ذكر الخلاف فى المسألة قال :

" رجّح هذا القول [يعنى قول عائشة وجمهور الصحابة رضى الله عنهم] شـيخُ الإسـلام ابن تيمية وقال : قد تدبرنا عامة ما صنفه المسلمون فى هذه

---

(١) ذكـروه فى تلاميذ يحيى بن معين ، ولم أجد له ترجمة مستقلة . انظر : " السير " : (١١ / ٧٢) ، و " تهذيب التهذيب " : (٦ / ١٧٩) .

(٢) يحـيى بـن معـين بن عون بن بسطام شيخ المحدثين من طبقة الإمام أحمد وهو قرينه ، إمام الجـرح والـتعديل (١٥٨ – ٢٣٣ هـــ)) انظر : " السير " : (١١ / ٧١) ، و" تهذيب التهذيب " : (٦ / ١٧٨) .

(٣) انظر : " الروح " لابن القيم : (٣٧١) .

(٨) (٤)" البهجة " : ل ٢٢٩ ب ، ل ٢٣٠ أ .

(٥) " البهجة " : ل ٢٣٠ أ .

المســألة ، وما تلقوه فيها قريباً من مائة مصنف ، فلم أجد أحداً يروى بإسناد ثابت ، ولا صحيح (١) ، ولا عن صاحب ، ولا عن إمام أنه رآه بعين رأسه .

قــال : فالواجــب اتباع ما كان عليه السلف والأئمة ، وهو إثبات مطلق الرؤية ، أو رؤية مقيدة بالفــؤاد . وقــال : لم يثبت عن الإمام أحمد التصريح بأنه عليه السلام رآه بعين رأسه . " (٢)

ثم ذكــر الكــرمى ما رواه ابن النقاش من أن الإمام أحمد قال : بعينه رآه رآه ... حتى انقطع نفسه (٣) . وعقب ذلك الكرميُّ بقوله :

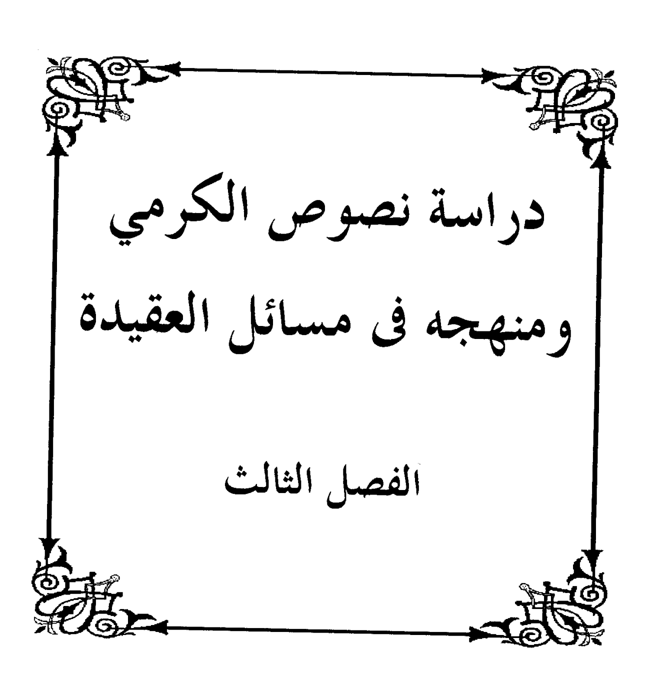
" لكــن ابن تيمية أعلم بنقول أحمد وغيره من ابن النقاش ، وأحمد أجل من أن يكــون عنده من عدم السكينة ما يتكلم بمثل هذا حتى ينقطع نفسه ، وإنما هى حكايات من المجازفين فى النقول عن الأئمة ... " (٤)

وعليه فقد رجع الكرمى عن القول برؤية النبى صلى الله عليه وسلم ربه فى المعراج إلى مذهب الجمهور ، والله أعلم .

* * *

---

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب ((ثابت صحيح)) .
(٢) " أقاويل الثقات " : (١٩٦ ، ١٩٧) .
(٣) انظر : " شرح الشفا " : ١ / ٤٢٢ ، و" تفسير القرطبى " : (٧ / ٥٦) .
(٤) " أقاويل الثقات " : (٧ / ٥٦) .



دراسة نصوص الكرمي ومنهجه فى مسائل العقيدة

الفصل الثالث

الفصــل الثالث : مذهبـه الكـلامى
فى
النبـــوات والسمعيـــات

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : النبـــوات .

المبحث الثانى : مسائل الإيمان .

المبحث الثالث : القضاء والقدر .

المبحث الرابع : النفس والروح .

المبحث الخامس : فنـــاء النـــار .

مبحـــث النبـــوات

لا شــك أن الإيمــان بالرسل جملة ركن من أركان الإيمان التى لا يتحقق الإيمــان إلا بهــا مجتمعة . قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ... ﴾ [1]

وقــال رسول الله ﷺ : ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والــيوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره)) [2] فمــن فرق بين رسل الله صــلوات الله عليهم أجمعين فآمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر فى كتاب الله عــز وجــل . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ... ﴾ [4]

---

(١) سورة البقرة : (٢٨٥) .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى فى " كتاب الإيمان " : باب/ سؤال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام ... عن أبي هريرة ؛ رقم (٥٠) ، ومسلم رقم (٥) ، ومسلم فى " كتاب الإيمان " : (١ / ١٣٣) ، وأبو داود فى " السنة " (٤٦٩٥) ، والترمذى فى " الإيمان " (٢٦١٩) ، والنســائي فى " الإيمان " (٥٠٠٥) ، وابن ماجة فى " المقدمة " (٦٣) من مسند عمر بن الخطاب ﷺ .

(٣) سورة البقرة : (٨٩) .

(٤) سورة البقرة : (٩١) .

وقد سمى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من أدرك بعثة النبى صلى الله علـــيه وسلم من اليهود والنصارى – فضلاً عن سائر أهل الأديان – ثم لم يؤمـــن بـــه – سمـــاه كافراً فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ؛ وذلك معلوم بالضرورة من دين الإسلام . (1)

وقد اختلفت مواقف الناس تجاه الأنبيـــاء والرسل ؛ فمنهم من أنكر البعثة جملة كما يحكى عن طائفة كالبراهمة .(2)

ومنهم من آمن ببعض وكفر ببعض كما قصّ الله تعالى علينا عن أنبيـــاء بنى إسرائيل ، وأما الذين أنعم الله عليهم فآمنوا بجميع الرســـل إجمالاً وتفصيـــلاً فيما فصل الله تعالى من أخبارهم .

وقـــد حكـــى الكرمى قول أصحاب المقـــالات عن البراهمـــة ؛ " إن من العبـــث والجور وخلاف الحكمة أن يُعرِّض الله عباده لما يعلم أنهم يعصونه فيه ويستحقون العذاب عليه ، يريدون بذلك إبطال الرسالة والنبوات " .(3)

وقـــد أجـــاب الكرمى عن قولهم بأن إرسال الرسل يلزم منه نسبة العبث والجـــور إلى الله تعالى بأنه " تعالى يفعل ما فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه وإن كـــان فى ضـــمن ذلك مضرة لبعض الناس كما أنه تعالى ينزل المطر لما فيه من الحكمة والرحمة والنعمة العامة ، وإن كان فى ضمن ذلك تضرّرُ بعض النـــاس

(1)وقد رأينا وسمعنا بعض الممكن لهم فى أجهزة التعليم والإعلام والثقافة من يزعم أن النصارى والـــيهود ســـيدخلون الجـــنة ، لا فرق بينهم وبين المسلمين ، يشترون بقولهم هذا ثمناً قليلاً من إرضاء الكفار تحت شعار الوحدة الوطنية .

(2) انظر : " الملل والنحل " : (٢ / ٢٥٠) ، و" الفصل " : (١ / ٦٣) .

(3) " رفع الشبهة " : (٢٤١) .

بسقوط منزله وانقطاعه بسفره وتعطيل معاشه .

وكذلـك إرســال محمد ﷺ رحمة للعالمين وإن كان فى ضمن ذلك سقوط رئاسة أقوام وشقاوتهم ؛ فإذا قدّر سبحانه على الكافر كفره قدّره لما له فى ذلك من الحكمة والمصلحة العامة ، وعاقبه لاستحقاقه ذلك بفعله الاختيارى . " [1]

والكـرمى يذهــب إلى أن الخلق ليس فى طوعهم الاهتداء بغير الرسل إذ لــو كــان ذلك ممكناً لما كانت ضرورة إلى بعثهم لكنه " سبحانه وتعالى جعل إرســال الرسل سبباً لهداية المؤمنين وإقامة الحجة على الكافرين . ولولا إرسال الرســل ما حصلت هداية لمؤمن ، ولا قامت حجة على كافر " [2] قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [3] " فالبارى سبحانه قد أرسل الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها . " [4]

ومــن أسباب الحاجة إلى بعث الرسل بالإضافة إلى ما سبق : نسخ شريعة ســابقة بأخـرى لاحقــة " فلا ريب أن الشرائع تختلف باختلاف الأزمان ، وباعتــبار الأشــخاص " .[5] حــتى كان رسولنا محمد ﷺ " فنسخت شريعته الشــرائع والأديان " [6] ولما كانت الأنبياء والرسل مخبرين عن الله تعالى وعن

---

(١) المرجع السابق : (٢٣٣) .

(٢) المرجع السابق : (٣١) ، وهو فى ذلك موافق للجمهور مخالف للمعتزلة فى إمكان معرفة الله تعالى بمجرد العقل .

(٣) سورة الإسراء : (١٥) .

(٤) " رفع الشبهة " : (١٨٩) .

(٥) " رفع التلبيس " : ص (١) .

(٦) " توضيح البرهان " : ص (١) .

ما كان من شأن الأمم السالفة وبدء الخلق ، وما يكون من أمر البرزخ والمعاد والخــبر يحـــتمل الصدق والكذب ، وقد صدَّقَ الأنبياءَ بالفعل أقوامٌ وكذبهم آخرون – فقد أيد الله تعـــالى أنبيـــاءه ورسلـــه بأنواع من المؤيـــدات .

فمـــن هـــذه المؤيدات : أن يكونوا من أوسط أقوامهم بحيث لا يزدريهم أقوامهم فيصدهم ذلك عن الإذعان لما معهم من الحق ؛ قال الكرمى : " إن الله تعالى خلق من ذرية آدم أنبياءهم أشرف ذريته وأفضلهم " (١)

كما قال هرقل لأبى سفيان : ((وكذلك الأنبياء يبعثون فى أقوامهم)) (٢) بل ذهب المتكلمون إلى أبعد من المفاضلة بين الرسل وسائر البشر حتى فاضلوا بيـــنهم وبـــين الملائكة . قال الكرمى : " ذهب أكثر الأشاعرة إلى أن الأنبياء أفضل من الملائكة مطلقاً خلافاً لمن قال بالتفصيل " (٣) .

وقـــد ذهـــب الكرمى إلى ذلك واستدل بقوله ﷺ " ((إن الله تعالى خلق الخلـــق واخـــتار مـــن الخلـــق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العـــرب ، واختار من العـــرب مضر ، واختار من مضر قريشـــاً ، واختار من قريش بنى هاشم فأنا خيار من خيـــار .)) (٤) [قال الكرمى] فهذا النص صريح

---

(١) " بهجة الناظرين " : ل ٦١ أ .

(٢) الحديـــث متفق عليه : رواه البخارى فى كتاب " بدء الوحى " ؛ حديث رقم ٧ . ومواضع أخـــرى مـــن " الصحيح " ، ورواه مسلم فى كتاب " الجهاد والسير " : باب/ كتب النبى ﷺ إلى هرقل . (٥ / ٣٩١) .

(٣) " بهجة الناظرين " : ل ٦١ أ ، ب .

(٤) الحديـــث : رواه الـــترمذى فى كتاب " المناقب " ، باب/ ما جاء فى فضل النبى ﷺ حديث رقم (٣٦٢٧) ، (٣٦٢٨) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، =

فى فضـــل العـــرب على العجم ، وصريح فى فضل جنس بنى آدم على جنس الملائكة ؛ خلافاً للمعتزلة ومن وافقهم . " (١)

ومن أقوى المؤيدات للرسل الدالة على صدقهم : المعجزات التى يعطيها الله تعالى لأنبيائه يتحدون بها المكذبين لهم ، فإن الله تعالى خلق للكون ناموساً يعلمه العقـــلاء ، فـــإذا انخـــرم ذلك الناموس على يد المتحدى على نحو لا يستطيعه المتحدى[١] مع قرائن أخرى تدل على صدقه كان ذلك معجزة له .

وفى ذلك يقول الكرمى : " المنعَمُ عليهم ... لا ينكرون ما خلقه الله تعالى من القوى والطبائع فى جميع الأجسام والأرواح ، إذ الجميع خلق الله ، لكنهم يؤمـــنون بما وراء ذلك من قدرة الله التى هو بها على كل شيء قديـــر ، وبأنه تعـــالى يخرق العـــادات لأنبيائه لإظهار صدقهم ، ولإكرامهم بذلك ونحو ذلك من حكمه . " (٢)

وقـــد أشار الكرمى إلى أن المعجزة قد تكون تحدياً من النبى لمكذبيه إظهاراً لصـــدقه ومـــن هـــذا النوع ما كان من موسى عليه السلام مع آل فرعون وسحرته ، وما كان من عيسى عليه السلام مع بنى إسرائيل من كلامه فى المهد

= ورواه أحمـــد فى " مســـنده " : حديث رقم (١٧٨٨) [١ / ٢١٠] ، وعزاه المزى فى " الـــتحفة " [٤ / ٢٦٧] إلى النسائى فى [الكبرى] ، كلهم عن العباس عمّ النبى ﷺ وليس فـــيه ((واختـــار مـــن الخلـــق بنى آدم)) ، ولكـــن الذى فى الترمـــذى : ((وجعلنى من خيرهـــم ، من خير فرقهم وخير الفريقين)) [٣٦٢٧] ، وفى [٣٦٢٨] ((فجعلنى فى خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة .)) وهو كذلك فى " المسند " .

(١) " مسبوك الذهب " : ل ٣ أ ، وانظر : " شفاء الصدور " : ل ٧٠ أ .

(٢) " شفاء الصدور " : ل ٦٣ ب .

وإحـــيائه الموتـــى وإبرائه الأكمه والأبرص بإذن الله وغير ذلك ، وما كان من تحدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لقومه بأن يأتوا بمثل سورة من القرآن ؛ وهم أرباب الفصاحة والبلاغة فلم يستطيعوا مع توفر هممهم ودواعيهم على إثبات تكذيبه . (١)

وكما تكون المعجزة أيضاً من باب إكرام النبى والمؤمنين به فتكون إغاثة لهم فى بعـــض المواطـــن وزيادةً للإيمان فى قلوبهم كما ثبت " أن الناس لما عطشوا وجاعوا على عهده عليه السلام ، فأخذ غير مرة ماءً قليلاً فوضع يده فيه حتى فـــار المـــاء مـــن بين أصابعه (٢) ووضع يده فى الطعام فكثر كثرة خارجة عن العادة . (٣)

---

(١) قـــال رســـول الله ﷺ : " ما من الأنبياء من نبي إلاّ قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشـــر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " الحديث صحيح . رواه مسلم فى كتاب " الإيمان " ، باب / وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ؛ رقم (٢٣٩) .

(٢)الحديـــث مـــتواتر . رواه البخارى فى كتاب " المناقب " : باب/ علامات النبوة فى الإسلام عـــن عمـــران بـــن حصين وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم الأحاديث رقم (٣٥٧١ ، ٣٥٧٢ ، ٣٥٧٣) ، ومـــا بعدهـــا . ورواه مســـلم والترمذى والنسائى كما فى " التحفة " : (١ / ٨٨) .

قال أبو نعيم فى الدلائل : " هذه الآية من أعجب الآيات ... شاكلت دلالة موسى فى تفجر المـــاء مـــن الحجـــر حين ضربه بعصاه ، بل هذا أبلغ فى الأعجوبة لأن نبوع الماء من بين اللحم والعظم أعجب وأعظم من خروجه من الحجر لأن الحجر سنخ من أسناخ الماء مشهور فى المعلوم مذكور فى المتعارف ... " . " الدلائل " : (١٤٣) ، (١٤٤) .

(٣) رواه الـــبخارى فى كتاب " المناقب " : باب/ علامات النبوة فى الإسلام عن أنس حديث رقم (٣٥٧٨) ، وعن جابر رقم (٣٥٧٩) ، وانظر : " دلائل النبوة " : (١٤٧) .

فـإن العلم بهذا الاقتران يوجب العلم الضرورى بأن ذلك كان بسببه عليه السـلام ... وكذلك لما دعا لأنس بن مالك أن يكثر الله ماله وولده ، فكان نخله يحمل فى السنة مرتين خلاف عادة بلده ، ورأى من ولده وولد ولده أكثر من مائة [1] فإن مثل هذا الحادث يعلم أنه بسبب ذلك الدعاء . " [2]

ويثبـت الكرمى حدوث الكرامة على أيدى أتباع الأنبياء على أنها معجزة دالـة عـلى صـدق أنبيائهم المتَبَعين حيث يقول : " وكذلك يخرقها [يعنى العادات] لأوليائه تارة لتأييد دينه بذلك ، وتارة تعجيلاً لبعض ثوابهم فى الدنيا وتارة إنعاماً عليهم بجلب نعمة ودفع نقمة ، ولغير ذلك . " [3]

فالمعجزة تجامع الكرامة فى أن كلاً منهما شيء خارق للعادة على يد صادق ويفترقان بأن المعجزة تكون على يد نبى معلن بنبوته ، بينما الكرامة تكون على يد تابع للنبى مقر بتبعيته ، ويصح تسميتهما جميعاً معجزة لذلك النبى .

ويعرف الكرمى الكرامة بقوله : " الكرامة فى الحقيقة ما نفعت فى الآخرة ؛ أو نفعت فى الدنيا ولم تضر فى الآخرة . " [4]

فالكـرامة ليست من كيس الصوفية بدعة ابتدعوها ، أو كذباً لا يصدقه الواقع ، بل السلف مجمعون على حصولها .

---

(١) رواه البـخارى فى كـتاب " الدعوات " ؛ باب/ قول الله تعالى : ﴿ **وصل عليهم** ﴾ ... حديـث رقم (٦٣٣٤) وفى مواضع أخرى ، ومسلم : كتاب " الفضائل " ؛ باب/ من فضائل أنس بن مالك : (٧ / ٣٤٨) .

(٢) " شفاء الصدور " : ل ٧٠ ب .

(٣) شفاء الصدور : ل ٦٣ ب .

(٤) المرجع السابق : ل ٦٦ ب .



وقد كان فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جرى على يديه مـــن هـــذه الكرامـــات الشيء الكثير ؛ فمن ذلك ما كان من أمر " العـــلاء الحضـــرمى رضـــى الله عـــنه لما قال : يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم اسقنا فمطـــروا فى يوم شديد الحر مطراً لم يجاوز عسكرهم ، وقال : احملنا . فمشوا على النهر الكبير مشياً لم يبل أسافل أقدام دوابهم " [١].

وفى ذلـــك نصـــرة لدين الإسلام أمام أعدائهم حينما يرون هذه الخوارق ثم يـــرون هـــؤلاء – أصـــحاب الكرامات – لا ينسبون ذلك إلى أنفسهم ، وإنما يبينون أن ذلك منـــة من الله عليهم بسبب ما هم عليه من دين حقٍّ الأمر الـــذى يثبـــت المؤمـــنين عـــلى إيمانهم ويشرح صدور من أراد الله بهم خيراً للإيمان .[٢]

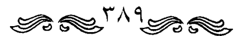
ومـــن ذلـــك مـــا حكاه الكرمى من " أن بعض النصارى حاصروا مدينة للمسلمـــين فَنَفِدَ ماؤهم العذب ، فطلبوا من المسلمين الماء ويرجعون عنهم ، فـــأبى المســـلمون وقـــالوا : بل ندعهم حتى يضعفهم العطش فنأخذهم . فقام النصـــارى حين اضطروا فاستسقوا ودعوا فسقاهم الغيث . فاضطرب بعض العامـــة . فقـــال الملك لبعض العارفين : أدرك الناس . فأمر فنُصب له منبرٌ ، وقـــال : الـــلهم إنـــا نعلم أن هؤلاء من الذين تكفلت بأرزاقهم كما قلت فى

(١) المرجع السابق : ل ٧٠ ب ، وانظر الأثرين فى "البداية والنهاية " : (٦ / ٣٧٠ ، ٣٧١) وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر فى " الإصابة " : (٤ / ٢٥٩) ، والذهبى فى " السير " : (١ / ٢٦٤ ، ٢٦٥) .

(٢) ولا يخلـــو عصـــر من العصور من مثل هذه الكرامات التى يسوقها الله على أيدي أوليائه . وانظر فى هذا الباب كتاب " آيات الرحمن فى جهاد الأفغان " للشيخ عبد الله عزام رحمه الله .

كـتابك : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ (١) وقد دعوك مضطرين ، وأنت تجيب المضطر إذا دعاك ، فأسقيتهم لما تكفلت به من رزقهم ولدعـائهم إيـاك مضطرين ، لا لأنك تحبهم أو تحب دينهم ، والآن فنريد أن تريـنا بهم آية تثبت بها الإيمان فى قلوب عبادك المؤمنين فأرسل الله عليهم ريحاً فأهلكتهم . " (٢)

فهذا العارف العالم بأسباب استجابة دعاء النصارى على النحو الذى وضح لم يكـن ليفتن فى إيمانه ، وهذه الكرامة التى ساقها الله على يده بمرآى ومسمع مـن العامـة عقيب دعائه ما أراد بها علوّاً ولا جاهاً ؛ بل أراد نصرة الدين ، وتثبيـت قلـوب المؤمنين من العامة ، وهذه هى الكرامة الحقيقية كما فهمها السلف كما يفهم من كلام الجنيد فيما " يحكى عن سمنون المحب قال : وقع فى قلـبى شـيء مـن هذه الآيات [يعنى الكرامات] فجئت إلى دجلة فقلت : وعزتـك لا أذهب حتى يخرج لي حـوت . فخرج حوت عظيم أو كما قال . فبلغ ذلك الجنيد ؛ فقال : كنت أحب أن تخرج إليه حية فتقتله " (٣)



---

(١) سورة هود : (٦) .
(٢) " شفاء الصدور " : ل ٥٩ ب .
(٣) المرجع السابق : ل ٦٠ ب .

عصمـــة الأنبيـــاء

يقـــول الكرمى : " دين الله تعالى بين الغالى فيه ، والجافى عنه فإن النصارى عظمـــوا الأنبـــياء حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم ، واليهود استخفوا بهم حتى قـــتلوهم . والأمة الوسط عرفت مقاديرهم فلم تَغْلُ فيهم غلو النصارى ؛ ولم تجف عنهم جفاء اليهود .

ولهـــذا قـــال الـــنبى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه : ((لا تطرونى كمـــا أطـــرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ؛ فقولوا عبد الله ورسوله)) " (١)

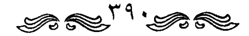
" والفتنة بالأنبيـــاء والصالحين واتخاذهم أرباباً أو بمنزلة الأرباب من طريقة الجاهلين ، وعادة الضالين . قال تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ (٢) ونهـــى ســـبحانه عن ذلك فقال :

---

(١)الحديـــث رواه الـــبخارى فى كتاب " الأنبياء " ، باب/ قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم** ﴾ رقم (٣٤٤٥) ، والترمذى فى " الشمائل " ؛ باب/ ما جاء فى تواضع النبى ﷺ رقم : (٣٢٩) ، والدارمـــى فى " السنن " ؛ باب/ فى قول النبى ((لا تطرونى)) رقم (٢٧٨٤) ، وأحمد فى " المسند " : (١ / ٢٣) ، حديث رقم : (١٥٤) ، كلهم عن عمر رضى الله عنه .

(٢) سورة التوبة : (٣١) .

قـــال ابن كثير : " روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم ﷺ [أنـــه دخل على النبي ﷺ] وهو يقرأ هذه الآية ﴿ **اتخذوا أحبارهم ..** ﴾ قال : فقلت إنهم لم يعـــبدوهم ، فقـــال : " بلى ؛ إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " . " تفسير ابن كثير " (٣٤٨/٢) .



﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . ﴾ (١) " (٢)

وقــد أخــبر النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح أن هذه الأمة سوف تتبع سنن الأمم السابقة حتى لو دخلوا جحر ضبّ دخلته هذه الأمة (٣) فكان فى هذه الأمة من قال فى شأن الأنبياء : " لا يقع منهم ذنب لا صغيرة ولا كــبيرة ، لا عمداً ولا سهواً ، وهذا مذهب الرافضة ... وأنهم معصومون من وقت مولدهم . " (٤)

وفى هــذا القول شبه بغلو النصارى ، وكان فى هذه الأمة من جوّز عليهم الكفــر والضــلال كما " يحكى عن الفضلية من الخوارج ؛ فإنهم قالوا : وقع منهم ذنوب . والذنب عندهم كفر . وهذا شرّ المذاهب " (٥)

وأمــا جمهــور المسلمين " السلف قاطبة من القرون الثلاثة الذين هم خير قــرون الأمة ، وأهل الحديث والتفسير ... وجمهور الفقهاء والصوفية ، وكثير مــن أهــل الكلام كجمهور الأشعرية وغيرهم ... فعلى ما دلّ عليه الكتاب

---

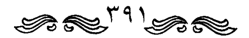
(١) سورة آل عمران : (٨٠) .

(٢) " شفاء الصدور " : ل ٢٦ ب .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب " الاعتصام بالكتاب والسنة " ؛ باب/ قول النبى صلى الله علــيه وســلم " لتتبعن سنن من كان قبلكم " ؛ حديث رقم (٧٣٢٠) عن أبى سعيد الخدري ورواه مسلم فى كتاب " العلم " : (٨ / ٣٠) .

(٤) " بهجة الناظرين " : ل ٥٧ ب ، وانظر : " الملل والنحل " : (١ / ١٤٦) .

(٥) " البهجة " : ل ٥٧ ب ، وقد حكى الشهرستانى هذا القول عن الأزارقة ضمن ثمانى بدع لهم . انظر : " الملل والنحل " : (١ / ١٢٢) .



والسنة مثل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) بعد أن قــال لهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) مع أنه عوقب بإخراجه من الجنة .

وهذه نصوص لا تُردّ إلاّ بنوع من تحريف الكلم عن مواضعه " (٥) .

وقــد اخــتلف قول الكرمي فى عصمة الأنبياء ؛ فقال فى البهجة بعد أن حكــى قول الرافضة : " لا يقع منهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة ؛ لا عمداً ولا ســهواً ... قلــت : وإلى هذا المذهب فى هذه المسألة أذهب ؛ وليعترض من يعترض " (٦) كذا !!

إلاّ أن موقفـــه هذا من مسألة العصمـــة يختلف فى أحد أخريات مؤلفاتـــه وهـــو ((رفـــع الشبهة)) حيث ذهب إلى جواز الصغائر على الأنبياء قائلاً : " قـــال بعـــض السلف : اثنان أذنبا ؛ آدم وإبليس ، فآدم تاب فتاب الله عليه واجتباه ، وإبليس أصر على معصيته واحتج بالقدر فلُعن وطُرد .

---

(١) سورة طـــه : (١٢١) .
(٢) سورة الأعراف : (٢٣) .
(٣) سورة الأعراف : (٢٢) .
(٤) سورة البقـــرة : (٣٧) .
(٥) " مجموع الفتاوى " : (٢٠ / ٦٩) .
(٦) " البهجة " : ل ٥٧ ب .

فمن تاب من ذنبه أشبه آدم ، ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس . " (١)

وقال فى موضع آخر : " إن موسى عليه السلام لم يلم آدم على ذنبه الذى تـاب منه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وموسى أعلم بالله من أن يلوم تائباً ؛ فكيف بأبيه آدم الذى تاب الله عليه واجتباه . ؟ ! " (٢)

فالكرمى فى هذين النصين يسمى ما كان من آدم عليه السلام من أكله من الشجـرة ذنباً تيب منه . وهو فى الحقيقـة موافق لتسمية الله تعـالى لـه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ .. ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ فـلا تكـون توبة من العبد إلاّ من ذنب أتاه ، ولا تكون توبة من الله تعالى إلاّ على عبد أذنب .

وإذا كان القول بجواز الصغائر على الأنبياء قد يؤدى – لدى المخذولين – إلى سـقوط هيبـتهم ومكانتهم ؛ فيظن ظان أنه أفضل من بعض الأنبيـاء ، أو أنهـم ليسوا أهلاً لأن يُتبعوا – فإن الكرمى – مع كافة العلماء – ينفى هذا الفهـم محـذراً إيـاه قائلاً : " لا شك أن الاستخفاف بالأنبياء عليهم السلام وامتهانهم كفر " (٣)

وإذا كان لا يجوز تفضيل غير نبى على نبى ، فهل يجوز المفاضلة بين الأنبياء أنفسهم ؟

---

(١) " رفع الشبهة " : (١٦٥) .

(٢) " رفع الشبهة " : (١٦٦) .

(٣) " رفع التلبيس " : ص (٣) .

جـــاء عن النبي ﷺ النهي عن المفاضلة بين الأنبياء فقال : ((لا تخيروا بين الأنبياء)) (١) ، وقال ﷺ : ((ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس ابن مـــتى)) (٢) ، وقال ﷺ : ((لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش في جانب العرش ، فلا أدري أكان ممـــن صـــعق فأفاق أو كان ممن استثنى الله عز وجل)) (٣) وغير ذلك من الأحاديث مما فيه إشعار بعدم جواز المفاضلة بين الأنبياء عليهم وعلى نبينا جميعاً الصلاة والسلام .

هـــذا مـــع قولـــه ﷺ : ((أنا سيد ولد آدم ...)) (٤) مع ما في حديث الشفاعة من إحالة جميع الأنبياء الخلق عليه صلوات الله عليهم أجمعين . (٥)

---

(١) مـــتفق علـــيه : رواه الـــبخاري في كتاب " الديات " ؛ باب/ إذا لطم المسلم يهودياً عند الغضب : حديث رقم (٦٩١٦) ، ومسلم في " صحيحه " : كتاب" الفضائل " : (٢٢٧/٧) .

(٢) مـــتفق عليه : رواه البخاري في كتاب " أحاديث الأنبياء " ؛ باب/ قول الله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ حديث رقم (٣٤١٣) ، ومسلم في كتاب " الفضائل " : (٢٢٩/٧) .

(٣) مـــتفق عليه : رواه البخاري في كتاب " أحاديث الأنبياء " ؛ باب/ ((وفاة موسى)) عليه السلام حديث رقم (٣٤٠٨) ، ومسلم في كتاب " الفضائل " : (٧ / ٢٢٦) .

(٤) رواه مسلم في صحيحه : كتاب الفضائل : (٧ / ١٣٥) ، وأبو داود في كتاب " السنة بـــاب/ التخـــيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، رقم (٤٦٧٣) ، وابن ماجة في كتاب " الزهد " ؛ باب/ ذكر الشفاعة ، رقم (٤٣٠٨) .

(٥) حديث الشفاعة متواتر . رواه البخاري في كتاب " التوحيد " ، حديث رقم (٧٤٤٠) ، وفي مواضـــع أخـــرى ، ومسلم في كتاب " الإيمان " ؛ باب/ عصمة الأنبياء : (١ / ٤٥٩) ، والنســـائي في " الكـــبرى " كما في " التحفة " : ١ / ٣٠٧ ، وابن ماجة في " الزهد " ؛ باب/ ذكر الشفاعة : حديث رقم (٤٣١٢) . وانظر : " نظم المتناثر من الحديث المتواتر " للكتاني : ص (٢٣٣) ، حديث رقم (٣٠١) .

ويشـفى فى هـذه المسألة قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (١)

ويجمـع بين هذه النصوص بأن النهى سدٌ لذريعة تنقص المفضول ، وذهب بعضهم إلى أن النهى صدر منه صلى الله عليه وسلم قبل إعلامه بأفضليته على سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . (٢)

وقـد ذهب الكرمى إلى جواز المفاضلة بينهم ، وإلى أن أفضلهم محمد ﷺ مسـتدلاً بالحديـث : ((... إن الله اصـطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصـطفى مـن ولد إسماعيل بنى كنانة)) (٣) ... وهذا الحديث يقتضى أن إسماعيل وذريته صفوة ولد إبراهيم ، وأنهم أفضل من ولد إسحاق ... " (٤)

ولما كان محمـد ﷺ من ولد إسماعيـل ؛ كان أفضل من أنبياء بنى إسرائيل بل ((أفضل الخلق أجمعين)) (٥) و ((سيد المرسلين وخاتم النبيين)) (٦) .

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٣) .

(٢) انظر : " لوامع الأنوار " : (٢ / ٢٩٨) .

(٣) الحديث رواه الترمذى : فى كتاب " المناقب " ؛ باب/ ما جاء فى فضل النبى صلى الله عليه وسـلم عـن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه بهذا اللفظ رقم (٣٦٢٥) ، وقال حديث حسن صـحيح ، ورواه مسـلم فى صحيحه كتـاب " الفضائـل " : (٧ / ٣٤) ، والترمذى رقم (٣٦٢٦) بلفـظ : ((إن الله اصـطفى كنانة من ولد إسماعيـل)) التى استدل بها الكرمى ، وأخرجه أحمد فى " مسنده " : (٤ / ١٠٧) حديث رقم (١٧٠٢٨) بهذه الزيادة .

(٤) " مسبوك الذهب " : ل ٣ ب .

(٥) المرجع السابق : ل ٥ أ .

(٦) ل ٥٩ ب من مجموع تونس .

مبحـــث مسألـــة الإيمـــان

إن الاخـــتلاف فى مسألة الإيمـــان من حيث حدُّه وزيادته ونقصانه واعتبار الأعمـــال وما يترتب على ذلك من الأسماء والأحكام من المسائل التى تمايزت الفرق على أساسها .

ولمـــا كانت اللغة وعاءً للفكر ، بل ومؤثراً فى التفكير أيضاً ، كان التفاوت فى الإلمام بها سبباً جوهرياً فى تباين الأفكار والعقائد وتحديد المفاهيم .

ولذلـــك عقد كثير من الأصوليين فى كتبهم مباحث للغة وأهميتها فى فهم النصوص الشرعية ، ومن ثم جرى أصحاب الفنون على التعريف بكلامهم لغةً ثم اصطلاحاً ، وغالباً ما يكون التعريف الاصطلاحى مبنياً على أصله اللغوى .

وقـــد تأثـــر تعـــريـــف الإيمـــان تأثراً كبـــيراً باختـــلاف المتكلمـــين فى تحديـــــد معنـــاه اللغوى ؛ الأمرالذى أدى إلى اختلافهم الواسع فى حدّه من حيث الاصطلاح الشرعى .

وقد تناول الكرمى مسألة الإيمان فى كتابه ((أقاويل الثقات)) [1] وغيره ؛ حتى إنه صنف رسالتين مستقلتين فى هذه المسألة :

الأولى : ((توضيح البرهان فى الفرق بين الإسلام والإيمان)) [2] .

---

(١) انظر : " أقاويل الثقات " : ص (٦٩) .

(٢) مخطـــوط بدار الكتب مجاميع تيمور (٣٩٧) . وانظر : مبحث مؤلفات الكرمي فى هذه الرسالة .

والثانية : ((رفع التلبيس عمن توقف فيما كفر به إبليس)) [١] .

وقـد وافـق الكـرمى جمهـور المتكلمين فى أن " الإيـمان لغة : مطلق التصديق" [٢] وقد حكى الأشعرى إجماع أهل اللغة على ذلك [٣] ، وكذا قال صاحب اللسان [٤] .

ثم استدل الكرمى بما رآه دليلاً لمذهبه هذا من القرآن فقال : " الذى يدل عـلى أن الإيمـان هو التصديق وحده أنه تعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال سبحانه : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ [٥]... " [٦]

وتعريف المتكلمين للإيمان بأنه التصديق بل مطلق التصديق كما قال الكرمى مبنى على أصل هو القول بوجود الترادف فى اللغة . فمن أقر بوجود الترادف ربمـا سـلم بهذا التعريف وربما نازع بأن معنى الإيمان كلمة أخرى كما قال بعضهم إنها الإقـرار [٧] ، وبعضهم قال : الإيمان هو المعرفة .

---

(١) مخطـوط بدار الكتب مجاميع تيمور (٨٠١) . وانظر : مبحث مؤلفات الكرمي فى هذه الرسالة .

(٢) " توضـيح الـبرهان " : ص (٥) ، وانظر : " المقالات " : (١ / ٢٢٢) ، و" أساس الـبلاغة " : (١ / ٢٠) ، و" تأويلات أهل السنة " : (٢٩٠) ، و" الإنصاف " : (٥٥) ، و" النظامية " : (٦٢) ...

(٣) " اللمع " : (١٢٢) .

(٤) انظر : (١٤٥) .

(٥) سورة المجادلة : (٢٢) .

(٦) " توضيح البرهان " : ص (٥) .

(٧) انظر : " شرح الطحاوية " : ص (٣٣٨) .

أما من نفى وجود الترادف مطلقاً فى اللغـة فإنه لا ريب يرفض القول بأن الإيمان هو التصديق . ومن هنا يتعين مناقشة مسألة الترادف .

أما جمهور المتكلمين فغنى عن القول أنهم يذهبون إلى وجود الترادف ، وقد تعرضوا لإثباته فى مباحث أصول الفقه من كتبهم .

قال الشوكانى – وهو يجرى فى الأصول على طريقة المتكلمين – :

" ذهـب الجمهـور إلى إثبات الترادف فى اللغة العربية وهو الحق . وسببه إما تعدد الوضع أو توسيع دائرة التعبير ، وتكثير وسائله ... فالعجب من نسبة المـنع مـن الوقـوع إلى مثل ثعلب [(١)] وابن فارس [(٢)] مع توسعهما فى هذا العلم " [(٣)]

والـترادف عـند من يثبته هو : " توالى الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحـد باعتـبار واحد " [(٤)]. بمعنى أن هذه " المترادفات ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل بينها فى أى سياق " [(٥)] .

---

(١) العلامـة المحدث إمام النحو أحمد بن يحيى بن يزيد الشيبانى صاحب " الفصيح " (٢٠٠ – ٢٩١ هـ) . انظر : " السير " : (١٤ / ٥) .

(٢) العلامـة اللغـوى المحدث أحمد بن فارس بن زكريا ، صاحب ((المجمل)) ، كان رأساً فى الأدب وكان من رؤوس أهل السنة . (ت ٣٩٥ هـ) انظر : " السير " : (١٧ / ١٠٣) .

(٣) " إرشاد الفحول " : (١٨ ، ١٩) ، وانظر: " الإحكام " للآمدى : (١ / ٣٠ – ٣٣) و " مختصر التحرير " : (٢١) .

(٤) " الـتعريفات " : (٤٩) ، وانظـر : " كشاف اصطلاحات الفنون " : (٣ / ٦٦) ، و " إرشاد الفحول " : (١٨ .

(٥) " دور الكلمة فى اللغة " : لأولمان تعريب أستاذنا الدكتور محمد كمال بشر : (١٢٤) .

أمـــا الذين ينفون الترادف فقد ذكر الشوكانى منهم ثعلباً وابن فارس كما تقدم ؛ وشهد لهما بالتوسع فى هذا العلم .

وقـــد عـــزا أســـتاذنا الدكـــتور كمـــال بشر هذا المذهـــب إلى كل من ابـــن الأعـــــرابى [1] وابن درستويه [2] وأبى علىّ الفارسى [3] ، وأضيفُ إلى هؤلاء أبا هلال العسكرى ؛ فإنه إذا كان السابقون قد تكلموا فى هذه المسألة فى بعـــض كتـــبهم فقـــد ألف العسكرى فى هذه المسألة كتاباً أفرده لها سماه ((الفـــروق)) ، وقد بنى كتابه كله على هذا الأساس كما يظهر من عنوانه ، ورصـــد الباب الأول لإثبـــات مذهبه هذا فعنـــون له بقوله : " الباب الأول فى الإبانـــة عن كون اختلاف العبارات والأسماء موجباً لاختلاف المعانى فى كل لغة ، والقول فى الدلالة على الفروق بينها " . [4]

وقـــد لخـــص أستاذنا الدكتور كمـــال بشـــر آراء علماء اللغة فى مسألة الترادف بقوله : " الترادف معناه المطلق غير موجود وإنما يوجد بمعنى عام مع وجـــود فـــروق جزئـــية فى كـــل كلمة ، ويمثل هذا الرأى ابن فارس وابن

---

(١) إمام اللغة ، محمد بن زياد ، أستاذ ثعلب ، صحب الكسائى (١٥٠ – ٢٣١ هـ) انظر : " السير " : (١٠ / ٦٨٧) .

(٢) الإمام العلامة شيخ النحاة ، عبد الله بن جعفر بن درستويه ، تلميـــذ المبرد ، برع فى اللغة العربـــية ، وصنف التصانيف ، وكان ثقة ، حدث عنه الدارقطني وغيره ، شرح " الفصيـــح " لثعلـــب (٢٥٨ – ٣٤٧ هـ) . انظر : " السير " : (١٥ / ٥٣١) .

(٣) إمام النحو ، الحسن بن أحمد بن على الفارسى ، تتلمذ على الزجاج والسراج وتتلمذ عليه الأزهرى والجوهرى ، كان فيه اعتزال ، (ت ٣٧٧ هـ) انظر : " السير " : (١٦ / ٣٧٩) .

(٤) " الفـــروق اللغويـــة " : لأبى هـــلال العســـكرى : دار الكتـــب العلمية بيروت بدون تاريخ : (١٠) .

الأعـــرابى ؛ يقول ابن فارس " ... فى كل واحدة [يعنى كلمة] منها ما ليس فى صاحبتها من معنى وفائدة . "

ويقـــول ابن الاعـــرابى : " كل حرفين وضعتهما العرب على معنى فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبـــه ، وربما عرفنـــا فاخبرنا به ، وربما غمض علينا فلمَ نلزم العرب جهله " . "[1]

فالترادف بالمعنى المشهور غير موجود ، " إنما هناك أنصاف أو أشباه ترادف فقط "[2]

وعلـــيه فقول الشوكانى والآمدى من قبله أن من ذهب إلى إنكار الترادف ونفيه شذاذ قول غير مقبول ، بل هو – فى أقل أحواله – خلاف معروف بين أئمة اللغة ، والذى يترجح عندى عدمُ وجـــوده .

فمن حيث الجملة ليس الإيـــمان هو التصديـــق .

أما من حيث التفصيل :

فقـــد قال الراغب : " الإيمان : التصديق الذى معه أمن "[3] ، وقال ابن تيمـــية : " الإيمان : قيل : أصله التصديق وليس مطابقاً له ... لأنه من الأمن الـــذى هو الطمأنينة . "[4] ، وقال ابن القيم : " الإيمان ليس مجرد التصديق ،

(١) " دور الكلمة " : (١١٧) .
(٢) " دور الكلمة فى اللغة " : (١٢٦) .
(٣) " المفردات " : (٢٩) .
(٤) " مجموع الفتاوى " : (٧ / ٦٣٦) .

... وإنمــا هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد " [1] ، وقال ابن أبي العزّ : " وقــد اعــترض على استدلالهم بأن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق بمنع الترادف " [2]

وقد رد ابن تيمية دعوى الإجماع على أن الإيمان هو التصديق من ستة عشر وجهــاً مــنها أن أهل اللغة ونقلتها كأبي عمرو والأصمعي والخليل ونحوهم لا يــنقلون كل ما كان قبل الإسلام بإسناد ، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم ، وما سمعوه في دواوين الشعر وكــلام العرب بالإسناد ، ولا نعلم فيما نقلــوه لفظ الإيمان فضلاً عن أن يكونوا أجمعوا عليه ... ولا يعرف عن هؤلاء جمــيعهم أنهم قالوا الإيمان في اللغة هو التصديق ، بل ولا عن بعضهم ، وإن قُدر أنه قاله واحد واثنان فليس هذا إجماعاً . [3]

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [4] ولــيس معنى الإيمان هنا مطلق التصديق كما قالوا ؛ بل السياق يشهد لخلاف ما ذهبوا إليه ، فإن أباهم كان دائماً يَحْذرهم على يوسف عليه السلام ، فقد قــال يعقــوب ليوســف عليهما الســلام : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ [7] ، وكان هذا بلاشك قبل فعلة إخوة يوسف بيوسف فقد كان يعقوب عليه السلام لا يأمنهم على يوسف ، وفي قول إخوة يوسف

---

(١) " الصلاة " : (٣٠) .

(٢) " شرح الطحاوية " : (٣٣٨) .

(٣) انظر : " مجموع الفتاوى " : (٧ / ١٢٣) وما بعدها .

(٤) سورة يوسف : (١٧) .

(٧) سورة يوسف : (٥) .

لأبـــيهم ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] في قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ مـــا يدل على استظهـــارهم ريبـــة أبيهم فيهم ؛ إذن فقولهـــم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ لـــيس معناه ((مصـــدق)) وإنما معناه ((مطمئـــن)) ... ((مقـــرّ)) .

(١) سورة يوسف : (١٢) .

الإيـــمان اصطلاحـــاً :

ذهب الجهم إلى أن الإيمان هو المعرفة فقط . (١) ولإرجائه العمل عن الإيمان سُــمى مذهـــبه إرجاءً . وقد جعل الأشعرى المرجئة اثنى عشرة فرقة ، جعل التاســعة منها أبا حنيفة وأصحابه (٢) وقد حُكى عن أبي حنيفة فى هذه المسألة قـــولان :

الأول : أنه " الإقرار باللسان والتصديق بالجنان " (٣).

والـــثانى : أنـــه مجـــرد التصديق و " أن الإقرار باللسان ركن زائد وليس بأصلى" (٤) وهو مذهب أبي منصور الماتريدى . (٥) الذى يمثل مذهب الأحناف فى الأصول .

وذهبـــت الكرامـــية إلى أن الإيمـــان هو الإقرر والتصديق باللسان دون القلب (٦) وذهب الأشعرى وأصحابه إلى أن الإيمان هو التصديـــق بالله (٧) ،

---

(١) انظـــر : " المقالات " : (١ / ٢١٤) ، و" الملل والنحل " : (١ / ٨٨) ، و" الفرق بين الفرق " : (٢١١) ، و" شرح الأصول الخمسة " : (٧٠٨) .

(٢) انظر : " المقالات " : (١ / ٢١٩) .

(٣) المـــرجع السابق : (١ / ٢٢١) ، وانظر : " شرح الطحاوية " : (٣٣١) ، و" مجموع الفتاوى " : (٧ / ١١٩) .

(٤) " شرح الطحاوية " : (٣٣٢) .

(٥)انظر : " تفسير الماتريدى " المعروف " بتأويلات أهل السنة " : (٢٩٠) .

(٦) انظـــر : " المقـــالات " : (١ / ٢٢٣) ، و" الفرق بين الفرق " : (٢٢٣) ، و" شرح الأصول " : (٧٠٩) .

(٧) انظر : " اللمع " : (١٢٢ .

والتصديق يكون بالجنان [١] ، فمحلُّ التصديق القلب [٢] .

أما المعتزلة فذهبت إلى أن الإيمان " عبارة عن أداء الطاعات ؛ الفرائض منها والنوافل ، واجتناب المقبحات " [٣] وهو قول الخوارج [٤] .

أما أصحاب الحديث فيقولون : " لا يصـــح الدين إلاَّ بالتصديق بالقلـــب والإقـــــرار باللســــان ، والعمل بالجوارح ؛ مثل الصلاة والزكاة والصيـــام والـــحج والجهـــاد وما أشبه ذلك . " [٥]

---

(١) انظر : " الملل والنحل " : (١ / ١٠١) .

(٢) انظر : " الإنصاف " : (٥٥) .

(٣) " شرح الأصول الخمسة " : (٧٠٧) ، وانظر : " مقالات الإسلاميين " : (١ / ٣٢٩) .

(٤) انظر : " المقالات " : (١ / ٢٠٤) .

(٥) " الشريعة " للآجرى : ١٠٥، وانظر : " الاعتقاد " للبيهقى : ٩٨ ، و" مجموع الفتاوى " (٧ / ١٧٠) ، و" الصلاة " لابن القيـــم : (٢٨ ، ٢٩) ، و" لوامع الأنوار " للسفاريـــنى : (١ / ٤٠٥) .

معنى الإيمـــان اصطلاحـــا عند الكرمـــى

صرح الكرمى باختياره مذهب الأشاعرة فى تعريف الإيمان فقال :

" الإيمـــان لغة : مطلق التصديق ، وشرعاً على ما صرح به الأشعـــرية [١] وأكـــثر الأئمـــة هو : تصديق القلب الجازم بما علم ضرورة مجيء الرسول به مـــن عند الله تفصيلاً كالتوحـــيد والنبوة والبعث والجزاء وافتراض الصلوات الخمس والزكاة والصيام والحج ، وإجمالاً فيما علم إجمالاً . " [٢]

ومـــن المهم هنا أن نعرف معنى " تصديق القلبا الجازم " عند الكـــرمى ، وهل يستلزم العمل ؛ فضلاً عن أن يستلزم التلفظ بالشهادتـــين أو لا ؟

فسرّ الكرمى التصديق بأنه " إذعان القلب وقبوله لما جاء به الرسول صلى الله علـــيه وسلم " [٣] ، وزاد " ليس حقيقـــة التصديـــق أن يقع فى القلـــب نســـبـــة التصديق للخبر أو المخبر من غير إذعـــان وقبول ، بل هو إذعـــان وقبـــول لذلك بحيث يقـــع عليه اسم التسليم ." [٤]

ويؤخـــذ من هذا النص أن ((الإيمان)) عنده يستلزم العمـــل " بحيث يقع عليه اسم التسليم " ، وتصديق ليس هذا شأنه ليس تصديقـــاً حقيقيـــاً عند

(١) انظـــر : " التفسير الكبير " : (٢ / ٣٦) ، و" شرح البيجورى " : (٥٦) ، و" حاشية الشرقاوى " : (١٣٦) .

(٢) " توضـــيح الـــبرهان " : ص (٥) ، وانظـــر : " أقاويل الثقات " : (٦٩) ، و " رفع التلبيس " : ص (٤) .

(٣) " توضيح البرهان " : ص (٥) .

(٤) المرجع السابق : ص (٨ ، ٩) .

الكرمى ، بل هو معـــرفة غير مستلزمة للإذعان والقبول .

لكن هذا التعريف للتصديق لم يطرد عند الكرمى ؛ بل خالفه فى موضع آخر ذكر فيه قولى متكلمى الأشاعرة فى مسألة التلفظ بالشهادتين فقال :

" هـــل النطق بالشهادتين شرط لإجراء أحكام المؤمنين فى الدنيا من الصلاة علــيه والتوارث والمناكحة وغيرها ؛ غير داخل فى مسمى الإيمان أو جزء منه داخـــل فى مســـماه ؟ قولان للعلماء . ذهب الإمام النووى رحمه الله إلى الثانى منهما وحكى الاتفاق عليه [1]... وفى دعوى النووى [2]رحمه الله الاتفاق نظر ؛ بـــل القولان مشهوران ثابتان . والذى ذهب إليه جمهور المحققين هو خلاف ما قالـــه النووى ؛ فقالوا : النطق بالشهادتين شرط لإجراء الأحكام لا شطر من الايمـــان . قالوا : وعليه فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه مع تمكنه من الإقرار فهـــو مؤمن عند الله . قلت : ويؤيد ذلك الحديث الصحيح وهو ﷺ : ((من مات وهو يعلم أن لا إله إلاّ الله دخل الجنة .))[3] " [4]

---

(١) انظر : " شرح صحيح مسلم " للنووى : (١ / ١٢٧) .

(٢) يحـــيى بن شرف ، أبو زكريا محيي الدين النووى ، الفقيه الشافعى (٦٣١ – ٦٧٦) ، له مكانـــة كبيرة فى المذهب الشافعي ، وله مصنفات كثيرة مفيدة ، منها " شرح صحيح مسلم " ، و" رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين " ، و" المجموع فى الفقه الشافعي " ، قال ابن كثير : لا أعلم كتاباً فى الفقه أعلم منه . انظر : " البداية والنهاية " : (١٣ / ٢٧٨) .

(٣) الحديث رواه مسلـــم فى " صحيحه " كتاب " الإيمـــان " : (١ / ١٨٤) ، والنسائى فى عمـــل اليوم والليلة كما فى " تحفة الأشراف " : (٧ / ٢٥٢) ، وأحمد فى " مسنده " : (١ / ٦٩) حديث رقم (٤٩٨) كلهم عن عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٤) " توضيح البرهان " : (٧ ، ٨) .

فالكـــرمى – فى هـــذا النص – لم يجعل التصديق مستلزماً للشهادتين مع التمكن من التلفظ بهما فضلاً عن أن يكون التصديق مستلزماً للعمل .

والحـــق أن كـــلا القولين محكى عن الأشاعرة ، بل عن الأشعرى نفسه ، وقـــد قدمـــنا تعريف الأشعرى للإيمان أنه التصديق فقط ، ولم يتعرض لذكر التلفظ به ، ولا لذكر العمل . (1)

وقـــد صـــرح الشهرستانى بأن التلفظ بالشهادتين ليس شطراً للإيمان عند الأشـــعرى حيـــث يقـــول : " قال [يعنى الأشعرى] : الإيمان هو التصديق بالجـــنان ، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه . فمن صدق بالقلب وأقر بوحدانية الله تعالى واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاءوا به من عند الله تعـــالى بالقلـــب صـــح إيمانـــه حتى لو مات عليه فى الحال كان مؤمنـــاً ناجيـــاً (2) " .

وهـــذا هو المشهور من مذهب الأشعرى ، وقد تابعه عليه جمهور الأشاعرة إلاّ الهم اختلفوا فيمن صدق بقلبه وامتنع عن التلفظ بالشهادتين مع تمكنه من ذلك . فذهب الجوينى إلى أنه " إن لم يعترف بلسانه معانداً لم ينفعه علم قلبه ، وكـــان فى حكـــم الله مـــن الكافـــرين كفـــر جحود وعناد . وكذلك كان فرعون " (3)

---

(1) انظر : " اللمع " : (١٢٢) .
(2) " الملل والنحل " : (١ / ١٠١) .
(3) " النظامية " : (٦٢) .

وقــد خالف الغزالى ، وتابعه الرازى وسعد الدين التفتازانى فذهبوا إلى أن ذلك معصية كسائر المعاصى ، ويبقى له حكم الإيمان عند الله وفى الآخرة . (١)

وقــد بالغ الباقلانى – من قبل – فقال : " إن المؤمن المصدق بقلبه مؤمن عند الله تعالى وإن نطق بالكفر . يدل على صحة ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً .** ﴾ (٢) فأخبر أن نطق اللسان بالإيمان لا ينفع مع إصرار القلب على الكفر ، وإقرار اللسان بالكفر لا يضر مع تصديق القلب . " (٣)

وهذا المذهب هو الذى اختاره الكرمى حيث قال :

" ... فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه مع تمكنه من الإقــرار فهو مؤمـــن عـــند الله . قلـــت : ويؤيد ذلك الحديث الصحيح ؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم : ((من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة .)) " (٤)

وهـــذا فى الواقع مذهب الجهم ؛حيث يصير الإيمان الشرعى عند أصحاب هـــذا المذهب لا أثر له فى الواقع ، وإنما هو معرفة أو تصديق أو اعتقاد بالقلب فقط ؛ لا أثر له على اللسان والجوارح .

---

(١) انظـــر : " الإحـــياء " : (١ / ١١٨) ، و" مفاتـــيح الغيب " : (٢ / ٣٠) ، و" شرح العقائد النسفية " : (٧٩) .

(٢) سورة النحل : (١٠٦) .

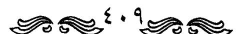
(٣) " الإنصاف " : (٥٦) .

(٤) " توضيح البرهان " : (٧ ، ٨) .

والقـــول الـثـــانى المحكـــى عن الأشعـــرى وهو كون التلفـــظ جزءاً أو شطـــراً من الإيمـــان فقـــد حكاه الـــرازى – رغم مخالفتـــه له – قـــولاً واحـــداً عـــن الأشعـــرى حيـــث يقـــول :

" القول الثـــانى : أن الإيـــمان هو التصديـــق بالقلـــب واللسان معاً وهو قـــول بشر بن عتـــاب المريسى وأبى الحسن الأشعـــرى . " [١]

والحـــق أن " الإيمان أعم من الاعتقـــاد فهو يشمل معناه وحقيقتـــه ويزيد عليـــه ؛ أى : إن الاعتقاد جزء من الإيمان ، فالإيمان يشمل الاعتقاد وغيره ، أمـــا الاعـــتقاد فيشـــكل جـــزءاً من مفهوم الإيمان ومحتواه ، فالإيمان أوسع والاعتقـــاد أضـــيق . ولربما لم ترد كلمة ((عقيـــدة)) أو ((اعتقـــاد)) فى القرآن الكريم من أجل ذلك . " [٢]



---

(١) " التفسير الكبير " : (٢ / ٢٨) .

(٢) " دراســـات فى العقـــيدة الإســـلامية " . لأستاذنا الدكتور / محمد عبد الله الشرقاوى : (٢٥٥) .

العلاقـة بـين الإيمـان والإسـلام

ذهبت المعتزلة إلى أن الإيمان هو الإسلام " حتى لا فرق بينهما إلاّ من جهة اللفـظ " [1] واسـتدلوا لذلـك بقوله تعالى : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [2] " فلـو لم يكن أحدهما هو الآخر لكان لا يصح الاستثناء على هذا الوجه . " [3]

وذهبـت الماتـريدية إلى أن الإسـلام غـير الإيمان ؛ فالإسلام يكون فى الأعمـال الظاهـرة إذ هو " الخضوع ... وهو الإخلاص بالأفعال ، وهو أن يسلم نفسه لله " [4]

بينما الإيمان باطن حيث إنه " التصديق ، والتصديق بالقلب " [5] . ويدلل الماتـريدى عـلى أن الأعمال غير داخلة فى مسمى الإيمان بقوله : " ... أثبت لهـم اسـم الإيمـان دون إقامـة الصلاة والزكاة بقوله : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [6] . " [7]

---

(١) " شرح الأصول الخمسة " : (٧٠٥) .

(٢) سورة الذاريـات : (٣٥) .

(٣) " شرح الأصول " : (٧٠٦) .

(٤) " تأويلات أهل السنة " : (٢٥٨) .

(٥) المرجع السابق : (٢٩٠) .

(٦) سورة البقـرة : (٣) .

(٧) " تأويلات أهل السنة " : (٣٩) .

ووافقت الأشاعـــرة الماتريدية فى ذلك لاتفاقهما فى أن الإيمان هو التصديق فقط دون الأعمال ؛ قال الباقلانى : " ويدل على صحة هذا القول أن الرسول عليه السلام فرق هو وجبريل بين الإسلام والإيمان ... وهذا واضح فى كونهما غيرين وأن محل الإيمان القلب وهو التصديق ، ومحل الإسلام الجوارح " (١) .

وإذا كـــان هذا مذهب جمهور متكلمى الأشاعرة فإن محدثيهم يرون جواز التوارد بينهما على مفهوم واحد – موافقين السلف فى ذلك – قال البيهقى :

" الأحاديث فى تسمية شرائع الإسلام إيماناً ، وأن الإيمان والإسلام عبارتان عن دين واحد إذا كان الإسلام حقيقة ولم يكن بمعنى الاستسلام .. كثيرة " (٢)

وإلى ذلك ذهب النسفى فى ((عقائده)) ؛ غير أن شارحها التفتازانى أوّل قوله على معنى عدم الانفكاك لا الاتحاد فى المفهوم . (٣)

وقد فصل الغزالى القول فى هذه المسألة قائلاً :

" الحق أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد ، وورد على سبيل الاختلاف ، وورد على سبيل التداخل . " (٤)

---

(١) " الإنصـــاف " : (٥٩) ، وانظر : " اللمع " : (١٢٢) ، و" رسالة أهل الثغر " : (٩٢) ، و" النظامية " : (٦٣) ، و" شرح البيجورى " : (٦٠) ، و" حاشية الشرقاوى " : (١٣٦) .

(٢) " الاعـــتقاد " : (١٠٢) ، وانظـــر : " شـــرح مسلم " للنووى : (١ / ١٢٦) فى شرح حديث جبريل .

(٣) انظر : " شرح العقائد النسفية " : (٨٣) .

(٤) " الإحياء " : (١١٦) .

والذى عليه السلفُ والمحدثون التفصيل الآتى :

" إذا أفـرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذٍ ، وإن قُرن بين الاسمين كان بينهما فرق ؛ والتحقيق فى الفرق بينهما : أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته ، والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له ، وذلك يكون بالعمل . "[١]

* * *

(١) " جـامع العلوم والحكم " لابن رجب الحنبلى : (٣٥) ، وانظر : " مجموع الفتاوى " : (٧ / ١٣ ، ١٤) ، و" شـرح الطحاوية " : (٣٤٨) ، و" لوامع الأنوار " : (١ / ٤٢٩) و" دراسات فى العقيدة الإسلامية " لأستاذنا الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى : (٢٦٣) .

موقف الكــرمى من هذه المسألة

تقــدم أن الإيمان عند الكرمى هو التصديق القلبى لغة وشرعاً ، وقد عرّف الإســلام لغــة بأنــه " مطلق الاستسلام والانقياد . وشرعاً : الاستســلام والانقياد وامتثال أمر الله ، واجتناب نواهيه . وعلى هذا فهو أعمال الجوارح مــن الطاعــات كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والزكاة والحج وغير ذلك ... فثبت بهذا تغاير مفهومهما لغه وشرعاً . " (١)

فالكــرمى هنا يوافق الأشاعرة فى تغاير مفهومى الإيمان والإسلام ، إلاّ أنه يخالفهم فى فهم العلاقة بينهما من حيث العموم والخصوص ، واستلزام أحدهما للآخــر مــن عدمه ؛ فقد ذهب الأشاعرة إلى أن كل إيمان إسلام وليس كل إســلام إيمانــاً (٢). وهذا هو مذهب السلف والمحدثين كما حكاه الآجرى فى الشــريعة بســنده إلى محمد بن على رضى الله عنه قال : " هذا الإسلام ودورّ دائرة فى وسطها أخرى ، وهذا الإيمان الذى فى وسطها مقصور فى الإسلام .

وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا يزنى الزانى حين يزنى وهــو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن)) (٣)

---

(١) " توضيح الفرقان " : ص (٥) .

(٢) انظر : " الإنصاف " : (٥٨) ، و" النظامية " : (٦٣) ، و" الإحياء " : (١ / ١١٦) .

(٣) الحديــث متفق عليه ، رواه البخارى فى كتاب " المظالم " ؛ باب/ النُّهبى بغير إذن صاحبه رقم (٢٤٧٥) ، ومسلم فى كتاب" الإيمان " ؛ باب/ نقصان الإيمان بالمعاصى : (١ / ٢٤١) =

ثم قـال : يخـرج من الإيـمان إلى الإسلام ، ولا يخرج من الإسـلام .فـإذا تاب تاب الله عليه ، ورجع إلى الإيمان " . وفى رواية : " ولا يخرجه من الإسلام إلاّ الشرك . " (١)

والكـرمـى يصـرح بعكـس هـذا القول قائلاً : " لا يلزم من الإيمان الإسـلام ... وقول الأئمة : ... أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً لا يخلـو من أن يريدوا بالنظر إلى ما عندنا بحسب ظاهر الشرع ، فإن أرادوا بالـنظر إلى ما عند الله فأنت قد عرفت أن كل إسلام معتبر يستلزم الإيمان ولا عكس ... وهو عكس قولهم . وإن أرادوا المعنى اللغوى والمفهوم الشرعى فلا تلازم بين الإيمان والإسلام " (٢)

وأصـل الخـلاف بين القولـين أن القائلـين بأن كل إيمـان إسـلام وليس كل إسـلام إيمانا قد بنـوا مذهبهـم على أنه " يستحيـل أن يكون مصدق غير منقاد ، ولا يستحيـل أن يكـون منقـاد غـير مصدِّق .

وهذا كما يقال : كل نبى صالح ، وليس كل صالح نبيا " (٣)

= ورواه أبـو داود فى كـتاب " السـنة " ؛ بـاب/ الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه رقم (٤٦٨٩) ، والـترمذى فى كـتاب ".الإيمان " ؛ باب/ ما جاء لا يزنى الزانى وهو مؤمن رقم (٢٦٣٤) ، والنسائى فى كتاب " القسامة " رقم (٤٨٨٤) ، وابن ماجة فى كتاب " الفتن " ؛ باب/ النهى عن النهبة رقم (٣٩٣٦) كلهم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(١) " الشريعة " : (١١٣ ، ١١٤) .

(٢) " توضيح البرهان " : ص (٦) .

(٣) " الإنصـاف " للباقلانى : (٥٩) . وإنْ كان الباقلانى يقول قبل ثلاث صفحات من هذا الموضع : " إن المؤمن المصدق بقلبه مؤمن عند الله تعالى وإن نطق بالكفر ... =

بيـــنما الكـــرمى يبنى مذهبه على جواز انفكاك الإيمان عن الإسلام وعدم اســـتلزام التصديق العمل حيث يقول : " لا ينفك الإسلام المعتبر عن الإيمان وإن كـــان الإيمـــان المعتبر قد ينفك عنه كمن اخترمته المنية قبل اتساع وقت الـــتلفظ بالشهادتين إجماعاً ،ولا التفات لمن شذّ . وبعد الاتساع وإن لم يتلفظ على الراجح " [1]

ومســـألة تـــلازم الإيمان والإسلام أو انفكاكهما ينظر إليها الكرمـــى من جهـــتين يسمى إحداهما ظاهر الشرع ، والأخرى حقيقة الشرع ويعنى بظاهر الشـــرع المعنى الاجتماعـــى ، أى : فهم عامة الناس فى المجتمع ،ويعنى بحقيقة الشرع المعنى الكلامى للمسألة من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية .

يقول الكرمـــى :

" بالـــنظر إلى مـــا عندنا بحسب ظاهر الشرع لزم عدم انفكاك أحدهما عن الآخـــر ، فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ؛ لأن الإسلام والإيمان عندنا هـــو الـــنطق بالشهادتين فقط . فمن أقر بهما أجريت عليه أحكام الإسلام فى الدنـــيا وحكـــم بأنه مؤمن ، ولم يحكم عليه بكفر إلاّ بظهور أمارات التكذيب كالســـجود اختـــياراً لشمس واستخاف بنبى ومصحف . وعلى هذا فيكون الشخص مسلماً مؤمنا فيما بيننا كافراً عند الله تعالى .

= وإقرار اللسان بالكفر لا يضر مع تصديق القلب " ولم يشترط الإكراه كما يدل عليه ظاهر الآيـــة : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦]

(١) " توضيح البرهان " : ص (٦) .

وعكسه أن تصديق القلب أمر باطن لا اطلاع لنا عليه . ولما كان تصديق القلب أمراً باطناً جعله الشارع منوطاً بالشهادتين .

فقال صلى الله عليه وسلم كما رواه الشيخان : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـــه إلا الله وأن محمـــداً رســـول الله))[1]

وقال لأسامـــة حين قتل من قـــال : لا إله إلا الله :

((هـــلا شققـــت عن قلبـــه))[2] "[3]

وقـــول الكـــرمى : " الإسلام والإيمان عندنا هو النطق بالشهادتين فقط " محجـــوج بقولـــــه تعالى : ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ [4]

وبقول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص : ((أو مسلماً)) . فلم يثبت الشارع لمن تلفظ بالشهادتين الإيمان ؛ لكن الإسلام .

وتقـــدم أن إثبات الإيمان بمجرد التلفظ هو مذهب الكرامية ، أما من حيث " النظر إلى المعنى اللغوى والمفهوم الشرعى فلا تلازم بين الإيمـــان والإسلام ،

(١) الحديـــث رواه الـــبخارى فى كتاب " الإيمان " ؛ باب/ ﴿ **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ** ﴾ رقـــم (٢٥) ، و مسلم فى كتاب " الإيمان " : (١ / ١٧٤) رقم (٣٢) .

(٢)رواه مســـلم فى كـــتاب " الإيمان " : (١ / ٢٩١) رقم (١٤٦) ، وأبو داود فى كتاب " الجهاد " : باب/ على ما [كذا فى الأصل] يقاتل المشركون رقم (٢٦٤٣) ، وابن ماجة فى كتاب " الفتن " ؛ باب/ الكف عمن قال : لا إله إلا الله رقم (٣٩٣٠) .

(٣) " توضيح البرهان " : ص (٦ ، ٧) .

(٤) سورة الحجرات : (١٤) .

وبينهما عموم وخصوص من وجه يجتمعان في مادة ، وينفرد كل منهما .

فمـــثال اجتماعهما من آمن حقاً بقلبه وعمل الطاعات بجوارحه كأبي بكر الصـــديق فهـــذا مؤمن مسلم . ومثال انفراد الإسلام عن الإيمان ؛ من عمل بجوارحه ولم يصدق بقلبه كالمنافقين ... ومثال انفراد الإيمان عن الإسلام ؛ من صـــدق بقلبه حقاً ؛ ولم يعمل بجوارحه ككثير من موحدى العصاة فهذا مؤمن وإن لم ينطق الشهادتين ، وليس بمسلم لعدم أعمال الجوارح " (١)

وقـــد تقدم أن إثبات الإيمان بمجرد تصديق القلب من غير تلفظ ولا عمل هو مذهب الجهمية .

* * *

(١) " توضيح البرهان " : ص (٦) .

زيـــادة الإيمـــان ونقصانـــه

ذهـــب الســـلف إلى أن الإيمـــان قـــول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان [١] وأنه يزيد وينقص [٢] .

وقالـــت الخوارج والمعتزلة : إن الإيمان هو الدين كله [٣] إلاّ أنهم ذهبوا إلى أن الإيمـــان لا يزيد ولا ينقص ، ونفوا اسم الإيمان بمجرد المعصية ، فكفرت الخوارج مرتكب الكبيرة . [٤]

وقالت المعتزلة بالمترلة بين المنـــزلتين ؛ فلم يجعلوا مرتكب الكبيرة مؤمناً ولا كافراً ؛ وسموه فاسقاً . [٥]

---

(١) انظر : " صحيح البخارى" : كتاب" الإيمان " : (١ / ٦٠) ، و" الشريعة " : (١٠٥) و" جـــامع العلـــوم " : (٣٢) ، و" شـــرح الطحاوية " : (٣٣٢) ، و" مجموع الفتاوى " : (٧ / ١٧٠) .

(٢) انظر : " صحيح البخارى " : كتاب " الإيمان " : (١ / ٦٠) ، و" الشريعة " : (١١١) و" الاعـــتقاد " : (١٠٢) ، و" شرح الطحاوية " : (٣٤٢) ، و" مجموع الفتاوى " : (٧ / ٢٢٣) ، و" لوامع الأنوار " : (١ / ٤٣١) .

(٣) انظـــر : " شرح الأصول الخمسة " : (٧٠٧) ، و" مقالات الإسلاميين " : (١ / ٣٢٩) و" مجموع الفتاوى " : (٧ / ٢٢٢) .

(٤) انظـــر : " المقـــالات " : (١ / ١٦٨) ، و" الفرق بين الفـــرق " : (٧٣) ، و" الملل والنحل " : (١ / ١١٥) ، و" مجمـــوع الفتـــاوى " : (٧ / ٢٢٢) .

(٥) انظـــر : " شـــرح الأصـــــول الخمسة " : (٧١١) ، و" المقالات " : (١ / ١٣١) ، و" الفرق بين الفـــرق " : (١١٨) ، و" الملل والنحل " : (١ / ٤٨) ، و" مجموع الفتاوى " : (٧ / ٢٢٢) .

أما الجهمية لّما كان الإيمان – عندهم – هو مجرد المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عنـد الله فقط ، وأن الكفر – عندهم – هو الجهـل بذلك ، فإن الإيمان – عندهم على ذلك – لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه . (١)

وقالـت الكرامـية : الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ، فالإيمان – عندهم أيضاً – لا يتبعض . بل المنافقون – عندهم – مؤمنون كاملو الإيمان . (٢)

وذهـب أبـو حنيفة (٣) وأبو جعفر الطحاوى (٤) إلى أن الإيمان واحد لا يتـبعض ولا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه ، وقد تابعت الماتريدية أبا حنيفة فى هذا القول (٥) .

أمـا الأشـاعـرة فقـد ذهـب جمهورهـم إلى القـول بزيادة الإيمان ونقصـانه (٦) لا سـيما المحدثـين مـنهم ؛ كالبـيهقى (٧) والـنـووى (٨)

---

(١) انظـر : " المقـالات " : (١ / ٢١٤) ، و" الفـرق بين الفرق " : (٢١٢) ، و" الملل والنحل " : (١/ ٨٨) ، و" شرح الطحاوية " : (٣٣٢) .

(٢) انظـر : " المقـالات "" : (١ / ٢٢٣) ، و" الفرق بين الفرق " : (٢٢٣) ، و" شرح الطحاوية " : ص (٣٣٢) .

(٣) انظر : " المقالات " : (١ / ٢٢١) ، و" شرح البيجورى " : (٦٥) .

(٤) انظر : شرح الطحاوية : (٣٣١) .

(٥) انظـر : " الفـرق الإسلامـيـة وأصولـها الإيمانية " للأستاذ الدكتور : عبد الفتاح أحمد فؤاد . دار الدعوة ، ١٩٩٧ م : (١ / ١١٦) ، (٢٢١) ، و" شرح البيجورى " : (٦٥) .

(٦) انظر : " رسالة أهل الثغر " : (٩٣) ، و" الإنصاف " : (٥٧) ، و" الإحياء " : (١ / ١٢٠) ، و" شرح البيجورى " : (٦٣) .

(٧) انظر : " الاعتقاد " : (٩٨) .

(٨) انظر : " شرح مسلم " : (١ / ١٢٦) فى شرح حديث جبريل .

وابــن حجر [1] ؛ إلاّ أن جمهورهم جعلوا الزيادة والنقص متعلقة بالعمل دون التصــديق فقــال الأشعرى : " الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وليس نقصانه عندنا شكا فيما أمرنا بالتصديق به ، ولا جهلاً به لأن ذلك كفر " [2] ، ووافقه على ذلك الباقلانى [3] والغزالى [4] .

وأما أن يكون تعلق الزيادة والنقصان بالتصديق فقد نفاه جمهور الأشاعرة ؛ إذ التصديق – عندهم – خطة واحدة متى انخرم منه أدنى شيء بطل الإيمان .[5]

وأجاز الاشعرى والباقلانى إطلاق الزيادة على التصديق بمعنى زيادة الوزن والثواب لا زيادة الصورة والحقيقة .[6]

وأجــاز الغــزالى إطــلاق الــزيادة على التصديق بمعنى زيادة الوضوح والطمأنيــنة [7] ومنع الجوينى والتفتازانى إطلاق الزيادة والنقصان على الإيمان مطلقاً [8] .

---

(١) انظر : " فتح البارى " : (١ / ٦١) .

(٢) " رسالة أهل الثغر " : (٩٣) .

(٣) انظر : " الإنصاف " : (٥٧) .

(٤) انظر : " الإحياء " : (١ / ١٢١) .

(٥) انظــر : " رســالة أهل الثغر " : (٩٣) ، و" الإنصاف " : (٥٧) ، و" الاقتصاد " : (١٩٠) ، و" النظامية " : (٦٥) .

(٦) انظر : المراجع السابقة : نفس الصفحات .

(٧) انظر : الاقتصاد : (١٩٠) ، و" الإحياء " : (١٢٠/١) ، وانظر : " شرح البيجورى " : ص (٦٥) .

(٨) انظر : " النظامية " : (٦٥) ، و" شرح العقائد النسفية " : (٨١) .

رأى الكرمــى فى المسألــة

ذهــب الكرمى إلى أن الإيمان يزيد وينقــص ؛ موافقاً للسلف ولجمهــور الأشــاعرة . وقد عرض اختلاف المذاهب فى هذه المسألة قائلاً :

" مذهــب الجمهــور أن الإيمــان يزيد بالطاعــة ، وينقــص بالمعصية . وأخـــرج أبو نعيم [١] ، وكذا الحاكم [٢] عن الإمام الشافعى [٣] بلفــظ : " الإيمـــان قــول وعمــل يزيد وينقص " . وبه قال الإمام أحمــد بن حنبل وإسحــق بن راهويــه [٤] " [٥] .

ثم ذكر من نسب إليه هذا القول من الصحابة .

ثم ذكر مذهب من نفى الزيادة والنقصان فى الإيمــان قائــلاً :

" وقــال آخــرون : إن الإيمــان لا يزيد ولا ينقص لمامرّ من أنه التصديق

---

(١) أحمــد بــن عــبد الله بــن أحمد الإمام الحافظ الصوفى الأصبهانى ، صاحب " الحلية " ، و" المستخرج على الصحيحين " (٣٣٦ – ٤٣٠ هـ) . انظر: " السير " : (١٧ / ٤٥٣) .

(٢) محمــد بــن عــبد الله بن محمد الشافعي الناقد العلامة صاحب المستدرك على الصحيحين (٣٢١– ٤٠٥ هـ) . انظر : " السير " : ١٧ / ١٦٢ .

(٣) محمــد بن إدريس القرشى الإمام العالم فقيه الملة رأس المذهب الشافعى ، تلميذ مالك ابن أنس وشيخ أحمد بن حنبل (١٥٠ – ٢٠٤ هـ) . انظر : " السير " : (١٠ / ٥) ، وقول الشافعى هنا فى الإيمان بنصه فى " السير " : (١٠ / ٣٢) .

(٤) إســحق بن إبراهيم بن مخلد ، الإمام الكبير سيد الحفاظ ، قرين أحمد بن حنبل ويحيى ابن معــين (١٦١ – ٢٣٨ هـ) . انظر : " السير " : (١١/ ٣٥٨) ، و" تهذيب التهذيب " : (١ / ١٣٩) .

(٥) " توضيح البرهان " : ص (٩) .

القلبى الذى بلغ حد الجزم والإذعان ، وهو لا يتصور فيه زيادة ولا نقصـــان ، حـــتى أنـــه من حصـــل له حقيقة التصديق فسواء عمل الطاعات أم ارتكب المعاصى ؛ فتصديقه لا تغير فيه أصلاً ، والآيات الدالة على زيادة الإيمان محمولة على زيادته فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم بزيادة ما يؤمنون به مما تجدد من الفرائـــض . " (١)

ثم عرض مذهب جمهور متكلمى الأشاعرة أن :

" نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمـــان الشرعى يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهى الأعمال ونقصانها " (٢)

ثم اخـــتار الكرمى قول النووى (٣) وابن حجر العسقلانى (٤) من " أن نفس التصـــديق يـــزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة ، ولهذا يكون إيمان الصديقـــين أقـــوى مـــن إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبهة ولا يزلزل إيمانهم بعارض ؛ بل لا تزال قلوبهم منشرحة ؛ وإن اختلفت عليهم الأحوال .

وأمـــا غيرهـــم مـــن المؤلفـــة ومـــن قـــاربهم ونحوهم فليسوا كذلك ، فهـــذا لا يمكـــن إنكـــاره . ولا يتشكك عاقل فى أن نفس تصديق أبى بكـــر رضـــى الله عـــنه لا يســـاويه تصـــديق آحاد الناس ، ولهذا قال البخارى فى " صحيحه " :

---

(١) المرجع السابق : ص (١١) .
(٢) " توضيح البرهان " : ص (١١) .
(٣) انظر : " شرح صحيح مسلم " : (١ / ١٢٦) فى شرح حديث جبريل .
(٤) انظر : " فتح البارى شرح صحيح البخارى " : (١ / ٦١) .

قال ابن أبي مليكة :

أدركت ثلاثين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وما منهم من أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل [١] ...

ويؤيده كما قال الحافظ ابن حجر : أن كل أحد يعلم أن ما بقلبه يتفاضل حتى يكون فى بعض الأحيان أعظم يقيناً وإخلاصاً منه فى بعضها ، وكذلك فى التصـــديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها ... إذا علمت القول بزيادة الإيمـــان القلـــبى عـــلى الراجح ، والإيمان القولى والعمل إجماعاً . فكن أيها المخاطـــب فى نفـــيس عمرك فى تحصيل مزيد من الإيمان بإخلاص النية وحسن اليقين وصدق التوكل ... " [٢] .

* * *

(١) انظـــر : " صحيح البخارى " : كتاب " الإيمان " ؛ باب/ خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر . (١ / ١٣٥) .

(٢) " توضيح البرهان " : ص (١١ ، ١٢) .

مبحث القضـاء والقـدر

الإيمـان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان كما بينها النبى صلى الله عليه وسـلم فى حديـث جبريل المشهور بقوله : " الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره ... " (١) .

وقـد أمرنا الله عز وجل بالأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** . ﴾ (٢) .

وقد ورَّثنا النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ما أُوتيه ؛ فلم يكتم شيئاً من أمر الديـن كما قال تعـالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** . ﴾ (٣) والـذى أنزل إليه صلى الله عليه وآله وسلم – الكتاب والحكمة التى هى السنة كما قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ (٤) فالقـرآن الكريم هدى للناس وبينات ، والسنة النبوية من اعتصم بها هُدى إلى صراطٍ مستقيم .

وقـد تأكدت عقيدة القدر فى القرآن الكريم والسنة بما يناسب كونها ركناً من أركان الإيمان .

أما ما يشهد لها من القرآن الكريم فآيات بالغة الكثرة .

---

(١) الحديث : متفق عليه . انظر تخريجه فى مبحث فناء النار : ص (٣٨١) .

(٢) سورة الحشر : (٧) .

(٣) سورة المائدة : (٦٧) .

(٤) سورة الأحزاب : (٣٤) .

روى ابن بطة [(١)] بسنده إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله قال : " ما أضل مـــن كـــذب بالقدر . لو لم تكن عليهم فيه حجة إلاّ قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ** ﴾ [(٢)] "

كما روى ابن بطة بسنده أيضاً إلى زيد بن أسلم [(٣)] قال : " والله ما قالت القدريـــة كمـــا قال الله عز وجل ؛ ولا كما قالت المـــلائكة ، ولا كما قال النبـــيـــون ولا كمـــا قال أهل الجنة ، ولا كما قال أهل النار ، ولا كما قال أخوهـــم إبلـــيس . قـــال الله عز وجل : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [(٤)]. وقالت الملائكة : ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا .** ﴾ [(٥)] وقـــال شعيب عليه السلام : ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** ﴾ [(٦)] . وقال أهل الجنة : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ**

---

(١) الإمـــام القدوة شيخ العراق أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن حمدان العكبرى الحنبلى ابن بطة . مصنف كتاب " الإبانة الكبرى "(٣٠٤ – ٣٨٠ هـــ) . انظر : "السير" : (٥٢٩/١٦)

(٢)سورة التغابن : (٢) . وانظر الأثر فى : الإبانة تحقيق د / عثمان عبد الله آدم ، دار الراية الـــرياض ط أولى سنة ١٤١٥ هـــ : الكتاب الثانى : القدر : (٢٨١/١٠) رقم (١٣٠٢) والكـــلام محـــذوف الجواب تقديره : ((لكفتهم)) كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً** ﴾ (الرعد : ٣١) . التقدير : [لكان هذا القرآن]

(٣) زيـــد بـــن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حدث عن والده أسلم وأنس ابن مالك وغيرهما ، حدث عنه مالك بن أنس وسفيان .(ت ١٣٦ هـــ) " السُير" : (٥ / ٣١٦) .

(٤) سورة التكوير : (٢٩) .

(٥) سورة البقرة : (٣٢) .

(٦) سورة الأعراف : (٨٩) .

﴿ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (١) . وقــال أهــل النار : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ﴾ (٢) وقــال أخوهــم إبلــيس : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي . ﴾ " (٣) .

وأمــا ما جاء فى السنة يقرر عقيدة القدر فأحاديث جمة ، ذكر كثيراً منها أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، وقد أفرد بعض الأئمة مسألة القدر بمصنفات خاصــة كمــا فعل البخارى فى كتاب ((خلق أفعال العباد)) ، وأبو داود فى كتاب ((القدر)) والبيهقى فى كتاب ((القدر)) وغيرهم .

قال الكرمى :

" إن الله تعــالى قدر مقادير الخلق وما يكون من الأشياء قبل أن يكون فى الأزل ، وعلم سبحانه أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده سبحانه ، على صفات مخصوصة .

فهى تقع على حسب ما قدرها ... قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (٤) وقال : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (٥) إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) سورة الأعراف : (٤٣) .

(٢) سورة المؤمنون : (١٠٥) .

(٣) سورة الحجر : (٣٩) .

وانظر : " الأثر فى الإبانة " لابن بطة : كتاب " القدر " : (١ / ٢٨١ ، ٢٨٢) .

(٤) سورة الحديد : (٢٢) .

(٥) سورة التوبة : (٥١) .

وأما السنة :

فأحاديث جمة فى صحيحي البخارى ومسلم وغيرهما . ففى"صحيح مسلم " عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول : ((**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة** .))(1).)) (2)

" والمخاصمون فى القدر نوعان :

أحدهما : من يبطل أمره ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا...** ﴾ (3)

والثانى : من ينكر قضاء الله وقدره السابق . والطائفتـــان خصماء الله فى القدر . " (4)

أمــا الفـــريق الأول مـــن هذيـــن النوعـــين وهم الجبرية ، فقد جعلهم الشهرستانى ثلاثة أصناف :

١ – جـــبرية خالصـــة – وهم الجهمية – وهى التى لا تثبت فعلاً ولا قدرة عـــلى الفعـــل أصلاً ؛ فهم ينفون الفعل حقيقة عن العبد ويضيفونه إلى الرب عز وجلّ .

---

(١)الحديث صحيح : انظر تخريجه فى رفع الشبهة : ص (١٣٦) .

(٢) " إرشاد ذوى العرفان " : (٢٦ ، ٢٧) ، وانظر : " رفع الشبهة " : (١٣٦) .

(٣) سورة الأنعام : (١٤٨) .

(٤) " شفاء العليل " لابن القيم : (٥٣) .

٢- والثانية متوسطة . وهى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً . وهم بعض الأشاعرة على ما سيأتى تفصيله عند الحديث عن القدرة والاستطاعة إن شاء الله .

٣- والثالـــثة هـــى من أثبتت أثراً ما فى الفعل ، وسمت ذلك كسباً . وهم جمهور الأشاعرة.(١)

وأمـــا الفريق الثانى من الخصماء فى القـــدر فهم المعتـــزلة ، ويلقبون أيضاً بالقدرية والعدلية .وهم الذين يزعمون أن العبد خالق لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصـــى بـــتقدير الله تعالى . وقد حدثوا فى آخر عصر الصحابة فى وجود أمـــثال ابـــن عمر وابن عباس رضى الله عنهم . ويقال إن أول من ابتدع هذه البدعة بالعراق رجل من أهل البصرة من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى ، وأخذ غيلان عن معبد . (٢)

" وقـــد رُويت أحاديثُ فى ذم القدرية والمرجئة ؛ روى بعضها أهل السنة كـــأحمد وأبى داود وابن ماجة ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ، ومن العلماء من طعن فيها وضعفها . ولكن الذى ثبت فى ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس . " (٣)

---

(١)انظـــر : " الملـــل والنحل " : (١ / ٨٥) ، و" قواعد المنهج السلفى " لأستاذنا الدكتور مصطفى حلمى : (١٠٩) .

(٢) انظـــر : " الملل والنحل " : (١ / ٤٣) ، و" شرح مسلم " للنووى : (١ / ١٣٠) ، و" قواعد المنهج السلفى " : (١٠٦) .

(٣) " رسالة الفرقان بين الحق والباطل " لابن تيمية . ضمن مجموعة " الرسائل الكبرى " : (١ / ٢٦)

فقـــد روى مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : " إذا لقيت أولئك فأخـــبرهم أنى بريء منهم وأنهم برآء منى . والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر . " (١).

أمـــا الأحاديث المرفوعة فى ذم القدرية فيُروى عن جماعة من الصحابة عن الـــنبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ((القدرية مجوس هذه الأمة . إن مرضوا فلا تعودهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم .)) (٢).

وقد أثبت كلا الفريقين – المثبتون للقدر والنافون له – أثبتوا هذا الحديث ثم تدافعـــوا هـــذا الوصف ، فرمت المعتزلة أهل السنة به ، ورمى أهل السنة المعتزلة به . (٣)

* * *

(١) صحيح مسلم مع شرح النووى : (١ / ١٣٢) .

(٢) انظر تخريج الحديث فى رفع الشبهة : ص (١٧٧) .

(٣)انظر : " شرح الأصول الخمسة " : (٧٧٢ – ٧٧٧) ، و" الإبانة " للأشعرى : (٦١) و " شرح الطحاوية " : (٢٧٢ ، ٢٧٣) .

مذهب الكرمى فى القدر

ذهــب الكرمى فى هذه المسألة مذهب جمهور أهل السنة ؛ وقد تقدم ذكر ذلك مع ذكره الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية .

وقــد ردّ الكــرمى قول الطائفتين المخاصمين فى القدر ، فردّ على الجبرية المحــتجين بــه قائلاً : " الاحتجــاج بالقدر على فعل الذنوب والمعاصى باطل باتفــاق أهل الملل وذوى العقول ، فإن الظالم لغيره لو احتج بالقــدر لاحتج ظالمه بالقدر ، فإن كان القــدر حجة لهذا فهو حجة لهذا . " (١)

ولــو ســاغ الاحتجاج بالقدر لم يستقم نظام المجتمع ولكان " للإنسان أن يفعــل فى دم غيره وماله وأهله ما يشتهيه من المظالم والقبائح ويحتج بأن ذلك مقدر علىّ ." (٢).

والاحتجاج بالقدر مذهب خبيث ؛ بل إن أصله " إنما هو قول أهل الجاهلية المشــركين الذين لا علم عندهم إلا اتباع الظن وما تهوى الأنفس ؛ فمن احتج به فقد التحق بهم فى الجهل والضلال واتباع الهوى . " (٣)

وقد بين الكرمى أن هذا النوع من المخاصمين فى القدر شرُّ النوعين فقال : " المحتجون بالقدر على فعل المعاصى أعظم بدعة وأشنع قولاً وأقبح طريقة من المكذبــين بــالقدر من المعتزلة والشيعة والرافضة ، فإن هؤلاء بتعظيمهم الأمر

---

(١) " رفع الشبهــة " : (١٦٨) .

(٢) المرجع السابق : (١٧٠) .

(٣) المرجع السابق : (١٧٢) .

والنهى والوعد والوعيد خيرٌ من الذين يرون القدر حجة لمن ترك المأمور وفعل المحذور . " (١)

وكمـــا ردّ الكرمى على الجبرية المحتجين بالقدر ردًّ أيضاً على القدرية نفاة القدر ، وبيَّن أن أصل مقالتهم تنـــزيه الله عز وجل عن الظلم ؛ إذْ العدل أحد أصـــولهم الخمسة المشهورة ، ثم بين الكرمى أن المعتزلة أُتُوا فى هذه المسألة من قبل التشبيه فقال : " القدرية شبهت فى الأفعال ، فقاسوا أفعال الله على أفعال خلقـــه ، وهو من أفسد القياس ، ولهذا قال جمهور المعتزلة : وجدنا فى الشاهد أنّ مـــن فعل الجور كان ظالماً جائراً ، ومن أعان فاعله على فعله ثم عاقبه عليه كـــان جائراً عابثاً ، والعدل من صفات الله ، والظلم منفى عنه سبحانه باتفاق المسلمين . " (٢)

ثم بـــين الكرمى وجوب تنـــزيه الله تعالى عن التشبيه فى باب الأفعال كما نـــنـــزهه تعالى عنه فى باب الذات والصفات " فإن الله ليس كمثلـــه شيء فى ذاتـــه ولا فى صفاتـــه ولا فى أفعاله ، وقياس أفعال الله على أفعال العباد خطأ ظاهر " (٣)

والحـــق أن هـــذا الاضطراب فى المنهج من لازم المنهج العقلى المجرد على الانطـــلاق مـــن نصوص الكتاب والسنة مع الاستضاءة بتفسير السلف لتلك النصـــوص . إذْ التفكير العقلى المجرد ، أو الاعتماد على نصوص الكتاب دون

(١) " رفع الشبهـــة " : (١٧٤) .
(٢) المرجع السابق : (٢٤٠) .
(٣) المرجع السابق : (٢٣٢) .

السـنة ، أو الاعتماد عليهما مع عدم جمع النصوص الكاملة فى الباب مع عدم الالـتفات إلى أقوال خير القرون فى كل مسألة مسألة ؛ لابُدَّ أن ينتج اضطراباً فى المنهج والنتائج المتوصل إليها ؛ كما هو شأن المعتزلة فى هذه المسألة ((القدر)) وغيرها من المسائل الكلامية .

* * *

مراتــب القضــاء والقــدر

بـيــّن ابن القيم رحمه الله " مراتب القضاء والقدر التى من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر . وهى أربع مراتب : المرتبة الأولى : علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها . المرتبة الثانية : كتابتها قبل كونها . المرتبة الثالثة : مشيئته لها . المرتبة الرابعة : خلقه لها . " (١)

أمــا المرتبة الأولى من مراتب القضاء والقدر ؛ وهى علم الله بالأشياء قبل كونها ؛ فلا شك فى كونها أصل عقيدة القضاء والقدر ، لأن المرتبة الثانية وهى الكتابة مترتبة على العلم بما يُراد كتابته ، ثم المشيئة بالخلق مترتبة على ما قدر وكتب قبلاً ، ثم إخراج الأشياء إلى الوجود وهو الخلق تابع للمشيئة .

وقــد وصــف الله عز وجل نفسه بالعلــم فقال : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (٣) وقال : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً . ﴾ (٤) .

وقد وصف النبى ﷺ ربه تعالى بالعلم فى أحاديث كثيرة منها قوله فى أولاد المشركين : ((خلقهم الله حين خلقهم وهو يعلم بما كانوا عاملين .)) (٥)

---

(١) " شفاء العليل " : (٥٥) .

(٢) سورة الأنعام : (٨٠) .

(٣) سورة الطلاق : (١٢) .

(٤) سورة غافر : (٧) .

(٥) الحديــث : مــتفق عليه . رواه البخارى فى " الجنائز " ؛ باب/ ما قيل فى أولاد المشركين (١٣٨٣) ، وفى " القدر " ؛ باب/ الله أعلم بما كانوا عاملين : (٦٥٩٧) بنحوه . =

وقد أنكر بعض المعتزلة [١] وأكثر الروافض [٢] علم الله تعالى بالأشياء قبل كونها .

قـــال الأشعرى : " قال هشام بن عمر الفوطى [٣] : أقول : إنه لم يزل عالماً أنه واحد ، ولا أقول بالأشياء .

لأن قـــولى : بالأشياء . إثبات أنها لم تزل ، وقولى أيضاً بأن ستكون الأشياء إشارة إليها ، ولا يجوز إلاّ إلى موجود . " [٤]

وقـــد علـــل الأشعرى موقف هشام هذا بإرادته ((نفى تعدد القدماء)) فقـــال : " وهذه العلة التى اعتل بها هشام فى العلم أخذها عن بعض الأزلية ، لأن بعض الأزلية يثبت قدم الأشياء مع بارئها . وقالوا :

قولنا : لم يزل الله عالماً بالأشياء . يوجب أن تكون الأشياء لم تزل . فلذلك قلنا بقدمها .

فقـــال الفوطـــى : لمـــا اســـتحال قدم الأشياء ؛ لم يجز أن يقال : لم يزل عالمـــاً بهـــا ؟ " [٥]

= ومسلم فى القدر ؛ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ... : (٨ / ٢٠ ، ٢١) .

(١) انظر : " المقالات " : (٢ / ١٨٠) .

(٢) انظر : " المقالات " : (٢ / ١٨١) .

(٣) المعتزلى الكوفى مولى بنى شيبان ، صاحب " ذكاء وجدال وبدعة " . (ت ٢٢٦ هـــ) .
انظر : " السير " : (١٠ / ٥٠٤٧) ، و" الملل " : (١ / ٧٢) .

(٤) " المقالات " : (٢ / ١٨٠) .

(٥) " الملل والنحل " : (٢ / ١٨١) ، وانظر : " الملل " : (١ / ٧٤) .

كما حكى الأشعـــرى أيضاً عن شيطان الطـــاق [1] وهشام بن الحكم [2] وكثير من الروافض " أن الله ... إنما يعلم الأشياء إذا قدرها ، ويريدها فمحال أن يعلمها . " [3]

وهذا المذهب هو الذى ذكره الإمام مسلم فى "صحيحه " فقال : "... كان أول من قال فى البصرة بالقدر معبد الجهنى ... وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أُنُفٌ ... " [4]

قـــال الـــنووى : " أى مســـتأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى ، وإنمـــا يعـــلمه بعـــد وقوعـــه ... وهذا القول قول غلاتهم ، وليس قول جميع القدريـــة . " [5] " وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه . " [6] ، وهذا الذى قاله النووى رحمه الله حق فقـــد قال القاضى عبد الجبار : " أما الذى يدل على أنه تعالى كان عالماً فيما لم يزل فهو أنه لو لم يكن عالماً فيما لم يزل وحصل عالماً بعد إذ لم يكن ، لوجب أن يكون عالماً بعلم متجدد محدث ، وذلك فاسد " [7] .

---

(١) محمـــد بـــن النعمان الأحول من الشيعة (ت ؟) . انظر : " السير " : (١٠ / ٥٥٣) ، و" الملل " : (١ / ١٨٦) .

(٢) الرافضى الكوفى المشبه . (ت ؟) . " السير" : (٥٤٣/١٠) ، و" الملل " : (١٨٤/١) .

(٣) " المقالات " : (٢ / ١٨٤) ، وانظر : " الملل " : (١ / ١٨٥ ، ١٨٦) .

(٤) " صحيح مسلم " مع شرح النووى : (١ / ١٣٢) كتاب الإيمان .

(٥) " شرح صحيح مسلم " للنووى : (١ / ١٣٢) .

(٦) المرجع السابق : (١ / ١٣٠) .

(٧) " شـــرح الأصـــول الخمسة " : (١٦٠) . وهذا يمثل مذهب المعتـــزلة فى زمن القـــاضى ؛ حيث لم يذكر لذلك القـــول مخالفاً .وإذا لم يكن فى المعتزلة من يقول به ، ففى سائر الأمة من باب أولى

مذهب الكرمى فى صفة العلم

قـــال الكرمى : " إن الله تعالى قدر مقادير الخلق وما يكون من الأشياء قبل أن يكـــون فى الأزل ، وعـــلم سبحانه أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده على صفات مخصوصة ، فهى تقع على حسب ما قدرها .

وخالفت القدرية فى ذلك ومن ذهب مذهبهم فقالوا :

إنـــه ســـبحانه لم يقدر الأشياء ، ولم يتقدم علمه بها ، وإنها مستأنفة العلم . أى : إنمـــا يعلمها سبحانه بعد وقوعها ، وكذبوا على الله فى قولهم ومذهبهم . وهو مذهب باطل بالكتاب والسنة إجماع الأمة . " (١)

ويـــتعلق بمسألة العلم الإلهى الأزلى ما زعمته الشيعة من القول بالبداء على الله تعالى وتبدله وتغيره . وقد ردّ الكرمى هذا القول ونفى التغير فى علمه تعالى قائلاً : " لا يسع من لـــه أدنى تأمل أن يخالف فى أن علم الله تعالى لا يتغير ولا يتبدل . " (٢)

* * *

(١) " إرشاد ذوى العرفان " : (٢٦) .

(٢) المرجع السابق : (٦٤ ، ٦٥) ، وانظر : " رفع الشبهة " : (١٣٣) .

المرتبة الثانية من مراتب القدر

وهـــي كتابته تعالى للأشياء قبل كونها . وهى قريبة من الأولى ، وقد أثبتها الكرمى موافقاً لكافة أهل السنة ، واستدل لها من الكتاب والسنة :

أمـــا الكـــتاب : فقولـــه تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا** . ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** . ﴾ [2]

وأمـــا الســـنة : فأحاديـــث جمـــة فى البخارى ومسلم ، ففى مسلم ... ((كتـــب الله مقاديـــر الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنـــة .)) [3].)) [4]

وإذا كـــان الكـــرمى يـــنفى حصول التغيير فى علم الله تعالى ؛ فإنه يحكى حصـــوله فى اللوح المحفوظ – يحكيه قولين للعلماء فى ((رفع الشبهة)) [5] ثم يقطـــع بـــه فى ((الإرشـــاد)) قـــائلاً : " لا يسع من أمعن النظر فى الآيات والأحاديث فى المحو والإثبات من اللوح أن يخالف فى وقوع ذلك فيه . " [6] "

---

(١) سورة الحديد : (٢٢) .

(٢) سورة التوبة : (٥١) .

(٣) متفق عليه ؛ تقدم تخريجه .

(٤) " إرشاد ذوى العرفان " : (٢٧ – ٣١) ، وانظر : " رفع الشبهة " : (١٣٦) .

(٥) " رفع الشبهة " : (١٣٣) .

(٦) " الإرشاد " : (٦٤) .

فمـــا فى عـــلم الله تعالى لا يتغير ولا يتبدل ، وما فى اللوح المحفوظ يغير ويبدل ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (١) ؛ فتأمل . " (٢)

والكرمى يؤكد على أن المحو والإثبات فى اللوح ليس بالنسبة إلى الله تعالى – دفعاً لشبهة البداء – ولكنه بالنسبة إلى الملائكة قائلاً : " فإن قلت : مرّ فى الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى لما خلق القلـــم كتب مقاديـــر كل شيء ، ومـــا هو كائن إلى يوم القيامة ، والمثبت بعد المحو لم يكتب إلا بعد المحو ، فيلزم أنه لم يكتب مقادير كل شيء حينئذٍ .

قلت : هو قـــوى .

وجوابـــه : أن المثبـــت بعد المحو كان موجوداً فيه ، ولكن الله لم يطلع عليه الملائكـــة الموكلـــين باللوح بحسب ما يتراءى لهم . فيكون ذلك لهم عبرة تامة وحكمـــة بالغـــة مـــن أن الله تعالى هو المتصرف التصرف التام المطلق من غير معارض له لا إله إلا هو ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . " (٣) .

وقـــد ذهب الدكتور فاروق الدسوقى إلى قريب مما ذهب إليه الكرمى فى تعليل المحو والإثبات فقال : " القدر المدون المكتوب قبل الخلق فى أم الكتاب ؛ والـــذى تتسلسل فيه الأفعال بناءً على سوابقها ليس سلسلة منيعة من العلل والمعلـــولات الـــتى لا يمكن الرجوع عنها أو تغييرها أو ضبطها أو منعها من الصدور .

---

(١) سورة الرعد : (٣٩) .
(٢) " الإرشاد " : (٦٥) .
(٣) " الإرشاد " : (٦٨ ، ٦٩) .

وإذا لم يكـــن ذلـــك هـــو صفة الخلق والأمر الإلهي فإنه يعني أمرين خطيرين :

الأول : استقلال للقدر يستتبع حاكمية على الفاعلية الإلهية تحد من القدرة والمشـــيئة ، وهـــذا فوق أنه ينسب إلى قدرة الله العجز وإلى المشيئة المحدودية والنقص ، فإنه يجعل من القدر شريكاً وإلهاً آخر معه . وهذا محال .

والـــثاني : يؤدي أيضاً إلى القول بأن الله سبحانـــه قد اعتنى بالعـــالم مرة واحـــدة فخلقه أوّلاً ، ورتب كل شيء في القدر المكتوب ، ثم جعل الأشياء والمخلوقـــات ؛ بشراً كانوا أو غير بشر ؛ يصدرون كلٌ يستتبع الآخر ، وكل ســـابق يوجـــب إيجـــاد لاحقه كأنه خروج من كمون أو سلسلة من الأفعال والأحداث والأشياء تجر كل حلقة منها الأخرى حتى آخر الزمان .

ومـــن ثم فذلك يعني انقطاع الصلة بين الله والعالم وإهماله له بعد عنايته به مـــرة واحـــدة في الـــبدء ، وذلك يجر أيضاً إلى نسبة العجز إلى القدرة الإلهية والفاعلية والحدّ من المشيئة ." (١)

* * *

(١) " القضاء والقدر في الإسلام " : (١ / ٣٨١) .

المرتبة الثالثة من مراتب القـــدر
مشيئة الله تعالى للأشياء قبل كونها

يقول الكرمـــي : " ما ثم سبب مستقل إلاّ مشيئة الله وحده فما شاء كان ومـــا لم يشـــأ لم يكن وما سبق به علمه وحكمه فهو حق واقع . " (١) " وهذا هـــو عمـــوم التوحيد الذى لا يقوم إلاّ به ، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعـــون عـــلى أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وخالفهم فى ذلك من لـــيس مـــنهم فى هذا الموضع ، وإن كان منهم فى موضـــع آخر ، فجوّزوا أن يكون فى الوجود ما لا يشاء الله وأن يشاءَ ما لا يكون . " (٢)

وهـــؤلاء هم المعتزلة الذين زعموا أن فى المخلوقات ما لا يتعلق به قدرة الله ومشيئته وخلقه كأفعال العباد . (٣)

وقـــد أُتِيَ المعتزلة فى هذه المسألة من جهة أنهم وحّدُوا بين المشيئة والإرادة والأمر والمحبة .

قـــال القاضى عبد الجبار : " الإرادة والمحبـــة والرضـــا كلها من بـــاب واحد . " (٤) ولذلك تجد المعتزلـــة يقرنون بين الإرادة والكراهة على سبيـــل

---

(١) " رفع الشبهة " : (١٥٧) .

(٢) " شفاء العليل " : (٨٠) .

(٣) انظـــر : رسالة " أقوم ما قيل فى القضاء والقدر " لابن تيمية ضمن " مجموع الفتاوى " : (٨ / ٥٩)

(٤) " شـــرح الأصول الخمسة " : (٤٦٨) ، وانظر : ص (٤٦٧) ، و" القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ١٨٧) .

التقابل فى المعنى فى مواضع كثيرة . [1]

وعـلى ذلك فالمعتزلة عندهم أن كل ما أمر الله تعالى به تشريعاً فقد أراده بمعـنى أحـبه وشـاءه ، ومن ثم يكون وقوع المعاصى بدون إرادته التى هى مشيئته .[2]

وإذا كانـت المعـتزلة جعلـت الإرادة بمعنى الأمر التشريعى ، فقد وقف الأشـاعرة عـلى طـرف النقـيض منهم فجعلوا الإرادة بمعنى المشيئة العامة الكونية ، يقول الباقلانى : " اعلم أنه لا يجرى فى العالم إلا ما يريده الله تعالى ، وأنـه لا يؤمن مؤمن ولا يكفر كافر إلا بإرادة الله تعالى ، ولا يخرج مراد عن مـراده ، كمـا لا يخرج مقدور عن قدرته ... فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن ... إلا بإرادة الله تعالى وقضائه ومشيئته . " [3]

ويقول الغزالي : " اعلم أنها [الإرادة] متعلقة بجميع الحادثات عندنا ، من حيث إنه ظهر أن كل حادث فمخترع بقدرته ، وكل مخترع بالقدرة محتاج إلى إرادة تصـرف القـدرة إلى المقدور وتخصصها به ، فكل مقدور مراد ، وكل حادث مقدور ، فكل حادث مراد .

والشـر والكفـر والمعصية حوادث فهى إذاً لا محالة مرادة ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . " [4]

---

(١) انظر : " شرح الأصول الخمسة " : (٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٥٦) .

(٢) انظر : " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ٣٢٢) .

(٣) " الانصاف " : (١٥٧ ، ١٥٨) .

(٤) " الاقتصاد " : (٩٧) .

فالأشـاعرة وحـدوا بـين الإرادة والمشيئة والخلق ، والمعتزلة وحدوا بين الإرادة والمحبة والأمر . ثم اختلط عليهم جميعاً الأمر ، فظن الأشاعرة أن كل ما خلقه الله فقد أحبه ، وظن المعتزلة أن ما لم يأمر به الله تعالى فليس من خلقه .

ويوضـح ابن القيم رحمه الله تعالى المسألة وذلك بوجوب الفرق بن نوعي الإرادة – بعد العلم بكونها نوعين لا نوعاً واحداً – الكونية والتشريعية . فمن فرق بين النوعين أدرك المسألة ومن لم يفرق بينهما استعجمت عليه .

يقول ابن القيم : " الله سبحانه له الخلق والأمر ، وأمره سبحانه نوعان :

أمر كونى قدرىّ ، وأمر دينىّ شرعىّ ، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكـونى ، وكذلك تتعلـق بما يحب وبما يكرهه ، كله داخل تحت مشيئتـه ، كما خلق إبليس وهو يبغضه ، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعـال المسخـوطة له ، وهو يبغضهـا . فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله .

وأمـا محبـته ورضاه فمتعلقة بأمره الدينى وشرعه الذى شرعه على ألسنة رسـله ، فما وجد منه تعلقت به المحبـة والمشيئـة جميعاً ، فهو محبوب للرب واقع بمشيئته كطاعات المـلائكة والأنبياء والمؤمنين . وما لم يوجد منه تعلقت بـه محبـته وأمره الدينى ولم تتعلق به مشيئته . وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصـى تعلقـت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الدينى ، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته .

فلفظ المشيئـة كونى . ولفظ المحبـة دينى شرعي . ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هى المشيئة . وإلى إرادة دينية فتكون هى المحبة . " (1)

(1) " شفاء العليل " : (٨٨ ، ٨٩) .

وهذا التفريق بين نوعى الإرادة كما صاغه ابن تيمية وابن القيم معبرين به عن مذهب السلف هو ما ذهب إليه الكرمى فقد فرق بين الإرادة بمعنى المشيئة وبين الإرادة بمعنى المحبة ولم يخلط خلط المعتزلة والأشاعرة فى هذه المسألة حيث يقول : " يُفرَّق بين أمر التكوين وأمر التشريع ، ويفرق بين القدر والشرع ، ويُعلم أن الأقسام ثلاثة :

أمور قدرها الله تعالى ، وهو لا يحبها ولا يرضاهـــا . والأسباب المحصلة لها محرمة موجبة لعقابه .

وأمــــور شـــرعها يحبها ويرضاها ، لكنه لم يُعن العبد على حصولها . وأمور يحبها ويعينه عليها .

فالأول : إعانة . والثانى : عبادة . والثالث : جَمْعٌ بينهما . " (1)

فالكرمى – موافقاً للسلف – يذهب إلى أن كل ما فى الكون لا يخرج عن مشيئة الله العامة القدرية ، كما لا يخرج عن كونه مخلوقاً لله تعالى مع اعتبار أنْ ليس كلُّ ما خلقـــه فقد أحبه .

وعـــلى هـــذا التوفيق فلا وجه لاحتراز المعتزلة من نسبة القبائح إليه تعالى بذهـــابهم إلى تتريهه تعالى عن خلقها وإرادتها . كما أنه لا وجه أيضاً لاحتراز الأشـــاعرة مـــن نســـبة العجز إليه تعالى بذهابهم إلى أن كل مخلوق حتى الشر والكفر – فهو خالقه ومريده .

وهـــذه المشيئة العامة التى يثبتها الكرمى – مع جمهور المسلمين – لا تعنى الجـــبر . بل الكرمى لا يسيغ إطـــلاقَ هذا اللفظ فى حق الله تعالى ، ويتأيـــد

(1) "شفاء الصدور" : ل ١٤٢ ب من مجموع تونس .

لذلـك بقـول ابن تيمية رحمه الله : " إن لفظ [الجبر] لم يرد فى كتاب ولا سنة . فإن المشهور من معناه فى اللغة أن إطلاق لفظ الجبر والإجبار إنما يكون على ما يفعله المجبور مع كراهته كما يجبر الأب ابنته على النكاح .

وهـذا المعـنى منـتفى فى حق الله تعالى ؛ فإنه سبحانه لا يخلق فعل العبد الاختيارى بدون اختياره ، بل هو الذى جعله مختاراً مريداً . وهذا لا يقدر عليه إلاّ الله .

ولهـذا قال من قال من السلف رضى الله عنهم : الله أعظم وأجل من أن يجبر ، إنما يجبر غيره من لا يقـدر على جعله مختـاراً ، والله تعالى يجعـل العبد مختـاراً ، فلا يحتاج إلى إجباره . " (١)

ومـن ثم فالكرمى يثبت للإنسان مشيئته التى تدفع شبهة الجبر حين يقول : " قـال تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ (٢) أثبت تعالى بذلك مشيئة العـبد وأخـبر أنهـا لا تكـون إلاّ بمشـيئة الرب . وهذا صريح قول أهل السنـة . " (٣)

إلاّ أن هـذه المشيئة لا تنازع مشيئة الرب تعالى بحيث يكون فى ملكه ما لا يشاء كما قالت المعتزلة .

فقد " بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بتحقيق التوحيد وتجريده ، ونَفْي الشرك بكل وجه حتى فى الألفاظ كقوله عليه السـلام : ((لا يقولن أحدكم

(١) " رفع الشبهة " : (٢٠٠) .
(٢) سورة الإنسان : (٣٠) .
(٣) " رفع الشبهة " : (١٩٦) .

ما شاء الله وشاء محمد ؛ بل ما شـاء الله ثم شاء محمـد)) [1]

وقال لـه رجل : ما شـاء الله وشئـت . فقـال : ((أجعلتنى نداً لله . بل ما شاء الله وحده .)) [2] " [3]

* * *

---

(١) الحديـث رواه أحمد : (٥ / ٧٢) (٢٠٧١٣) ، وابن ماجة فى " الكفارات " ؛ باب/ الـنهى أن يقال ما شاء الله وشئـت (٢١١٨) ، والدارمى فى " الاستئذان "؛ باب/ فى النهى عن أن يقول : ما شاء الله وشاء فلان . (٢٦٩٩) . كلهم من حديث الطفيل بن سخبرة أخى عائشـة لأمها عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال فى الزوائد : رجال الإسناد ثقات على شرط البخارى . ورواه أبو داود (٤٩٨٠) عن حذيفة .

(٢) الحديـث حسن : رواه أحـمد : (١ / ٢١٤) (١٨٣٩) ، (١ / ٢٢٤) (١٩٦٤) ، (١ / ٢٨٣) (٢٥٦١) ، (١ / ٣٤٧) (٣٢٤٧) كلها عن ابن عباس بلفظ ((عدلاً)) بـدل ((نداً)) ، والنسائي فى " عمل يوم وليلة " كما فى " تحفة الأشراف " (٥/٢٦٩) ، وابن ماجـة فى " سننه " كتاب " الكفارات " باب/ النهي أن يُقال : ما شاء الله وشئت (٢١١٧) ، كلهم عن ابن عباس ، ومدار الإسناد على الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس .

قال محقق " سنن ابن ماجة " عقب الحديث : " فى الزوائد : فى إسناده الأجلح بن عبد الله ، مخـتلف فـيه . ضـعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد ، ووثقه ابن معين وسفيان والعجلي ، وباقي رجال الإسناد ثقات . "

قلت : وكذا ابن عدي قال : " له أحاديث صالحة ويروي عنه الكوفيون وغيرهم ، ولم أرَ له حديـاً منكراً مجاوزاً للحد لا إسناداً ولا متناً إلا أنه يُعد فى شيعة الكوفة ، وهو عندي مستقيم الحديـث صدوق . " " تهذيب التهذيب " (١/١٢٢) . وسكت عنه الذهبي فى " الكاشف " ، وقـال ابن حجر فى " التقريب " صدوق . وقد حسن الإمام الألباني هذا الحديث فى " صحيح الجامع " (٤٩٥) ، و" السلسلة الصحيحة " (١٠٩٣) .

(٣) " شفاء الصدور " : ل ٩٥ أ .

المرتبـــة الرابعـــة من مراتب القـــدر :
وهى خلـــق الأفعـــال

وهـــذه المســـألة هـــى أصل مسائل النزاع فى القدر بين الطوائف ، يقول الكـــرمى : " قد دلت الدلائل اليقينية على أن كل حادث فالله تعالى خالقه ، وفعل العبد من جملة الحوادث ، وكل ممكن يقبل الوجود والعدم ،فإن شاء الله كان وإن لم يشأ لم يكن . وفعل العبد من جملة الممكنات . " (١)

فمذهـــب أهـــل الحـــق أن الرب سبحانه منفرد بخلق المخلوقـــات ، ولا خـــالق ســـواه ، ولا مبدع غيره ، وكل حادث محدثُهُ (٢) . فأنواع الطاعات والكفر والفسوق واقعة بقضاء الله وقدره (٣).

وقد تطرف فى ذلك طائفة فجاءت ببدعة الجبر فقالوا : " العبد مجبور على أفعالـــه مقهـــور علـــيها ، لا تأثير له فى وجودها ألبتة ، وهى واقعة بإرادته واختياره .

وغلا غُلاقم فقالوا : بل هى عين أفعال الله ، ولا تنسب إلى العبد إلاّ على ســـبيل المجاز ، والله سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده فى النار على ما لم يكن للعبد فيه صنع ، ولا هو فعله ، بل هو محض فعل الله . " (٤)

---

(١) رفع الشبهـــة : (١٩٤) .
(٢) المرجع السابق : (١٨٣) .
(٣) المرجع السابق : (١٨٦) .
(٤) " شفاء العليـــل " : (٩١) .

وقد قابلت المعتزلة هذه الفرقة فنفوا خلق الله تعالى لأفعال العباد جملة " بل جعلوهم هم الخالقين لها ، ولا تعلق لها بمشيئته ، ولا تدخل تحت قدرته . " (١)

قـــال القاضي عبد الجبار : " الذين يثبتون القدر هم المجبرة ، فأما نحن فإنا ننفيه ، وننزه الله تعالى على أن تكون الأفعال بقضائه وقدرته . " (٢)

* * *

(١) " شفاء العليـــل " : (٩١) .

(٢) " شرح الأصول الخمسة " : (٧٧٥ ، ٧٧٦) .

نظريــة الكســب الأشعريــة

وقـد حـاول الأشـعرى التوفيق بين طرفى النقيض فجاء بفكرة الكسب للتوفيق بين مَحْقِ الفاعلية الإنسانية تماماً عند المجبرة وبين استقلالها عن الفاعلية الإلهية عند المعتزلة . (١)

" ومـلخص هذه المحاولة الفكرية أن الله سبحانه حين يرى من العبد عزماً وتصـميماً على اقتراف الفعل ، فإنه يخلق لـه الفعل ، ويمده فى نفس الوقت بالاستطاعة البشرية التى يقتصر دورها على اكتساب الفعل المخلوق .

فدور الاستطاعة فى فعلها ليس فى إحداثه من عدم ؛ أي : خلقه أو إيجاده ؛ وإنمـا هو اكتساب الفعل الذى يخلقه الله عز وجل للعبد حالة اختياره وعزمه وتصميمه عليه . " (٢)

وقد " عرف الأشاعرة الكسب بتعريفين :

الأول : أنـه مـا يقـع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به . أى : إرتباط ، وتعلق ، وإرادة ... يقع المقدور كالحركة ملتبساً ومصحوباً به من غير كون القادر – وهو العبد – ينفرد بذلك المقدور بل ومن غير صحة المشاركة ؛ إذ لا تـأثـير بوجه ما ، وإنمـا له مجرد المقارنة . والخالق الحق منفرد بعموم التأثـير .

(١) انظر : " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ٣٢٠) .
(٢) المرجع السابق : (٢ / ٣١٦) .

الثانى : أنه ما يقع به المقدور فى محل قدرته . أى : ارتباط ، وتعلق ، وإرادة ... يقـع المقدور كالحركة ملتبسـاً ومصحوبـاً به حال كون هذا المقـدور فى مـحل قدرته كاليد . " (١)

وقد انتقد السلف هذه المحاولة ، ورأوا أن كسب الأشاعـرة " لا حقيقـة لـه ، فإنه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل . ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ، ويقولون : ثلاثة أشياء لا حقيقة لها : طفرة النظام ، وأحوال أبي هاشم ، وكسب الأشعرى . " (٢)

فالأشـاعرة فى محاولـتهم هذه لم يجعلوا للقدرة أثراً فى المقـدور إلاّ مجرد الاقـتران العادى ، " والاقتران العادى يقع بين كل ملزوم ولازمه ، ويقع بين المقدور والقدرة ، فليس جعل هذا مؤثراً فى هذا بأولى من العكس . " (٣)

وهذا يجرنا إلى بحث مسألة : قدرة الإنسان وتأثيرها فى الفعل .

---

(١) " شرح جوهرة التوحيد " : (١٢٤) .

(٢) " أقوم ما قيل فى القضاء والقدر " : ضمن " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٢٨) ، وانظر : " شفاء العليل " : (٩١) ، و" رفع الشبهة " : (١٨٩) .

(٣) " أقوم ما قيل فى القضاء والقدر " : ضمن " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٢٨) ، وانظر : " رفع الشبهة " : (١٨٩) .

القـــدرة والاستطـــاعـــة

يذهـــب الأســـتاذ الدكتور فاروق الدسوقى إلى عدم جواز استعمال لفظ القدرة فى حق الإنسان قائلاً : " لا نوافق المعتزلة بعامة ، والقاضى عبد الجبار بخاصـــة على استخدام لفظ القدرة للدلالة على شبه الاستطاعة للإنسان ؛ لأن القرآن الكريم لم ينسب القدرة إلاّ لله عز وجل ، وينسب للإنسان استطاعة [(١)]

ولعل هذا الرأى منه نوع تأثر بالمذهب الأشعرى فى هذه المسألة .

فإن القرآن الكريم والسنة المطهرة قد تواردا على استعمال لفظ القدرة فى حق الإنسان . قال تعالى : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ** ﴾ [(٢)]

وقـــال صـــلى الله علـــيه وسلم : ((إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام))[(٣)]

وقـــد أثبت الكرمى القدرة صفة للإنسان بناءً على التفرقة بين نوعى الفعل الاضـــطرارى والاختيارى ، وهو الدليل العقلىالذى جرى عليه المتكلمـــون فى إثبـــات القـــــدرة فقـــال : " الفرق بين الأفعال الاختيارية الواقعة عن

---

(١) " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ١٥٥) هامش .

(٢) سورة المائدة : (٣٤) .

(٣) الحديـــث : رواه مســـلم فى كتاب " الأيمان " ؛ باب/ صحبة المماليك : (٥ / ٢١٠) ، وأبـــو داود فى " الأدب " ؛ باب/ فى حق المملوك (٥١٥٩) ، والترمذى : فى " البر والصلة " ؛ بـــاب/ الـــنهى عن ضرب الخدام وشتمهم (١٩٥٥) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وانظر فى صحة استعمال " القدرة " فى حق الإنسان : " مجموع الفتاوى" : (٨ / ١٢ – ١٥) ، ومادة " قدر " من " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن " ، و" المعجم المفهرس لألفاظ الحديث " .

قصد ، والأفعال الاضطرارية كحركة النبض والمرتعش والواقع من شاهق ... أمـــر اضطرارى لا ينازع فيه أحد من أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق فى الدين . " (١)

وقـــد أثبت هذه القدرة جمهور المسلمين ؛ بل جمهور العقلاء حاشا الجبرية الخالصة المشار إليها آنفا ، وهو قول ينسب للجهم .

" وقـــد قرر معظم المعتـــزلة أن الاستطاعة البشرية قوة للإنسان على فعل الضـــدين من الأفعال ؛ وذلك تأكيداً لاستقلالها عن القدرة الإلهية أو أى مؤثر طبـــيعى آخـــر ، ونتيجة لقولهم كذلك بأنها سابقة على الفعل المختار ، فهى اســـتطاعة عـــلى الخير والشرّ جميعاً ." (٢)، ولأنه " يلزم على القول بمقارنتها بالمقدور تكليف ما لا يطاق ، وذلك قبيح ومن العدل ألاّ يفعل القبيح . " (٣)

ومـــن العجيـــب حقاً أن المعتزلة إذْ يقولون باستقلال القدرة الإنسانية عن القدرة الإلهية – إذ يقولون ذلك يصفون القدرة الإلهية بالعجز والقيد . يقول القاضى عبد الجبار : " نحن إذا قلنا : إنه تعالى مريد . فلا نعنى به كونه قادراً ، ولا عالماً . لأنه قد يريد مالا يقدر عليه ، ويقدر على مالا يريده . " (٤) .

---

(١) " رفع الشبهة " : (٩٨) .

(٢) " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ١٥٣) .

(٣) " شـــرح الأصول " : (٣٩٠) ، وانظر : " المقالات " : (٢ / ١٠٣) ، و" الملل والنحل " (١ / ٥٢ ، ٥٥ ، ٧١ ، ٨١) .

(٤) " شرح الأصول " : (٤٣٤) ، وانظر : " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ١٣٧ – ١٤٠) .

أمــا الأشــعــرى – ومن وافقــه – فقد ذهب إلى أن الاستطاعـــة مع الفعل للفعل [1] .

إذ " لمــا ثبت أن القدرة الحادثة لا تبقى ترتب على ذلك استحالة تقدمها عـــلى المقـــدور ، فإنها لو تقدمت عليه لوقع المقدور مع انتفاء القدرة ، وذلك مستحيل . " [2] وهى لا تتعلق إلاّ بمقدور واحد [3] ، وليست استطاعة للفعل وضده أو على الفعل والترك .[4]

وقـــد بـــين الكـــرمى أن كلاً من المعتزلة والأشاعرة رأى نصف الحقيقة ، وأغمض عينيه عن النصف الآخر . فرأت المعتزلة القدرة السابقة التى يتعلق بها التكليف ، ورأت الأشاعرة القدرة المقارنة التى يكون بها الكسب .

يقـــول الكرمى : " والصواب الذى عليه أئمة السلف أنَّ القدرة نوعان : نـــوع مع الفعل مقارن له . ونوع مصحح للفعل ، يمكن معه الفعل والترك ، وهذه هى التى يتعلق بها الأمر والنهى ، وتحصل للمطيع والعاصى ، وتكون قبل الفعل ، وتبقى إلى حين الفعل ." [5]

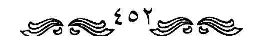
(١) " اللمع " : (٩٢) ، وانظر : " الانصاف " (٤٦) ، و" الاقتصاد " (٨٥) ، و" شرح الجوهرة " : (١٢٣) .

(٢) " الإرشاد " للجوينى : (١٩٨) .

(٣) المرجع السابق : (٢٠١) .

(٤) انظر : " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ٣١٦) .

(٥) " رفع الشبهة " : (٢١٢) ، وانظر : " الفصل " : (٣ / ٢١) ، ورسالة " أقوم ما قيل فى القضاء والقدر " : ضمن " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٢٩) ، و" منهاج السنة " : (١ / ٢٧٣) ، و" شرح الطحاوية " : (٤٣٢ ، ٤٣٣) .



وقد ذهب الكرمي – ومذهبه هنا هو مذهب السلف – إلى أن هذه القدرة صالحة للضدين على سبيل البدل ، فقال : " قولنا : قادر على الفعل والترك . أى : يقدر أن يفعل فى حال عدم الترك ، ويقدر أن يترك فى حال عدم الفعل . فقول القائل : إن شاء فعل وإن شاء ترك . هو على سبيل البدل . " (١)

وإذا كـــان موقـــف المعـــتزلة من القدرة وتأثيرها واضحاً جلياً حتى إنهم ليجعلون لقدرة الإنسان استقلالية عن القدرة الإلهية .

فما موقف الأشاعرة فى هذه المسألة ؟

تقدم فى تعريف الكسب عند الأشاعـــرة أن وظيفة القدرة الحادثة هى مجرد الاقتران بالفعل .

يقـــول الجوينى : " الوجه : القطع بأن القدرة الحادثة لا تؤثر فى مقدورها أصلاً . " (٢)

إلاّ أن الجويـــنى رجع فى ((النظامية)) عن هذا القول إلى أن لها نوع تأثير فقـــال : " فى المصير إلى أنه لا أثر لقدرة العبد فى فعله قطع طلبات الشرائع ، والتكذيـــب بما جاء به المرسلون ... فلزم المصير إلى أن القدرة الحادثة تؤثر فى مقدورها . " (٣)

والـــذى اســـتقر علـــيه المذهب نفى هذا التأثير . يقول شارح الجوهرة : " وبالجملـــة : فليس للعبد تأثير ما . فهو مجبور باطناً مختار ظاهراً . فإن قيل :

---

(١) " رفع الشبهة " : (٢٠٣) .

(٢) " الإرشاد " : (١٨٩) .

(٣) " النظامية " : (٣٠ – ٣٢) ، وانظر : " الملل والنحل " : (١ / ٩٨) .

إذا كـــان مجبوراً باطناً ؛ فلا معنى للاختيار الظاهرى ، لأن الله قد علم وقوع الفعل ولابد ، وخلق القدرة عليه .

أجيـــب : بأنـــه تعـــالى لا يُســـأل عما يفعل ... فالعبد مجبور فى صورة مختار . "(1)

ولذلـــك فالأشـــاعرة – على الأقل متأخروهم – ينفون السببية تماماً حتى لـــيجوز عـــندهم أن يَغرِق المرء فى الصحراء فيصيرون بذلك أشد جبرية من الجبرية الخالصة .

يقـــول شارح الجوهـــرة : " قال شاعرهـــم [الجـــبرية] مـــورداً على أهـــل السنـــة [يعني – عنده – الأشاعـــرة] .

ما حيلة المـــرء والأقـــدار جارية ... عليـــه فى كل حال أيهـــا الرائى

ألقاه فى اليـــم مكتوفـــاً وقال له ... إيـــاك إيـــاك أن تبتـــل بالمـــاء

وأجابه بعض أهل السنة [يريد : الأشاعرة] :

إن حفّه اللطف لم يمسسه من بلل ... ولـــم يبـــال بتكتيـــف وإلقـــاء

وإن يكن قدر المـــولى بغرقتـــه ... فهو الغريق ولو أُلقِي بصحـــراء "(2)

بـــل إن الأشاعرة ليذهبون فى نفى تأثير القدرة ، بل نفى السببية عموماً – يذهـــبون فى ذلك كل مذهب ، حتى إنهم ليكفرون من يعتقد تأثير الأسباب فى مسبَّباتها .

(1) " شرح الجوهرة " : (١٢٤) ، وانظر : " رفع الشبهة " : (٢٠٦) .
(2) " شرح الجوهرة " : (١٢٥) .

قال شارح " الجوهرة " : " فمن اعتقد أن الأسباب العادية كالنار والسكين والأكـل والشـرب تؤثر فى مسبباها كالحرق والقطع والشبع والرى بطبعها وذاها فهو كافر بالإجماع . أو بقوة خلقها الله فيها ففى كفره قولان ؛ والأصح أنه ليس بكافر ؛ بل فاسق مبتدع ، ومثل القائلين بذلك المعتزلة القائلـون بأن العبد يخلـق أفعـال نفسه الاختيـارية بقدرة خلقها الله فيه ، فالأصح عدم كفـره . " (١)

ومن متوهم فى العقيدة :

والفعـل فى التأثـير ليـس إلا للواحد القهار جـلّ وعـلا

ومن يقـل بالطبـع أو بالعلـة فذاك كفر عند أهل الملـة

ومن يقـل بالقـوة المودعـة فـذاك بدعـى فلا تلتفـت (٢)

أمـا السـلف رحمهـم الله فإنهم يذهبون إلى أن لقدرة العبد تأثيراً فى فعله مـن جـنس تـأثير الأسباب فى مسبَّباها ، وليس لها تأثير الخلق والإبداع ، ولا وجودها كعدمها . " (٣)

" فـالقـدرة مع مقدورها كالسبب مع المسبـب ، والعلة مع المعلول ، والشـرط مع المشروط . فإن أُريد بالقدرة : القدرة الشرعية المصححة للفعل المتقدمة عليه ؛ فتلك شرط للفعل ، وسبب من أسبـابه ، وعلة ناقصة لـه .

---

(١) " شرح الجوهرة " : (١١٦) .

(٢) انظر : " منهج الأشاعرة فى العقيدة " : د / سفر الحوالى : (٢٥ ، ٢٦) .

(٣) " مـنهاج السنة " : (٢ / ٥٢ ، ٥٦) ، وانظر : " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٣٣) ، و" شفاء العليل " : (٢٤٩) ، و" لـوامع الأنوار " : (١ / ١٥١) .

وإن أريـــد بالقدرة : القدرة المقارنة للفعل ، المستلزمة له ، فتلك علة للفعل ، وسبب تام . " (١)

يقـــول الكرمي : " إن الأسباب وتأثيرها بمشيئة الله مما لا ينكر ، وإن كان الله تعالى هو خالق السبب والمسبب ، لاسيما وقد دلّ العقل والنقل والفطر ... عـــلى أن الـــتقرب إلى رب الأربـــاب وطلب مرضاته والإحســـان إلى خلقه مـــن أعظـــم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شرّ . " (٢)

* * *

(١) " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٣٣) .

(٢) " رفع الشبهة " : (١٥٢) .

تكليــف مالا يطــاق

يــتفرع عـــلى مسألة القدرة وتأثيرها مسألة التكليف بما لا يطاق وهل هو واقع فى الشرع أو لا ؟ .

ذهـــب جمهـــور الأشاعرة إلى جوازه ووقوعه فى الشرع . يقول الجوينى : " تكلـــيف مـــالا يطـــاق تكثر صوره ، فمن صـــوره تكليفُ جمعِ الضدين ، وإيقاعِ ما يخرج عن قبيل المقدورات .

والصـــحيـــح عندنا أن ذلك جائز عقلاً ، غير مستحيل !! والدليل على جـــواز تكليف المحال : الاتفاق على جواز تكليف العبد القيام مع كونه قاعداً حالة توجه الأمر عليه .

وقد أقمنا الدليل القاطع على أن القاعد غير قادر على القيام .

فإذا جاز كون القيام مأموراً به قبل القدرة عليه ، وإن كان ذلك غير ممكن فلا يبقى لاستحالة تكليف المستحيل وجه .

فإن قيل : القيام ممكن على الجملة بخلاف جمع الضدين . قيل : وقوع القيام مقدوراً من غير قدرة عليه مستحيل كجمع الضدين . " (1)

ومذهـــب الأشـــاعرة فى هـــذه المسألة مبنى على عدة أصول عندهم : أن الاستطاعة لا تصلح للضدين ، وأنها لا تكون إلا مقارنة للفعل وليست قبله ، وأنها نوع واحد .

---

(1) " الإرشاد " : (٢٠٣) ، وانظر : " اللمع " : (٩٨) ، و" الإحياء " : (١ / ١١٢) ، و" الاقتصاد " : (١٥١) ، و" مفاتيح الغيب " : (٧/ ١٥٢) .

هـذا بالإضافة إلى قولهم بالمشيئة العامة المجردة عن الحكمة والعلة ؛ بحيث يستوى فى حقها تكليف ما يطاق وما لا يطاق .

وكمـا رجـع الجوينى عن نفى تأثير القدرة فى مقدرها إلى القول بالتأثير ، رجع أيضاً فى هذه المسألة إلى القول بعدم وقوع تكليف مالا يطاق .(١)

أما المعتزلة فقد نفوا جواز التكليف بما لا يطاق ؛ لأن ذلك قبيح والله منزه عن ذلك .(٢)

وقـد بنوا مذهبهم فى هذه المسألة على مذهبهم فى أن القدرة قبل الفعل ، وأنها صالحة للضدين ، فضلاً عن تأثيرها تأثيراً حقيقياً فى المقدور .

وقد فصل الكرمى القول فى هذه المسألة فقال : " إن تكليف مالا يطـاق ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : مالا يطاق لعجز عنه بطريق الآلات ...

وثانيهما : تكليف مالا يطاق للاشتغال بضده مع سلامة الآلات ، كتكليف الكافـر الإيمـان مـع سـبق عـلم الله بأنه لا يؤمن . والتكليف بهذا واقع بالاتفاق . " (٣)

لكـن الكرمى لا يرى تسمية هذا الأمر تكليفاً بما لا يطاق حيث يقول : " هل يسمى هذا تكليف مالا يطاق لكونه تكليفاً بما انتفت فيه القدرة المقارنة

---

(١) انظر : " النظامية " : (٤٢) . وقارن موقفه فى " الإرشاد " .

(٢) انظر : " شرح الأصول الخمسة " : (٣٩٠) .

(٣) " رفع الشبهة " : (٢١٥) .

للفعـــل ؟ منهم من يقول : هذا لا يدخل فى تكليف مالا يطاق . قال ابن تيمية وهو الأشبه ... " [1]

وقـــد اختلف موقف الكرمى تجاه هذه المسألة – شأن الجوينى – فقال فى أول أمره بجواز تكليف مالا يطاق فى كتابه ((البرهان)) ، ثم رجع عنه فى رفع الشـــبهة فقـــال : " إن الله تعـــالى لم يكلف العباد إلاّ ما يطيقون لقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [2] وإنما كلفهم بما فى وسعهم وطاقتهم ، فـــإن العبد له قدرة وإرادة وفعل حقيقة ، يقدر به على فعل ما كلف به وعلى تركه . " [3]

وذلـــك الذى استقر عليه كل من الجوينى والكرمى هو مذهب السلف فى المسألة يقول ابن تيميـــة : " الاستطاعة الشرعية التى هى مناط الأمر والنهى لم يكلف الله أحداً شيئاً بدونها ، فلا يكلف مالا يطاق بهذا التفسير . وأما الطاقة الـــتى لا تكـــون إلاّ مقارنـــة للفعل ، فجميع الأمر والنهى تكليف مالا يطاق بهـــذا الاعتـــبار ، فإن هذه ليست مشروطة فى شيء من الأمر والنهى باتفاق المسلمين [4]. "

* * *

(١) " رفع الشبهة " : (٢١٦) .
(٢) سورة البقرة : (٢٨٦) .
(٣) " رفع الشبهة " : (٢١٨) .
(٤) " أقوم ما قيل فى الحكمة والتعليل " ؛ ضمن " مجموع الفتاوى " : (٨ / ١٣٠) .

الحكمـــة والتعليـــل

" ذهبـــت الأشـــاعرة إلى القول بأن أفعال الله تعالى ليست معللة بغاية أو غرض . وهو قد خلق المخلوقـــات ، وأمر ونهى لا لعلة ولا لداع ولا باعث ، بل فعل كل ذلك لمحض المشيئة . " (١)

" وفهـــم الفعـــل الإلهـــي على هذا النحو اللاغائى كان سائداً فى المذهب الأشعرى كله ابتداء من أبي الحسن فى الإبانة واللمع ، والباقلانى فى التمهيد ، والجويـــنى فى الإرشاد ، والبغدادى فى أصـــول الدين ، والرازى فى المحصـــل والأربعـــين والمطالب العالية ونهاية العقـــول ، والشهرستانى فى نهاية الأقدام ، وكذا الغزالى فى الإحياء ." (٢)

أمـــا الســـلف فقـــد ذهبوا إلى أن الله تعالى يفعل ما يفعله بأسباب وحكم وغايات محمودة (٣)

" فكـــل ما خلقـــه الله فله فيه حكمة كما قال : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٤) وقال : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (٥) وهو سبحانه غنى عـــن العـــالمين . فالحكمـــة تتضمن شيئين : أحدهما ؛ حكمة تعود إليه يحبها

---

(١) " قضية الخير والشر " لأستاذنا الدكتور الجليند : (١٩٠) .

(٢) المرجع السابق : (١٩١ ، ١٩٢) .

(٣) انظـــر : " شـــفاء العلـــيل " : (٣٤٦) ، و" شرح الطحاوية " : (١١٦) ، و" لوامع الأنوار " : (١ / ٢٨٣) .

(٤) سورة النمـــل : (٨٨) .

(٥) سورة السجدة : (٧) .

ويرضـــاها . والثانى : إلى عباده . هى نعمة عليهم يفرحون بها ، ويلتذون بها ، وهذا فى المأمورات وفى المخلوقات .

أمـــا فى المأمورات : فإن الطاعة عاقبتها سعادة الدنيا والآخرة ؛ وذلك مما يفـــرح به العبد المطيع ، فكان فيما أمر به من الطاعات عاقبة حميدة تعود إليه وإلى عباده . ففيها حكمة له ورحمة لعباده . " (١) .

وقـــد أثبت الكرمى الحكمة والتعليل فى أفعال الله تعالى ، بل جعلها أعظم المســـائل الإلهية ، فقـــال : " مسألـــة غايـــة أفعال الله ونهاية حكمته مسألة عظيمة . لعلها أجل المسائل الإلهية . " (٢)

وإذا كان بعض المخلوقات فى الحياة الدنيا يقع عليه بعض الضرر فى سبيل تـــوازن الـــنظام العـــام للكـــون ، فذلك يناسب نظام دار الابتـــلاء ، يقول الكـــــرمى : " هو تعالى يفعل ما له حكمة متعلقة بعموم خلقه ؛ وإن كان فى ضمن ذلك مضرة لبعض الناس ، كما أنه تعالى ينـــزل المطر لما فيه من الحكمة والرحمـــة والنعمة العامة ، وإن كان فى ضمن ذلك تضرر بعض الناس بسقوط منـــزله ، وانقطاعه بسفره ، وتعطيل معاشه . " (٣)

" والحكمـــة فى ... الحوادث .. ليس على الناس معرفة أسرارها الحقيقيـــة ويكفيهم التسليم لمن قد علم أنه بكل شيء عليم ، وأنه أرحم الراحمين ." (٤)

---

(١) " أقوم ما قيل فى الحكمة والتعليل " : ضمن " مجموع الفتاوى " : (٨ / ٣٦) .
(٢) " رفع الشبهة " : (٢٢٨) .
(٣) المرجع السابق : (٢٣٣) .
(٤) المرجع السابق : (٢٣٧) .

" فالحيوانات كالكلاب ونحـــوها ؛ فإيلامها بالأمراض ونحوها ... لله تعالى فى هـــذا سرّ من الحكمـــة والعدل ، نوقن به ، ولا نعلم ما هو ، ولا كيف هو ... وأمـــا تعليل أفعاله كلها الجارية فى المكلفين وغيرهم فهذا مما لا سبيل إلى معرفته والوقوف على سرّ حقيقته ." (١)

وأخـــيراً :

نختم هذا الفصل بقول الأستاذ الدكتور فاروق الدسوقى : " التزم كل من المعـــتزلة والأشـــاعرة بموقف خاص بغية تقديس الله عن نقص ما . فبينما رأى المعـــتزلة وقـــوع المعاصى من العباد بأمره الكونى يؤدى إلى نسبة الشرّ إليه ، وبالـــتالى القـــول بالجـــبر ، ونسبة الظلم ، فآثروا أن ينفوا القدر لذلك . نجد الأشـــاعرة يرون القول بنفى القدر يؤدى من ناحية أخرى إلى نسبة العجز إلى الله تعـــالى حيـــث يقع فى الكون مالا يريده ، ومالا يأمر به ، فآثروا أن تكون مشيئته مطلقة ، فلا يقع شيء فى ملكه إلاّ ما يشاء حتى شرور العباد . " (٢)

وقد لخـــص الدكتور الدســـوقى مسألـــة القـــدر كلها – محقاً – بكلمة واحـــدة هى الابتلاء تصديقاً لقول الله تعـــالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (٣)

" فـــإن الله ســـبحانه خلق الناس للابتلاء ، وإن كلاًّ منهم يدخل التجارب الابتلائية التى يمتحن فيها على الأرض جبراً ، ثم يترك ليتصرف فيها اختياراً .

---

(١) " رفع الشبهة " : (٢٣٨) .

(٢) " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ٣٢٤) .

(٣) سورة الملك : (٢) .

وإن الله عندما يخلق للعبد المعصية التى اختارها يخلقها له لابتلائه كما يخلقها أيضاً لابتلاء غيره ...

إن حقـيقـة الابـتـلاء هـى التى تربط بين جانبى الجبر والاختيـار فى الإنسان ، وتفسر وجودهما وتعللهما التعليل المقبول عقلاً .

وحقـيقـة الابـتـلاء هى التى تفسر وجود الشرّ على الأرض تفسـيراً مرضياً معقولاً ومقبولاً . " [1]

* * *

(١) " القضاء والقدر فى الإسلام " : (٢ / ٣٤٤) .

مبحـث " النفـس والـروح "

يرتـبط البحـث فى مسألة النفس والـروح بقضايا البعث والنشـور ، والحياة والموت ، والنعيم والعذاب فى البرزخ وغيره .

وقـد اخـتلف الناس فى الروح والنفس والحياة ، وهل الروح هى الحياة أو غيرهـا ؟ وهـل الـروح جسم أم لا ؟ على قريب من خمسة عشر قولاً ؛ ذكرها الأشعرى فى مقالاته .[1] ناقشها جميعها تقريباً ابنُ حزم فى الفصل [2] ، وقد أفرد هذه المسألة بعض العلماء فى مصنف خاص منهم ابن القيم فى كتاب ((الروح)) له .

وقـد ذهب أبو الهذيل [3] فى طائفة إلى تغاير النفس والروح [4] ، وقالوا : للإنسان حياة ونفس وروح ، فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ، ولم تفـارق الجسد ؛ بل خرجت كحبل ممتد له شعاع ؛ فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه ، وتبقى الحياة والروح فى الجسد ، فبه يتقلب ويتنفس ، فإذا حُرّك رجعت إليه أسرع من طرفة عينه . [5]

---

(١) انظر : " المقالات " : (٢ / ٢٨ – ٣٠) .
(٢) انظر : " الفصل " : (٥ / ٤٧ – ٥٨) .
(٣) محمد بن الهذيل البصرى العلاف ، رأس المعتزلة ، (؟ – ٢٢٧ هـ) وقد جاوز التسعين . انظر : " السير " : (١٠ / ٥٤٢) .
(٤) انظر : " المقالات " : (٢ / ٣٠) .
(٥) انظر : " الروح " لابن القيم : (٢٩٢) .

وذهب النظام فى طائفة إلى أن النفس والروح شيء واحد [1] ، وإلى ذلك ذهــب ابن حزم [2] ، وابن تيمية [3] ، وحكاه ابن القيم مذهباً للجمهور [4] ، وقال :

" أما الروح التى تتوفى وتقبض فهى روح واحدة وهى النفس " [5] .

أما الغــزالى فقد ذكر أن النفــس والــروح والقلــب والعقــل قد يراد بها جميعاً معنى واحد " وهو حقيقة الإنســان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنســان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب " [6] .

وقد يفرق بينها جميعاً ؛ فيكون القلب " اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر . " [7] ، أما الروح فهى " جسم لطيف منبعه تجويف القلــب الجســمانى فينشــر بواســطة العــروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن " [8] ، وتكون النفــس " المعنى الجامع لقــوة الغضب والشهــوة فى

---

(١) انظر : " المقالات " : (٢ / ٢٨) .

يقول الدكتور أبو ريده فى كتابه " النظام وآراؤه الكلامية " : " قيل للنظام : أي أمور الدنيا أعجــب ؟ فقال : الروح . والروح عنده جسم لطيف وهي جزء واحد غير مختلف ولا متضاد ليست نوراً ولا ظلمة ، وهو لا يميز بينها وبين النفس ولا بينها وبين الحياة . " ص(١٠٠) .

(٢) انظر : " الفصل " : (٥ / ٤٧) .

(٣) انظر : " المجموع " : (٤ / ٢٢٦) .

(٤) انظر : " الروح " : (٢٩٠) ، وانظر : " اللوامع " : (٢ / ٢٩) .

(٥) " الروح " : (٢٩٣) . وانظر : منه صفحات : (١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٤٠) .

(٦) " الإحياء " : (٣ / ٣) . وانظر أيضاً : ص (٤) .

(٧) " الإحياء " : (٣ / ٣) .

(٨) المرجع السابق : نفس الصفحة .

الإنسان " [١] ، ويكون العقل " العلم بحقائق الأمور " [٢]

وجمهور الصوفية على التفرقة بين النفس والروح . قال السهروردى [٣] : " قـيل : النفس لطيفة مودعة فى هذا القالب ، وهى محل الأخلاق المذمومة ، والروح لطيفة مودعة فى هذا القالب ، و هى محل الأخلاق المحمودة ، كما أن البصـر محـل الرؤية ، والأذن محل السمع ، والأنف محل الشم . وقيل الروح معـدن الخـير ، والنفس معدن الشرّ ، والعقل جيش الروح ، والهوى جيش النفس " [٤]

ومذهب الرازى فى هذه المسألة قريب من مذهب الغزالى والصوفية " ذلك أنه فى بعض المواضع لا يفرق بين النفس والروح ، فيستعمل لفظ الروح ويريد به النفس .. ومن ناحية أخرى نعثر لابن الخطيب فى كتاب ((لوامع البينات)) على تفرقة بين النفس والروح ؛ هى فى الواقع تفرقة صوفية " [٥]

وقد ذكر الكرمى قول المتكلمين المشار إليهما آنفاً فى النفس والروح هل هما شيئان أم شيء واحد ؟ ثم اختار أنهما شيء واحد متابعة للجمهور ، فقال : "... فإذا فرّعنا على قول الأكثر ، وهو أن الروح والنفس شيء واحد .. " [٦]

---

(١) " الإحياء " : (٣ / ٤) .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد ؛ السهروردى ، الشافعى الصوفى (٤٩٠ – ٥٦٣ هـ) . انظر : " السير " : (٢٠ / ٤٧٥) .

(٤) " آداب المريدين" : ٦١ تحقيق : فهيم محمد شلتوت . دار الوطن العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ

(٥) " الرازى وآراؤه الكلامية " : (٤٨١ ، ٤٨٢) .

(٦) " البهجة " : ل ٦٨ ب .

ماهيَّـــةُ النفـــس

اختلف المتكلمون فى طبيعة النفس هل هى جسم أو عرض أو جوهر مجرد ، أو أنها مجرد اعتدال الطبائع ، أو ينبغى التوقف عن البحث فى ما هيتها .

فذهـــب الـــنظام [(١)] والجـــبائى [(٢)] إلى أنها جسم [(٣)] ، وذهب الأصم [(٤)] إلى أن : " النفس هى هذا البدن بعينه ؛ لا غير ، وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد لحقيقة الشيء ؛ لا على أنها معنى غير البدن . " [(٥)]

وقـــال ابن حزم : " إن النفس جسم طويل عريض عميق ، ذات مكان ، عاقلـــة ممـــيزة ، مصـــرفة للجســـد . " [(٦)] " وهى غير الجســـد ، وإنما هى العاقلـــة المخاطبة المكلفة " [(٧)] " وهى جسم علوى فلكى ، أخف من الهواء ، وأطلب للعلوّ ، فهى تخفف الجسد إذا كانت فيه . " [(٨)]

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام البصرى المتكلم ، شيخ الجاحظ (؟ - توفى سنة بضع وعشرين ومائتين) . انظر : " السير " : (١٠ / ٥٤١) .

(٢) أبو على محمد بن عبد الوهاب البصرى شيخ أبي الحسن الأشعرى فى الاعتزال (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ) . انظر : " السير " : (١٤ / ١٨٣) .

(٣) " المقـــالات " : (٢ / ٢٨) ، وقـــال د / أبـــو ريدة : " والروح عنده [النظام] جسم لطيف .. " "النظام وآراؤه " ص (١٠٠) .

(٤) أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان ، شيخ المعتزلة ، (؟ - ٢٠١) . " السير " : (٤٠٢/٩)

(٥) " المقالات " : (٢ / ٢٩) .

(٦) " الفصل " : (٥ / ٤٧) .

(٧) المرجع السابق : (٢ / ٢٩) .

(٨) المرجع السابق : (٥ / ٥٠) .

وقـــد عـــرض الكرمى اختلاف المتكلمين فى ماهية النفس ؛ هل هى هذا الجسد كما قال الأصم ؟ أو هى شيء آخر وراءه ؟

ثم رجح أنها غير هذا الجسد " بدليل أن هذا الهيكل يلحقه الفناء بالموت ، والنفس باقية لا يلحقها الفنـــاء ، وأن الـــروح تنعـــم أو تعذب على ما أخبر به الصـــادق المبلـــغ عن اللـــه تعالـــى . " (١)

وإذا كانت الروح شيئاً آخر وراء الجسد فما هى ؟ يقول الكرمى :

" وإذا قلـــنا إن الـــنفس وراء هذا الهيكل ، ففى حقيقتها للعقلاء أقوال ، فقـــيل : إنهـــا جوهـــر لطـــيف نورانى مشابك لهذا البدن ، وهو قول الإمام الفخـــر . (٢) ونحـــوه لإمام الحرمين ؛ وهو أنها جوهر جسمانى نورانى شريف حاصل فى البدن ، سار فيه سريان السم ، وأنها جسم لطيف مشتبك بالأجسام اشتبـــاك الماء بالعـــود الأخضـــر . (٣) قال الإمـــام النـــووى : وهو أصح ما قيل فيها . (٤)

---

(١) " بهجة الناظرين " : ل ٦٨ ب .

(٢) انظر : " الفخر الرازى وآراؤه " : (٤٧٩ ، ٤٨٠) .

(٣) انظـــر : " الإرشاد " : (٣١٨) . وقال د / أبو ريدة عازياً هذا المعنى إلى النظام أيضاً : " أمـــا علاقة الروح بالبدن فهي علاقة المداخلة ، أي إنها تشابك البدن بحيث يكون [كل هذا فى كـــل هـــذا] كمـــا تداخـــل المائية الورد والدهنية السمسم ومع أن النظام كان يقول بهذا التداخل .. " ص (١٠١) .

(٤) انظر : " شرح صحيح مسلم " ؛ فى كتاب " الجنائز " ؛ باب/ ما يقال عند الميت : (٣ / ٢٥٠) ، عند شرح قوله ﷺ : ((إن الروح إذا قبض تبعه البصر)) .

وقــيل : إنها ليست جسماً ولا جسمانية ، بل هى جوهر مجرد غير حالٍ فى البدن غير متحيز ، ولا حال فى المتحيز ، متصرف فى البدن تصرف التدبير ، وانقطاع تصرفه عنه هو الموت . وهو مذهب جمهور الفلاسفــة . (1) واختاره الغــزالى (2) والحليمى (3) وجمع من مشايخ الصوفية . " (4)

وبعد أن عرض الكرمى الأقوال فى حقيقة الروح اختار الإمساك عن تعيين حقيقتها ، واستأنس لمذهبه بما رُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه كان لا يفسر الروح (5) من قوله تعالى : ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ (6)

---

(1) انظــر : " المقــالات " : (٢ / ٢٩) . وقــد نســبه الأشعــرى إلى أرسطاطالـــس ، و" الفصل " : (٥ / ٤٧) ، و" الملل والنحل " : (٢ / ٢٢٢) .

(2) انظــر : " الإحياء " : (٤ / ٤٩٤) . و" الحقيقة فى نظر الغزالى " للدكتور سليمان دنيا ط ٤ ، دار المعارف سنة ١٩٨٠ م : ص (٢٥٨) .

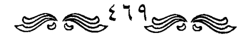
ومذهــب الغــزالى أن الــنفس والروح والعقل والقلب هى حقيقة الإنسان ، وهى المدرك المخاطــب المحاسب ، وقد اختلف موقفه فى الكلام عن حقيقة الروح فقال بوجوب التوقف عن كشف سرها حتى وإن اطُّلع عليه . [الإحياء : ٤ / ٤٩٥] إلاّ أنه عرفها فى معارج القـــدس بأنها " جوهر لا جسم ولا عرض فى جسم ، ولا وضع له ، ولا أين له فيشار إليه ... فثبت بهذا وجــود الــنفــس ، وثبــت على الجملة أنه جوهــر ، وثبت أنه منــزه عن المادة والصــورة الجسمانية " [بواسطة الحقيقة عند الغزالى : ٢٥٨] .

(3) أبــو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الشافــعى المتكلم المحــدث (٣٣٨ – ٤٠٣ هـــ) . " الســير " : (١٧ / ٢٣١) .

(4) " البهجة " : ل ٦٨ ب .

(5) انظر : " تفسير القرطبى " : (١٠ / ٣٢٣) ، و" ابن كثير " : (٣ / ٦١) ، حيث رويا عن قتادة قوله : " ... وكان ابن عباس يكتمه " .

(6) سورة الإسراء : (٨٥) .



فقال : " قال بعضهم : وهذه الأقوال كلها اجتهادية ، والصحيح الوقف ، لأن ذلك لا يُعلم إلاّ بالتوقيف ، ولم يرد فيه ما يفسر حقيقتها ، قال تعالى لنبيه حـين سـأله الـيهود : ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ فوجب المصير إليه . وقد أمسك عن الكلام فيها كثير من العلماء . قال السيوطى فى شرح الصدور بشـرح حـال الموتـى والقبور : وهذه الطريقة هى المختارة ... وعلى هذا ابن عباس ، وأكثر السلف . " (١)

ولـيس الأمر كما قال الكرمى رحمه الله ، فإن السلف لم يتوقفوا فى تفسير معنى الروح ، وإنما كان توقفهم فى تعيين المراد بها فى الآية وتحديده .

قال ابن القيم :

" وأكـثر السلف ؛ بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بـنى آدم ؛ بـل هو الـروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامـة مع الملائكـة ، وهو ملك عظيم " .(٢)

وقـد " أجمـع أهل السنة على أن الروح محدثة مخلوقة " (٣) ، وممن حكى الإجماع ابن تيمية (٤) وابن القيم وعقب ذلك بقوله :

" هذا معلـوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله

---

(١) " البهجة " : ل ٦٩ أ .

(٢) " الروح " : ص (٢٠٣) .

(٣) " البهجة " : ل ٨٦ ب .

(٤) انظر : " مجموع الفتاوى " : (٤ / ٢١٦) .

وحده الخالــق ، وكل ما سواه مخلوق له ... حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكــتاب والسنة فزعم أنها غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله ، و أمره غير مخلــوق [1] ، وبــأن الله تعالى أضافها إليه [2] ، كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده . " [3]

وقد ذكر ابن تيمية من قال بقدم الروح من الطوائف ، ثم بين فساد قولهم قائــلاً :

" واعــلم أن القــائلين بقدم الروح صنفان ، صنف من الصابئة الفلاسفة يقولون : هى قديمة أزليــة ، لكن ليست من ذات الربّ كما يقولون ذلك فى العقول والنفوس الفلكية .

ويــزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هى الملائكة ، وصنف من زنادقة هذه الأمة وضلالها من المتصوفة والمتكلمة والمحدثة يزعمون أنها من ذات الله ، وهؤلاء أشر قولاً من أولئك ، وهؤلاء جعلوا الآدمى نصفين : نصف لاهوت ؛ وهو روحه . ونصف ناسوت ؛ وهو جسده : نصفه رب ، ونصفه عبد .

وقد كفر الله النصــارى بنحو هذا القول فى المســيح . فكيــف بمن يعم ذلك فى كل أحــد ؟ ! " [4]

---

(١) يعنى قوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

(٢) فى نحــو قولــه تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ [السجدة : ٩] .

(٣) " الروح " : (١٩٣ ، ١٩٤) .

(٤) " مجموع الفتاوى " : (٤ / ٢٢١ ، ٢٢٢) .

وكما شذت طائفة فقالت بقدم الروح وأزليتها على النحو الذى أسلفنا ، كذلك فهمت طائفـــة من نحو قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١) وقولــــه تعـــالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (٢) أن الروح تفنى وتعدم بالكلية (٣) .

وظاهــر هـــذا القـــــول يتـــنافى مع نصوص البرزخ ، وما فيه من نعيم وعذاب ؛ إلاّ أن يُستفصل فى تحديد المراد بموت الروح .

قـــال ابن حزم : " فإن سأل سائل : أتموت النفس ؟ قلنا : نعم . لأن الله تعـــالى نص على ذلك فقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وهذا الموت ؛ إنما هـــو فراقها للجسد فقط . برهان ذلك قول الله تعالى : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ (٤) وقولـــــه تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (٥) فصح أن الحياة المذكـــورة إنما هى ضم الجسد إلى النفس ، وهو نفخ الروح فيه . وأن الموت المذكـــور ؛ إنمـــا هو التفريق بين الجسد والنفس فقط ، وليس موت النفس مما يظنه أهل الجهل وأهل الإلحاد من أنها تعدم جملة ؛ بل هى موجودة ، قائمة كما كانت قبل الحياة الأولى . " (٣)

---

(١) سورة القصص : (٨٨) .

(٢) سورة الأنبياء : (٣٥) .

(٣)انظر : " الروح " : (٤٩) .

(٤) سورة الأنعام : (٩٣) .

(٥) سورة البقرة : (٢٨) .

(٣) " الفصل " : (٥ / ٥٦) . وانظر : " الروح " : (٤٩) ، و" مجموع الفتاوى " : =

وقال فى موضع آخر :

" والنفس كذلك منتقلة من عالم الابتداء إلى عالم الانتهاء إلى عالم البرزخ إلى عالم الحساب إلى عالم الجزاء ، فتخلد فيه أبداً بلا نهايـــة . " (١)

ولذلك لم ينف الكرمى موت الروح ، وإنما نفى فناءها فقال : " الروح لا تفنى أصلاً ، ولا عند النفخ فى الصور . " (٢)

ولذلـــك فهـــى إمـــا منعمة أو معذبة فى البرزخ – وهو ما بين الموت إلى البعـــث – وقد حكى الكرمى الاختلاف فى نعيم القبر وعذابه " هل العذاب عـــلى الروح والجسد معاً ؟ أم على الجسد فقط ؟ المشهور أنه عليهما معاً ... [و] مذهـــب أهل السنة أن أرواح الموتى ترد فى الأوقات من عليين أو من ســـجين إلى أجسادهم فى قبورهم عند إرادة الله تعالى ، وخصوصاً ليلة الجمعة فيجلســـون ويـــتحدثون (٣) ، ويـــنعم أهل النعيم ، ويعذب أهل العذاب ... وتخـــتص الأرواح دون الأجســـــاد بالنعـــيم أو العذاب ما دامت فى عليين أو ســـجين ، وفى القبر يشترك الروح والجسد . " (٤) . والاختلاف فى عذاب القبر ونعيمه هل يكون على الروح والجسد معاً ؟ أو يكون على أحدهما دون الآخر ؟ فرع على إثبات عذاب القبر ونعيمه فى الأصل .

= (٤ / ٢٨٤) ، و" شرح الطحاوية " : (٣٩٥) .

(١) " الفصل " : (٥ / ٥٥) .

(٢) " البهجة " : ل ٨٦ ب .

(٣) نقـــل ابن القيم فى ذلك عدة آثار عن ابن أبى الدنيا فى كتابه " القبور " ، وإنما هى منامات وأقوال لبعض السلف ، ليس فيها حديث مرفوع . انظر : " الروح " : ص (١٠) .

(٤) " البهجة " : ل ٨٦ أ . وانظر : " الروح " : (٧٣ ، ٧٤) .

وجمهور المسلمـين على إثباته . قال أبو الحسن الأشعـرى ضمن حكايته جملـة قول أصحاب الحديث وأهل السنة : " ... ويقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها لأهل الكبائر من أمته ، وبعذاب القبر ... " (١)

وقال ابن تيمية : " أما أحاديث عذاب القبر ، ومسألة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم " (٢)

ولم يشـذ بنفى عذاب القبر إلاّ ما حُكى عن المعتزلة والخوارج من ذلك . قال الأشعرى :

" واخـتلفوا فى عـذاب القبر ، فمنهم من نفاه وهم المعتزلة والخوارج ، ومنهم من أثبته ، وهم أكثر أهل الإسلام . " (٣)

كما قال أيضاً فى ((الإبانة)) : " وأنكرت المعتزلة عذاب القبر " (٤)

هكذا قال فى المقالات والإبانة ، إلاّ أن القاضى عبد الجبار ينفى ذلك عنهم ويـبرىء المعتزلة من هذه النسبة حيث يقول : " فصل فى عذاب القبر : وجملة ذلـك أنه لا خلاف فيه بين الأمـة إلاّ شيء يحكى عن ضرار بن عمرو وكان مـن أصـحاب المعـتزلة ؛ ثم التحق بالمجبرة ؛ ولهذا نرى ابن الراوندى يشنع علينا ويقول : إن المعتزلة ينكرون عذاب القبر ، ولا يقرون به . " (٥)

---

(١) " المقالات " : (١ / ٣٤٧) ، وانظر : " الإبانة " : (٧٥) .
(٢) " مجموع الفتاوى " : (٤ / ٢٨٥) ، وانظر : " شرح الطحاوية " : (٣٩٩) .
(٣) " المقالات " : (٢ / ١١٨) .
(٤) " الإبانة " : (٧٥) .
(٥) " شرح الأصول الخمسة " : (٧٣٥) .

ويبدو أن ابن حزم كان أكثر دقة من الأشعرى فى نسبة هذا القول إلى جملة المعتزلة حيث يقول : " ذهب ضرار بن عمرو الغطفانى أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر ،

وهو قول من لقينا من الخوارج . وذهب أهل السنة وبشر بن المعتمر والجبائى وسائر المعتزلة إلى القول به . " [1]

وقـــد استدل الكرمى على ثبوت عذاب القبر فقال : " هو ثابت بالكتاب والسـنة أمـا الكـتاب فقـال الله تعالى : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً** ﴾ [2] الآيـــة . قال عكرمة [3] ومحمد بن كعب [4] : هذه الآيـــة تدل عـــلى عـــذاب القـــبر ؛ لأن الله تعالى ذكر عذاب الآخرة بعد ذلك فقال : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [5] وقال تعالى : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ** ﴾ [6] : الأدنى عذابُ القبر . والأكبر يوم القيامة ... " [7]

---

(١) " الفصـــل " : (٤ / ٥٥ ، ٥٦) . وانظـــر : " مجمـــوع الفتاوى " : (٤ / ٢٨٣) ، و" الروح " : (٧٣) .

(٢) سورة غافر : (٤٦) .

(٣) عكـــرمة مـــولى ابن عباس ، البربرى الأصل سمع من عائشة وأبى هريرة وابن عمر وغيرهم (؟ – ١٠٥ هـــ) . انظر : " السير " : (٥ / ١٢) .

(٤) محمـــد بـــن كعـــب بن سليم القرظى . حدث عن أبى أيوب الأنصارى وأبى هريرة (؟ – ١٠٨ هـــ) . انظر : " السير " : (٥ / ٦٥) .

(٥) سورة غافر : ٤٦ ، وانظر : " تفسير القرطبى " لهذه الآية : (١٥ / ٣١٩) .

(٦) سورة السجدة : ٢١ .

(٧) " البهجة " : ل ٨٤ أ .

" وأمـا السنة : فأحاديث جمة [1] منها فى صحيح مسلم عن زيد بن ثابت قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حائـط لبنى النجـار على بغلـة له ونحـن معـه إذ حَادَتْ به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة . فقـال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا . قال : فمتى مات هـؤلاء ؟ قـال : ماتوا فى الإشراك . فقال : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فلـولا أن لا تدافـنوا لدعـوت الله عز وجل أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع [2] . "

---

(١) تقدم حكاية ابن تيمية وابن ابى العزّ تواترها . وانظر : " تفسير ابن كثير" : (٤ / ٨١) .

وقال النووى : " اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر ، وقد تظاهرت عليه دلائل الكـتاب والسـنة . قـال الله تعـالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ .. الآية . وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة فى مواطن كثيرة ، ولا يمتنع فى العقل أن يعيد الله تعالى الحياة فى جزء من الجسد ويعذبه ، وإذا لم يمنعه العقل وورد الشرع به وجب قبوله واعتقاده .

وقـد ذكر الإمام مسلم هنا أحاديث كثيرة فى إثبات عذاب القبر وسماع النبي ﷺ صوت من يُعذب فيه . " . " شرح صحيح مسلم " : (٨/٢٢٤) .

(٢) " الـبهجة " : ل ٨٤ أ . والحديـث رواه مسـلم فى " صحيحه " : كتاب " الجنة وصفة نعيمها وأهلها " ؛ باب/ عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه : (٨ /٢٢٥) ، رقم (٢٨٦٧) ، وأحمد فى " مسنده " : (١٩٠/٥) ، رقم (٢١٧٠١) .

وجملة " لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله عز وجل أن يسمعكم من عذاب القبر " رواها مسلم (٢٨٦٨) عن أنس عن النبي ﷺ .

مبحـــث فنـــاء النـــار

يُعـــد الإيمان بالجنة داراً لخلود المؤمنـــين ، وبالنار داراً لخلود الكافرين من أكـــبر مسائل الإيمان " باليوم الآخر " الذى هو أحد أركان الإيمان كما بينها الـــنبى صـــلى الله عليه وآله وسلم فى قوله : ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره))(1)

وقـــد قال الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (2)

وقـــال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ﴾ (3)

قـــال أبو الحسن الأشعرى : " قال المسلمون كلهم إلاّ جهماً : إن الله يخلد أهل الجنة ، ويخلد الكفار فى النار " (4) أما الجهم فذهب إلى " أن حركات أهل الخلدين تنقطع ، والجنة والنار يفنيان بعد دخـــول أهلهما فيهما ، وتلذذ أهل الجـــنـــة بنعيمها ، وتألم أهل النار بجحيمها ؛ إذ لا تُتصور حركات لا تتناهى آخراً كما لا تُتصور حركات لا تتناهى أوّلاً .

---

(1) الحديث : متفق عليه :رواه البخارى فى كتاب " الإيمان " ؛ باب/ سؤال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام ... رقم (٥٠) ، ومسلم فى كتاب " الإيمان " : (١/١٣٣)

(2) سورة البقرة : (٢٤) .

(3) سورة البقرة : (٢٥) .

(4) " المقالات " : (١ / ٢٢٩) .

وحَمَلَ قوله تعالى : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة فى التخليد " .(١)

وقـد ذهب أبو الهذيل العلاف من المعتزلة إلى قريب من ذلك فقال بفناء حركات أهل الدارين وصيرورتهم إلى سكون دائم خامد .(٢)

كمـا قال الجاحـظ من المعتـزلة أيضاً بفنـاء عذاب أهل النار ، وذلك بـتحولهم إلى طبيعـتها .(٣) وهو المعنى الذى ظهر بَعْدُ عند أصحاب وحدة الوجود فى قول قائلهم :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيـد الحق عين تعـاين
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهـم على لـذة فيها نعيـم مبـاينُ
نعيمَ جنان الخلد ، والأمر واحد وبينهمـا عند التجلـى تبـاين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمـه وذاك له كالقشر والقشر صاين

فيصير العذاب – عندهم – مستعذباً لتحولهم إلى الطبيعة النارية (٤).

---

(١) انظر : " الملل والنحـل " : (١ / ٨٧ ، ٨٨) ، وانظر : " المقـالات " : (١ / ٢٢٩ ، ٣٣٨) ، و" الفرق بين الفرق ط : (١٢٢ ، ٢١١) ، و" درء التعارض " : (١ / ٢٢٨) ، و" حادى الأرواح " : (٣٩٢) ، و" شرح الطحاوية " : (٤٢٧) .

(٢) انظر : " الملل والنحل " : (١ / ٥١) ، و" الفرق " : (١٢٢) ، و" شرح الطحاوية " (٤٢٧) .

(٣) انظر : " الملل " : (١ / ٧٥) .

(٤) انظـر : " مجمـوع الفـتاوى " : (٢ / ٢٤٢) ، و" حـادى الأرواح " : (٣٩١) ، و" شرح الطحاوية " : (٤٢٧) .

لكن من العجيب حقاً أن ينسب إلى ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى القـول بفـناء الـنار !! ومن الجدير أن أؤكد أن الذين نسبوا هذه المقالة إلى شـيخ الإسـلام وتلميذه ليسوا من أعدائهما فقط كما قال الشيخ محمد ابن عبد الرحمن بن قاسم فى تحقيقه لكتاب ابن تيمية ((نقد تأسيس الجهمية)) [1]

بل فهم بعض من يوقرونهما أيما توقير من كلامهما هذا الفهم ؛ ومن هؤلاء ابن الوزير اليمنى رحمه الله حيث يقول : " وأما ابن تيميـة وأصحابه فرأوا أن القـدح فى الحكمـة والقدرة يتطرق إلى النقص فى كمال الربوبيـة ، وذلك يحـتمل الكفر ويضارعه أو يقرب منه . وأما دوام العذاب فالقدح فيه عندهم سهل بعد ورود الاستثناء فى غير آية ، ومنتهاه تخصيص عموم بما يقتضى زيادة الرحمة والعدل والثناء . " [2]

والـذى يبدو من كلام ابن الوزير نفسه أنه يميل إلى هذا القول وينصره ، ويخرجه على صفات الحكمة والرحمة والجود ... حيث يقول :

" ولما أتى ذكـر الخلـود بنـاره ... على جوده فى ذكره والجـوازم
تعاظم شأنَ الخلد فى النار كلُّ من ... تفكـر فى أسمـاء رب العـوالم
فلا هو مغلـوب ، ولا هو جاهل ... ولا عابث قطعاً ولا غير راحـم
فعـاد إلى التسليـم كل محقـق ... لما قاله فى الذكـر رب العـوالم
سواء قضى بالخلد بالنار أو قضى ... بأن عذاب الأشقيـا غـيُر دائم

(١) انظر : (١ / ١٥٧) الهامش .
(٢) " إيثار الحق " : (٢١٦) .

ولمـا أتى استثنـاؤه فى كتابـه من الخلد جهراً فَلَّ حد التعاظـم

وعاد مجال القول فى ذاك واسعـاً وقد كان ضاق الأمر ضيق الخواتم...

... إلى آخر أبيات كثيرة .(١)

وكذلك ممن نسب هذا القـول بفناء النار إلى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم العلامة السفارينى وهو من المعظمين لهما حيث يقول :

" ولشيخ الإسلام وتلميذه الإمام المحقق ميل إلى هذا القول ... " (٢)

وكذلك الألوسى فى ((جلاء العينين)) . (٣)

والحقّ أنه لم يذكر واحد من هؤلاء ولا غيرهم ممن اطلعت على أقوالهم – لم يذكـروا نصّاً واحداً لابن تيمية يصرح فيه بهذا المذهب ، وإنما اعتمادهم جميعاً على ما ذكر ابن القيم فى كتبه . (٤) بل ذكر ابن عبد الهادى – وهو من أشد النـاس انتصاراً لابن تيمية – أن لابن تيمية رسالة فى الرد على من قال بفناء النار .(٥)



(١) " إيثار الحق " : (٢١٧ ، ٢١٨) .

(٢) " لوامع الأنوار " : (٢ / ٢٣٥) .

(٣) " جلاء العينين " : (٤٨١) .

(٤) انظـر : " حـادى الأرواح " : (٣٩٠) ومـا بعدها ، و" مختصر الصواعق المرسلة " : (٢٦٥) ومـا بعدها ، و" شفاء العليل " : (٤١٩) وما بعدها . وهو كلام متشابه ، الحقُّ أن نرده إلى المحكم من كلام ابن القيم كما سأوضح بعد قليل إن شاء الله تعالى .

(٥) انظـر : " السلسـلة الضـعيفة " للشيخ الألبانى رحمه الله : (٢ / ٧٥) . فكان ينبغي الاعتماد على هذا التصريح من ابن عبد الهادي .

والذى أقطع به أن ابن تيمية رحمه الله لم يقل بهذا القول ، وذلك من خلال تتبع مظان هذه المسألة من كتبه الكثيرة المتوفرة بحمد الله ؛ بل إن لابن تيمية نصوصاً كثيرة فى محل النـزاع تدفع هذه الفرية منها :

(١) مـا قالـه فى تفسير قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ حيث حكـى قـول الضـحاك مقرّراً : " ... كل شيء هالك إلاّ الله والجنة والنار والعرش . " (١)

(٢) وقـال : " أخـبر ببقاء الجنة والنار بقاءً مطلقاً ، ولم يخبرنا بتفصيل ما سـيكون بعـد ذلك ، إنما وقع التفصيل إلى قيام القيامة واستقرار الفريقين فى الجنة والنار ، وذكر ما فيهما من الثواب والعقاب . " (٢)

فهذا النص صريح واضح فى قوله ببقاء النار بقاءً مطلقاً ، وأنه ليس ثمة نص يقول بفنائها أو يخبر بما سيكون بعد ذلك .

(٣) وأصرح من هذا النص جوابه عن سـؤال ورد إليه فى هذه المسألـة تحديداً وقد " سئل عن حديث أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قـال : سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء : النار وسكانها ، واللوح ، والقلم ، والعرش ، والكرسى (٣) . "

فهل هذا حديث أم لا ؟

فأجاب : هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) " مجموع الفتاوى " : (٢ / ٤٢٨) .

(٢) " نقد تأسيس الجهمية " : (١ / ١٥٧) .

(٣) المذكـور هنا ستة أشيـاء ، ولعل السابع : الجنة . والله أعلم

وإنمـــا هو من كلام بعض العلماء ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السـنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية : كالجنة والنار والعرش وغير ذلك .

ولم يقـــل بفناء جميع المخلوقات إلاّ طائفة من أهل الكلام المبتدعين كالجهم ابن صفوان ، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم . وهذا قول باطل يخالف الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها [1] . "

فلـيس بعد هذا التصريح من ابن تيمية ببقاء النار ، وأن إجماع الأمة على ذلك ، وتبديعه لمن قال بفناء النار – أقول : ليس بعد ذلك متسع للقائل بهذه الدعـوى . أضف إلى ذلك أن ابن القيم نفسه لم يدّع أن ابن تيمية يذهب إلى القـول بفناء النار ، وهذا نص ابن القيم : " وأما أبدية النار ودوامها ؛ فقال فيها شيخ الإسلام : فيها قولان معروفان عن السلف والخلف ، والنـزاع في ذلك معـروف عن التابعين . " [2]

مع أن ابن القيم بالغ فى أدلة القائلين بفناء النار فى مواضع كثيرة من كتبه ، ولم يذكر فى موضع واحد أنه مذهب شيخه الذى يبالغ ابن القيم فى نصرته .

كمـا أن ابن أبي العز الحنفى شارح الطحاوية ، وهو لا يكاد يخرج عن أقوال ابن تيمية ؛ بل إنه ينقل نصوصـاً طويلة لابن تيميـة فى هذا الكتـاب ، حتى لـيكـاد شـرح الطحاويـة يكون إسقاطاً لنصوص ابن تيمية على فقرات ومسائل العقيدة الطحاوية وهذه مسألة ظاهرة لمن تأملهـا .

---

(١) " مجموع الفتاوى " : (١٨ / ٣٠٧) .

(٢) " حادى الأرواح " : (٤٠٣) .

أقــول :

عــندما تعــرض لهذه المسألة ، لم يشر إلى أن ابن تيمية يتبنى هذا الرأى ، بل ختم البحث فيها بقوله :

" قــد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وأحاديث الشفاعة صريحة فى خروج عصاة الموحدين من النار ، وأن هذا حكم مختــص بهــم . فلــو خرج الكفار منها لكانوا بمنــزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان .

وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما ؛ بل بإبقاء الله لهما . " [(١)]

أما ابن القيم فإن المجال واسع حقاً للاختلاف حول موقفه من هذه المسألة ؛ حيــث كتب بحثاً كبيراً فيها ؛ ذكر فيه خمسة وعشرين وجهاً للفرق بين دوام الجــنة والنار بنفس طويل بحيث يتوهم قارئه أنه يتبنى القول بفناء النار ؛ الأمر الذى قوى هذه الشبهة فى حقه .

والذى يبدو لي أن ترجيح ابن أبي العزّ – وهو المتأثر بهما – فى هذه المسألة يمثل مذهب ابن تيميــة وتلميذه ابن القيــم فى ترجيح بقاء النار على فنائها ، وأن صــنيع ابــن القــيــم فى (الحادى) وغيره إنما كان استقصاء منه لأدلة المذهبين المحكيين عن السلف . وقد قدمت من كلام ابن تيمية ما يزيل عنه هذه التهمة .

---

(١) " شرح الطحاوية " : (٤٣٠) .

والذى يبدو لي أن الحال كذلك فى موقف ابن القيم للأسباب الآتية :

(١) فقــد صرح فى أكثر من كتــاب له ببقــاء النــار وعدم فنائهــا ، فمن ذلك ما ذكره ضمن عقائد بعض السلــف مقرّاً له محتجــاً به " إن الجنة والنار داران قد خلقتا ، أعدت الجنــة للمؤمنــين المتقــين ، والنار للكافرين الجاحدين ، ولا يفنيان [١] "

(٢) وقــال فى موضع آخر : " لما كان الناس على ثلاث طبقــات : طيب لا يشــوبه خبث ، وخبث لا طيب فيه ، وآخرون فيهم طيب وخبث ، كانت دورهــم ثلاثــة : دار الطيب المحض . ودار الخبث المحض . وهاتان الداران لا يفنيــان . ودار لمن معه خبث وطيب وهى الدار التى تفنى ، وهى دار العصاة فإنه لا يبقى فى جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإنهم إذا هذبوا بقدر جزائهم أخــرجوا مــن النار وأدخلوا الجنة . ولا يبقى إلاّ دار الطيب المحض والخبث المحض . " [٢]

فهذا نص محكم واضح لا اشتباه فيه فى محل النــزاع . والانصاف يقتضى أن يحمــل متشابه كلامه على محكمــه ، فهو هنا يصرح بأن الدار التى تفــنى هــى دار العصــاة من الموحدين . كما يصرح بأن الدارين الخالصتين للطيب المحــض وهى الجنة والخبث المحض وهى النار التى أعدت للكافرين باقيتان لا تفنيان .

---

(١) " اجتماع الجيوش الإسلامية " : (٦٤) ضمن عقيدة ابن أبى زيد القيروانى . وانظر : ص (٧٩) .

(٢) " الوابــل الصيب " : (٢٢) . دار الدعوة . الإسكندرية ١٤٠٨ هـــ . ط ١ ، وانظر : " شفاء العليل " : (٤١٨) .

(٣) ويمـاثل هـذا الـنص فى الإحكام والصراحة قوله فى موضع آخر : " ويخـرج قوم من النار بعدما دخلوها ولبثوا فيها ما شاء الله ، ثم يخرجهم من النار ، وقوم يخلدون فيها أبداً ، وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر بالله عز وجل ، ويذبح الموت يوم القيامة .

وقد خلقت الجنة وما فيها ، وخلقت النار وما فيها . خلقهما الله عز وجل وخلـق الخلـق لهمـا ، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً ، فإذ احتج مبتدع أو زنديـق بقول الله عز وجل : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [١] وبنحو ذلك مـن متشـابه القـرآن ؛ قيل له : كل شيء مما كتب الله عليه الفناء هالك . والجـنة والنار خلقهما الله للبقاء لا للفناء ولا للهلاك ، وهما من الآخرة لا من الدنيا " [٢]

وإذا كان المتفرد بشيء يستوحش عادة من قلة الموافقين ، فلست – بحمد الله – متفرداً فيما ذهبت إليه فى هذه المسألة فقد انتهى إلى هذه النتيجة الشيخ الألباني رحمه الله تعالى حيث قال :

" عقـد العلامة ابن القيم فى كتابه [الحادى] فصلاً خاصّاً فى أبدية النار أطال الكلام فيه جدّاً ... والذى يتأمل فى طريقة عرضه للأدلة ومناقشته إيّاها يستشعر من ذلك أنه يميل إلى القول الأول (يعنى فناءها) .

---

(١) سورة القصص : (٨٨) .

(٢) " حادى الأرواح " : (٧٩ ، ٨٠) .

ولكنه لم يجزم بذلك ... لكننى وجدته يصرح فى بعض كتبه الأخرى بأن نار الكفار لا تفنى ، وهذا هو الظن به . " (١)

ورجـــح هذا الرأى أيضاً . الدكتور عوض الله حجازى حيث يقول : " إن ما ذكره ابن القيم من الفروق بين أبدية الجنة والنار ليس رأيه ، وإنما هو رأى الغير ؛ إذ هو نهاية أقدام الفريقين فى هذه المسألة . " (٢)

ثم إنه يؤكد ذلك فيقول : " بعد البحث والتمحيص ومراجعة مؤلفات ابن القيم وقراءتها المرة بعد المرة جزمت يقينـــاً بأن القول بفناء النـــار ليس رأيـــاً له ، وإنما هو رأى لبعـــض المذاهب . " (٣)

* * *

(١) " السلســـلة الضـــعيفة " : منشورات لجنة إحياء السنة ، أسيوط : ط ١ . ١٣٩٩ هــ : (٢ / ٧٤ ، ٧٥) . وانظر : " مقدمة رفع الأستار " أيضاً للشيخ الألبانى رحمه الله ص (٣٢) .

(٢) " ابـــن القـــيم وموقفـــه مـــن التفكير الإسلامى " . للدكتور عوض الله حجازى ط مجمع البحوث ١٣٩٢ هــ - ١٩٧٢ م : ص (٣١٩) .

(٣) المرجع السابق : (٣١٨) .

مذهـب الكـرمى فـى هـذه المسألـة [١]

نقل الكرمى إجماع المسلمين على القول ببقاء الجنة والنار وعدم فنائهما [٢] وعنون لهذه المسألة بقوله : " المسألة الأولى فى خلود أهل الدارين فيهما وذبح الموت بينهما وأنهما باقيتان لا تفنيان ولا يفنى أهلهما " [٣]

ثم ذكر شذوذ الجهمية فى قولهم بفناء الجنة والنار وفناء أهلهما [٤] وشذوذ أبى الهذيل فى قوله بانقطاع عذاب الكفار ، وأن له غاية ونهاية [٥] .

وقد بين الكرمى أنه يعتمد فى مذهبه على الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الأمـة ؛ أما الكتـاب فمن " أصرح الآيـات فى الرد عليهم [يعنى القائلين بفـناء النار] قولـه تعالى : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً** ﴾ [٦] فإن الأبد عبارة عن استغـراق الزمن المستقبـل الـذى لا انقطاع له . " [٧]

---

(١) ألـفّ الكرمى رسالة فى هذه المسألة سماها : ((توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين)) انظر: "رفع الشبهة " : (٢٣٥) ، و" رواشق السهام " : مخطوط بدار الكتب ، المكتبة الزكيـة رقم : (٢٧٣) فلم (٥٧٤٩١) : ل ٢٠ ب ، و" لوامـع الأنوار " : (٢ / ٢٣٥) ، و"جلاء العينين " : (٤٨٥) ، و" مقدمة رفع الأستار" : للشيخ الألبانى رحمه الله : (٣٤ ، ٦٢) هامش٣

(٢) " البهجة " : ل ٢٠٩ أ ، ٢١١ ب .

(٣) " بهجة الناظرين " : ل ٢٠٨ ب .

(٤) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق : ل ٢١٠ أ ، وقد تقدم أن أبا الهذيل قال بفناء حركات أهل الخلدين ، ولم يختص النار بذلك ، ولعل الكرمى راعى المسألة التى يتحدث فيها [فناء النار] فاقتصر عليها .

(٦) سورة الجن : (٢٣) .

(٧) " البهجة " : ل ٢٠٩ ب .

وأما السنة فقد اعتمد الكرمى أحاديث كثيرة فى المسألة منها : " ما أخرج الشـيخان عـن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم : يا أهل النار لا موت ، ويا أهل الجنـة لا موت .كل خالـد فيما هو فيـه .))[١] " [٢]

وما أخرجه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : ((يجاء بالموت يوم القيامـة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنـة والنـار فيقال : يا أهل الجنة ؛ هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبـون ويـنظرون ويقولـون : نعم ؛ هذا الموت . قال : ويقال : يا أهل النار ؛ هـل تعـرفون هـذا ؟ قال : فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم ، هذا المـوت . قال : فيؤمر به فيذبح ، قال : ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت .

قال : ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [٣] وأشار بيده إلى الدنيا)) [٤] [٥]

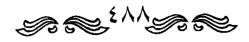
(١) رواه البـخارى فى كتاب " الرقاق " ؛ باب/ يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، رقم : (٦٥٤٤) ، ومسلم فى كتاب " الجنة " ؛ باب/ فى صفة النار : (٨ / ٢١١) .

(٢) " البهجة " : ل ٢٠٩ أ .

(٣) سورة مريم : (٣٩) .

(٤) رواه البـخارى فى كتاب " التفسير " ؛ باب/ " وأنذرهم يوم الحسرة " رقم (٤٧٣٠) ، ومسلم فى كتاب " الجنة " ؛ باب/ فى صفة جهنم : (٨ / ٢١٠) ، واللفظ له .

(٥) " بهجة الناظرين " : ل ٢٠٩ أ .



ثم عرض الكرمي بعض حجج القائلين بفناء النار وأجاب عنها قائلاً :

" ... فاحتجوا من القرآن بآيات : الأولى قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ** ﴾ (١)

فـــدلّ هذا النص على انقطاع عذابهم لأن مدة السموات والأرض متناهية فلزم أن تكون مدة العقاب منقطعة . " (٢)

وقد أجاب الكرمي عن هذه الشبهة من وجهين :

" أحدهمـــا : أن المـــراد سموات الآخرة وأرضها بدليـــل : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ** ﴾ (٣) ، وقولـــه : ﴿ **وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ (٤) وكلاهما دائم . فوجب أن يكون خلودهم وعذابهم دائماً بدوامهما ، ونحو ذلك للضحاك . (٥)

وثانـــيهما : أنـــه تعـــالى خاطب العرب على ما جرى به عرف التخاطب بيـــنهم ، لأن التأبيد والخلود له عندهم ألفـــاظ ؛ كقولهـــم : هو باق ما أينع الثمر وأورق الشجـــر ، وما دجى الليل ، وسأل سائل ، وطـــرق طـــارق ،

---

(١) سورة هود : (١٠٧) .

(٢) " البهجة " : ل ٢١٠ أ .

(٣) سورة إبراهيم : (٤٨) .

(٤) سورة الزمر : (٧٤) .

(٥) انظـــر : " تفســـير القـــرطبي " : (١٥ / ٢٨٧) ، و" ابن كثير " : (٤ / ٦٧) . وقد عَـــزَوَا هذا القول إلى أكثر المفســـرين وذكرا منهم : قتادة ، وأبا العالية والسدى وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، ولم يذكرا فيما ذكرا الضحاك .

وما دامت السموات والأرض . " [١]

وذكـــر الكرمى من حجج القائلين بفناء النار أيضاً استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [٢] وأن ذلك استثناء من مدة عقابهم ، وذلك يدل على زوال العذاب . [٣]

ثم أجاب عن هذه الشبهـــة من عدة أوجـــه :

منها أن تكون هذه الآية من المتشابه .

الـــثانى : أن يكون المعنى : خالدين فيها قدر مدة دوام السموات والأرض فى الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها مما لا منتهى له .

الثالـــث : أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم فى الموقف ؛ فإنهم فى ذلك الوقت لا يكونون فى النار .

الـــرابع : أن يكـــون ذلك الاستثناء منقطعاً ، ويكون المستثنى هم عصاة الموحدين . [٤]

وذكـــر الكرمى من حجج القائلين بفناء النار أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ [٥] وأنـــه يستفاد من هذه الآية أن لبثهم لا يكون إلاّ أحقاباً معدودة . [٦]

---

(١) " البهجة " : ل ٢١٠ أ .

(٢) سورة هود : (١٠٧) .

(٣) انظر : " البهجة " : ل ٢١٠ أ .

(٤) انظر : " البهجة " : ل ٢١٠ ب .

(٥) سورة النبأ : (٢٣) .

(٦) انظر : " البهجة " : ل ٢١٠ أ .

وقـــد أجـــاب عـــن هذه الشبهة بوجوه منها : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾ (١)

أو أن المعـــنى يلبـــثون فيها أحقابا كلما مضى حقب تبعه حقب ، وإنما دل على التوقيت لو نصّ على العدد .

أو أن المـــراد أحقـــاب لا انقضاء لها ، وحذف للعلم بحال أهل النار على ما دلت عليه الآيات والأحاديث .(٢)

ثم ذكـــر الكـــرمى من شبه القائلين بفناء النار العقلية شبهتين وأجاب عنهما :

الأولى : " أن معصيـــة الكافر متناهيـــة ، ومقابلة الجرم المتنـــاهى بعقاب مالا نهايـــة له ظلم . وهو على الله محال . " (٣)

وقـــد أجاب الكرمى على هذه الشبهة بأنها مبنية " على التحسين والتقبيح العقـــلى . ونحن لا نقول به ؛ لأن الشرع هو الذى يحسن ويقبح . وأيضاً فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لأنه لا حجر عليه فيما يفعله ، فأفعاله بالنسبة إليه كلها حسنة جميلة ، وإنما يكون الشيء قبيحاً بالنسبة إلينا . " (٤)

ويلاحـــظ عليه فى النص أنه أشعرى صرف فى مسألة التحسين والتقبيح ، كذا فى مسألة الحكمة والتعليل .

---

(١) سورة النبأ : (٣٠) .

(٢) انظر : " البهجة " : ل ٢١٠ ب ، ل ٢١١ أ .

(٣) المرجع السابق : ل ٢١٠ أ .

(٤) المرجع السابق : ل ٢١١ أ .

إلاّ أنـه فى ((رفـع الشبهة)) – وهو من آخر كتبه إن لم يكن آخرها – يجيب عن هذه الشبهة نفسها بجواب آخر على طريقة أهل التعليل فيقول :

" ولعل الجواب أن يقال : إن جرم الكافر أيضاً غير متناهى لأنه بموته على الكفـر اسـتمر كافراً إلى الأبد . ووصف الكفر لازم له كذلك . فلم يعاقب بعقاب غير متناهى إلاّ بذنب غير متناهى . " (١)

أمـا شبهتهم العقليـة الثانيـة فى هذه المسألة فهى قولهم : " إن العقاب ضـرر خالى من النفع ؛ فيكون قبيحاً ، لأن ذلك النفع لا يرجع إلى الله تعالى لتعالـيه عـن الـنفع والضرر ، ولا إلى العبـد لأنه ضرر محض ولا إلى أهل الجـنـة ؛ لأنهم مشغولـون بلذاتهم ، فلا فائدة لهم بالالتذاذ بعقاب دائم فى حق غيرهم . " (٢)

وقـد أجاب الكرمى عن هذه الشبهة بقوله : " لم لا يعود النفع لأهل الجنة ويحصـل لهـم الالـتذاذ بعـذاب الذين يعاندونهم ويعادونهم فى دار الدنيا ، ويسـفكون دمـاءهم على دين الله تعالى الذى أدخلهم جنات النعيم وأدخل أعداءهم دار الجحيم ؟ " (٣)

ويشـهد لهـذا الفهـم قولـه تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ (٤) جـزاء مـا كـان الكفار يفعلون بهم فى الدنيا قال تعالى :

---

(١) " رفع الشبهة " : (٢٣٥) .
(٢) " البهجة " : ل ٢١٠ أ .
(٣) المرجع السابق : ل ٢١١ أ .
(٤) سورة المطففين : (٣٤) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ... ﴾ [1] فالجزاء من جنس العمل .

فجملة موقف الكرمى فى هذه المسألة :

أنـه يقـول فـيها بقول جمهور المسلمين ، وإن كان فى تناوله لها ذا نَفَسٍ أشـعرى لا يخفى ، بل قد صرح به فى جوابه المبنى على ردّ التحسين العقلى ، ونفـى التعليل فى الأفعال الإلهية . إلاّ أنه رجع إلى مذهب أهل التعليل فى آخر مؤلفاته ((رفع الشبهة)) كما أوضحت .

* * *

(١) سورة المطففين : (٢٩ – ٣١) .

خاتمة الدراسة وأهم نتائج البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله ..

وبعدُ ؛ فلا ريب أن الباحث عقب الدراسة يختلف عنه قبل الخوض فيها من حيث التصور ووضوح الرؤية ؛ فإذا كان فى أوّله يبنى تصوره على غلبة ظن ، وعلى أقوال المؤرخين وأصحاب التراجم ، فإنه فى آخره يُكوّن رأيه الخاص به الـناتجَ من بحثه هو وتتبعه هو . وقد يضيق هذا التباين فى التصور أو يتسع ؛ لكنه على كل حال يوجد بنسبة ما .

ولقـد اختلف تصورى للكرمى الآن عنه أثناء إعداد خطة البحث بدرجة كـبيرة ، فلقـد تكـون لـدىَّ - من خلال أقـوال المؤرخـين وأصحاب الـتراجـم - تصـور عن الكرمى ؛ خلاصته : أنه كان يمثل المذهب الحنبلى تمثيلاً دقيقاً فى الأصول والفروع على السواء .

كما أن هذا العدد الكبير من المؤلفات التى نسبوها إليه - أكثر من سبعين مؤلفـاً ؛ بل لقد بلغ بها الدكتور بكر أبو زيد مائة مؤلف - يوهم أنها كتب بالمعنى الذى يسبق للذهن من كلمة كتاب ؛ والذى تبين لى من خلال الدراسة خلاف ذلك ، ويمكن إجمال أهم نتائج البحث على النحو التالى :

١ - أولاً : من حيث اللغة ، فلغة الكرمـى جيدة ، متقاربة فى كل مؤلفاته التى اطلعت عليها ، وهى لغة بعيدة عن الإغراب والسجع والتكلف ، إلاّ فيما ندر من كتاباته الأولى . خالية تماماً من الأخطاء النحوية .

٢- ثانـــياً : هذه الكثرة فى مؤلفات الكرمى والتى جعلت مثل بروكلمان يصـــنفه ضـــمن الموســـوعيين ، هى كثرة مبالغ فيها من حيث أسماء المؤلفات وحجمها ، فربما سُمِّيَ المؤلف الواحد باسمين أو أكثر مثلما حدث فى " النادرة الغريـــبة ... " و " رواشـــق السهام " فهما رسالة واحدة ، ذكر الكرميّ فيها مؤلفاته ، وحطّ فيها على عصريه الميمونى .

ومثلما حدث فى " تنبيه الماهر على غير ما هو المتبـــادر من آيات وأحاديث الصفات " و " أقاويل الثقات فى الأسماء والصفات " وهما كتاب واحد .

ومـــثل " أرواح الأشباح " و " توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين " وغيرهمـــا فمـــا هـــى إلاّ فصـــولٌ من كتابه الكبير " بهجة الناظرين وآيات المستدلين " ولذلك أمثلة أخرى .

وأمـــا من حيث حجم المؤلفات ، فإن بعضها لا يتجاوز بضع ورقات ، - بعضـــها يصـــل إلى ثـــلاث ورقات - ثم يُخص بعنوان يوهم أنه مثل " بهجة الـــناظرين " أو " أقـــاويل الثقات " ومن ذلك رسالة " اللفظ الموطا فى بيان الصـــــلاة الوســـطى " و " الكلمات السنيـــات " ، و " جامع الدعاء وورد الأصـــفيـــاء " و " رفـــع التلبيس عمن توقف فيما كفر به إبليس " ، ولذلك أمثلة أخرى .

وبنـــاءً على ذلك ، فالذى أراه أن الموضع الملائم للكرمى أن يصنف ضمن الفقهاء والمتكلمين فقط ، وليس ضمن الموسوعيين ؛ ذلك أن له كتابين مهمين فى هـــذا الميدان هما : " غاية المنتهى فى الجمع بين الإقناع والمنتهى " ، وكتاب " دلـــيل الطالـــب لنيل المطالب " ، وقد اهتم فقهاء الحنابلة فى عصر الكرمى

وبعـــده بهذين الكتابين وهما يشهدان له بالفقه وضبط المذهب الحنبلى . وهذا ما أقره الواقع .

كمـــا أن له فى مجـــال الكــــلام " أقاويل الثقات " و " بهجة الناظرين " و " رفع الشبهة " وغيرها . وإن كان فى جميعها مقلداً .

ولا يــرد عــلى رأيى هــذا تصنيف الكرمى فى مجالات غير الفقه والكلام كالتفســير ، أما التفسير ، وقد ألف فيه " البرهان فى تفسير القرآن " ولم يتمه كمـــا قال هو فى " رواشق السّهام " ، وقد أفاد أستاذنا الدكتور محمد السيد الجليند حفظه الله أن تفسير " ابن مرعى " الموجود ضمن الكواكب الدرارى مجمـــوع ابـــن عروة الحنبلى يَسْرى فيه نفس ابن تيمية حتى يوشك أن يكون كلامه ، وقد اطلعت على ذلك المجمـــوع بدار الكتب فلم أجد تفسير الكرمى ضـــمنه ، فلعـــل القائمين على الفهرسة فطنوا إلى تأخر الكرمى عن ابن عروة على النحو الذى بينت فى " مبحث المؤلفات " من الفصل الأول .

وإنى وإنْ لم أعــثر عــلى ذلك التفسير ، فقد أفدت من أستاذنا الدكتور الجليـــند صفته على النحو الذى ذكرته آنفا ، وعليه فلستُ مغرباً إذا قلتُ : إن الكـــرمى لم يكن صاحب منهج فى التفسير ؛ إنما كان ناقلاً عن ابن تيمية ، ولا يكفى ذلك لأن يُعد مفسراً .

والـــذى بـــدا لى من صنيع المترجمين للكرمى جميعاً أنهم نقلوا عن المحبى فى " الخلاصـــة " فهـــو أسبقهم جميعاً ، وأن المحبى نفسه لم يقرأ مؤلفات الكرمى ، وإنمـــا نقل أسمـــاء هذه المؤلفات من رسالة " رواشق السهام " للكرمى نفسه

حيـــث ذكر فيها جملة مؤلفاته مُدلاً بها على غريمه إبراهيم الميمونى الذى نازعه التدريس بمدرسة السلطان حسن بالقاهرة .

٣- ثالـــثاً : تمـــيزت مؤلفـــات الكـــرمى بتذييلها بتاريخ الانتهاء منها ؛ الأمـــر الذى يَّسَر علىّ التأريخ لتطوره الفكرى . ويمكن إجمال ذلك فى ثلاث مراحل :

(أ) المـــرحلة الأولى : من بداية وعي الكرمي العلمي ومحاولتـــه التأليف إلى مـــا قبل سنة ١٠٢٧ هــ ، وفى هذه المرحلة ألّف كتابه " بهجة الناظرين " وكـــذا " رفـــع التلبـــيس عمـــن توقف فيما كفر به إبليـــس " و " توضيح البرهـــان فى الفرق بين الإســـلام والإيمان " وغيرها من الرسائـــل .

وآراء الكرمى الكلامية فى هذه المرحلة تمثل المذهب الأشعرى ، وقد صرح هـــو بذلك ، واعتماد الكرمى على مؤلفات الفخر الرازى فى هذه الفترة كثيرٌ جـــداً ، ثم يـــأتى فى المرتبة الثانية اعتماده على الغزالى والجوينى ثم سعد الدين التفتازانى .

وقـــد ظهـــر ذلك جليّاً فى مسائل الإيمان من حيث تعريف الكرمى للإيمان وعدم اشتراط التلفظ ، وعدم زيادته ونقصانه .

وكما ظهر أيضاً فى مسائـــل الصفات ، حيث كان الكرمى يقول بالصفات السبع أو الثمـــان فى كتابه " البهجـــة " كما كان يؤوّل صفات الفعـــل من نحـــو المجيء والنـــزول والحساب ، وكان لا يتردد فى اعتماد التأويل – قولاً واحداً – متابعة للأشاعرة .

وقـد صـرح الكـرمى فى " رفـع الشبهة " أنه كان فى أوّله يقول بجواز التكليف بما لا يطاق موافقة للأشاعرة أيضاً .

ومـن جانـب آخر ، فقد كان الكرمى مغرقاً فى التصوف بمعناه السلبى المـنحرف عـن روح الإسلام حيث عقد فى أوّل كتابه " البهجة " فصلاً فى " النور المحمدى " ذهب فيه إلى أنه أصل الموجودات كما بينت فى الفصل الثانى من الرسالة .

(ب) أما المرحلة الثانية ، ويمكن التعبير عنها بالتفات الكرمى إلى مؤلفات ابن تيمية وابن القيم ، واستكشافه لها ، وهذه المرحلة تدور حول سنة ١٠٢٧ هـ ، وفيها ألف رسالتيه " الشهادة الزكية فى ثناء الأئمـة على ابن تيمية " ، " الكواكب الدرية فى مناقب المجتهد ابن تيمية " .

فعلى حين لم أجد لدى الكرمى ذكراً لابن تيمية فى " البهجة " وهو يقع فى ٢٣٤ ورقـة إلاّ مـرة واحـدة ؛ فى حين لا يكاد يخلو فصل من فصول هذا الكتاب من ذكر الـرازى خاصة ، وقُلْ مثلَ ذلك فى سائر مؤلفات الكرمى فى هـذه الفترة – على حين ذلك ، يلتفت الكرمى مرة واحدة إلى ابن تيمية فيصنف فيه رسالتيه المشار إليهما .

وأرى هذه المرحلة كانت فاصلة بين مواقف الكرمى قبلها وبعدها .

(ج) المـرحلة الثالـثة : وتمثل آراء الكرمى فيها مؤلفاتُـه المتأخرة مـثل : " شـفـاء الصـدور " و " رفع الشبهة " و " مسبوك الذهب " و " أقاويل الثقات " .

والـــثلاثة الأول مـــن هذه المصنفات هي فى الواقع اختصارات لكتب ابن تيمـــية ، فـــلا يكاد يخلو بحث فيها من ذكر ابن تيمية فـــ " شفاء الصدور " و " مسبوك الذهب " مأخوذان من " اقتضاء الصراط المستقيم " لابن تيمية ، و " رفع الشبهة " مأخوذ من " منهاج السنة النبوية " ، ولذلك تبدو الرصانة والمتانة على هذه المصنفات .

أما " أقاويل الثقات " فقد جمع فيه بين الاعتماد على الأشاعرة كابن فورك والباقلانى والغزالى والرازى ، وبين الحنابلـــة والسلف ، فلذلك لم يستقم على طريقة كما بينت فى موقفه من التأويل والمتشابه ، فمرّة يذم التأويل ويرفضه ، ومـــرّة يستحسنه ويأخذ به ، وذلك فى كتاب واحد ، بل فى نص واحد كما مثلـــت لـــــه . وهو إذ يرفض التأويـــل ويذمه يكون جانحاً إلى التفويـــض ، كمـــا أنـــه قد اعتبر نصوص الصفـــات من المتشابـــه وهو خـــلاف مذهب السلـــف .

ولقـــد يـــبدو لي أن موقف الكرمى هذا يشبه موقف الجوينى قبل النظامية وبعدها .

أمـــا فيما يتعلق بموقف الكرمـــى من التصوف فى هذه المرحلة ، فقد نفض عـــنه غبار التصوف بمعناه السلبى ، وكتابه " شفاء الصدور فى زيارة المشاهد والقـــبور " والذى ألفه فى السنة التى توفى فيها تقريباً أو قبلها بعام يعبر أصدق تعـــبير عـــن موقفـــه تجاه التصوف فى آخره ، وقد قدمت أنه قد اختصره من " الاقتضـــاء " لابن تيميـــة ، فجملـــة القول أنه تأثر فيه بابن تيميـــة .

أما مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل فنصوصه المتقدمة تشير إلى أنه كـان يـنحو فـيها منحى المذهب الأشعرى كما ظهر فى مسألة فناء النار ، ونصوصـه فى " رفع الشبهة " منضبطة بفهم ابن تيمية لاعتماده على " منهاج السـنة " – كمـا قدمت – وعليه فقد رجع عن القول بالمشيئة المطلقة غير المعللة بالحكمة إلى مذهب السلف .

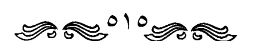
وجملـة القـول : أن الكرمـى عاش فى القرنين العاشر والحادى عشر ، ومثل الحيـاة الثقافية فيهما أصدق تمثيـل ، من حيث التأثر بالتصـوف سلباً أولاً ، ثم إيجابـاً أخـيراً ، ومن حيث العكـوف على مؤلفـات السابقين اقتباسـاً منها واختصـاراً لها ، مع غياب الشخصية الواضحـة .

وأن الكـرمىَّ – حنبلـيـّاً – لا يمـثل المذهب الحنبلىّ إلاّ فى الفروع ، أمـا الأصول فغاية أمره أن وفقه الله لقراءة كتب ابن تيمية ، فنقلته من اللجة إلى قريـب مـن الشاطىء فى ضحضاح ، فما إخاله فهم ابن تيمية على الوجه الصحيح ؛ لكن قريباً منه . والله يغفر له .

والله من وراء القصد .

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث



فهرس الآثار

١١)هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

[عبد الله بن مسعود] ١٦٤

١٢)والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً .

[علي بن أبي طالب] ٢٢٩

١٣)والله ما قالت القدرية كما قال الله .

[زيـــد بن أسلـــم] ٤٢٥

المصـادر والمراجـع
مرتبـة على أسـماء الكتـب

١) الإبانـة عن أصول الديانة . لأبي الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (٢٦٠ – ٣٣٠) ، نشـرة قصـي محب الدين الخطيب . ط الثانية : ١٣٩٧ هـ ، المكتبة السلفية . القاهرة .

٢) الإبانـة عن شريعـة الفرقة الناجيـة . لابن بطة أبي عـبد الله عبيد الله ابن محمـد (ت ٣٨٧ هـ) تحقيق د / عثمان بن عبد الله آدم ، ط أولى ، دار الراية الرياض ، ١٤١٥ هـ .

٣) ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل . د / محمد السيد الجليند ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م ، القاهرة .

٤) ابـن القـيم وموقفه من التفكير الإسلامى . د / عوض الله حجازى ، ط مجمع البحوث الإسلامية ، ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م ، القاهرة .

٥) اجـتماع الجـيوش الإسـلامية على غزو المعطلة والجهمية ، ابن قيم الجوزية أبـو عـبد الله محمد بن أبي بكـر (ت ٧٥١ هـ) ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ط أولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٦) الإحكام في أصول الأحكام ، سيف الدين أبو الحسن على بن أبي على بن محمد الآمـدى (ت ٦٣١ هـ) ، دار الكتـب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .

٧) إحـياء علـوم الدين ، أبو حامد بن محمد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، بدون بيانات .

٨) أخـبار أبي حنيفة وأصحابه ، أبو عبد الله حسين بن على الصيمري (ت ٤٣٦ هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط الثانية ١٩٧٦ م .

٩) أخـلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابـه . أبو الشيخ ؛ عبد الله ابن محمد بن جعفر الأصبهاني (ت ٣٦٩ هـ) تحقيق : عصام الدين سيد الصبابطي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة . ط الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

١٠) آداب المـريديـن ، أبو النجيـب عبد القاهـر بن عبد الله السهـروردى (٤٩٠ - ٥٦٣ هـ) ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، دار الوطن العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ طبع.

١١)الأربعـين في أصـول الديـن ، فخر الدين محمد بن عمر الرازى ، تحقيق : د / أحمد حجازى السقّا ، ط الكليات الأزهرية ١٩٨٦ م .

١٢) الإرشـاد إلى قواطـع الأدلة ، الجوينى أبو المعالى عبد الملك بن يوسف إمام الحرمين ، تحقيق : أسعد تميم ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .

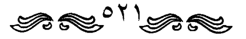
١٣) إرشاد ذوى العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان ، مرعي الكرمى ، تحقيق : مشهور حسن ، دار عمار ، الأردن ، ط الأولى ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

١٤) إرشـاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن على الشوكاني (ت ١٢٥٥ هـ) ، ط الأولى ، الحلبي ، القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .

١٥) الأرواح الـنوافخ . صـالح بن المهدى المقبلى اليمانى ، مطبوع بهامش العلم الشامـخ ؛ له أيضاً ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، بدون بيانات .

١٦) أساس البلاغة ، جار الله الزمخشرى أبو القاسم محمود بن عمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط الثالثة ١٩٨٥ م .

١٧) الإسـلام والعقـل . د / عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .



١٨) الأسمــاء والصــفات . البيهقى أحمد بن الحسين بن على (ت ٤٥٨ هـــ) ، تعليق زاهد الكوثرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .
١٩) الإصــابة فى تمييز الصحابة ، ابن حجر (٧٧٣ – ٨٥٢ هـــ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .
٢٠) أصـــول الفقه . محمد أبو النور زهير ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، بدون تاريخ طبع.
٢١) أصول الفقه . الشيخ محمد أبو زهرة ، محمد بن أحمد بن مصطفى ، دار الفكر العربى ، بدون تاريخ طبع .
٢٢) أضـــواء عـــلى الفلسفة العامة . د / عبد الطيف العبد ، دار الثقافة العربية ، ط أول (١٤٠٦ هـــ ١٩٨٦ م) .
٢٣) الاعـــتقاد والهدايـــة إلى سبيل الرشاد . البيهقى ، السلام العالمية ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
٢٤) الأعلام .خير الدين الزركلى .دار العلم للملايين ، ط ١٢ ، ١٩٩٧ م .
٢٥) أقـــاويل الـــثقات فى الأسمـــاء والصفات . مرعى الكرمى ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة . ط الأولى (١٤٠٦ هـــ – ١٩٨٥ م) .
٢٦) الاقتصاد فى الاعتقاد . أبو حامد محمد بن محمد الغزالى ، تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ، مكتبة الجندى ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
٢٧) أقـــوم مـــا قـــيل فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل . ابن تيمية أحمد ابن عبد الحليم ، ضمن مجموع الفتاوى ، طبعة الرياض .
٢٨) الإكليل فى مسائل القدر ، ابن تيمية ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى .
٢٩)ألفية السيوطى فى علم الحديث ، تصحيـــح وشرح الشيـــخ أحمد شاكر مكتبة ابن تيمية ، ط الثانية (١٤٠٩ هـــ – ١٩٨٨ م) .

٣٠) الآمدى وآراؤه الكلامية . د / حسن عبد اللطيف الشافعي ، دار السـلام ، القاهرة ، ط الأولى (١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م) .
٣١) الإنسـان الكـامل فى معرفة الآواخر والأوائل . عبد الكريم الجيلى ، مكتبة الحلبى ، ط الرابعة ، (١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م) .
٣٢) الإنصاف . القاضى أبو بكر بن الطيب الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) ، تحقيق : محمد زاهد الكوثرى ، دار الخانجى ، القاهرة ، ط الثالثة (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م)
٣٣) أوضـح المسـالك إلى ألفـية ابـن مالك . لابن هشام ، ط الثالثة ، الحلبى (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) .
٣٤) إيثار الحق على الخلق . ابن الوزير اليمنى أبو عبد الله محمد بن المرتضى[١] مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٣٥) الإيضاح فى أصول الدين . ابن الزاغونى أبو الحسن على بن عبيد الله ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ، تحقيق أ / عصام السيد محمود .
٣٦) إيضاح المكنون .حاجى خليفة ،دار الفكر ، (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م)
٣٧) الـبداية والـنهاية ، ابن كثير ؛ أبو الفـداء إسماعيل بن كثير ، دار الفكر العربى ، ط أولى (١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م) .
٣٨) الـبدر الطـالع ، الشوكانى محمد بن على ، د ار المعرفة ، بيروت ، بدون بيانات .
٣٩) البرهان فى علوم القرآن ، الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة دار التراث ، القاهرة ، بدون تاريخ.
٤٠) بهجـة الـناظرين وآيات المستدلين . مرعى الكرمى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، (١٧٠١) كلام ، ونسخ أخرى .

٤١) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ، ترجمة الدكتور / عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، ط الرابعة .
٤٢) تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزتونا ، مؤسسة فيصل للتمويل ، أستانبـول ط أولى ١٩٨٨ م ، ترجمة : عدنان محمود سليمان ، مراجعة د / محمود الأنصارى .
٤٣) تـاريخ مصر من الفتح العثمانى ، عمر الإسكندرى ، وسليم حسن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م) .
٤٤) تـأملات حـول منهج القرآن فى تأسيس اليقين . د / محمد السيد الجليند ، مكتبة الزهراء (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م) .
٤٥) تأويل مختلف الحديث . ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) ، مكتبة المتنبى ، القاهرة بدون تاريخ .
٤٦) تـأويلات أهـل السـنة . أبـو منصور الماتريدى (ت ٣٣٣ هـ) تحقيق د / إبراهـيم عوضين ، والسيد عوضين ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، (١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م) .
٤٧) تحفـة الأشـراف بمعرفة الأطراف. المزى أبو الحجاج يوسف بن الزكى (ت ٧٤٢ هـ) تحقـيق : عبد الصمد شرف الدين ، الدار القيمة ، الهند ، ، توزيع المكتب الإسلامى ، بيروت ، ط الثانية (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) .
٤٨) تحفـة المـريد شـرح جوهرة التوحيد . البيجورى ، طبعة المعاهد الأزهرية (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م) .
٤٩) تخـريج أحاديث شرح الطحاوية ، الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، بهامش شرح الطحاوية .
٥٠) الـتعريفـات . الشـريف الجـرجـانى عـلى بن محمد ، طبعـة الحلـبى (١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م) .

٥١) تفسير ابن جرير . انظر : جامع البيان .
٥٢) تفسير القرآن العظيم . أبو الفـداء إسماعيل بن كثـير ، (ت ٧٧٤ هـ) المكتبـة التوفيقيـة القاهـرة .
٥٣) تفسير القرطبى . انظر : الجامع لأحكام القرآن .
٥٤) التفسير الكبير للرازى . انظر : مفاتيح الغيب .
٥٥) تفسير الماتريدى . انظر : تأويلات أهل السنة .
٥٦) التفسير والمفسرون . د / محمد حسين الذهـبى ، مكتبة وهبه ، ط الرابعة ، (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) .
٥٧) تقريـب التهذيـب . ابن حجر الحافظ أحمد بن على العسقـلانى . تحقيق : د / عبد الوهاب عبد اللطيف . دار المعرفة ، بيروت .
٥٨) تهذيـب التهذيب . ابن حجر ، مؤسسة التاريخ العربى ، بيروت ، ط الثانية ، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) .
٥٩)توضيح البرهان فى الفرق بين الإسلام والإيمان ، مرعى الكرمى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مجاميع تيمور ٣٩٧ .
٦٠) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ هـ - ٣١٠ م) ، تحقيق : محمود شاكر ، مراجعة : أحمد شاكر ، مكتبة ابن تيمية ط الثانية . ١٩٧١ م .
٦١) الجـامع لأحكـام القرآن . القرطبى أبو عبد الله محمد بن أحمد ، دار الشام للتراث ، بيروت ، ط الثانية .
٦٢) جـامع العلوم والحكم . ابن رجب الحنبلى زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن أحمـد (ت ٧٩٥ هـ) ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط الأولى (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

٦٣) جـامع العلـوم فى اصطلاحات الفنون ، القاضى عبد النبى بن عبد الرسول الأحمد نكرى انظر : دستور العلماء .
٦٤) جامع المسانيد . مجموعة الأحاديث والآثار تضم الخمسة عشر مسانيد الإمام أبي حنـيفة. تأليف : أبي المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي (ت ٦٦٥ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .
٦٥) جـلاء العينين فى محاكمة الأحمدين . نعمان الألوسى ، مطبعة المدنى (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) .
٦٦) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى . ابن القيم ، مكتبة المتنبى ، بدون تاريخ .
٦٧) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح . ابن القيم . مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٦٨) حاشـية الشـرقاوى عـلى أم البراهين للسنوسى . الشيخ عبد الله حجازى الشرقاوى ، مطبعة الحلبى ط الرابعة (١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م) .
٦٩) الحاوى للفتاوى . السيوطى ، مكتبة القدسي ، بدون بيانات .
٧٠) الحقيقة فى نظر الغزالى. د / سليمان دنيا . ط الرابعة ، دار المعارف ١٩٨٠م.
٧١) خلاصـة الأثـر فى أعـيان القرن الحادى عشر . محمد الأمين المحبى . (ت ١١١١ هـ) ط القاهرة (١٢٨٤ هـ) .
٧٢) خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل . البخارى محمد ابن إسماعيل ، مكتبة التراث الإسلامى ، القاهرة .
٧٣) درء تعارض العقل والنقل . انظر : (موافقة صحيح المنقول) ، ابن تيمية .
٧٤) دراسات فى العقيدة الإسلامية . د / محمد عبد الله الشرقاوى ، مكتبة الزهراء القاهرة (١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م) .

٧٥) دستور العلماء . القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكرى . ط الثانية مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت (١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م) .
٧٦) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمـام ابن تيميـة . جمع وتحقيـق وتقديـم د / محمد السيد الجليند ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط الثالثة (١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م) .
٧٧) دلائـل النبوة . أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى (ت ٤٣٠ هـ) مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون بيانات .
٧٨) دور الكـلمة فى اللغة . أولمان ، تعريب وتعليق د / محمد كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٨٨ م .
٧٩) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . د / عبد العزيز محمد الشناوى . مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٨٤ م .
٨٠) الـرازى وآراؤه الكلامية . الأستاذ الزركان ، محمد صالح ، ط دار الفكر ، بدون تاريخ.
٨١) الرد على المنطقيين . ابن تيمية ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ .
٨٢) رسالة الاحتجاج بالقدر . ابن تيمية ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى .
٨٣) رسـالة أهـل الثغر . أبو الحسن الأشعرى . تحقيق د / محمد السيد الجليند ، مطبعة التقدم ١٩٨٧ م .
٨٤) رفع التلبيس عمن توقف فيما كفر به إبليس . مرعى الكرمى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مجاميع تيمور (٨٠١) .
٨٥) رفع الشبهـة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصى بالقدر . مرعى الكرمى . قسم التحقيق من هذه الرسالة .

٨٦) رفع النقاب عن تراجم الأصحاب . الشيخ إبراهيم بن ضويان . مخطوط بدار الكتب المصرية (ح ٧٣٦٩) .

٨٧) رواشـق السهـام . مرعى الكرمى ، مخطوط بدار الكتب المصريـة ، المكتبة الزكية (٢٧٣) .

٨٨) الروح . ابن القيم . دار أبي بكر الصديق ، الإسكندرية ، بدون بيانات .

٨٩) زاد المعاد فى هدى خير العباد . ابن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وزميله مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الثامنة (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

٩٠) الزهاد الأوائل . د / مصطفى حلمى .

٩١) الـزهد . الإمام أحمد بن حنبل ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

٩٢) السـحب الوابلة على ضرائح السادة الحنابلة . الشيخ محمد بن عبد الله ابن حمـيد النجدى (ت ١٢٩٥ هـ) . مكتبة الإمام أحمد ، ط الأولى (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) .

- نسخة اخرى ، تحقيق د / بكر أبو زيد وزميله ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٩٣) السلسلة الصحيحة . للشيخ الألباني محمد ناصر الدين . المكتب الإسلامى ، بيروت ط الرابعة (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

٩٤) السلسـلة الضعيفة للشيخ الألباني ، منشورات لجنة إحياء السنة ، أسيوط ، ط الأولى (١٣٩٩ هـ) .

٩٥)سـنن أبى داود ؛ سليمان بن الأشعث السجستانى (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) ، دار الحديث القاهرة ، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) .

٩٦) سنن الترمذى ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ) ، دار الفكر بيروت (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م) .

٩٧) ســنن النســائي ، أبــو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ، دار المعرفة ، بيروت ، ط الأولى (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) .

٩٨) سنن ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي ، بدون تاريخ .

٩٩) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهــبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) ط التاسعة .

١٠٠) شذرات الذهب ، ابن العمــاد الحنبلــي ، دار الفكر ، ط أولى (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) .

١٠١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ط المعاهد الأزهرية (١٤٠٠ هـ - ١٩٩٠م)

١٠٢) شرح الأصول الخمسة ، القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي ، (ت ٤١٥ هـ) ، تحقيــق د / عقبد الكريم عثمــان ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط الثالثة (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م) .

١٠٣) شرح السنة ، البغوي الحسين بن مسعود الفراء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، وزهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، (١٤٠٠ هـ) .

١٠٤) شرح الشفا ، مُلاّ على القاري ، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ .

١٠٥) شــرح صحيح مسلــم ، النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُرِي ، دار الفتح الإسلامي ، الإسكندرية .

١٠٦) شــرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العزّ الحنفــي ، المكتب الإســلامي ، بيروت ، ط الثامنة ، (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) .

١٠٧) شرح العقائد النسفية ، سعـد الدين التفتازانى مسعود بن عمـر ، (٧٢٢ – ٧٩١ هـ) ، تحقيق د / أحمد حجازى السقـا . مكتبة الكليـات الأزهرية (١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م) .

١٠٨) شرح العقيدة الواسطية . الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، مكتبة طبرية ، الرياض (١٩٩٣ م) .

١٠٩) شرح الهدهدى على السنوسية ، محمد بن منصور الهدهدى . مطبعة الحلبى ، ط الرابعة (١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م) .

١١٠) الشـريعة . للآجرى أبو بكر محمد بن الحسين (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية ، ط الأولى (١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠ م) .

١١١) الشـفا . للقاضى عياض مع شرحه لملا على القارى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١١٢) شـفاء الصـدور فى زيارة المشاهد والقبور . للكرمى مرعى بن يوسف ، مخطوط .

١١٣) شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبى بكـر (٦٩١ – ٧٥١ هـ) ، دار الكتب العلميـة ، بيروت ، ط الأولى (١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م) .

١١٤) الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية ، الكرمى مرعى بن يوسف ، مخطوط .

١١٥) صحيح البخارى ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، دار الريـان للتـراث ، ط الثانية (١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م) .

١١٦) صـحيح مسـلم ، أبـو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى ، دار الفتح الإسلامى ، الإسكندرية .

١١٧) الصــلاة وحكم تاركها ، ابن القيم ، المكتبة القيمة ، ط الرابعة (١٤٠٧ هــ) .
١١٨) الصناعة الحديثية فى السنن الكبرى . د/ نجم عبد الرحمن خلف ، دار الوفاء ط أولى (١٤١٢ هــ - ١٩٩٢ م) .
١١٩) صيد الخاطر ، ابن الجوزى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
١٢٠) الضــعفاء والمتروكين للنسائى ، تحقيق : محمود إبراهيم زايد ، مطبوع مع الضعفاء الصغير للبخارى ، دار الوعي ، حلب ، ط الأولى (١٣٩٦ هــ) .
١٢١) ضــوء السارى فى معرفة رؤية البارى ، أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن ابــن إسماعــيل تحقــيق : د/ أحــمد عبد الرحمــن الشريف ، دار الصحــوة ، ط الأولى (١٤٠٥ هــ - ١٩٨٥ م) .
١٢٢) الضــوء اللامــع ، للســخاوى محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٢٠ هــ) ط القدسى ، القاهرة ، (١٣٥٣ هــ) .
١٢٣) عجائــب الآثار فى التراجم والأخبار ، عبد الرحمن الجبرتى ، تحقيق : حسن محمد جوهر وزميليه ، نشر لجنة البيان العربى ، (١٩٥٨ م) .
١٢٤) العقيدة الطحاوية ، أبو جعفر الطحاوى ، مطبوعة مع شرحها لابن أبى العزّ المكتب الإسلامى .
١٢٥) العقــيدة النظامية ، الجوينى إمام الحرمين ، تحقيق : محمد زاهد الكوثرى ، مطبعة الأنوار (١٣٦٧ هــ - ١٩٤٨ م) .
١٢٦)العقيدة الواسطية ، ابن تيمية ، ضمن مجموعة الرسائل .
١٢٧) العلــل ومعرفة الرجال ، الإمام احمد بن حنبل ، تحقيق : د/ وَصيّ الله ابن محمد عباس ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ط الأولى (١٤٠٨ هــ - ١٩٨٨ م) .

١٢٨) عـــلم الكـــلام : تعريفة وعوامل نشأته ، د/ عامر النجار ، دار المعارف ، ط الأولى (١٩٨٥ م) .

١٢٩) عـــنوان المجد فى تاريخ نجد ، عثمان بن بشر النجدى (ت ١٢٨٨ هـــ) ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

١٣٠)فـــتح الـــبارى شـــرح صحيح البخارى ، ابن حجر الحافظ أحمد بن على العسقـــلانى (٧٧٣ – ٨٥٢ هـــ) ، دار الريان للتراث ، ط الثانية ....

.. (١٤٠٩ هـــ – ١٩٨٨ م) .

١٣١) الفـــرق الإســـلاميـــة وأصولها الإيمانيـــة ، د/ عبد الفتاح أحمد فؤاد ، دار الدعوة ، الإسكندرية (١٩٩٧ م) .

١٣٢) الفَـــرق بـــين الفرِق ، البغدادى عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩ هـــ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية (١٤١٣ هـــ – ١٩٩٣م).

١٣٣) الفرقان بين الحق والباطل ، ابن تيمية ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى .

١٣٤) الفـــروق اللغويـــة ، أبو هلال العسكرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٣٥) الفصـــل فى الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم على بن أحمد ، مكتبة السلام العالمية ، القاهرة (١٣٤٨ هـــ) .

١٣٦) فصوص الحكم ، ابن عربى ، مع شرحه للقاشانى ، مطبعة الحلبى ، ط الثالثة (١٤٠٧ هـــ – ١٩٨٧ م) .

١٣٧) فقه العقيدة عند الشافعي وأحمد ، أ. د / أبو اليزيد العجمى ، دار الهداية ، ط الأولى (١٩٨٧ م) .

١٣٨) الفلسفـــة الصوفيـــة فى الإســـلام : مصادرها ونظرياقا ومكانها بين الدين والحياة . د / عبد القادر محمود ، دار الفكر العربى ، بدون تاريخ .

١٣٩) فهرس المخطوطات المصورة . منشورات معهد المخطوطات العربية .

١٤٠) فوائـد الارتحال ومعرفة السفر فى أخبار القرن الحادى عشر . مصطفى ابن فـتح الله الحمـوى الشافعي (ت ١١٤٣ هـ) ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ تيمور ، فلم (١٠٤١٦) .

١٤١) فـوات الوفيات ، محمد بن شاكر الكتبى ، تحقيق : د/ إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (١٩٧٣ م) .

١٤٢) القضـاء والقـدر فى الإسـلام . د / فاروق أحمد دسوقى ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .

١٤٣) قضـية التوحيد بين الدين والفلسفة ، أ . د / محمد السيد الجليند ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط الرابعة (١٩٨٦ م) .

١٤٤) قضية الخير والشر فى الفكر الإسلامى : أصولها النظرية – جوانبها التطبيقية أ . د / محمد السيد الجليند ، مطبعة الحلبى ، ط الثانية (١٩٨١ م) .

١٤٥) قطـر الندى وبل الصدى ، ابن هشام (٧٠٨ – ٧٦١ هـ) ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت (١٩٨٤ م) .

١٤٦) قواعـد المـنهج السـلفى ، أ . د / مصطفى محمد حلمى ، دار الدعوة ، الإسكندرية (١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م) .

١٤٧) الكاشـف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة ، الذهبى محمد بن أحمد ، تحقـيق : عـزت على عيد ، وموسى محمد على ، دار الكتب الحديثة ، ط الأولى (١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م) .

١٤٨) كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوى ، الهيئة المصريـة العامة للكتـاب ، تحقيق : د / لطفى عبد البديع (١٩٧٢ م) .

١٤٩) لسان العرب ، ابن منظور ، تحقيق : عبد الله على الكبير ، وزميليه ، ط دار المعارف .

١٥٠) لمحـات مـن الفكر الكلامى ، أ . د / حسن عبد اللطيف الشافعي ، دار الثقافة العربية (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) .

١٥١) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ، أبو الحسن الأشعرى ، (ت ٣٣٠ هـ) ، تحقيق : د / حمودة غرابة ، المكتبة الأزهرية للتراث (١٩٩٣ م) .

١٥٢) لوامع الأنوار البهية شرح الـدرة المضيـّة ، لمحمد السفّاريـنى ، المكتـب الإسلامى ، بيروت ، ط الثالثة (١٤١٣ هـ) .

١٥٣) المجـتمع المصـرى فى العصـر العثمانى ، د / ليلى عبد اللطيف أحمد ، دار الكتاب الجامعي القاهرة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

١٥٤) المجروحين ، ابن حبان ، تحقيق : محمود إبراهيم زايد ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٥٥) مجمـوع الفتاوى ، ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم وولده محمد ، دار التقوى ، بلبيس ، مصورة عن طبعة الرياض ، بدون تاريخ .

١٥٦) مجموعة الرسائل الكبرى ، ابن تيمية ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ط الثانية (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) .

١٥٧) المحلى ، ابن حزم أبو محمد على بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ) ، تحقيق : الشيخ أحمد شاكر ، دارالتراث ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٥٨) مختـار الصـحاح ، محمد بن أبي بكر الرازى ، ترتيب محمود خاطر ، دار الحديث .

١٥٩) مختصر التحرير فى أصول فقه السادة الحنابلة ، ابن النجار محمد بن أحمد ابن عبد العزيز الفتوحي ، مكتبة ابن تيمية ، ط الأولى (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) .
١٦٠) مختصـر الصواعق المرسلة لابن القيم ، اختصرها محمد بن الموصلى ، مكتبة المتنبى ، القاهرة .
١٦١) مختصر العلو للعليّ الغفار للذهبى ، اختصار الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط الأولى (١٤٠١ هـ) .
١٦٢) المدخـل إلى دراسة علم الكلام ، أ . د / حسن الشافعـي ، مكتبة وهبة ، ط الثانية (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) .
١٦٣) مذكرة أصول الفقه ، الشيخ محمد الأمـين الشنقيطـى ، المكتبة السلفيـة بالمدينة المنورة ، بدون تاريخ .
١٦٤) المسـائل الخمسـون فى أصول الدين ، الرازى فخر الدين محمد بن عمر ، (٦٠٦ هـ) تحقـيق : د / أحمد حجازى السقا ، المكتب الثقافى ، القاهرة ، ط الأولى (١٩٨٩ م) .
١٦٥) مسبوك الذهب فى فضل العرب ، الكرمى مرعي بن يوسف ، مخطـوط .
١٦٦) مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، مصورة عن الطبعة الأولى ، مع فهرسة للصحابة الرواة فى المسند وضع الشيخ الألباني ، بدون تاريخ .
١٦٧) معـارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد ، الشيخ حافظ بن أحمد حكمي ، مكتبة حميدو ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .
١٦٨) معجم اصطلاحات الصوفية ،ابن عربى ، تحقيق : بسام عبد الوهـاب الجابى دار الإمام مسلم ، بيروت ، ط الأولى (١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م) .
١٦٩) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، فينسينك ومجموعة من المستشرقين مطبعة بريل فى مدينة ليدن ، (١٩٣٦ - ١٩٦٩ م) . مصورة عن هذه الطبعة .

١٧٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقى ، دار الحديث القاهرة ، ط الثالثة (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) .
١٧١) معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
١٧٢) المغنى فى أبواب العدل والتوحيد ، القاضى عبد الجبار المعتزلي ، تحقيق : أحمد فـؤاد الأهـوانى ، مراجعة د / إبراهيم مدكور ، وزارة الثقافة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ط الأولى (١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م) .
١٧٣) مفاتـيح الغيـب ، الفخر الرازى ، دار الفكر ، بيروت (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م) .
١٧٤) مفتاح كنوز السنة ، وضع فينسينك ، تعريب : محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) .
١٧٥) مفـردات القـرآن ، الراغـب الأصفهانى ، تحقيق : محمد سيد كيلانى ، ط الحلبى الأخيرة (١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م) .
١٧٦) مقـالات الإسلاميـين واختلاف المصلين ، أبو الحسن الأشعرى ، تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت (١٤١١ هـ - ١٩٩٠م)
١٧٧) مقدمة ابن خلدون ، مطبعة الشعب ، بدون تاريخ .
١٧٨) مقدمة ابن الصلاح ، الحافظ أبو عمر وعثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى (ت ٦٤٢ هـ) ، مكتبة المتنبى ، بدون تاريخ .
١٧٩) مقدمة دقائق التفسير ، أ . د / محمد السيد الجليند ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط الثالثة (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) .
١٨٠) مقدمـة رفـع الأستار عن أدلة القائلين بفناء النار للصنعانى ، تقديم الشيخ محمـد ناصر الدين الألبانى ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ط الأولى (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م) .

١٨١) مقدمـــة مشـــكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ، ليحيى بن حمزة العلوى ، تقديم أ . د / محمد السيد الجليند ، الدار اليمنية للنشر والتوزيع .
١٨٢) الملـــل والـــنحل ، الشهرستانى محمد بن عبد الكريم ، تحقيق : محمد السيد كيلانى ، طبعة الحلبى (١٣٩٦ هـــ - ١٩٧٦ م) .
١٨٣) من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة ، أ . د / محمد السيد الجليند ، مكتبة الشباب ، القاهرة (١٩٨٩ م) .
١٨٤) من قضايا علم الكلام فى ضوء الكتاب والسنة ، أ . د / محمد السيد الجليند مكتبة الزهراء ، القاهرة (١٤٠٩ هـــ - ١٩٨٩ م) .
١٨٥) المنجد فى الأعلام ، المطبعة الكاثوليكية ، دار المشرق ، بيروت ، ط السابعة (١٩٧٣ م) .
١٨٦) مـــنظومـــة نخـبـــة الفكـــر للصنعـــانى ، مكتبـــة ابن تيمية ، ط الأولى (١٤١٣ هـــ - ١٩٩٣ م) .
١٨٧)منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية ، ابن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .
١٨٨) المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج ، انظر شرح صحيح مسلم .
١٨٩) منهج الأشاعرة فى العقيدة ، د / سفر الحوالى ، مكتبة العلم ، القاهرة .
١٩٠) موطأ الإمام مالك بن أنس ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة الشعب .
١٩١) نجـــاة الخلـــف فى اعـــتقاد الســـلف ، ابن قائد النجدى ، تحقيق : أ . د / أبو اليزيد العجمى دار الصحوة ، القاهرة (١٤٠٥ هـــ - ١٩٨٥ م) .
١٩٢) النظام وآراؤه الكلامية . د / محمد عبد الهادي أبو ريدة .
١٩٣)نظرية المنطـــق بين فلاسفة الإســـلام واليونان ، أ . د / محمد السيد الجليند مكتبة الزهراء ، القاهرة (١٤٠٧ هـــ - ١٩٨٧ م).

١٩٤) نظـم المتـناثر فى الحديـث المتواتر ، الكتـانى أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتانى ، دار الكتب السلفية ، ط الثانية (١٩٨٣ م) .

١٩٥) النعـت الأكمـل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل ، محمد بن محمد الغزي العامـرى (ت ١٢١٤ هـ) ، تحقيق : محمد مطيع الحافظ ، ونزار أباظة ، دار الفكر (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م) .

١٩٦) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، محمد أمين المحبى (ت ١١١١ هـ) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط الأولى (١٣٨٧ هـ) .

١٩٧) نقد تأسيس الجهمية ، ابن تيمية ، تحقيق : محمد بن عبد الرحمن بن قاسم .

١٩٨) هدية العارفين ، إسماعيل باشا البغدادى ، مطبوع مع إيضاح المكنون ، دار الفكر ، بيروت (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م) .

١٩٩) الوابـل الصـيب ، ابـن القـيم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط الأولى (١٤٠٨ هـ) .

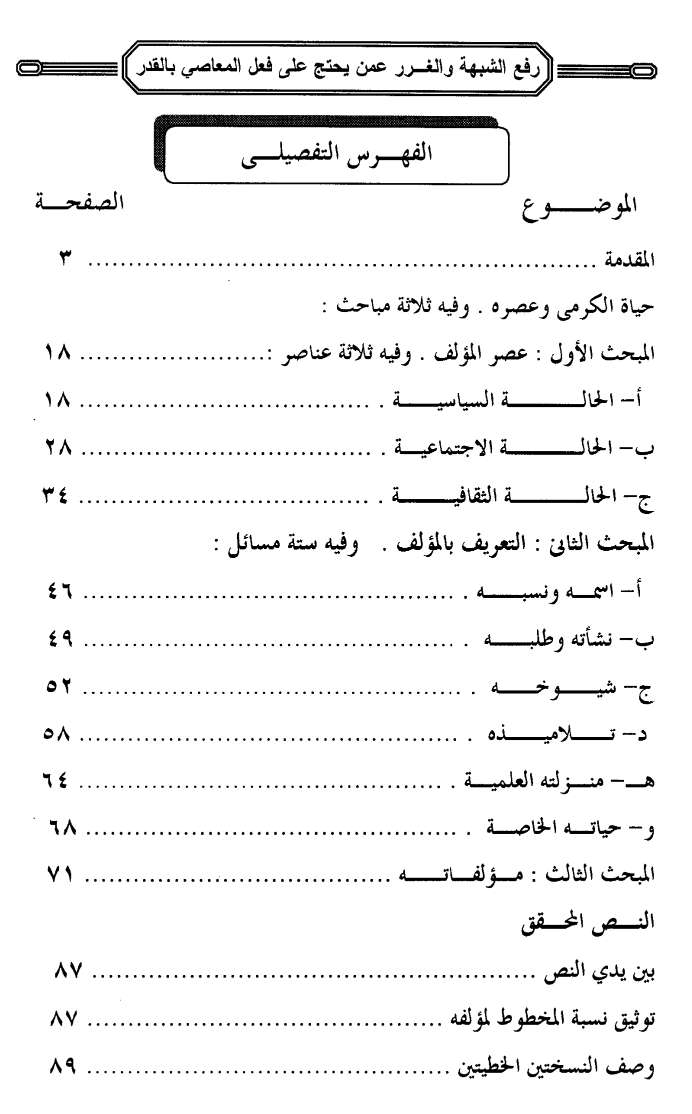
٢٠٠) الوجـيز فى أصـول الفقه ، د / عبد الكريم زيدان ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط الأولى (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م) .

الصف والإخراج الداخلي

عاطف سعد عنتر

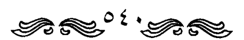
مصر - الغربية - سمنود

٠٤٠ / ٢٩٦٣٧٣٧



الفهــرس التفصيلــي

الموضــــوع — الصفحــة




I.P.C
المركز الدولي
للطباعة
012/7930415
012/4179887